

العصر

مركز العصر للدراسات الاستراتيجية والمستقبلية

هُدًى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فِي جِهَادِ الْمُتَافِقِينَ

الشيخ الدكتور
عبد الستار بن جبار بن شكر الجبالي

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

هدى النبي صلى الله عليه وسلم
في جهاد المتافقين

عبد الستار بن جبار بن شكر
الشيخ الدكتور



أهدى النبي صلى الله وسلم

في جهاد المنافقين

الشيخ الدكتور
عبدالستار بن جبار بن شكر الجنابي

بغداد

١٤٣٧ھ - ٢٠١٦م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ



وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا



الفرقان: ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَالَتِي

إن الحمد لله نستعينه ونستعديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهدي الله فلا مضلّ له ، ومن يضلّل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُونَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ آل عمران: ١٠٢

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ النساء: ١

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ الأحزاب: ٧٠ - ٧١ .

أما بعد :

هدي النبي ﷺ في جهاد الكفار والمنافقين زاد نافع للدعاة والمجاهدين ، يُشحذ هممهم ويقوي عزائمهم ؛ إذا وقفوا على الجهود العظيمة التي بذلها ﷺ مع أولئك المنافقين الذين كانوا معه في حله وتزحاله .

في هذا المنهج النبوي الحكيم (منهج جهاد المنافقين) من الفوائد العظيمة ما يُغني الدعاة والمجاهدين ، ويوفقهم لما فيه خير الدعوة والجهاد ، ويعود عليهم بالثمرات العظيمة ، كما يجنبهم المفساد والثمرات الضارة، والخبيثة .

✽ والدارس الواعي لمنهج النبي ﷺ في جهاد الكفار عامة ، والمنافقين خاصة ، يعلم أن الله ﷻ كان يوجه نبيه ﷺ كي يتتقى أعظم الأساليب والمناهج ، وأفضل الخطابات ، والاختبارات ، والأولويات ما يراعي به طبيعة المخاطب ، ومكانته عند قومه ، وخلفيته العقائدية أو الفكرية ، والأخلاقية . وهذا يستلزم معرفة أحوال الناس والرجال ، وعشائهم ، وطبائعهم . وكان ﷺ يُراعي كذلك طبيعة المخاطب ؛ من حيث كونه معانداً للدعوة ، محارباً للدين ، أو غير محاربٍ ، ولا معاند .

✽ فقد جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى : " فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة ، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة ، وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب ، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن .

✽ وهذا ما يعرف عند الدعاة وأهل العلم بـ (مراعاة أحوال المخاطبين) وهو زاد نافع لكل داعية لما فيه من اختصار للوقت والجهد ، ولاختيار أفضل الطرق والوسائل وأعد لها وأصوبها وأيسرها في الدعوة إلى الله تعالى .

✽ كان ﷺ في جهاده للمنافقين وللكافرين يفعل ذلك كله وفقاً لميزان شرعي ، ويقدم أعظم المصالح عند تعارضها ، ويدرك أعظم المفساد عند تزاحمها ، دون إخلال بالثواب الشرعية ، والعرى الوثقى ، والأركان الركينة للدين والتوحيد والولاء والبراء .

✽ ففي قتل المنافقين واستئصالهم مصلحة ظاهرة للمسلمين ، وتطهير لصفهم من أن تندس إليه عناصر التخذيل والإفساد . لكن لما كان ذلك هزاً لثقة المسلمين ، وزرعاً لمقالة السوء بينهم ؛ بحيث ينتشر بين الناس أن النبي ﷺ يعامل الذين يعتنقون دينه بالقتل والتصفية الجسدية ، فإن الأمر تغير ، وأصبح التغاضي عن قتلهم مصلحة أعلى وأولى من المصالح الأخرى التي تتأتى من استئصالهم .

✽ وعلى الرغم من أن بقاء المنافقين فيه من المفساد المحققة ما لا يُنكره عاقل ، إلا أن في القضاء عليهم مفساد تفوق بقاءهم ؛ لذا اقتضت حكمة النبي ﷺ في جهاد هؤلاء المنافقين أن تُدفع المفسدة العظمى بالمفسدة الصغرى .

✽ كما جاء في الصحيحين : عندما استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قتل عبدالله بن أبي بن سلول المنافق ، فقال له النبي ﷺ : " دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه " وقال أيضاً : " إذن ترعد له أنف كثيرة " وقال أيضاً : " أكره أن تقول العرب : " لما ظفر بأصحابه أقبل بقتلهم " .

✽ ففي هذه الأحاديث دلالة واضحة على أن النبي ﷺ ترك قتل هذا المنافق ، مع ما في قتله من المصلحة ، ولكن قتله سيفضي إلى مفسد أعظم وأكثر من المصلحة المترتبة على قتله ، فإنه بقتله ربما يغضب بعض قومه ، وربما أدى ذلك إلى ردة بعضهم عن الإسلام غضباً له وحمية ، ثم إذا شاع خبر قتله بين الناس فسيقولون : أن محمداً يقتل أصحابه ، لأن هذا المنافق محسوب على المسلمين وبالتالي سيكون في ذلك صد عن الإيمان برسول الله ﷺ ، وعن تصديقه واتباعه ، بسبب تلك الشائعة فيكون ذلك سبباً للفتنة .

✽ هذه الحكمة السياسيّة وتدبير الأمور أثمرت عن نتائج عظيمة ، فكان عبد الله بن أبي ابن سلول بعد ذلك كلّما أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه ، ويعتفونه ، ويعرضون على النبي ﷺ قتله ، فيأبى ﷺ ذلك ، ويصفح عنه . وأراد ﷺ أن يكشف الحوق عن آثار سياسته الحكيمّة ، حينما قال لعمر رضي الله عنه : (كيف ترى يا عمر ؟ أما لو قتلته اليوم يوم قُلت لي لأرعدت له أنف ، لو أمرتها اليوم لقتلته) فقال عمر رضي الله عنه : " قد والله علمتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري " . فكان للسياسة الحكيمّة للنبي ﷺ مع هذا المنافق أثر كبير في الحدّ من شروره .

✽ فكانت أيضاً من ثمرات السياسة الشرعية الحكيمّة للنبي ﷺ هي :

* المحافظة على المجتمع المسلم .

* الحرص على وحدة الصف وحرصه ﷺ على عدم حصول أي فتنة في مجتمع المؤمنين مع عدم السكوت عن الباطل وأهله ، أو إقراره .

* بقي الصف المسلم موحداً ، وتم القضاء على فتنة المنافقين بالأساليب النبوية الحكيمة .

* ظهرت حكمته ﷺ بوضوح في معالجة المواقف العصيبة في حزم وقوة وبعد نظر وسعة أفق ، واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب .

* هذا هو المنهج ، هذه هي الحكمة الحكيمة السديدة الموجهة من أحكم الحاكمين ، أدت إلى قتل المنافقين معنوياً، دون الحاجة إلى قتل أيٍّ منهم حسيّاً .

* كما إنه ﷺ - بعد نزول سورة (التوبة)- نهج ﷺ منهجاً حكيماً آخر مع المنافقين ، بتوجيه من الله تعالى ؛ إذ يخاطبُ النبي ﷺ ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التوبة: ٧٣)

* فصار جهاد المنافقين كجهاد الكفار سواءً بسواءٍ .

* فجهاد المنافقين إذن : إذا أظهروا الكفر الجلي ، بقولٍ ، أو فعلٍ . أي : يُجاهدوا مثل جهاد الكفار ، يبدأ بالقلب ، وينتهي بالسيف .

* وكذلك قول أمير المؤمنين علي عليه السلام^(١) : "بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعَةِ أَسْيَافٍ :

سيفٍ للمشركين : ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (التوبة: ٥)
وسيفٍ للكفار من أهل الكتاب : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا

(١) الطبري : التفسير (١٢٧/٦) ؛ ابن كثير : التفسير (٤٠٨/٢) .

يُحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا
 الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴿التوبة: ٢٩﴾ وسيف للمنافقين : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّيُّ جَهْدِ
 الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴿التوبة: ٧٣﴾ وسيف
 للبغاة من هذه الأمة : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
 عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ
 يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴿الحجرات: ٩﴾

﴿ وروي عن عبد الله بن مسعود ؓ ما يؤيد هذا المعنى ؛ إذ قال : "إن الله أمر
 نبيه ﷺ من جهاد المنافقين بالنحو الذي أمره من جهاد المشركين" .

﴿ لقد أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بجهاد المنافقين مع الكفار ، فقال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا
 النَّيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴿التوبة: ٧٣﴾

﴿ وهذه الآية الكريمة لم تفرّق بين جهاد الكفار ، وجهاد المنافقين ؛ فدل ذلك
 على أن المنافقين إذا عرفوا يُجاهدون بالسيف ؛ كالكُفَّار .

قال ابن رجب الحنبلي : "والذي يظهر : أن في القرآن أربعة سيوف ، سيفٌ على
 المشركين حتى يسلّموا أو يُؤسروا ، فإمّا متاً بعد وإما فداءً ، وسيفٌ على المنافقين ،
 وهو سيفُ الزنادقة ، وقد أمر الله بجهادهم والإغلاظ عليهم في سورة براءة ، وسورة
 التحريم ، وآخر سورة الأحزاب . وسيفٌ على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، وسيفٌ
 على أهل البغي ، وهو المذكور في سورة الحجرات" .

وهذا ما سنوضحه في بحثنا هذا بإذن الله تعالى .

✽ إن مقاصد الشرع الحكيم والتي حققتها السياسة الشرعية الحكيمة للنبي ﷺ في جهاده للمنافقين والتي ينبغي تعلمها هي :

- الحث على تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفساد وتقليلها .
- اتقان قاعدة المصالح والمفاسد .
- اتقان قاعدة اعتبار المآلات ، ونتائج التصرفات في التعامل مع المنافقين .
- اتقان قاعدة فقه الأولويات والموازنات .
- درء المفساد مقدم على جلب المصالح .
- إذا تعارضت المصالح والمفاسد قدم الأرحح منها على المرجوح .
- إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمها ضرراً بارتكاب أخفهما .
- يجوز ارتكاب أخف الضررين لاجتناب أشدهما .
- لا يزال المنكر بما هو أنكر منه .
- لا يزال الضرر بالضرر . (لا يزال المنكر بالمنكر) .
- الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف .
- يحتمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام .
- وما أحسن ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : " الرسول ﷺ بعث بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفساد وتقليلها " .

ويمكن إجمال أهم مبررات اختيار هذا الموضوع في التالي :

١- عنوان كتابنا هذا " هدي النبي ﷺ في جهاد المنافقين " يعتبر تامة لا بد منها لكتابنا السابق (أساليب المنافقين في محاربة المسلمين في القرآن الكريم) حين ذكرنا أساليب المنافقين كان لزاماً علينا تبيان هديه ﷺ في مواجهة هذه الأساليب ، وهذا ما يسره الله تعالى لنا في هذا الكتاب .

٢- لم أعرف أن أحداً كتب في هذا الموضوع بعينه ، فأردت أن أكتب فيه ؛ رجاء مشاركة الباحثين في الدعوة إلى الله .

٣- ولولا المنافقون في الداخل ، ما استطاع علينا العدو من الخارج ، فالمنافقون من الصفويين والباطنيين والصحوات وغيرهم من الخونة ، كانوا وما زالوا حميراً لليهود وللأمريكان يركبون عليهم في كل فتنة، ورأينا ذلك في العراق. إن أحقر الناس هم اللذين أعانوا الكفار على احتلال بلادهم . ويجب أن يعلم أن النفاق شقيق الكفر ، إلا أنه أكثر ضرراً على الإسلام وأهله . فمع أن الكفار يشكّلون خطراً مباشراً على الإسلام والمسلمين ؛ إلا أن المنافقين أشد خطراً منهم ، وبليّة الأمة بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ، ونكبتها بهم تسبق كلّ النكبات .

٤- أن الله تبارك وتعالى حذرنا منهم أشد الحذر ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ ﴾ المنافقون: ؛ أي : إنهم أحق أن يكونوا لكم عدواً من الكافرين المجاهرين ؛ لأنهم عيون الأعداء على المسلمين ، بل هم عيونهم وألستهم. لذلك ذكر الله تعالى المنافقين في ثلاث عشرة آية من سورة البقرة ، في حين لم يذكر الكفار سوى في آيتين فقط . وقد بلغت الآيات الواردة في النفاق والمنافقين أكثر من ثلاثمائة وأربعين آية ، موزعة على عشرين سورة من سور القرآن الكريم .

٥- يخطئ كثيراً مَنْ يعتقد أن النفاق الذي أفاض القرآن الكريم في الحديث عنه ، وأسهب في التحذير منه ؛ كان يمثل مرحلة تاريخية انقضت بدخول الناس في دين الله أفواجاً . فالعصر الذهبي للبشرية الذي شهدته الأرض أيام الرسالة الخاتمة ، لم يخل من مؤامرات المنافقين على المسلمين ، فهل تُعصم منه العصور اللاحقة ؟

٦- من المؤسف أن كثيراً من المسلمين لا يشعرون بهذا الخطر العام . وقد أسف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لهذا من قبل ؛ لأن الأمة في عصره نُكبت أيضاً باحتلال التتار بلاد المسلمين ، وبمعونة المنافقين ، فقال : (فإن كثيراً من المتأخرين ما بقي للمُظْهِرين للإسلام عندهم إلا عدلٌ أو فاسقٌ ، وأعرضوا عن حُكْمِ المنافقين)^(١)

٧- أن المنافقين يشتركون مع الكفار والمشركين في معاداة الإسلام والكيدهم للمسلمين ؛ بل إنَّ خطرهم أكبر وأعظم على الإسلام وأهله لأنهم يندسون في صفوف المسلمين ويتسمون بأسمائهم ويلبسون ثيابهم ويقفون في صفوفهم ، ثم يطعنون المسلم في ظهره ، فهم أمكن منه من الكفار والمشركين . والمنافقون في العراق هم اللذين أعانوا ومكنوا التحالف الصفوي الصليبي على احتلال البلاد فدعم منافقوا الولي الفقيه احتلال أمريكا لبغداد .

٨- أن النفاق قرين الكفر ؛ إلا أنه أكثر ضرراً على الإسلام والمسلمين من الكفر . فالكفر واضحٌ ومميّزٌ أهله ، ومعروفٌ داره ؛ لكن النفاق هو الخطر

^(١) أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن عبد الحلیم الحراني (ت ٧٢٨هـ) ، مجموع الفتاوى ، (ط ١) ، بيروت دار الكتب العلمية ، ١٩٨٩ ، (٢١٢ / ٧) .

الدِّفين ، والعدو اللدود ، والسُّم المدسوس في العسل ، وهو العقبة الكؤود ، والأفعى المتربصة ، وعقرب المكر والخبث .

فهو الذي يُقلِق ويُخلِجِل الصِّف ، ويُضعِف البنيَّة ، ويوجب الحذر ، ويحتِّم بذل الجهد لتعرية الباطل وأهله ، وتوعية المسلم ونُصحته ، والتكاتف من أهل الحق والتوحيد لحماية هذا الدين ، وحرصاً على المسلمين ، وسُخْطاً للمنافقين أعداء الدين ، وفضحهم في كل مكان ، ليحذر منهم كل مسلم عاقل غيور على الدين ، محبِّ لسنة نبيه ﷺ ، وموَالٍ لدينه وللمؤمنين ، ومعادٍ ومُتبريٍّ من كل منافق فاسقٍ ، خارجٍ عن الدين .

٩- دورهم في المصائب التي حلَّت بأمة الإسلام ؛ المتمثلة في :

أ- فاجعة الاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق ؛ حيث برز دور المنافقين الجبناء في احتلال كلتا الدولتين . وأيقنت الأمة الإسلامية أن العدو الكافر لوحده عاجز عن أن يواجه المسلمين أو يحرز أي انتصار ما لم يكن مسنوداً من هؤلاء المنافقين ، الماكثين داخل أوطان المسلمين ، المتسمِّين بأسماء المسلمين ، وأفعالهم حرباً على الإسلام والمسلمين .

ب- الفتن والمآسي في عصر صدر الإسلام . فمنذ أن اختار عبد الله بن أبي بن سلول طريق النفاق سارت فيه من بعده أفواج المنافقين عبر التاريخ ؛ من أمثال : عبد الله بن سبأ ، وميمون القداح ، وابن العلقمي ، وكمال أتاتورك ... ولا زال طريق النفاق يعجّ بالمنافقين إلى يومنا هذا . وقد كان دور المنافقين والباطنيين واضحاً في مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ سنة (٢٣هـ) ثم مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ سنة (٣٥هـ) وأحداث الفتنة الكبرى من بعده .

ج- بروز فكرة (التشيع) فللمنافقين دورٌ كبيرٌ في نشر فكرة تأليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، وتأليه مَنْ بعده من سلالته . من خلال مكيدة باطنية نفاقية ، دسها اليهودي الذي تستر بالإسلام ، المنافق : عبد الله بن سبأ . المشهور بـ(ابن السوداء) ، لأن أمه كانت ذات جلد أسود . وعن ابن سبأ هذا أخذ غلاة الشيعة أفكارهم الكفرية ، وهي موزعة في فرقهم . وزادوا عليها كفراتٍ وضلالاتٍ ، وإباحياتٍ وإلحاداً . فكثير منهم يؤلّهون علياً والأئمة من بعده .

✽ إنّ مكيدة ابن سبأ هذا ليست مكيدة شخص واحد ؛ بل هي مكيدة يهودية ذات أطراف متشعبة ، يبرز منها بعض الأطراف ، وتختفي أطراف أخرى كثيرة ؛ على طريقة المنظّمات الباطنية السرية ، التي أخذت تنشر معظم الحركات الباطنية الهدامة ، والسياسات ذات الولاء لأعداء الإسلام والمسلمين في كثير من بلدان العالم الإسلامي . فهم يتحركون وفق أوامر الأعداء .

د - ظهور الحركات والمبادئ الشركية الباطلة : البهائية ، والبابية ، والقاديانية ، والإسماعيلية ، والصفوية ، والنصيرية ، والحوثية ، والعبودية ، والحركة القرمطية التي أجمع علماء المسلمين سلفاً وخلفاً على كفرهم وزندقتهم ونفاقهم . فكل هذه الحركات والمذاهب الهدامة جاءت من تحت عباءة المجوسية ، والزرادشتية (أصل النفاق) وكل ذلك كان كيداً للإسلام والمسلمين .

هـ- تقويض بنیان الدولة الإسلامية . فقد كان للمنافقين دورٌ خطيرٌ خبيثٌ في تقويض الدولة الإسلامية في الأندلس ، وإخراج المسلمين منها ؛ في أعظم نكبة أصيب بها المسلمون خلال تاريخهم الطويل . نتيجة تعاون المنافقين مع الصليبيين .

و- ولولا خيانة الصفويين الباطنيين للخلافة العثمانية وضربها من الخلف لفتح العثمانيون أوروبا كلها ولتحولت أوروبا إلى قارة إسلامية .

كما قال المستشرق النمساوي فرناندو : " لولا الصفويون في إيران لكنا اليوم في بلجيكا وفرنسا نقرأ القرآن كالجزيين " .

ز - كما كان للمنافقين دورٌ خطيرٌ في معاونة التتار ضد الدولة الإسلامية ، وإسقاط الخلافة العباسية ؛ لأن بعضهم تسلل إلى مراكز خطيرة في الدولة الإسلامية ، واستطاع أن يكسب (تقيةً) ثقة الخلفاء والسلطين . فلما تمكّن خان الأمة ، وطعنها طعنة خبيثة من الخلف ، وأوقع في المسلمين شرّاً عظيماً : ذبحاً وتقتيلاً ، وتحريقاً ، وتخريب عُمرانٍ ، وإفساداً في الأرض ، ودعوةً إلى الإباحية ، واستدعاءً لجيوش أعداء الإسلام . كما فعل ابن العلقمي والطوسي ، عندما سلّموا بغداد إلى هولاء عام (٦٥٦هـ)

✽ كما لعب أحفاد ابن سلول ، وابن سبأ ، وابن العلقمي ، والطوسي دوراً خطيراً عام (٢٠٠٣م) في تسليم عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد للصليبيين واليهود ولإيران الصفوية . ومثل ذلك فعلوا في أفغانستان ، وسوريا ، واليمن ، ولبنان ، وفلسطين ، ودول الخليج العربي .

١٠- أن المنافقين خبثاء النفوس ، جنّدوا أنفسهم جواسيس وعيوناً للأعداء الضّرحاء ؛ يسرقون الأخبار والأسرار من مجتمع المسلمين ، ثم ينقلونها لأعدائهم ، مقابل أجورٍ ومنافعٍ دنيويةٍ باعوا فيها دينهم وشرفهم ، وآخرتهم بعرضٍ يسيرٍ من الدنيا .

١١- أن هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا من الكافرين أولياء لهم ؛ قد أسلموا أمة الإسلام وأخضعوها للكافرين ، ومكّنوا الكافر المحتل من استلاب الأمة

حضارياً ، واقتصادياً ، وثقافياً ، والتحكّم فيها سياسياً . كل ذلك في غيبة الحكم بدين الإسلام ؛ حيث إنهم هم الذين عملوا -قبل الأعداء- على محاربتة ، ومحاربة أهله ؛ بالأصالة عن أنفسهم حيناً ، وبالنيابة عن الأعداء أحياناً .

١٢- أنّ جهاد المنافقين أفضل من جهاد الكفار ، وهو جهاد الخواص من الأمة وورثة الرسل . والقائمون به ، والمشاركون فيه ، والمعاونون عليه ؛ وإن كانوا الأقلين عدداً فهم الأعظمون عند الله قدراً . لذلك كان لرسول الله ﷺ الحظ الأوفر من جهاد المنافقين ، وكذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم من بعده .

❁ كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى " ومن أفضل الجهاد جهاد المنافقين في زمن الغربة " .

من هنا كان لزاماً عليّ الاقتداء بالنبي ﷺ الذي أمره الله تعالى بجهاد المنافقين ، والغلظة عليهم بقوله ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (١) التحريم: ٩ وكانت هذه الآيات ومثيلاتها آخر ما نزل بشأن المنافقين ، ونُسخت آيات العفو والصفح عنهم . كما سنبين ذلك في هذا البحث . فكانت رغبتني في كتابة هذه الرسالة هي رغبة تعبدية ؛ لدراسة موضوع عقائدي يتعلق بالإسلام عقيدةً ، ودعوةً ، ومنهج حياةً . وتأسياً برسول الله ﷺ داعياً ، ومرتبياً ، ومجاهداً في سبيل الله .

ولأنّ الله تعالى أوجب علينا نصرة دينه ، وإظهار حجته : جعلتُ هذا البحث موضوعاً لأطروحة الدكتوراه التي نالت درجة الامتياز بفضل الله تعالى .

أسأل الله تعالى أن ينصرنا ويثبت أقدامنا ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) محمد: ٧. وأن يجعلنا من الطائفة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : (لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرين) ^(١)

✽ قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بابطين : " وليس المراد الظهور بالسيف دائماً ؛ بل بالحجة دائماً ، وبالسيف أحياناً " ^(٢) .

وقد حرصت في هذا البحث على الإكثار من الأدلة من الكتاب والسنة ، وأقوال العلماء المشهود لهم بالفضل ؛ لأن شبة المنافقين مدعومة ومبرزة من قبل وسائل الإعلام في عصرنا الحاضر ، لأمر يراد ! ولأن اغلب وسائل الإعلام بأيدي الكافرين والمنافقين .

✽ منهج البحث ومصادره :

سلكت في إعداد هذا البحث المنهج التالي :

١- قمت بتوثيق الأحداث والشواهد ؛ مقدماً في ذلك الآيات القرآنية حيناً ، فالحديث النبوي الشريف . أو السير حيناً آخر . فالمغازي ، والطبقات ، والتاريخ . مع ذكر ما يشملها من القرآن الكريم . حيث كان القرآن الكريم المصدر الأول في توثيق الأحداث في جميع فصول الأطروحة ؛ مسترشداً في ذلك بكتب التفسير للقرآن .

ومن هذه الكتب :

^(١) البخاري ؛ هو : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، الجعفي (ت ٢٥٦هـ) الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه المعروف بـ (صحيح البخاري) (٦/٢٦٦٧) ح (٦٨٨١) تحقيق : مصطفى ديب البغا (ط ٣ ، بيروت ، دار ابن كثير ، ١٩٨٧م)
^(٢) بابطين (ت ١٢٨٢هـ) الرسائل النجدية (٨/٢٢٨) (ط ١ ، القصيم ، دار البشائر ، ١٤٠٥هـ) .

✧ جامع البيان في تأويل آي القرآن :

للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) وتفسيره يُعدّ عمدة التفاسير وأوثقها ؛ لأن الطبري يذكر الروايات بأسانيدَها ، ويذكر الأحكام الفقهية الواردة فيها ، وأقوال العلماء ، ومذاهبهم . ويختار أحدها ويرجّحه بالأدلة العلمية ، ويذكر إجماع الأمة ضمن ما يرجح من الأقوال . فالإمام الطبري إمام مجتهد ، مُطلِّق ؛ يرجع المفسرون إلى أقواله .

✧ الجامع لأحكام القرآن :

للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرَح ، الأنصاري ، الخزرجي ، القرطبي (ت ٦٧١هـ) وتفسيره من أجل التفاسير التي قامت على أساس فقهي ، جمع فيه ما قاله علماء التفسير الذين سبقوه ؛ حتى كان حصيلةً جامعةً للمذاهب الفقهية الحاكية لأقوال السلف . فهو موسوعةٌ تفسيرية قيّمة ، لا يُستغنى عنها .

✧ تفسير القرآن العظيم :

للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، الزُّرعي ، القرشي ، الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) وتفسيره من أشهر التفاسير المعتمدة بالتفسير بالمأثور ، ويأتي بالمرتبة الثانية بعد تفسير الطبري . وهو كذلك يعتني بالرواية ، وتفسير الآيات بالأحاديث والآثار مُسنّدةً إلى أصحابها . كما يهتم بتصحيح الروايات وتضعيفها ، وذكّر الأحكام الفقهية وأقوال العلماء عند تفسيره لآيات الأحكام ؛ ولكن دون إسهاب .

٢- اعتمدت على كتب الحديث الصحيحة ، مع تخريجها في الهامش . ومن

هذه الكتب :

✧ صحيح البخاري :

واسمه : الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ ، وسننه وأيامه . للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، الجعفي ، مولاهم ، البخاري (ت ٢٥٦هـ) ويعدّ كتابه أصحّ كتاب بعد القرآن الكريم . مع شرحه (فتح الباري) لخاتمة الحفاظ الإمام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر ، الكناني ، العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) وشرحه هذا يعدّ من أشهر الشروح ، وأكثرها فائدةً ، وعلماً ، ولما طلب من الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى شرح صحيح البخاري قال : " لا هجرة بعد الفتح " .

☆ صحيح مسلم :

للإمام مسلم بن الحجاج ، القشيري ، النيسابوري (ت ٢٦١هـ) ويأتي في المرتبة الثانية بعد صحيح الإمام البخاري . مع شرح الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف الدمشقي النووي (ت ٦٧٦هـ) وهو لا يقل أهمية عن فتح الباري .

كما اعتمدت على كتب الحديث الأخرى ؛ في حال عدم ورود الحديث في الصحيحين .

٣- حاولت تعزيز روايات السير ؛ بالإشارة إلى مظانها في كتب الحديث . فإن لم أجد أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ في الحادث ، عدلتُ إلى كلام أرباب السير والتاريخ بعد تحقيق وتوثيق مروياتهم . ومن هذه الكتب :

☆ السيرة النبوية :

للإمام محمد بن إسحاق بن يسار ، المدني (ت ١٥٠هـ) و كتابه في السيرة يعد المصدر الأهم والأساس في هذا الفن . وكلُّ من أتى بعده فهو عالٌّ على كتابه . ومما يُؤسَف له أن هذا الكتاب لم يصلنا بصورته الأصلية ، وإنما وصلنا منه ما هدَّبه أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ) ومع هذا ؛ فلا تزال مادته العلمية غزيرة الفوائد ، بعد أن حذَف منه بعض الأخبار وأشعارها .

☆ مختصر السيرة النبوية :

للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، النمري ، القرطبي (ت ٤٦٣هـ)

☆ جوامع السيرة :

وهو مختصر للسيرة النبوية . لحافظ الأندلس أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)

✽ زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ :

للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ، الدمشقي ، المعروف بـ"ابن قيم الجوزية" (ت ٧٥١هـ) ويعدّ هذا الكتاب من أجلّ الكتب في بابهِ ، ومؤلّفهُ يستنبط من كل حادثةٍ من أحداث السيرة أهمّ الأحكام والفوائد ، وهو أمر قلما نجده في غيره من المصادر . وهو بحق أول وأفضل كتاب في فقه السيرة ظهر فيها سعة علم ابن القيم ودقة فهمه للنصوص والأحاديث والتعليق عليها ، واستنباط الأحكام منها ، واستخراج الفوائد العظيمة واللفتات الذكية واللطائف النادرة ، كما بين رحمه الله تعالى بعض الأوهام التي وقع فيها أصحاب السير من قبله رغم أنه ألفه حال سفره ، والهمة قد تفرقت شذر مذر كما قال هو في المقدمة .

وأهل العلم بأمس الحاجة إلى قراءة ودراسة كتب ابن القيم وكتب شيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى كما قال العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله : " وكان أقواهم حجة شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم ، وأنا أشهد على نفسي إنني لم يطمئن قلبي لمذهب السلف إلا بقراءة كتبهما " .

٤- ترجمت في الهامش للأعلام الواردة في المتن عند ورودها لأول مرة ؛ معتمداً في ذلك على كتب التراجم المشهورة ، ومنها :

✽ معجم الصحابة :

للحافظ أبي الحسين عبد الباقي بن قانع بن مرزوق (ت ٣٥١هـ)

✽ الاستيعاب في معرفة الأصحاب :

للحافظ أبو عمر بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) حافل بأسماء الكثير من الصحابة؛ إلا أنه لم يستوعبهم .

✧ الإصابة في معرفة الصحابة :

للحافظ ابن حجر العسقلاني ، وكتابه من أهم المصادر لتراجم الصحابة على اختلاف طبقاتهم ، وقد ضمّنه ما ألفه العلماء قبله . فجاء كتابه هذا موفياً في بابه .

✧ المقتضب من كتاب النسب :

لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله ، الحموي (ت ٦٢٦هـ) وقد استفدت من كتابه هذا للتعريف بالقبائل العربية الوارد ذكرها في الرسالة .

ومن المصادر اللغوية التي استفدت منها :

✧ معجم لسان العرب :

لأبي الفضل محمد بن مكرم ، الأنصاري (ت ٧١١هـ) اقتبست منه بيان بعض الألفاظ الغريبة الواردة في الرسالة .

وغيرها من المصادر والمراجع التي ضمنتها هذه الرسالة ، وهي مذكورة في طياتها .

٥- عند ذكر المصدر أو المرجع لأول مرة في الهامش أسجل اسم المؤلف كاملاً ، متصديراً بما اشتهر به : (كُنيتُه ، أو عشيرته ، أو غير ذلك) ثم اسم الكتاب والمحقق -إن وُجدَ - ، وبيانات النشر . وبعد ذلك اكتفي في الإحالة بذكر اسم الشهرة للمؤلف ، واسم الكتاب مختصراً ، وبما اشتهر به . مثل : البخاري : الصحيح . ابن إسحاق : السيرة .

٦ - ذكرت مواضع الآيات القرآنية التي ذكرتها للاستشهاد ، وبينت أرقامها في سورها .

٧ - ربما تعرضت لبعض الأحكام الفقهية التي تُستنبط من الحوادث التي ذكرتها في جهاد المنافقين ؛ مثل :

- حكم الاستهزاء بالله وآياته ورسوله والمؤمنين .
- حكم من سب الله تعالى ورسوله ﷺ .
- حكم من سب الصحابة رضي الله عنهم و حكم من طعن في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .
- حكم إعانة الكافرين والمنافقين ومناصرتهم وموالاتهم .
- حكم التشبه بالكفار والاحتفال بأعيادهم ولبس صلبهم .
- حكم الإقامة ببلاد الكفار .
- حكم من يتجنس بجنسية دولة كافرة تحارب المسلمين .
- حكم الدعوة إلى وحدة الأديان أو التقارب بين الأديان .
- حكم ولاية المنافقين وتوليتهم أمور المسلمين .
- حكم من أعرض عن شرع الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .
- حكم الطاغوت ، و حكم من تحاكم إليه .
- حكم الديمقراطية ، والقوانين الوضعية والدساتير البشرية في الإسلام
- حكم الانتماء إلى الأحزاب العلمانية .
- حكم مساجد الضرار في بلاد المسلمين .

○ حكم توبة المنافق والزنديق .

○ حكم البرلمانات ، وحكم من دخل فيها .

وغيرها من الأحكام والفتاوى ؛ التي أُصِلَّتْ ، ودُعِمَتْ بأقوال الأئمة الأعلام ؛ مثل : الإمام أبي حنيفة ، والإمام أحمد بن حنبل ، والإمام مالك ، والإمام الشافعي ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وابن حزم ، وابن الجوزي ، وابن قدامه المقدسي ، وابن كثير ، وابن حجر العسقلاني ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، والشيخ عبد العزيز بن باز ، والشيخ محمد بن صالح العثيمين ، والشيخ الألباني ، والشيخ ابن جبرين ، والشيخ أحمد محمد شاكر ، وغيرهم كثير . رحمهم الله جميعاً .

٨ - عمدت - غالباً- إلى وضع مدخلٍ لفصول الرسالة .

٩ - سرت في تبويب قائمة المصادر والمراجع على حروف الهجاء ؛ معتمداً على : اسم الشهرة ، أو العائلة ، أو العشيرة ، أو الجد في الترتيب ؛ متبعاً الآتي :

- لم أُدْخِلْ (ال) التعريف . ف(الطبري) يدخل في حرف الطاء ، والبخاري يدخل في حرف الباء .

- لم أُدْخِلْ (ابن ، أو أبو ، أو ابن أبي) ف(ابن هشام) يدخل في حرف الهاء . وابن أبي شهبه ، يدخل في حرف الشين .

١٠- ومن المصادر التي اعتمدت عليها وانتفعت منها كثيراً : كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . وخصوصاً : (مجموع الفتاوى) و (الصارم المسلول على شاتم الرسول) و(اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) و (منهاج السنة النبوية) و (العبودية) .

وقد وجدت في كتب هذا الإمام جواباً شافياً ومفصلاً لمعظم ما استعصي عليّ من أمورٍ في مواضع كثيرة من الرسالة ؛ وذلك لأنه رحمه الله عاصر عهد التتار الذين احتلوا بلاد المسلمين بمعونة المنافقين ؛ لذلك كانت أحكامه وفتاواه بحق المنافقين موقّعةً ومسدّدةً ، واستدلالاته الغزيرة بالقرآن والسنة وأقوال السلف أقرب إلى الواقع . فهو إمام في العلم والعمل وفي الجهاد ، والاعتقاد ، والفهم ، والسلوك . وقد امتاز بسعة العلم ، وقوّة الأمانة والرصانة والتمتانة وقوة الحجّة ، وحُسن العَرض ، ودقّة الضَبْط ووضوح البيان . لذلك كانت كتبه نبراساً لمن رام صواب الاستدلال ، وحارَ بين ما يرى ويسمع من خصام وجدال وقد لازمت كتبه طوال مدة إعدادي لهذه الأطروحة وكانت من مصادري الأساس فالله يجزيه على جهاده ومنافحته عن الإسلام وأهله خير الجزاء .

■ كان ابن تيمية رحمه الله تعالى قد نذر نفسه للدعوة إلى الله تعالى والجهاد فيه بيده ولسانه وقلمه ، فقد جمع بين غزارة العلم والقيام بحقه . إذ جمع بين الاجتهاد المطلق و العلم الغزير ، والجهاد ضد الغزاة بالفكر والسيف في الميدان .

■ كان ابن تيمية رحمه الله تعالى يدعو إلى إحياء العقيدة السنية السلفية الصافية من البدع والشوائب والانحرافات .

■ كان رحمه الله تعالى سيفاً مسلولاً على الروافض والباطنيين والمخالفين وشجىً في حلوق أهل الأهواء المبتدعين ، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين وكان بحراً لا تكدره الدلاء وحبوراً يقتدى به الأخيار الألباء ، طنت بذكره الأمصار ، وظنت بمثله الأعصار ، كان رحمه الله تعالى أمة في رجل .

- جاهد رحمه الله تعالى أهل الأهواء والبدع مستعيناً بسلاح العلم ، ومتحلياً في منازلهم بالعدل والرحمة ، كان منهجه قائماً على اتباع الدليل ، وغايته اظهار الحق والانتصار له ، دون خوف من أحد ولا مداهنة فيه . وهو من أحيا القواعد في التعامل مع أهل البدع والمخالفين لاتحيد عن العدل والحق الذي أمرنا الله تعالى به .
- كان ابن تيمية رحمه الله قائماً بالحسبة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يكاد يرى منكراً إلا انبرى لإنكاره ورد الناس عنه بحسب قدرته وبأفضل طرقه .
- كان ابن تيمية رحمه الله تعالى يطوف في دمشق مع أصحابه ، فيكسرون آنية الخمر ، ويشققون الظروف (أوعية الخمر) ويعزرون أهل الحانات المتخذة لفعل هذه الفواحش .
- كان ابن تيمية رحمه الله تعالى ينكر البدع والمحدثات أنى وجدها ، حتى لما ذهب إلى مصر كان ينهى الناس هناك عن زيارة المشاهد ، والطواف بالأضرحة والقبور ، والتوسل بالأموات ، بجرأة عجيبة وقوة في الحق وغزارة في العلم .
- كان ابن تيمية رحمه الله تعالى هو من أحيا فقه الأولويات والموازنات والمصالح والمفاسد ونظر لفقه السياسة الشرعية وصنّف فيها ، وهو الذي أصل العلاقة بين العقل والنقل ، وكان يجزم بأن العقل الصحيح لا يتعارض مع النقل الصريح أبداً ، وألّف في ذلك كتابه : درء تعارض العقل والنقل .
- كان رحمه الله تعالى واسع الاطلاع على المذاهب الاسلامية ، على دراية بأصولها وعلمائها ومقالاتهم كما كان على دراية بالتوراة والإنجيل ،

ويفهم اللغات العربية والتركية والعبرية ، ما جعله قوياً في دعوته ،
ومناظراته يفحم الخصوم ويفند المقالات .

■ كان ابن تيمية رحمه الله تعالى يذهب إلى العسكر يوعظهم ويثبتهم
ويخبرهم باتفاق الناس على القتال ، ويقسم للجيش أنهم منصورون ،
خرج إلى السلطان وحثه على الخروج إلى دمشق لقتال التتار بنفسه ،
فخرج السلطان والخليفة ، وطلب منه السلطان أن يقف معه في القتال
فاعتذر إليه وقال : " السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من
جيش الشام لا نقف إلا معهم " . وحرّض السلطان على القتال وبشّر
بالنصر وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في
هذه المرة فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول : إن شاء الله تحقيقاً
لا تعليقاً ، وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضاً .

■ وحكي من شجاعته في مواقف الحرب نوبة شقحب ونوبة الكسروان ما
لم يسمع إلا عن صنديد الرجال ، وأبطال اللقاء ، وأحلاس الحرب تارة
يباشر القتال ، وتارة يحرض عليه .

■ أما مكانته العلمية : قال عنه مؤرخ الإسلام الإمام الذهبي رحمه الله (ت
٧٤٨هـ) : كان آية في الذكاء ، وسرعة في الإدراك رأساً في معرفة
الكتاب والسنة ، بحراً في النقيات ، هو في زمانه فريد عصره ، علماً
وزهداً وشجاعة وسخاء وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وكثرة
تصانيف ، وقرأ وحصل وبرع في الحديث والفقه ، وتأهل للتدريس
والفتوى وهو ابن سبعة عشرة سنة ... فإن ذكر في التفسير فهو حامل
لواءه ، وإن عدّ الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق ، وإن حضر الحفاظ نطق
وخرسوا ، وسرد وأبلسوا ، واستغنى وأفلسوا ، وإن سُمي المتكلمون فهو
فردهم ، وإليه مرجعهم فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه ،

وهو عجب في استحضاره واستخراج الحجج منه ، إليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال : " كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث " ، ولكن الاحاطة لله ، غير أنه يغترف من بحر وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي ، وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد .

■ وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً ، وعلى طاعته ، وأحيا به الشام بل والإسلام ، بعد أن كاد ينثلم بتثبيت أولي الأمر لما أقبل حزب التتار والبغي في خيالاتهم ، فظنت بالله الظنون ، وزلزل المؤمنون واشربّ النفاق وأبدى صفحته ، ومحاسنه كثيرة ، وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي ، فلو حلفت بين الركن والمقام ، لحلفت أنني ما رأيت بعيني مثله ، وأنه ما رأى مثل نفسه .

■ قال عنه الواسطي البغدادي رحمه الله تعالى (ت ٧١١هـ) :

(فوالله ثم والله لم يُرى تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية علماً وعملاً وحالاً واتباعاً وكرماً وحلماً)

■ قال ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى (ت ٧٧٤هـ) : (ما أظن بقي شيء مثلك) .

■ وقال ابن سيد الناس اليعموري (ت ٧٣٤هـ) عن رؤيته لشيخ الإسلام : (فألفيته ممن أدرك من العلم حظاً ، وكان يستوعب السنن والآثار حفظاً ، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته ، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته ، أو ذكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، أو حاضر بالتحل والملل لم ير أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته ، برز في كل فن على أبناء جنسه ، ولم تر عين من رآه مثله ، ولا رأت عينه مثل نفسه ، كان يتكلم في

التفسير ، فيحضر مجلسه الجم الغفير ، ويردون من بحر علمه العذب النмир ، ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير .

■ قال أبو الفرج القاسمي رحمه الله تعالى (ت ١٣٣٢ هـ) : (إني والله الحمد نشأت على حب مؤلفات شيخ الإسلام والحرص عليها والدعوة إليها واعتقد أن كل من لم يطالع فيها لم يشم رائحة العلم الصحيح ، ولا ذاق فهم العقل ، وهم يعلمون ما ندعو إليه) .

■ قال الإمام الحافظ المزني رحمه الله تعالى (ت : ٧٤٢ هـ) : (ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، ولا رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا أتبع لهما منه) .

■ قال العلامة كمال الدين الزملكاني رحمه الله تعالى (ت : ٧٢٧ هـ) : (كان إذا سأل عن فن من العلم ظن الرائي و السامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرف مثله)^(١) .

(١) ينظر العقود الدرية ، تذكرة الحفاظ ، البداية والنهاية ، الأعلام العلية ، الدرر الكامنة ، الكواكب الدرية ، الذيل على طبقات الحنابلة ، إغاثة اللفهان ، مسالك الأبصار ، بواسطة " الجامع لسيرة شيخ الاسلام " .

وقد نالت شخصية ابن تيمية رحمه الله تعالى اهتمام المؤلفين قديماً وحديثاً ، منها ما أُلّف مستقلاً في ترجمته ومنها ما ترجمة له في ثنايا كتب ، فمن كتب التراجم المستقلة .. العقود الدرية لابن عبد الهادي ، والأعلام العلية للبخار ، والكواكب الدرية لمرعي الكرمي ، أما التراجم الضمنية فأكثر من أن تحصر ، حتى قال الشيخ بكر ابو زيد : " أفردت في نحو من خمسين مؤلفاً فيما وقفت عليه وأضاف في تقديمه لكتاب الجامع في سيرة ابن تيمية : وأوفاهما على الإطلاق ترجمة تلميذه ابن عبد الهادي ، ولم ينافسه إلا ابن رجب رحمهم الله تعالى ، وابن كثير في تاريخه ، وهذه الثلاثة عيون تراجمه . النظائر ، ص ٢٥٧ .

بارك الله في جهد وجهاد ابن تيمية ، الذي جعل الله له أثراً صالحاً باقياً في مدرسة علمية متكاملة ، لها منهجها وأسلوبها ، وطابعها ؛ مدرسة تتبع في منهجها الكتاب والسنة ، وعلى منهج وفهم السلف الصالح . إمام هذه المدرسة هو رسول الله ﷺ ، وطلابها هم الصحابة الكرام ﷺ ، الذين نقلوا إلينا هذا الدين كاملاً صحيحاً بكل صدق وأمانة ، وحافظوا على الإسلام ، وعلى سنة نبيهم ﷺ ، ونشروا الدين بين أرجاء الأرض من مشرقها إلى مغربها .

ومن ثمرات هذه المدرسة السلفية المباركة الأئمة الأربعة : أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد . وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، وابن كثير ، وابن رجب ، والذهبي والإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهم كثير -رحمهم الله جميعاً- .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل مني هذا العمل ، وأن يجعله خالصاً لوجه الكريم . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فقد بلغ عدد الرسائل الجامعية التي بحثت في فكر ابن تيمية والمسجلة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات أكثر من خمسة وأربعين رسالة علمية ، فضلاً عن الرسائل التي حققت كتبه رحمه الله تعالى ، ناهيك عن الكتب والبحوث والرسائل الخاصة التي لم تسجل في المركز وفي هذا دلالة على حفظه الله تعالى لعلم وإراث هذا العالم الموسوعة ، إمام الأئمة ومفتي الأمة، بحر العلوم وسيد الحفاظ ، وفارس المعاني والألفاظ ، فريد العصر وعلامة الزمان وترجمان القرآن ، ولا تزال المؤتمرات تقام في كل مكان لدراسة تراث ابن تيمية ، ولا يزال العلماء والدعاة يستفيدون من كتبه وجهوده إلى يومنا هذا ، أمده الله بكثرة الكتب وسرعة الحفظ ، وقوة الإدراك والفهم وبطء النسيان حتى قال غير واحد : " إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه " رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

الفصل الأول النفاق

تاريخ ظهوره * بواعثه * أضراره * أصل المنافقين * سبب ظهورهم

المبحث الأول

التعريف ب: المنهج ، والجهاد ، والنفاق

المطلب الأول : التعريف اللغوي والاصطلاحي للمنهج :

١- المنهج في اللغة :

المنهج : الطريق الواضح . ومثله : النهجُ ، والمنهاج^(١) . وأنهج الطريق ، أي : استبان ، وصار نهجاً واضحاً بيناً . ونهجتُ الطريقَ : أبنته ، وأوضحته . ونهجتُه أيضاً : إذا سلكته . وفلانٌ ينهج سبيل فلان ، أي : يسلك مسلكه^(٢) .

ويطلق المنهج على الطريق المستقيم . والمنهجُ ، والمنهاجُ ، والنهجُ : بمعنى واحد . وفي التنزيل : قوله تعالى ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ المائدة: ٤٨

قال ابن عباس رضي الله عنه : "سبيلاً ، وسُنَّة"^(٣) .

٢- المنهج في الاصطلاح :

^(١) الفيروزآبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ) ، القاموس المحيط (٢١٨/) (بيروت ، دار ابن القيم ، د.ت) ، مادة (نهج)

^(٢) مرعشلي ، نديم ، الصحاح في اللغة العربية (ص ١٢٠٩) (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت)

^(٣) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي ، ابن عم رسول الله ﷺ ، أحد فقهاء الصحابة ، أشتهر بالتفسير ، مات بالطائف سنة (٦٨هـ)

ينظر : الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٣٣٠) (القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٨هـ) . والأثر رواه ابن كثير في التفسير (٢/ ٩٤)

هو : خطواتٌ منظّمة ، يتّخذها الباحث لمعالجة مسألةٍ أو أكثر ؛ يتّبعها للوصول إلى نتيجة^(١).

أو هو : الطريق المؤدي إلى التعرف على الحقيقة في العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد ، التي تهيمن على سير العقل ، وتحدّد عملياته ؛ حتى يصل إلى نتيجة معلومة^(٢) وبعبارة أوجز ، هو : القانون ، أو القاعدة التي تحكّم أي محاولة للدراسة العلمية، وفي أي مجال . فمن ثَمَّت تختلف المناهج باختلاف العلوم التي تبحث فيها ، فلكل علم منهجٌ يناسبه ، مع وجود حدٍّ مشترك بين المناهج المختلفة .

المطلب الثاني : التعريف اللّغوي ، والاصطلاحي للجهاد :

١- الجهاد في اللغة :

يقول ابن منظور : "جاهد العدوَّ مجاهدةً وجهاداً : قاتله ، وجاهد في سبيل الله . وفي الحديث : (لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية) الجهاد : محاربة الأعداء ، وهو : المبالغة ، واستفراغ ما في الوسع والطاقة من القول والفعل . والمراد بالنيّة : إخلاص العمل لله . أي : إنّه لم يبق بعد فتح مكة هجرة ، لأنها صارت دار إسلام ، وإنما هو الإخلاص في الجهاد ، وقتال الكفار . والجهاد : المبالغة ، واستفراغ الوسع في الحرب ، أو اللسان ، أو ما أطاق من شيء^(٣) .

^(١) مرعشلي ، الصحاح (ص ١٢٠٩)

^(٢) رشوان ، حسين ، العلم والبحث العلمي (ص ١٤٣) (الإسكندرية ، المكتب الجامعي ، ١٩٨٢م)

^(٣) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) ، لسان العرب (٣/١٣٥) مادة (جهد) (بيروت ، دار صادر ، د.ت)

وقال القسطلاني: "والجهاد - بكسر الجيم - : مصدر جاهدتُ العدوَّ مجاهدة . وأصله : جيهاؤ ، كقيتال . فحُقِفَ بحذف الياء . وهو مشتق من الجَهد - بفتح الجيم - وهو : التعب ، والمشقة بما فيه من ارتكابها . أو من الجُهد - بالضم - وهو : الطاقة ؛ لأنَّ كل واحدٍ منهما يبذل طاقته في دفع صاحبه"^(١)

٢- الجهاد في الاصطلاح :

هو : قتال الكفار ؛ لإعلاء كلمة الله ، والمعاونة على ذلك ؛ كما فسره رسول الله ﷺ . فعن عمرو بن عبسة^(٢) ، قال : قال رجل : يا رسول الله ، ما الإسلام قال : (أنَّ تُسَلِّمَ قلبك لله ﷻ ، وأنَّ يسلمَ المسلمون من لسانك ويدك) قال : فأبي الإسلام أفضل ؟ قال : (الإيمان) قال : وما الإيمان ؟ قال : (تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، والبعث بعد الموت) . قال : فأبي الإيمان أفضل ؟ قال : (الهجرة) قال : فما الهجرة ؟ قال : (أنَّ تهجرُ السوءَ) ، قال : فأبي الهجرة أفضل ؟، قال : (الجهادُ) قال : وما الجهاد ؟ قال : (أنَّ تقاتل العدوَّ إذا لقيتهم) ، قال : فأبي الجهاد أفضل ؟، قال : (منَّ عُقِرَ جوادهُ ،

^(١) القسطلاني ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٨٥١هـ) ، إرشاد الساري شرح صحيح البخاري (٣١/٥) (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)

^(٢) أبو نجيح ، أسلم قديماً بمكة ، ثم رجع على قومه ، وهاجر بعد فتح خيبر ، وشهد فتح مكة . سكن الشام ، ومات بها في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ .

يُنظَرُ : الطبقات الكبرى ، لابن سعد (٢١٤/٤) (بيروت ، دار صادر ، د.ت) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر (١١٩٢/٣) (ط١ ، بيروت ، دار الجيل ، ١٤١٢هـ) الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر (٥/٣) (القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٣٢٨هـ)

وأهريق دمه) قال رسول الله ﷺ : (ثم عملان هما من أفضل الأعمال ؛ إلا من عمل
بمثلهما : حجة مبرورة ، وعمرة^(١) .

وبمثل هذا التفسير للجهد الوارد عن رسول الله ﷺ فسّر علماء المسلمين
الجهد :

فقال ابن حجر : "بذل الجهد في قتال الكفار"^(٢) .

وقال القسطلاني : "قتال الكفار ؛ لنصرة الإسلام ، وإعلاء كلمة الله"^(٣) .

وقال الكاساني : "وفي عُرْفِ الشرع : يستعمل في بذل الوسع والطاقة بالقتال في
سبيل الله ﷻ ؛ بالنفس ، والمال ، واللسان ، أو غير ذلك . أو : المبالغة في ذلك"^(٤)

وقال ابن عابدين : "الدعاء إلى الدين الحق ، وقتال مَنْ لم يقبله"^(٥) .

وقد يطلق الجهاد في النصوص الشرعية على غير قتال الكفار ، كما قال ﷺ :
(المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)^(١) .

(١) أحمد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) ، المسند (١١٤/٤) تحقيق
صبحي السامرائي ومحمود الصعيدي (بيروت ، مؤسسة قرطبة ، د.ت) الكشي ، أبو محمد عبد
بن حميد (ت ٢٤٩هـ) المسند (ص ١٢٤) (ط ١ ، القاهرة ، مكتبة السنة ١٩٨٨م)

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/٦) تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ط ١ ، بيروت ، دار
الكتب العلمية (١٩٨٩م)

(٣) إرشاد الساري (٣١/٥)

(٤) علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني (ت ٥٨٧هـ) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٩٧/٧)
(القاهرة ، مطبعة الإمام ، د.ت)

(٥) محمد أمين (ت ١٢٣٢هـ) رد المحتار على الدر المختار (١٢١/٤) (بيروت ، دار الفكر ،
١٤١٥هـ)

وقوله ﷺ للذي استأذنه في الجهاد : (أحْيِي والداك ؟) قال : نعم . قال : (ففيهما فجاهد)^(٢) .

لكن لفظ الجهاد إذا أُطلق فالمراد به : قتال الكفار ؛ لإعلاء كلمة الله تعالى . ولا ينصرف إلى غير قتال الكفار ، إلا بقرينة تدل على المراد . كما في الحديثين السابقين .

يقول ابن رشد : "وجهاد السيف : قتال المشركين على الدين . فكلُّ مَنْ أتعب نفسه في ذات الله فقد جاهد في سبيله ، إلا أنّ الجهاد في سبيل الله إذا أُطلق فلا يقع بإطلاقه إلا على مجاهدة الكفار بالسيف ؛ حتى يدخلوا في الإسلام ، أو يُعطوا الجزية عي يدٍ وهم صاغرون"^(٣) .

^(١) أحمد : المسند (٢١/٦) حديث رقم (٢٤٠٠٤)

ويُنظر : ابن حبان ، أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ) ، الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان لعلي بن بلبان ، المعروف ب- (صحيح ابن حبان) تحقيق شعيب الأرنؤوط (٢٠٤/١١) حديث رقم (٤٨٦٢) (ط٢ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٣م) الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي (ت ٣٦٠هـ) ، المعجم الكبير ، تحقيق حمدي عبد المجيد (٣٠٩/١٨) حديث رقم (٧٩٧) (الموصل ، مطبعة الزهراء ، ١٩٨٤م) الحاكم ، أبو عبد الله محمد بن عبد = الله النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) ، المستدرک علی الصحیحین ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، (٥٤/١) حديث رقم (٢٤) (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٠م)

^(٢) البخاري ، الصحيح (١٠٩٤/٣) حديث رقم (٢٨٤٢) مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ) ، الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (١٩٧٥/٤) حديث رقم (٢٥٤٩) (بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت)

^(٣) ابن رشد ، المقدمات (٣٦٩/١)

المطلب الثالث : التعريف اللغوي والاصطلاحي للنفاق :

١- النفاق في اللغة :

النِّفَاق - بكسر النون - من : نَاقٍ ، مُنَافِقَةٌ ، ونِفَاقًا . والنِّفَاق - بكسر النون أيضاً - : جمع النفقة . مثل : رَقَبَةٌ ، وِرْقَابٌ ^(١) .

وأهل اللغة مختلفون في أصل النفاق : هل هو مأخوذ من النَّفَقِ ؛ كما ذهب إليه أبو عبيد ^(٢) . وهو : السَّرْبُ في الأرض ، الذي يَسْتَبِرُّ فيه كُلُّ مَنْ دخله . فسُمِّيَ من دخل الإسلام مستتراً به : مُنَافِقًا ؛ لتشابُهه في التَّسْتُرِ ، بمن دخل النَّفَقَ . أو : لأن دخول النَّفَقِ من وجهٍ : الخروجُ منه من وجهٍ آخر . فسُمِّيَ من دخل الإسلام أمام النبي ﷺ والمسلمين ثم خرج عن الإسلام أمام إخوانه الكفارِ قراراً وعملاً : منافقاً ؛ تشبيهاً بمن دخل النَّفَقَ . في الدخول ، والخروج منه .

٢- النفاق في الاصطلاح :

١ - عرّفه الجرجاني بأنه "إظهار الإيمان باللسان ، وكتمان الكفر بالقلب" ^(٣) .

٢ - وعرّفه ابن منظور والزيدي في كتابيهما بأنه : "مَن يَسْتُرُ كفره ، ويُظهِر إيمانه" ^(٤) .

^(١) المقري ، أحمد بن محمد بن علي (١٠٨٩هـ) ، المصباح المنير (٢/٩٥٥) (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت)

^(٢) ابن منظور : لسان العرب (١٠/٣٥٩)

^(٣) الشريف علي بن محمد (ت ٨١٦هـ) ، التعريفات ، تحقيق إبراهيم الأبياري (ص ٢٤٥) (ط ١) ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ

^(٤) ابن منظور : لسان العرب (١٠/٤٩٥) ؛ الزيدي ، محمد المرتضى (ت ١٢٥٠هـ) تاج العروس من جواهر القاموس (٣/٢٩٦) (بيروت ، دار ابن القيم ، د.ت)

٣- وعرف ابن كثير النفاق بأنه: "إظهار الخير وإسرار الشر"^(١). والمنافق يخالف قوله فعله وسرّه علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه^(٢).

٤- وعرفه ابن تيمية قائلاً: "ولفظ النفاق في الشرع: إظهار الدين ، وإبطان خلافه . وهذا المعنى الشرعي أخص من مسمى النفاق في اللغة ؛ فإنه في اللغة أعم من إظهار الدين ، ثم إبطان ما يخالف الدين"^(٣).

يتبين من التعريفات السابقة ، أن النفاق هو : ستر الكفر في القلب ، وإظهار الإيمان باللسان . وأما تعريف ابن كثير بأن النفاق : إظهار الخير ، وإسرار الشر . فباعتبار : أن كل تعاليم الإسلام خيرٌ للأمة . وتكلم المنافق بقبولها ظاهراً ، مع إنكار قلبه لها إسراراً ؛ لأن النفاق المعروف اصطلاحاً في عهد رسول الله ﷺ ، كان كافراً ابتداءً .

والنفاق أو المنافق ، مصطلح لم يعرفه العرب بهذا المعنى الخاص ، وإن كان أصله الذي أخذ عنه في اللغة معروفاً^(٤) .

^(١) أبو الفداء إسماعيل بع عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، تفسير القرآن العظيم (٤٥/١) (بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٨٤م)

^(٢) المرجع ذاته (٤٥/١)

^(٣) مجموع الفتاوى (١٤٣/١١)

^(٤) ابن منظور : لسان العرب (٣٥٩/١٠) الزبيدي : تاج العروس (٤٣١/٢٦)

المبحث الثاني

النفاق ، وأنواعه ، وتاريخ ظهوره ، وأصل المنافقين وسبب ظهور النفاق ، والهدف العام منه .

المطلب الأول : مَنْ هو المنافق ؟ ، وما أنواع النفاق ؟

المنافق ، هو : الذي يُظهِر الإيمان ، وَيُبْطِنُ الكُفْر .

والنفاق في قاموس علماء الأمة يقسم إلى : النفاق الاعتقادي ، والنفاق العملي^(١) . أو إلى : النفاق الأكبر ، والنفاق الأصغر^(٢) .

○ النفاق الاعتقادي : وهو ما يتعلق بأصل الإيمان ، والاعتقاد فيه . ويسمى : النفاق الأكبر .

سماه الغزالي : الرياء بأصل الإيمان . وسمى النفاق العملي : الرياء بالواجبات^(٣)

إذا كان المنافق هو الذي يُخْفِي الشَّرَّ بالقلب مكاناً ، وَيُظْهِر الخَيْرَ باللسان إعلاماً ؛ كان نطق كلمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وقلبه منكر وجاحد بما نطق به لسانه ، ولكن لشيء ما نطق بما نطق ؛ كان مجبوراً ، فهو : منافق نفاقاً اعتقادياً . وهو كافر أصلاً ؛ لأن ما أخفاه شيء يتعلق بالعقيدة ؛ وهو : المعرفة والتصديق بألوهية رب العالمين ، ربنا الله عز وجل .

^(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم (٤٥/١)

^(٢) ابن القيم ، شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ) مدارج السالكين (٣/٣٧٦) (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ)

^(٣) الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) إحياء علوم الدين (٣/٣٥٩) (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)

أو : نطق بالشهادتين ، وقلبه مصدقٌ بالله عز وجل ؛ إلا أنه لا يؤمن بالرسول عليهم الصلاة والسلام ، أو لا يؤمن بالكتب المنزلة على الرسول الكرام ، أو باليوم الآخر -مثلاً- ، فهو : منافق نفاقاً اعتقادياً ، وبقي أصله كافراً .

إِذْنٌ : الخلل في التصديق ، أو الأعمال القلبية ، أو المعرفة بالله تعالى . أو : الخلل في ركنٍ من أركان الإيمان الستة ، وهي : الإيمان بالله تعالى ، وبملائكته ، وبكتبه ، وبرسوله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره . وهو : النفاق الاعتقادي .

وأكبر النفاق ، هو : النفاق الاعتقادي . وهو الذي يكمن في قلب صاحبه تكذيبٌ وإنكارُ الله تعالى رباً له ، ومحمدٌ نبياً له ، والقرآن إماماً له . وفي الوقت نفسه : يريد إفسادَ الإسلام والمسلمين داخل المجتمع الإسلامي ؛ ولكنه نطق بالشهادتين تستراً

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۗ (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۗ (١٥١) ﴾ النساء: ١٥٠ - ١٥١

ويقول جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ؕ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ؕ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۗ (١٣٦) ﴾ النساء: ١٣٦

فالإيمان يُنفى عندما لا يؤمن المرء بركنٍ من أركان الإيمان ، وكل ما أتى به محمد ﷺ من شريعةٍ مُّجمَعٍ عليها^(١) .

(١) الأصول والفروع (ص ١٢- ١٣)

والنفاق الاعتقادي ستة أنواع ، صاحبها من أهل الدُّرِّكَ الأسفل من النار^(١) ؛
وهي :

- ١- تكذيب الرسول ﷺ .
- ٢- تكذيب بعض ما جاء به الرسول ﷺ .
- ٣- بغض الرسول ﷺ .
- ٤- بغض بعض ما جاء به الرسول ﷺ .
- ٥- المسرة بانخفاض دين الرسول ﷺ .
- ٦- الكراهية بانتصار دين رسول الله ﷺ .

○ النفاق العملي : وهو النفاق في الأعمال ، ويسمى بالنفاق الأصغر :

النفاق العملي هو^(٢) : الخلل في الأعمال البدنية من العبادات المكملة للإيمان ،
الذي لا يكون كماله إلا بالتصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان . نعم
قد يُنفي النُّص من نصوص الشريعة الإيمان أو الإسلام عن المسلم ، كقوله ﷺ : (لا
إيمان لِمَنْ لا أمانة له ، ولا دينَ لمن لا عهد له)^(٣) .

^(١) التميمي ، محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٥هـ) ، الواجبات المحتمات المعرفة على كل مسلم
ومسلمة (ص ١٣) (ط١، الرياض ، دار طيبة للنشر ، ١٤١٤هـ)

^(٢) البيضاوي ، عبد الله بن عمر بن محمد (٦٨٥هـ) ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، المعروف
بتفسير البيضاوي (١١/١) (بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ)

^(٣) أحمد : المسند (١٣٥/٣) أبو يعلى ، أحمد بن علي بن المثنى : المسند ، تحقيق حسين أحمد
سليم (٢٤٧/٥) حديث رقم (٢٨٦٣) (ط١، بيروت ، دار المأمون للتراث ، ١٩٨٨) الطبراني :
المعجم الكبير (١٠/ ٢٢٧) حديث رقم (١٠٥٥٣)

وكقوله ﷺ : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن)^(١)

والمقصود من نفي الإيمان هنا : تزك المسلم بعض الواجبات^(٢) ، أو ارتكاب بعض المحرمات . ويبقى مسلماً ؛ إلا أنه فاسق ، أو عاص لله عز وجل .

والنفاق العملي خمسة أنواع^(٣) . يدل عليها قوله ﷺ : (آية المنافق ثلاث :

١- إذا حدث كذب .

٢- وإذا وعد أخلف .

٣- وإذا أؤتمن خان)^(٤)

وفي رواية^(٥) :

٤- (إذا خاصم فجر .

٥- وإذا عاهد غدر)

^(١) أحمد : المسند (١٣٥/٣) حديث رقم (١٢٤٠٦) ؛ ابن حبان ، الصحيح ، (٢٤٤/١) حديث رقم (١٩٤) الطبراني ، المعجم الأوسط ، تحقيق طارق عوض الله و عبد المحسن إبراهيم ، (القاهرة ، دار الحرمين ، ١٤١٥هـ) (٩٨/٣) حديث رقم (٢٦٠٦)

^(٢) ابن تيمية ، الإيمان (بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٩م) ، (ص٢٨٨)

^(٣) التميمي : الواجبات المتحتمات (ص١٣)

^(٤) البخاري : الصحيح (٢١/١) حديث رقم (٣٣) مسلم : الصحيح (٧٨/١) حديث رقم (٥٩)

^(٥) مسلم : الصحيح (٧٨/١) حديث رقم (٥٨)

المطلب الثاني : تاريخ ظهور النفاق . وأسبابه ، والهدف العام منه :

أولاً : تاريخ ظهور النفاق :

لم يكن للمنافقين وجود في العهد المكي ؛ وذلك لأن الإسلام لم تكن له دولة وقوة تجعل الناس يتظاهرون بالانتماء إليه ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان تعذيب المسلمين من أنجح الوسائل للتقرب من الملاء من قريش ، وكذا اضطهادهم ، وافتتانهم عن دينهم ، مما جعل المسلمين يفرون بدينهم وأنفسهم إلى المدينة ، التي أصبحت بذلك عاصمة الدولة الإسلامية . حيث دخل الأوس والخزرج في الإسلام ؛ ماعدا قلة قليلة منهم ، ما لبثوا أن أعلنوا إسلامهم بعد انتصار المسلمين في معركة بدر .

وهنا ابتدأت مرحلة النفاق والمنافقين . فبعد قتل صناديد الكفر في معركة بدر ، ما كان من عبد الله بن أبي بن سلول^(١) -رأس النفاق- إلا أن قال لمن معه من المشركين وعبد الأوثان : "هذا أمرٌ قد توجه"^(٢) . فدخلوا الإسلام -ظاهراً- . ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله ، غاظهم ذلك ، وأساءهم .

ثانياً : أسباب ظهور النفاق :

١- كان اليهود وراء وجود المنافقين في المدينة المنورة ؛ وذلك بسبب ما كان يقوم به زعمائهم من الدخول في الإسلام ثم الخروج منه ؛ ليفتنوا الناس عنه . وقد وصف الله سبحانه وتعالى فعل هؤلاء بقوله ﴿ وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾ آل عمران: ٧٢

^(١) سلول جدة عبد الله ، أم أبيه (أبي) قال ابن هشام : "سلول امرأة من خزاعة ، وهي أم أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج" . السيرة النبوية (٢/٢٩٥)

^(٢) العسقلاني : فتح الباري (٨/٢٣٠-٢٣١)

استغل اليهود عبد الله بن أبي بن سلول ؛ الذي كان يُعدّ العدة لتنصيبه ملكاً على الأوس والخزرج^(١) ، إلا أنّ دخول الناس في الإسلام ، وفرحتهم به ، وانشغالهم بمقدم رسول الله ﷺ ؛ فوّت عليه هذا التنصيب . فما كان من اليهود إلا أن قاموا بتأجيج نار الحقد في قلبه ، وصوّروا له أن عدوّه الوحيد هو الرسول ﷺ ؛ لأنّه حال بينه وبين أن يكون ملك يثرب .

وهناك عامل آخر ؛ وهو : عامل الضغط الاجتماعي . فهؤلاء يعيشون بين أهليهم وذويهم ، ولكنهم على مفترق طرق لا لقاء بين سالكيها . فهؤلاء مسلمون ، وأولئك كافرون . فما كان أمامهم إلا إعلان إسلامهم ؛ ليلحقوا بركب إخوانهم ، ويضمروا الكفر الذي أُشربته نفوسهم - والعياذ بالله - .

وقد صور القرآن الكريم موقفهم بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾^(٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ البقرة: ٨ - ١٦

٢- قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ، وتمكين المسلمين فيها . وهنا تظاهر جماعة من الكفار بالدخول في الدين الجديد ، التي صارت مقاليد الأمور بيد

(١) ابن هشام ، عبد الملك بن هشام المعافري ، (ت ٢١٣هـ) ، السيرة النبوية (٣/١٢٧) تحقيق طه عبد الرؤوف (ط١ ، بيروت ، دار الجيل ، ١٤١١هـ)

أصحابه ؛ رغبةً في نفعٍ أو مغنمٍ ، أو في تحقيق بعض المكاسب الدنيوية التافهة . أو رهبةً من إظهار المخالفة ، وخوفاً أن يصيبهم عقابٌ ، أو تأديب .

✽ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، وصار للمؤمنين بها عزٌّ وأنصار ، ودخل جمهور أهلها في الإسلام طوعاً واختياراً ، كان بينهم من أقاربهم أو غير أقاربهم من أظهر الإسلام موافقةً ؛ رغبة أو رهبة ، وهو في الباطن كافر . وكان رأس هؤلاء عبدُ الله بن أبي بن سلول ، وقد نزل فيه وفي أمثاله آيات" (١) .

❖ قاعدة :

كلما ازداد الإسلام عزّاً ، وعظمت قوة المسلمين ، ازداد التزام المنافقين بأحكام الإسلام الظاهرة . فهناك تناسُبٌ طَرْدِيٌّ بين عزِّ الإسلام ، وبين التزام المنافقين بالأحكام الظاهرة . كما إنّ هناك تناسُباً عكسياً بين ضعف الإسلام ، وبين قوة المنافقين . بمعنى : إنّ كلما ضعف الإسلام قوّي المنافقون . والعكس صحيح .

✽ هذه القاعدة استنبطت من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وذَكَرَ من كلام السلف ما يدلُّ عليها . كقول حذيفة بن اليمان ؓ : "النفاق اليوم أكثر منه على عهد رسول الله ﷺ" . وفي رواية أخرى : "كانوا على عهد رسول الله ﷺ يُسْرُونَهُ ، واليوم يُظهِرُونَهُ" (٢) .

✽ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حول تلك القاعدة : "وقد كان المنافقون يلتزمون أحكام الإسلام الظاهرة ، لا سيما في آخر الأمر ، ما لم يلتزمه كثير

(١) شرح حديث جبريل ، المسمى بـ (الإيمان الأوسط) (ص ٢٩٢) تحقيق الدكتور علي نجيب الزهراني (ط ٢ ، المملكة العربية السعودية ، دار ابن الجوزي ، ١٤٢٤هـ)

(٢) شرح حديث جبريل (ص ٣٠٠)

من المنافقين الذين من بعدهم ؛ لِعَزِّ الإسلام ، وظهوره إذ ذاك بالحُجَّة والسيف .
تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾
الصف: ٩ ويقول أيضاً : "ولهذا لم يكن المتهَمون بالنفاق نوعاً واحداً ؛ بل فيهم
المنافق المحض ، وفيهم مَنْ فيه إيمان ونفاق ، وفيهم من إيمانه غالبٌ وفيه شُعبة من
النفاق ، وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان . ولما قَوِيَ الإسلام ، وظهر الإيمان
وقوته عام تبوك صاروا يُعَاتَبون من النفاق على ما لم يكونوا يُعَاتَبون عليه قبل ذلك" (١) .

ثالثاً : أصل المنافقين :

يتفرع المنافقون من أصليين :

١- من المشركين .

٢- من أهل الكتاب .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "وكان في المنافقين من هو في الأصل
من المشركين ، وفيهم من هو في الأصل من أهل الكتاب" (٢) .

وقد ساق الحافظ ابن كثير رحمه الله نقلاً عن ابن اسحاق أسماء كثير من
المنافقين من كلتا الطائفتين : من المشركين ، ومن أهل الكتاب ؛ الذين كانوا من اليهود
في الغالب (٣) .

لذا كانت عامّة السور المدنية في القرآن الكريم يُذكر فيها النفاق والمنافقون .
وأعظم هذه السور في ذكر النفاق ، وفضح أساليب المنافقين : سورة التوبة . وهذا ما
سيتم الحديث عنه في الفصل الثالث .

(١) شرح حديث جبريل (ص ٥٦٧-٥٦٨)

(٢) شرح حديث جبريل (ص ٢٩٢)

(٣) البداية والنهاية (٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧)

رابعاً : الهدف العام من النفاق :

مع تنوع المنافقين واختلاف درجاتهم ، إلا أن الهدف العام للنفاق هو ما ذكره الله تعالى في قوله :

١- ﴿ وَذُؤا لَو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا نَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا نَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيَاءَ وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ النساء: ٨٩ .

وهو هدف يشاركهم فيه الكفار الصرحاء بمختلف أجناسهم ، كما قال تعالى :

﴿ إِن يَشْفِقُوا كُنُفًا لَكُم أَعْدَاءٌ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُم أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ المتحنة: ٢ .

وكما قال عن أهل الكتاب : ﴿ وَذَ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ البقرة: ١٠٩

٢- اتخاذ النفاق وسيلةً لحرب الإسلام والمسلمين . عن طريق نشر الرذائل في المجتمع المسلم ، ومحاولة تشييط المؤمنين عن التمسك بدينهم ، والجهاد في سبيله ، وتشكيك ضعفاء الإيمان منهم بدينهم ، والتجسس على دولة الإسلام لصالح أعدائهم . وهم بهذا يجمعون بين محاربة المؤمنين ، وكسب رضا أعدائهم عنهم والتقرب إليهم .

٣ - اتخاذ النفاق وسيلة للوصول إلى مراكز الحكم والقيادة . لتنفيذ مخططاتهم الخبيثة ، وأهدافهم السيئة ، ومبادئهم الهدامة . والقيادة ؛ إما تلبيةً لنداء شهوة الرئاسة

التي يتلى بها بعض الناس ، وإما ليتوصلوا بذلك إلى تنفيذ مخططاتهم الخبيثة وأهدافهم السيئة ؛ إذا كانوا من أصحاب المبادئ الهدامة . وبغير النفاق لا يستطيعون الوصول إلى ذلك ما داموا في دار الإسلام ؛ لأن المسلمين -مهما كانت درجة إيمانهم- سيمقتونهم ، ويحاربونهم .

٤ - وقاية أنفسهم وأموالهم . وذلك لأن الإسلام يعصم دماء معتنقيه ، وأموالهم . والمنافقون من الكفار في الباطن ؛ فإذا أظهروا كفرهم عاملهم المؤمنون معاملة الكفار المرتدين .

٥ - الحصول على المصالح المادية . وذلك لأن للمسلم في دولة الإسلام الحرية التامة في التصرف بأمواله في حدود تعاليم الشريعة ، كما أن له حقوقاً مشروعة في بيت مال المسلمين ، تضمن له عيشاً كريماً . وإذا كان من أهل الكفاءة فإنه يستطيع أن يصل إلى عمل في الدولة يتقاضى عليه أجراً من بيت المال ، وإذا اشترك في الجهاد كان له حظ من الغنائم . فالمنافقون يلاحظون هذه المصالح التي تفوتهم ؛ فيما لو أظهروا كفرهم .

٦ - الحصول على المصالح المعنوية . وذلك لأن المسلم في دار الإسلام إذا كان متمسكاً بدينه يحصل على الجاه الرفيع ، والمنزلة العالية بين المسلمين ، وعند ولاة الأمر . وهذا أمر مرغوب فيه ، وتشتهيه بعض الأنفس كما تشتهي المال أو أشد . فإذا أظهر المنافقون التقوى والورع ؛ حصلوا على ما يريدونه من هذه المصالح^(١) .

^(١) ينظر : المنافقون في القرآن الكريم ، عبدالعزيز الحميدي .

المبحث الثالث

آثار النفاق

المطلب الأول : أضرار النفاق ، وخطره :

إن الأضرار المترتبة على وجود النفاق والمنافقين كثيرة ، لكن يمكن حصرها في التالي :

أ - الصد عن الجهاد ، وتثبيط المجاهدين :

للجهاد مكانة عظيمة في الإسلام ، ومنزلته رفيعة ؛ لذلك عدّه بعض العلماء أحد أركان الإسلام . والجهاد دعامة من دعائم الإسلام ؛ لا استقامة للإسلام ، ولا قوام لشرائعه إلاّ به .

والصد عن الجهاد يُعدّ من أكبر الضرر على المسلمين ؛ لأن الجهاد ذروة سنام الإسلام ، وأبرز صفات الإيمان ، ومنازلُ أهله أعلى المنازل في الجنة . كما إنّ لهم الرّفعة في الدنيا . لذلك كان ﷺ في الذّروة العليا منه ، فجاهد في الله حق جهاده ، بالدعوة ، والبيان ، والسيف ، والسنان . فكانت ساعاته موقوفةً على الجهاد . لهذا كان ﷺ أعظم العالمين قدراً .

إنّ عزّ الأمة ومستقبلها في الجهاد في سبيل الله ، ولا يمكن أن يعود الإسلام قوياً عزيزاً إلا إذا أقمنا راية الجهاد . وإنّ أيّ دعوة ، أو تربية لا تجعل من أساساتها ومنهجها الجهاد في سبيل الله ، والغاية التي يجب أن يسعى المسلمون لها ؛ هي دعوة مخالفةً لمنهج النبي ﷺ . علاوةً على أنها لا تُرهب أعداء الله من الكافرين والمنافقين . والواقع خير دليل على ذلك . فنرى أعداء الإسلام لا يحاربون أيّ دعوة ، وأيّ حركة

لاتنادي بالجهاد في سبيل الله . أما الدعوة التي تنادي بالجهاد ؛ فهي محلّ الحرب ، وميدان المعركة .

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- : ((فالدين الحق لا بدّ فيه من الكتاب الهادي والسيف الناصر))^(١) .

- وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى- : ((فدين الإسلام قام بالكتاب الهادي ، ونفذه السيف الماضي))^(٢) .

- وقال ابن قدامة -رحمه الله تعالى- : ((ولأن الجهاد بذلّ المهجة والمال ، ونفّعه يعمّ المسلمين كلّهم صغيرهم وكبيرهم ؛ قويّهم وضعيفهم ، ذكرهم وأنثاهم . وغيره لا يساويه في فضله وأجره))^(٣) .

ويزخر القرآن الكريم بالآيات العديدة ؛ التي تبيّن فضل الجهاد في سبيل الله . ومن حديث القرآن الكريم في هذا الشأن :

١- بيّن القرآن الكريم أن الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة ، حصيلتها بالنسبة إلى المجاهدين : طيّ صفحات الخطايا التي اقترفها المجاهدون ، وإغلاق أبواب العذابِ دونهم ، وفتح أبواب النعيم أمامهم ، ومسيرهم في طريق النصر على عدوهم .

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يبشر المؤمنين بهذه الثمرات المباركة المترتبة على الجهاد . وهل هناك أصدق من الله فيما يعدّ به ، أو يبشّر؟! قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ تَجَرُّفٍ تُنجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ

(١) منهاج السنة النبوية (١/٥٣١) .

(٢) هداية الحيارى (١/١٠) .

(٣) المغني (١٠/٣٦٢) .

وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

الصف: ١٠ - ١٣

- قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : ((ومن كان كثير الذنوب فأعظم دوائه الجهاد ، فإن الله عز وجل يغفر ذنوبه كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله :

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ^(١) .

٢- بين القرآن الكريم أن الروابط الأساس والعلاقات الاجتماعية والمصالح المادية وما شرع من مباحج الحياة ... هي من القيم التي لا يُستنكر على المسلمين أن يحرصوا عليها ؛ ما لم تفضّل على قيمة الاستجابة لأمر الله ورسوله ، وتلبية نداء الجهاد في سبيله ؛ وذلك أن قيمة طاعة الله ورسوله ، والقيام بأمر الجهاد في شرع الله فوق كل القيم جميعاً ، وأي عبث بهذا التسق في ترتيب القيم التي حددها الله ﷻ للأشياء والأعمال هو فسق وخروج عن المنهج الذي رسمه الله لحياة المسلمين ؛ يُعَرِّضُهُم لِلسَّخَطِ ، والتّهديد ^(٢) . قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُقْرَبْتُمْوهَا وَتَجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ^(٢٤) التوبة: ٢٤

٣- قدّم القرآن الكريم الجهاد على جميع الأعمال المبرورة في الإسلام (حاشا الفرائض كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ؛ فهذه مقدّمة على ما

(١) مجموع الفتاوى (٤٢١/٢٨) .

(٢) هيكل ، محمد خير ، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (٢/٨٣٦) (ط٢) ، بيروت ، دار ابن حزم ، ١٤١٧هـ .

سواها) وإن كانت تلك الأعمال المبرورة : خدمة حُجَّاج بيت الله ، وعمارة المسجد الحرام ، والجوارِ عنده .

قال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) التوبة: ١٩

ودلت الآية على أن أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى هو (الجهاد مع الإيمان) ،
لأنه لولا الجهاد في سبيل الله ما عُمرت المساجد ، بل تُهدم ويُصد عن سبيل الله فيها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى : ((والمقام بالثغور للجهاد
أفضل من سكن الحرمين . باتفاق العلماء)). . فطوبى لمن أقامه الله في مقام الجهاد .

٤- جعل القرآن الكريم المجاهدين في سبيل الله من أهدى الناس إلى الحق ،
وأسعدهم بسبيل الله ﷺ عند اختلاف الناس .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٦٩)
العنكبوت: ٦٩

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "ولهذا كان الجهاد مُوجِباً للهداية التي
هي محيطة بأبواب العلم ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
سُبُلَنَا ﴾ العنكبوت: ٦٩ فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سُبُلِهِ تعالى . ولهذا قال الإمامان
عبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما : "إذا اختلف الناس في شيء ، فانظروا
ماذا عليه أهل الثغر ؛ فإن الحق معهم ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
سُبُلَنَا ﴾ العنكبوت: ٦٩

هذا ؛ وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (٤) سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحْ بِأَلْمَمِ ﴿
محمد: ٤ - ٥. قرأها الجمهور : (قاتلوا) وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم (قُتِلوا)

✽ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية كلاماً نفيساً في الثناء على المجاهدين ، مستدلاً بكتاب رب العالمين : ((كان السلف إذا اختلفوا بعثوا إلى أهل الثغور ليفصلوا في خلافهم ، يتأولون قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ العنكبوت: ٦٩ .

✽ ويقول ابن تيمية أيضاً موضعاً شرف المجاهدين : ((إذا تكلم أهل الثغور فليصمت أهل الجحور)).

٥ - الجهاد في سبيل الله تعالى من أعظم وسائل تربية النفس وتزكيتها باطناً وظاهراً .

فكم من الأخلاق الفاضلة وأعمال القلوب الزكية لا يمكن إصلاحها والوصول بها إلى كمالها - أو قُرب كمالها- إلا بالجهاد في سبيل الله تعالى . وبدون الجهاد في سبيل الله ستبقى هذه الأعمال ضعيفةً ، أو يصعب على العبد تكميلها وهو قاعد .

✽ وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعليقه على كون الجهاد ذروة سنام هذا الدين ؛ حيث قال : "ولهذا كان الجهادُ سنام العمل ، وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة . ففيه سنام المحبة ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة: ٥٤

٦ - في الجهاد حقيقة الزهد في الحياة الدنيا . وفيه أيضاً حقيقة الإخلاص .

فإن الكلام فيمن يجاهد في سبيل الله ؛ لا في سبيل الرئاسة ، ولا في سبيل المال ، ولا في سبيل الحمية . وهذا لا يكون إلا لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله . وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَهُمُ الْجَنَّةُ

يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعِّكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التوبة: ١١١

وفي الآخرة تتحقق الثمرة العظمى للجهاد في سبيل الله تعالى ، التي يتنافس فيها المتنافسون ، ويضحّي في سبيلها المجاهدون بأرواحهم رخيصةً ، راضيةً بها نفوسهم . كيف لا ، وهم يرجون رحمة الله ، ورضوانه ، وجناته؟! هذه الغاية الشريفة ، والثمرة العظيمة التي يرخص في سبيلها كل شيء .

✽ إنَّ المتأمل في كتاب الله ﷻ ، والمتدبر لجميع الآيات التي ورد فيها ذكر الجنة والنار ، وما أعدَّ الله ﷻ لأوليائه من النعيم والرضوان ؛ يسبق هذه الآيات - في العادة- صفات الموعودين بذلك . وباستقراء أوصافهم نجد أنها تكاد تنحصر في المتقين والمجاهدين ، والصابرين ، والأميرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

٧- لولا الجهاد لكانت الحياة تفسد وتتعضن .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾
البقرة: ٢٥١ . قال مجاهد : «لولا دفع الله بالبار عن الفاجر ، ودفعه ببقية أخلاف الناس بعضهم عن بعض لفسدت الأرض بهلاك أهلها» .

٨- الجهاد سبب الحياة .

قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الأنفال: ٢٤ قال القرطبي -
رحمه الله تعالى : ((وقيل : المراد بقوله : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ : الجهاد . فإنه سبب الحياة في الظاهر ؛ لأن العدو إذا لم يُغزَّ غزاً ، وفي غزوه الموت ، والموت في الجهاد الحياة

الأبدية . قال الله - عز وجل - : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٩) (١) .

وفيما يلي بعض الآيات التي يذكر الله ﷻ فيها ما أعد لعباده المجاهدين من الرحمة ، والنعيم ، والرضوان (٢) :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢١٨) البقرة: ٢١٨ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١٤٢) آل عمران: ١٤٢

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١٥٧) آل عمران: ١٥٧

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٧٤) الأنفال: ٧٤

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١٦٩) ﴿ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٧٠) ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٢) آل عمران: ١٦٩ - ١٧٢

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣٤١/٧) .

(٢) يُنظر : شجاعة الصحابة ومناقبهم وحبهم للجهاد والاستشهاد ، للدكتور عبد الستار الجنابي .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَنِّلُونَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنُلُونَ وَيَقْنُلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١١١)

التوبة: ١١١

وأما الأحاديث في فضائل الجهاد ، وما أعد الله للمجاهدين ، والشهداء في الآخرة ، فهي كثيرة جداً . والمتأمل في أحاديث الفضائل يجد أن ما من عمل صالح جاء في فضيلته والترغيب فيه والثناء على أهله ، أحاديث كثيرة لم تأت لغيره من الصالحات ؛ كما جاء في شعيرة الجهاد .

ومن هذه الأحاديث :

- يقرر النبي ﷺ مكانة الجهاد في سبيل الله بين غيره من الأعمال ؛ فيجعله على رأس تلك الأعمال جميعاً - بعد الإيمان بالله ﷻ - .

روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : أي لأعمال أفضل ؟ ، قال : (إيمان بالله و جهاد في سبيله)^(١)

يقول ابن حجر رحمه الله : "وفي الحديث : أن الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان"^(٢) .

- كما بين النبي ﷺ أن القاعدين عن الجهاد من المؤمنين الصالحين مهما اجتهدوا في أعمال البر في غير ميدان الجهاد ، فلن يلحقوا بركب المجاهدين .

(١) البخاري : الصحيح (١١٧/٣) حديث رقم (٢٥١٨) مسلم : الصحيح (٨٨/١) حديث رقم (٨٤)

(٢) فتح الباري (١٤٩/٥)

✽ جاء في صحيح مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قيل : يا رسول الله ، ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ قال : (لا تستطيعونه) فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً ، كلّ ذلك يقول : (لا تستطيعونه) ثم قال : (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله)^(١).

✽ قال الإمام النووي رحمه الله : "وفي الحديث : عظيم فضل الجهاد ؛ لأن الصلاة ، والصيام ، والقيام بآيات الله تعالى أفضل الأعمال . وقد جعل الله المجاهد مثلاً مَنْ لا يفتر عن ذلك في لحظة من اللحظات . ومعلوم أن هذا لا يتأتى لأحد ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : (لا تستطيعونه)"^(٢).

- كما بينت السنة النبوية أنّ الجهاد في سبيل الله وسيلة أمان من النار ، ونجاة من العذاب يوم القيامة .

- روى البخاري في صحيحه : أنّ رسول الله ﷺ قال : (ما اغبرت قدما عبداً في سبيل الله فتمسّه النار)^(٣)
- ونظر يونس بن عُبيد إلى قدميه عند موته ، فبكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال : قدماي لم تُغبرا في سبيل الله^(٤) .

- ومن تكريم الإسلام للمجاهد في سبيل الله أن جعله أفضل الناس :

^(١) الصحيح (١٤٩٨/٣) حديث رقم (١٨٧٨)

^(٢) شرح صحيح مسلم (٨٢/٨ - ٨٣)

^(٣) الصحيح (١٠٣٥/٣) حديث رقم (٢٦٥٦)

^(٤) صفة الصفوة (٢١٧/٣)

فقد جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ : أيُّ الناس أفضل ؟ قال : (رجل يجاهد في سبيل الله)^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود)^(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : (طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة)^(٣)

- وجاء في صحيح البخاري في فضل العمل القليل من أعمال الجهاد :

قوله ﷺ : (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها)^(٤) . وقال ﷺ : (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه الذي كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان)^(٥) . وقوله ﷺ : (من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم فواق ناقة وجبت له الجنة)^(٦) . وقوله ﷺ : (ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ،

^(١) البخاري : الصحيح (١٠٢٦/٣) حديث رقم (٢٦٣٤) ؛ النسائي : السنن الكبرى (٨/٣) حديث رقم (٤٣١٣)

^(٢) صحيح رواه ابن حبان في صحيحه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٦٨) ، والترغيب (١٥٢/٢) .

^(٣) الصحيح (١٠٥٧/٣) حديث رقم (٢٧٣٠) أبو داود : السنن (٥/٣) حديث رقم (٢٧٣٠)

^(٤) البخاري : الصحيح (١٠٥٩/٣) حديث رقم (٢٧٣٥)

^(٥) النسائي : السنن الكبرى (٢٦/٣) حديث رقم (٤٣٧٦)

^(٦) النسائي : السنن الكبرى (١٨/٣) حديث رقم (٤٣٤٩) ؛ ابن ماجه : السنن (٩٣٣/٢) حديث رقم (٢٧٩٢)

ولوددت أني أُقتل في سبيل الله ، ثم أحيأ ثم أُقتل ، ثم أحيأ ثم أُقتل^(١) . وقوله ﷺ :
(بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ، وَجَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَمْحِي)^(٢) .

هذا غيظ من فيض مما جاء في السنة النبوية الكريمة في بيان فضل الجهاد ،
ومكانة المجاهدين عند الله تبارك وتعالى .

وفي المقابل ؛ ورد في التحذير من الصّدّ عن الجهاد ، والتثييط عنه ، وتزكّه من قبل
المنافقين ، وما في ذلك من المخاطر العظيمة على الأمة ؛ آيات وأحاديث كثيرة .

فمن ذلك :

١- في إفشاء الشرك والظلم ، وعلو الكفر وأهله ، واستعباد الناس بعضهم بعضاً
يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ
وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ البقرة: ٢٥١ . وقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْدَمَتِ صَوَائِعُ
وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج: ٤٠ ؛

٢- وفي أنّ تزك الجهاد سبب للذلّ والهوان ، يقول ﷺ : (لئن تركتم الجهاد ،
وأخذتم بأذنان البقر ، وتبايعتم بالعينة ليلزمنكم الله مذلةً في رقابكم ؛ لا تنفك عنكم
حتى تتوبوا إلى الله ، وترجعوا إلى ما كنتم عليه)^(٣)

^(١) البخاري : الصحيح (٢٢/١) حديث رقم (٣٦) ؛ النسائي : السنن الكبرى (١٤/٣) حديث رقم
(٤٣٤٠)

^(٢) ابن أبي شيبة : المصنف (٢١٢/٤) أحمد : المسند (٥/٢) حديث رقم (٥١١٤)

^(٣) أحمد : المسند (٤٤/٥)

وهذا أمر مشاهد في عصرنا الحاضر ؛ حيث تسلط الكفار على بلاد المسلمين ، يأكلون خيراتنا ، ويتدخلون في شؤوننا ، ويدلّون أهلينا . وما ذاك إلا بتعطيل أحكام الله ، وتزك الاحتكام إلى شرعه ؛ ومن ذلك : تعطيل شريعة الجهاد . ولن يُرفع عنّا هذا الدلّ حتى نرجع إلى ديننا ، ونحمل راية الجهاد ضد الكفار^(١) . قال ﷺ : (إذا ضن الناس بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعينه ، واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله ، أنزل الله بهم بلاءً فلم يرفعه حتى يراجعوا دينهم)^(٢) .

✽ يقول الاستاذ الكبير سيد قطب رحمه الله : "والذين يخشون العذاب ، والألم ، والاستشهاد ، وخسارة الأنفس والأولاد والأموال ؛ إذا هم جاهدوا في سبيل الله : عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد ، وفوقها الأخلاق ، والأعراض . إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلّها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله . وفوق ذلك كله : الدلّ ، والدنّس ، والعار"^(٣)

ويقول سيد قطب أيضاً رحمه الله تعالى : " ما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل فدفعت مُرغمة صاغرة أضعاف ما كان يتطلبه منها جهاد الأعداء " .

٣- وفي تزك الجهاد تفويث لمصالح عظيمة في الدنيا والآخرة ؛ منها : الأجر العظيم الذي أعده الله تعالى للمجاهدين والشهداء في الآخرة ، ومنها : الحياة العزيزة في الدنيا ، وإقامة شرع الله ﷻ ، والشهادة ، والغنائم ، والتربية الإيمانية التي لا تحصل إلا في أجواء الجهاد ، ومراغمة أعداء الله تعالى .

^(١) الجليل ، عبد العزيز بن ناصر ، التربية الجهادية في ضوء الكتاب والسنة (الرياض ، مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤٢٥هـ) بتصرف .

^(٢) أبو داود ، السنن (٢٧٤/٣) حديث رقم (٣٤٦٢)

^(٣) قطب ، سيد إبراهيم (ت ١٩٦٦م) في ظلال القرآن (٤/١٩٤١) (ط ١ ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧١م)

٤ - وفي ترك الجهاد والصد عنه تكثُر العداوة ، والفُرقة بين المسلمين . وهذا أمر مُشاهد . فما من وقتٍ تَركت فيه الأُمَّة الجهادَ في سبيل الله ﷻ إلا انشغلت بنفسها ، ووجه المسلمون حُرَابهم إلى صدور إخوانهم ، وانشغل بعضهم ببعض .

وما أجمل ما قاله ابن تيمية رحمه الله : "اعلموا أن الجهاد فيه خيرُ الدنيا الآخرة ، وفي تركه خسارةُ الدنيا والآخرة"^(١)

وقال رحمه الله تعالى أيضاً : " من صد عن الجهاد فإنه بمنزلة المحارب لله ورسوله " .

لأن في ترك الجهاد ضياع البلاد والعباد . ولذلك ؛ كان من البديهي أن يصدّ المنافقون عن الجهاد قولاً وعملاً ؛ لأنهم والكافرون ملّة واحدة في صدهم عن الجهاد ومحاربة المجاهدين ، وتشبيطهم عن الجهاد . وهذا ديدنهم في كل زمان ومكان ، وقد فضحهم الله تعالى في قوله : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ آل عمران: ١٦٨

- وترك الجهاد قرينة دالة على التفاق ، ومرض القلوب . قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَّابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ التوبة: ٤٤ - ٤٥

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "فهذا إخبارٌ من الله بأن المؤمنين لا يستأذنون الرسول ﷺ في ترك الجهاد ، وإنما يستأذنه الذين لا يؤمنون . فكيف بالتارك من غير استئذان؟! "^(١)

^(١) المجموع (١٥٢/١١)

وقال رحمه الله : "قد جعل الله لأهل محبته علامتين :

الأولى : إتباع الرسول ﷺ .

الثانية : الجهاد في سبيل الله . وذلك لأن الجهادَ حقيقته في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، وفي دفع ما يبغضه من الكفر والفسوق والعصيان" (٢) .

وأخبرنا ﷺ بأنَّ عدم الاستعداد للجهاد علامة من علامات النفاق . فقال ﷺ : (من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق) (٣) . وقال تعالى عن المنافقين في صدهم عن الجهاد أيضاً : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب: ١٨) وقال المنافقون بعضهم لبعض ، وقالوا للمؤمنين (لا تنفروا في الحر) زهادةً في الجهاد ، وشكاً في الحق ، وإرجافاً برسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ

﴿ التوبة: ٨١ ﴾

وقال تعالى أيضاً في وصف المنافقين المعوقين المشبطين للهمم ، الصادقين عن رسول الله ﷺ والقتال معه : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٦٨) وقولهم : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَافِيَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الأحزاب: ١٣)

(١) المجموع (١١/١٥٢)

(٢) العبودية (ص ٧٩) (الإسكندرية ، دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣م)

(٣) مسلم : الصحيح (٣/١٥١٧) حديث رقم (١٩١٠) أبو داود : السنن (٣/١٠) حديث رقم (٢٥٠٥)

هذه بعض أقوال المنافقين الجبناء ، الذين يدعون الناس إلى الجبن ، ويجعلونهم يتخلفون عن القتال ؛ لأن المنافقين كارهون للجهاد وأهله . فالجهاد في الإسلام دفاع عن الحق ، وحماية له ؛ والمنافقون لا يحبون الحق . قال تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨١) التوبة: ٨١

• يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : «الطعن بالمجاهدين من دلائل فسق الرجل».

• وقال الإمام أبو جعفر المكي رحمه الله تعالى كلاماً نفيساً مبيناً عظم ذنب الطعن بالمجاهدين ، فيقول : «ما رأيت رجلاً ينسب إلى العلم والدعوة عادى أهل الثغور وخاصمهم إلا محقت بركة دعوته واضمحلت ، وانفض الناس عنه» .

وجاءت مواقف المنافقين هذه في الصد عن الجهاد لعدة أسباب ؛ منها :

أولاً : الخوف ، والجبن :

قال تعالى ﴿ وَيَخْلَفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ (٥٦) التوبة: ٥٦ - ٥٧ ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (٥٧) التوبة: ٥٦ - ٥٧

والمنافقون لشدة كراهيتهم للجهاد ، ورغبتهم من ظهور نفاقهم للمسلمين ؛ يَتَمَنُّونَ الخروج من ديارهم ، والفرار منها ، للعيش في مضيق من الأرض ، يعتصمون به ؛ حتى لا تنكشف حالهم . فلو وجدوا ملجأ ، أو مغارات ، أو مدخلاً يندسون فيه لَوَلَّوْا إليه وهم يسرعون كالفرس الجموح ، لا يردُّهم شيء^(١) .

(١) لاشين ، لغة المنافقين (ص ١٩٤)

لقد كان خوُف المنافقين دافعاً من دوافع التخلف عن الجهاد في سبيل الله ،
والفرار من ميدان المعركة ؛ ليكونوا مع الخوالمف . قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعِزُّونَ بِفِرْقٍ مِّنْهُمْ
الَّتِي يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الأحزاب: ١٣) أي : هم يريدون
الفرار . وحثَّهم في ذلك : أن البيوت خالية من أهلها ، فصارت غرضة للسرقة .
ففضحهم الله : ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الأحزاب: ١٣) من الميدان .

ثانياً : حُب الحياة ، والحرص على ملذاتها :

إن حُبهم للحياة ، وكرهيتهم للموت ، والحرص على متاع الحياة الدنيا ،
والطمع في الحصول على كل شيء دون أن يقدموا شيئاً ؛ هو الذي جعلهم يخافون ،
ويكونون جنباء . ولا غرابة في ذلك ؛ فهم يشبهون اليهود . قال تعالى : ﴿ وَلَنَجِدَنَّهُمْ
أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجَةٍ مِنَ
الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ٩٦) هكذا (حياة) بالتنكير ، والتحقيق
؛ آية حياة ؟ ما قيمتها ؟ مدتها ؟ وعلى حساب من ؟ المهمم : أنهم يعيشون ، وبأي ثمن
كان .

المنافقون الذين رسخوا في نفوسهم حياة اليهود ، وسلكوا هذا المنهج ،
يركضون وراء مصالحهم أينما كانت ، ولو مع الكافرين . ولأجل ذلك يوالون الكفار
واليهود . قال تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ
فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَدْمِينًا ﴾ (المائدة: ٥٢)

وخلاصة القول :

إن قضايا العصر الشائكة ، وجراحاته النافذة ، وآلامه المتداخلة ، وكفرياتِه ،
ونفاقه ؛ لا حل لها إلا بالجهاد في سبيل الله بالسيف ، والسنان ، والعلم والبيان ،

ومقاتلة الكفار المبدلين لدين الله ، والطَّغَاةِ ، والمنافقين ، والمرتدين : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (٢٨) إبراهيم: ٢٨

فالواجب يحتم علينا إحياء فقه الجهاد ، وتعليمه ، وتدريبه في البيوت ، والمساجد ، والمحاضرات ، والخطب ، وتدريب سير الصحابة الأبطال ﷺ ، والقادة في المعارك والحروب ، وفي مقدمتهم : القائد الأعلى ، وإمام المجاهدين رسولنا محمد ﷺ . أي : يجب إعداد الأمة جماعات وأفراداً للجهاد في زماننا هذا . وعلينا كذلك أن نحذّر من العواقب الوخيمة على الأمة إن هي رَكَنت إلى الدنيا ، وتركت الجهاد . وكما قلنا : إن الصّدَّ عن الجهاد ، والركون إلى الدنيا هو منهجٌ ثابتٌ للمنافقين قديماً وحديثاً .

أما منهج النبي ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة فهو مجاهدة الكفار والمنافقين ، والإغلاظ عليهم . قال تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغَظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) التحريم: ٩ . وقال ﷺ : (بُعِثْتُ بِالسِّيفِ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ ، وَجَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رِمْحِي) (١) . وقال ﷺ : (أَنَا الضَّحُوكُ الْقِتَالِ) يعني : أَنَّهُ ضَحُوكٌ فِي وَجْهِ وَلِيَّتِهِ ، قَتَالَ لَوْجَهُ عَدُوَّهُ (٢) .

﴿ فلا بدّ من رفع راية الجهاد في سبيل الله تعالى ، وإحياء هذه الفريضة الغائبة عن كثير من المسلمين . ولا بدّ من تربية أبناءنا وأجيالنا على حبّ الجهاد في سبيل الله ، والتطلّع إلى نيل شرف الشهادة في سبيل الله . ولا بدّ أن نعلّمهم ذلك ، ونجعلهم في صلب عقيدتهم ، وأنّ عزّ وشرف الأمة في الجهاد في سبيل الله ، وأنّ الأمة ما حرصت على الجهاد وتمتّت الشهادة في سبيل الله إلا وهب الله لها الحياة ، وأعزّها بين الأمم ،

(١) أحمد : المسند (٥٠/٢) حديث رقم (٥١١٤)

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن (٤٠٣/٢)

وما تخلفت الأمة عن الجهاد وتركته ، وركنت إلى الدنيا وملذاتها ، وخافت من الموت ، إلا كُتِبَ عليها الذُّلُّ ، والعارُ ، والمهانةُ ، والانتكاسةُ .

فهنيئاً لمن حَمَلَ روحَه على كَفِّهِ حُبّاً للشهادة في سبيل الله ، ونشراً لهذا الدين في أرجاء الأرض . فهؤلاء هم الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأخلصوا لله دينهم لله . فرضي الله عنهم ، ورضوا عنه ، وذلك دين القيمة .

✽ روى ابن عساكر مُراسلةً بديعةً جرّت بين عبد الله بن المبارك ، وبين الفضيل بن عياض -رحمهما الله- تُبيّن فضل الجهاد ، ومنزلة الشهادة . قال : روى محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه ، قال : "أملى عَلَيَّ عبدُ الله بن المبارك وهو بطرسوس -ثَعْرٌ في بلادِ الرُّومِ- سنةَ سبعٍ وسبعين ومائةٍ هذه الأبياتِ ، وأنفَذَها معي إلى الفضيل بن عياض . قال :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعبُ
من كان يخضب خده بدموعه	فنجورنا بدمائنا تتخضبُ
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا	وهج السنايك والغبار الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذبُ
لا يستوي غبار أهل الله في	أنف امرئ ودخان نار تلهبُ
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذبُ

قال : فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرّفت عيناه ، وقال : صدّق أبو عبد الرحمن ، ونصحني ^(١) .

^(١) تاريخ دمشق (٤٤٩/٣٢)

ب - ولاية المنافقين للكافرين ، ومناصرتهم على المسلمين . وحكم ذلك من الكتاب والسنة ، وأقوال العلماء :

إن من أعظم أضرارِ المنافقين على المسلمين : ولايتهم للكافرين من اليهود والنصارى والمشركين ، ومناصرتهم بالقول والعمل على المسلمين .

منذ أن قالها زعيم المنافقين ابن سلول صراحةً ؛ يوم حاصر المسلمون بني قينقاع : "إني رجل أخاف الدوائر ، ولا أبرأ من ولاية يهود" . كان هذا هو منهج المنافقين في عصر الرسالة ، ولا زال إلى عصرنا الحاضر ^(١) .

وأفراخ ابن سلول من المنافقين المعاصرين والباطنيين والصفويين احفاد ابن العلقمي يقولون ويفعلون أكبر مما قاله وفعله كبيرهم .

وقد أكد القرآن الكريم منهج المنافقين بموالة الكفار بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنِئْتُمْ بِهِمْ عُقَّةٌ أَلْقَوْهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (١٣٩) وهو يهودي ، ومن يتولى النصارى فهو نصراني ، ومن يتولى المشركين فهو مشرك . قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥١) المائدة: ٥١ ولقد حرّم الله على المؤمنين موالة الكافرين ، ولو كانوا أقرب الناس نسباً . قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) التوبة: ٢٣ وقال تعالى ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ

^(١) ابن هشام : السيرة النبوية (٣/٣١٥)

كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَدَخَلَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

المجادلة: ٢٢

✽ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تفسير هذه الآية : "إنه لا يوجد مؤمن يوادُّ كافراً . فَمَنْ وادَّهُ فليس بمؤمن" . وقال : "المشابهة مَظِنَّة المودَّة ؛ فتكون مُحَرَّمَةً" .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية أيضاً : قيل : نزلت : (ولو كانوا آباءهم) في أبي عبيدة حين قتل أباه يوم بدر . (أو أبناءهم) في الصديق يومئذ هم بقتل عبد الرحمن . (أو إخوانهم) في مُصعب بن عمير ؛ قتل أخاه عبيد بن عمير . (أو عشيرتهم) في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً . وحمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث ؛ قتلوا عتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة يومئذ^(١) .

إن المسلم لا يصير مسلماً حقاً حتى يبرأ من اليهود ، والنصارى ، والباطنيين ، والكافرين . ولا يجتمع في قلب المسلم محبة المؤمنين ، ومحبة الكافرين . فهذا من خلق المنافقين ؛ لأن الله تعالى أمرنا بقطع ولائنا لكل كافر مهما كان قريباً ، وأمرنا بغضهم بالقلب ، واللسان ، والجوارح .

فلنتأمل قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي أمرنا تعالى بالتأسي به وبإخوانه المرسلين عليهم السلام ؛ بالعمل بدينهم الذي بعثهم به ، فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا

(١) التفسير (٢١٧/٤-٢١٨) - قال البيهقي في السنن الكبرى (٢٧/٩) بعد أن ذكر قصة قتل أبي عبيدة لأبيه : هذا منقطع وقال ابن حجر في التلخيص الحبير ، (١٠٢/٤) : هذا معضل .

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبُغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ
لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ الممتحنة: ؛

ولتأمل تقديم العداوة على البغضاء ؛ لأن الأولى أهم من الثانية . فإن الإنسان قد يُبغض المشركين ولا يعاديهم ، فلا يكون آتياً بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء . ولا بد أن تكون العداوة والبغضاء باديتين ظاهرتين ؛ لأن البغضاء متعلقة بالقلب ، وهي لا تنفع حتى تظهر آثارها وتبين علاماتها . ولا تكون كذلك حتى تقترن بالعداوة والمقاطعة ؛ فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين . إذ لا بد من إظهار العداوة والبغضاء ، والتصريح بالعداوة ، وتكفيرهم جهاراً ، والمفارقة بالبدن .

وأصل البراءة المقاطعة بالقلب واللسان واليد ، وهي أصل الإيمان ، قال ﷺ :
(مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَابْغَضَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)^(١) .

فالحبُّ لله هو الولاء ؛ الذي معناه: محبة المؤمنين لأجل إيمانهم ، ونصرتهم ، وإعانتهم ورحمتهم ، وما يلحق ذلك من حقوق المؤمنين ؛ لأن من أوجب الواجبات نصرة المسلم لأخيه إذا ظلم أو اعتدى عليه ، في أي مكان كان ، ومن أي جنسية كان . وذلك بالدفاع عنه ، ونصرتِه باليد ، وبالمال ، وبالقلم ، وباللسان ؛ فيما يحتاج إلى النصرة فيه .

وأما البغض في الله فهو البراء ؛ الذي معناه : بُغض أعداء الله من المنافقين وعموم الكافرين ، وعداوتهم ، وبغضهم ، والبُعدُ عنهم . وجهادُ الحربيين منهم ؛ بحسب القدرة .

(١) أبو داود : السنن (٢٢٠/٤) حديث رقم (٤٦٨١) ؛ الترمذي : السنن (٦٧٠/٤) حديث رقم (٢٥٢١)

وحكم الولاء والبراء أنهما واجبان ، وهما أصل عظيم من أصول الإيمان ؛ كما أكد ذلك ﷺ حيث قال : (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله)^(١)

وقد كان النبي ﷺ يبايع أصحابه على تحقيق أصل الولاء والبراء . فعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ، قال : أتيت النبي ﷺ وهو يبايع ، فقلت : يا رسول الله ، أبسط يدك حتى أبايعك ، واشترط علي ، فأنت أعلم . قال : (أبايعك على أن تعبد الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتناصح المسلمين ، وتفارق المشركين)^(٢)

وفي هذا الحديث العظيم ، إلحاق مفارقة لمشركين بأركان الإسلام ، ودعائه العظام .

✽ يقول ابن القيم رحمه الله ^(٣) : (لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة . كما قال الله تعالى عن إمام الحنفاء إبراهيم رضي الله عنه أنه قال لقومه : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾^(٧٥) أَنْتُمْ وَعَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴾^(٧٦) الشعراء: ٧٥ - ٧٦ يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن : "والمرء قد ينجو من الشرك ، ويحب التوحيد ؛ ولكن يأتيه الخلل من جهة عدم البراءة من أهل الشرك ، وتزك موالاة أهل التوحيد ، ونصرتهم ؛ فيكون متبعاً لهواه ، داخلاً في الشرك في شغب تهديم دنياه وما بناه ، تاركاً من التوحيد أصولاً وشعباً لا يستقيم معها إيمانه الذي ارتضاه . فلا يحب ولا يبغض لله ، ولا يوالي لجلال من أنشأه وسواه . وكل هذا يؤخذ من لا إله إلا الله"^(٤) .

^(١) ابن أبي شيبة : المصنف (٨٠/٧) حديث رقم (٣٤٣٣٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه

^(٢) النسائي : السنن الكبرى (٤٢٨/٤) حديث رقم (٧٨٠٠) الطبراني : المعجم الكبير (٣١٧/٢) حديث رقم (٢٣١٨)

^(٣) الجواب الكافي (ص ٢١٣) (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)

^(٤) الدرر السنية - جزء الجهاد - (ص ٦٨١)

✽ (لا إله إلا الله) تقتضي أن نوالي أنصارها ومعتنقها ، و (لا إله إلا الله) تقتضي البراءة ممن يعادي هذه الكلمة ويحاربها . ومعاداة من لا يدين بها .

✽ وقد يباح للمسلم -في حال الاستضعاف- ألا يظهر العداوة لأعداء الله ولأعداء دينه ، ولكنه لم يُبح له في أي حال من الأحوال أن يواليهم . فعدم إظهار العداوة بسبب الاستضعاف شيء ، والموالاتة شيء آخر .

فالواجب الشرعي يحتم على كل مسلم بُغض جميع الكفار والمشركين . وهذا البغض -كما قلنا- يكون بالبراءة منهم ، ومعاداتهم ، ومجاهرتهم بالعدوان . فهذه عبادة يُتقرب بها إلى الله تعالى ؛ لأن الكفار والمنافقين أعداء لله ولرسوله ﷺ ، وللمؤمنين . فيجب علينا أن نبغضهم ونعاديهم بأيدينا وألسنتنا . كما يجب على المسلم الاعتزاز بدينه ، وأن يجمع في قلبه كل أنواع البراءة والعداوة والبغض والكراهية لأعداء الله ، وأعداء دينه .

✽ يقول ابن القيم رحمه الله : "لما نهى الله المؤمنين عن موالاتة الكفار ، اقتضى ذلك معاداتهم ، والبراءة منهم ، ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال"^(١) .

✽ ويقول ابن القيم أيضاً : " ومن لم يكن في قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من الكفر والعصيان لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه " .

✽ وما أجمل ما قاله أبو الوفا بن عقيل رحمه الله ؛ مبيّناً مكانة البراءة من الكفار في شرع الله : "إذا أردت أن تعرف محلّ الإسلام من أهل الزمان ، فلا تنظر إلى ازدحامهم في أبواب المساجد ، ولا في ضجيجهم ب(لبيك) ولكن انظر إلى مواطأتهم لأعداء الشريعة ، فالملجأ الملجأ إلى الحصن الحصين ، والاعتصام بحبل الله المتين ، والانحياز إلى أوليائه المؤمنين . والحذر الحذر من أعدائه المخالفين ؛ فأفضل القرب

^(١) بدائع الفوائد (٦٩/٣)

إلى الله تعالى مثت من حاد الله ورسوله ، وجهاده باليد واللسان والجنان ؛ بقدر الإمكان" (١) .

ويقول سليمان بن سحمان :

فمن لم يعادِ المشركين ولم يُوالِ ولم يُبغض ولم يتجنّب
فليس على منهج سنة أحمد وليس على منهج قويمٍ مُعربٍ

✽ يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : "فهل يتيم الدين أو يُقام علم الجهاد ، أو علم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلا بالحب في الله والبغض في الله ، والموالة في الله ؟! ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة ، ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء ؛ لم يكن فرقاناً بين الحق والباطل ، ولا بين المؤمنين والكفار ، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" (٢) .

✽ ويقول الشيخ سليمان (٣) أيضاً في هذا المقام : "قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ الحشر: ١١ .

فإذا كان وعد المشركين في السر ، بالدخول معهم ، ونصرتهم ، والخروج معهم إن أجلوا : نفاقاً وكفراً ؛ إن كان كاذباً . فكيف بمن أظهر ذلك صادقاً ، وقدم عليهم ،

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، جمع عبد الرحمن بن قاسم العاصمي -جزء الجهاد - (ص ٢١٨) (ط ٢ ، مكة المكرمة مطبعة الحكومة ، ١٣٨٥هـ)

(٢) أوثق عرى الإيمان (ص ٣٨)

(٣) الدلائل في حكم موالة أهل الإشراك (ص ٥٢)

ودخل في طاعتهم ، ودعا إليها ، ونصرهم ، وانقاد لهم ، وصار من حملتهم ، وأعانهم بالمال والرأي؟! هذا ؛ مع أن المنافقين لم يفعلوا ذلك إلا خوفاً من الدوائر .

قال تعالى ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ المائدة: ٥٢

حكم ولاية الكافرين ومناصرتهم:

إن من ضرورة البيان ، وكمال البلاغ ، التذكير بخطورة موالاتة المشركين ، وعقوبة الخروج عن هذا الأصل العظيم ، مع بيان آثاره الوخيمة على الإسلام وأهله ؛ حتى نستطيع أن نضع أيدينا على علة وصول الأمة إلى الحالة المزرية ؛ من الخسار ، والانكسار بين يدي الأعداء ؛ جرّاء التفريط في القيام بحقوق هذا الأصل الأصيل .

وما نحن فيه اليوم من تسلط اليهود والنصارى والمنافقين علينا ، ومن سلب لمقدساتنا ، وسفك لدمائنا ، وحرق لمساجدنا ، وانتهاك لأعراضنا من قبل اليهود والنصارى والباطنيين . ما ذلك كله إلا بالوقوع في موالاتة أعداء الله تعالى ، واتخاذهم أولياء من دون المسلمين ، واتخاذهم مشرّعين من دون الله تعالى ، واتخاذهم أصدقاء وأحباب ، وأخلاء وبطانة . والله ينهى عن كل ذلك في كتابه ؛ حيث نهى عباده المؤمنين ، وحذرهم من الوقوع في ذلك قائلاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِيٰطَنَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُوًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ ءَايَاتٍ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران: ١١٨

﴿ إن نصرة الكافرين على المسلمين بأي نوع من أنواع النصرة أو المعاونة ؛ ولو كانت بالكلام المجرد ، هي كفرٌ بواح ، ونفاقٌ ضراح ، وصاحبها كافرٌ مرتدٌ عن

الإسلام . فقد أجمع علماء الإسلام على أنّ من ظاهر الكفار على المسلمين ، وساعدهم بأي نوع من أنواع المساعدة ، فهو كافرٌ مثلهم^(١) .

وقد ألف العلماء في هذه المسألة التآليف ، وأفردوا لها التصانيف ، وكلامهم في حكم المنافقين الذين يناصرون الكفار لا يمكن حصره . فنذكر منهم :

أولاً : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

استفتى عن قومٍ ينتسبون إلى الإسلام ، وقد أعانوا التتار عندما هاجموا بلاد المسلمين ، فأفتى رحمه الله برّدّتهم عن الإسلام ، ويُقتلون قتل المرتد^(٢) . وقال : "من جمز^(٣) إلى معسكر التتار ولحق بهم ، ارتدّ ، وحلّ دمه"^(٤) .

✽ وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى أيضاً : " من أعانهم (الكفار) بأن حمل المحبرة لكتابهم فقد كفر " .

✽ وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذه المسألة العقديّة الخطيرة كثيراً ، يوم ابتليت الأمة الإسلامية بالتتار ، وبالأذنين ناصروهم من المنتسبين للإسلام . وله رسائل وفتاوى كثيرة في هذا الأمر . ومما قاله أيضاً : "فمن قفزَ منهم إلى التتار ، كان أحقَّ بالقتال من كثيرٍ من التتار ؛ فإن التتار فيهم المُكره وغير المُكره . وقد استقرتْ السُّنة بأن عقوبة المرتدّ أعظم من عقوبة الكافر الأصلي ؛ من وجوه متعدّدة"^(٥) .

(١) ابن باز ، نواقض الإسلام (ص ٢٤)

(٢) مجموع الفتاوى (٥٢٠/٢٨) ؛ وينظر : ابن كثير : البداية والنهاية (١٣/١٤)

(٣) أي : ذهب . وجاء في حديث ماعز : (فلما أذلقته الحجارة جمز) أي : أسرع ذهاباً من القتل . ابن منظور : لسان العرب (٣٢٣/٥) مادة (جمز)

(٤) مجموع الفتاوى (٥٣٤/٢٨)

(٥) مجموع الفتاوى (٥٣٤/٢٨)

✽ ويقول أيضاً: "وإذا كان السلف قد سموا مانعي الزكاة مرتدين ، ومع كونهم يصومون ويصلون ولم يكونوا يقاتلون جماعة المسلمين ، فكيف بمن صار مع أعداء الله ورسوله ، قاتلاً للمسلمين؟" (١) .

ثانياً : ابن حزم رحمه الله :

قال : "صحَّ أن قوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١ إنما هو على ظاهره ؛ بأنه كافر في جُملة الكفار . وهذا حقٌّ لا يختلف فيه اثنان من المسلمين" (٢) .

ثالثاً : أبو عبد الله القرطبي رحمه الله :

قال في تفسيره : "قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ ﴾ أي : يعضدهم على المسلمين ﴿ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ : بين تعالى أن حكمه كحكمهم . وهو يُمْنَعُ إثبات الميراث للمسلم من المرتدِّ . وكان الذي تولاهم ابنُ أبي . ثم هذا الحكم باقٍ إلى يوم القيامة في قطع الموالاة" (٣) .

رابعاً : الإمام البرزلي رحمه الله :

قال في كتاب "القضاء من النوازل" : "إنَّ أميرَ المسلمين يوسفُ بن تاشفين اللمتوني رحمه الله استفتى علماء زمانه - وهم من المالكية - في استنصار ابن عباد

(١) المرجع ذاته (٢٨ / ٥٣٠)

(٢) ابن حزم ، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) المحلى بالآثار شرح المجلى بالاختصار (١١ / ١٣٨) تحقيق أحمد محمد شاكر (بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، د.ت)

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦ / ٢١٧)

الإشيلي حاكم اشبيلية بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعينوه على المسلمين . فأجابه جلهم بردته وكفره . وهذا في حدود عام (٤٨٠هـ) تقريباً^(١) .

خامساً : ابن القيم رحمه الله :

قال موضحاً حكم الله في من يوالي الكافرين : "إن الله قد حكم - ولا أحسن من حكمه!!- أنه من تولى اليهود والنصارى فهو منهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٥١ فإذا كان أولياؤهم منهم بنص القرآن كان لهم حكمهم . وهذا عام . وخص منهم من يتولاهم ، ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام ؛ فإنه لا يقرب ، ولا تقبل منه الجزية ؛ بل الإسلام ، أو السيف . لأنه مرتد بالنص والإجماع"^(٢) .

سادساً : الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

ذكر من نواقض الإسلام^(٣) العشرة الناقضة الثامن ، فقال : "الناقض الثامن : مظاهرة المشركين ، ومعاونتهم على المسلمين . والدليل : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٥١

وقال : إن الإنسان لا يستقيم له إسلام ، ولو وحّد الله وترك الشرك ؛ إلا بعداوة المشركين . كما قال تعالى : ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي

^(١) الناصري ، أبو العباس أحمد بن خالد ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٧٥/٢) تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، (ط١ ، الدار البيضاء ، دار الكتب ، ١٩٩٧م)

^(٢) أحكام أهل الذمة (ص١/٦٧ - ٦٩) القحطاني ، محمد بن سعيد ، الولاء والبراء (ص٢٣٣-٢٣٦) (ط١ ، الرياض ، دار طيبة للنشر ١٤٠٢هـ) بتصرف يسير .

^(٣) الواجبات المتحتمات ، (ص ٥)

قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ المجادلة: ٢٢

وقال رحمه الله: "أصل دين الإسلام وقاعدته أمران:

الأول: الأمر بعبادة الله وحده ، والتحريض على ذلك ، والمواودة فيه ،
وتكفير من تركه .

الثاني: النهي عن الشرك بالله في عبادته ، والتغليظ فيه ، والمعاداة فيه ،
وتكفير من فعله .

سابعاً : وقال الشنقيطي رحمه الله :

" ويفهم من ظواهر الآيات أن من تولى الكفار عمداً واختياراً ، رغبة فيهم : أنه
كافر مثلهم " (١) .

ثامناً : العلامة حمد بن عتيق رحمه الله :

قال : "فأما مُعاداة الكفار والمشركين ، فاعلم أن الله ﷻ قد أوجب ذلك ، وأكد
إيجابه ، وحرّم موالاتهم ، وشدّد فيها ؛ حتى إنه ليس في كتاب الله حكم فيه من الأدلة
أكثر ولا أبين من هذا الحكم ؛ بعد وجوب التوحيد ، وتحريم ضده " (٢) .

وقال : "قد دلّ القرآن والسنة على أن المسلم إذا حصلت منه موالاته أهل الشرك
والانقياد لهم ؛ ارتدّ بذلك عن دين الله . فتأمل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى
أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴾ ﴿٢٥﴾ محمد: ٢٥ مع قوله

(١) أضواء البيان ، (٩٩/٢)

(٢) حمد بن عتيق ، سبيل النجاة والفكاك من موالاته المرتدين وأهل الإشراك (ص ٢٤) (ط ١ ، الرياض
١٤١٤هـ ،

تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وَأَمِنَ النَّظَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾^١ إِنَّكُمْ إِذَا مَاتَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ النساء: ١٤٠

تاسعاً : الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله :

قال : "أَجْمَعَ العلماءُ سلفاً وخلفاً من الصحابة والتابعين والأئمة ، وجميع أهل السنة : أن المرء لا يكون مسلماً إلا بالتجرّد من الشرك الأكبر ، والبراءة منه ، ومن مَنْ فَعَلَهُ ، وبُغِضِهِمْ ، ومعاداتهم ؛ بحسب الطاقة ، والقدرة ، والإخلاص . والأعمال كلها لله"^(١) .

عاشراً : الإمام سفيان الثوري رحمه الله :

قال : "مَنْ لاقَ لَهُم بِالذَّوَاةِ ، أَوْ بَرَى لَهُمْ قَلَمًا ، أَوْ ناولَهُمْ قِزْطاسًا ؛ فهو منهم"^(٢)

حادي عشر : الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ(٣) :

قال : "التولّي كُفْرٌ يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ . وهو كالذَّبِّ عنهم ، وإعانتهم بالمال ، والبدن ، والرأي"^(٤) .

ثاني عشر : الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله :

(١) الدرر السنية (١١/٥٤٥)

(٢) ابن تيمية : المجموع (٧/٦٤)

(٣) هو : عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب . من علماء نجد ، نشأ في الإحساء ، ودرس في الرياض ، وتلمذ على يديه خلق كثير ، وله بعض الفتاوى والرسائل . توفي في الرياض سنة (١٣٣٩هـ) يُنظَرُ : علماء نجد (١/٧٨)

(٤) الدرر السنية (٧/٢٠١)

قال : "وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين ، وساعدهم عليهم بأي نوع من المساعدة ، فهو كافر مثلهم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ المائدة: ٥١

ثالث عشر : أحمد محمد شاكر رحمه الله :

محدث الديار المصرية . قال في كتابه "كلمة حق" ، تحت عنوان : بيان إلى الأمة المصرية خاصة وإلى الأمة العربية والإسلامية عامة ، في بيان حكم التعاون مع الإنجليز والفرنسيين ، أثناء عدوانهم على المسلمين : "أما التعاون مع الإنجليز بأي نوع من أنواع التعاون ، قل أو كثر ، فهو الردة الجامعة ، والكفر الصراح . لا يقبل فيه اعتذار ، ولا ينفع معه تأؤل ، ولا يُنجي من حُكمه عَصَبِيَّةُ حمقاء ، ولا سياسة خرقاء ، ولا مجاملة هي النفاق ؛ سواءً أكان ذلك من أفراد ، أو حكومات ، أو زعماء . كلهم في الكفر والردّة سواءً ؛ إلاّ مَنْ جَهَلَ ، أو أخطأ ، ثم استدرك أمره ، فتاب ، وأخذ سبيل المؤمنين . فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم ، إن أخلصوا لله ، لا للسياسة ، ولا للناس .

وأظني قد استطعت الإبانة عن حكم قتال الإنجليز ، وعن حكم التعاون معهم بأي لون من ألوان التعاون أو المعاملة ، حتى يستطيع أن يفقهه كل مسلم يقرأ العربية ، من أي طبقات الناس كان ، وفي أي بقعة من الأرض يكون .

وأظن أنّ كلّ قارئ لا يشك الآن في أنه من البديهي الذي لا يحتاج إلى بيان أو دليل : أنّ شأن الفرنسيين في هذا المعنى شأنُ الإنجليز ، بالنسبة لكل مسلم على وجه الأرض ؛ فإنّ عداة الفرنسيين للمسلمين ، وعصبيّتهم الجامعة في العمل على محو الإسلام ، وعلى حرب الإسلام ، أضعافُ عصبية الإنجليز وعدائهم . بل هم حمقى في العصبية والعداء ، وهم يقتلون إخواننا المسلمين في كل بلد إسلامي لهم فيه حُكم أو نفوذ ، ويرتكبون الجرائم والفظائع ما تصغرُ معه جرائم الإنجليز ووحشيتهم وتتضاءلُ ،

فهم والإنجليز في الحكم سواء ، ودمائهم وأموالهم حلال في كل مكان . ولا يجوز للمسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يتعاون معهم بأي نوع من أنواع التعاون ، وإن التعاون معهم حكمه حكم التعاون مع الإنجليز : الردة ، والخروج من الإسلام جملة ؛ أيًا كان لون التعاون ، أو نوعه ، أو جنسه

✽ ألا فليعلم كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض : أنه إذا تعاون مع أعداء الإسلام ، مستعدي المسلمين ؛ من الإنجليز ، والفرنسيين ، وأحلافهم ، وأشباههم ، بأي نوع من أنواع التعاون ، أو سألهم فلم يحاربهم بما استطاع ؛ فضلاً عن أن ينصرهم بالقول أو العمل على إخوانهم في الدين : إنه إن فعل شيئاً من ذلك ثم صلى فصلاته باطلة ، أو تطهر بوضوء أو غسل أو تيمم ، فظهوره باطل ، أو صام فرضاً أو نفلاً فصومه باطل ، أو حج فحجه باطل ، أو أدى زكاة مفروضة ، أو أخرج صدقة تطوعاً فزكاته باطلة مردودة عليه ، أو تعبد لربه بأي عبادة ، فعبادته باطلة مردودة عليه ، ليس له شيء من ذلك أجر ، بل عليه فيه الإثم والوزر .

✽ ألا فليعلم كل مسلم : أنه إذا ركب هذا المركب الدنيء حبط عمله ، من كل عبادة تعبد بها لربه قبل أن يرتكس في حماة هذه الردة التي رضيها لنفسه . ومعاذ الله أن يرضى بها مسلم حقيق بهذا الوصف العظيم ، يؤمن بالله وبرسوله . ذلك بأن الإيمان شرط في صحة كل عبادة ، وفي قبولها ، كما هو بديهي معلوم من الدين بالضرورة ، لا يخالف فيه أحد من المسلمين ، وذلك بأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ المائدة: ٥

✽ ألا فليعلم كل مسلم وكل مسلمة : أن هؤلاء الذين يخرجون على دينهم ، ويناصرون أعداءهم : من تزوج منهم فزواجه باطل بطلاناً أصلياً ، لا يلحقه تصحيح ، ولا يترتب عليه أي أثر من آثار النكاح ، من ثبوت نسب وميراث وغير ذلك . وأن من كان متزوجاً منهم بطل زواجه كذلك . وأن من تاب منهم ورجع إلى ربه وإلى دينه ،

وحارب عدوه ونصر أمته ، لم تكن المرأة التي تزوجها حال الردّة ، ولم تكن المرأة ارتدّت وهي في عقد نكاحه زوجاً له ، ولا هي في عصمته ، وأنه يجبُ عليه بعد التوبة أن يستأنف زواجه بها ، فيعقد عليها عقداً صحيحاً شرعياً ، كما هو بديهي واضح .

ألا فَلتَحْتِطِ النساءُ المسلمات ، في أي بقعة من بقاع الأرض ، وليتوثقن قبل الزواج من أن الذين يتقدمون لنكاحهن ليسوا من هذه الفئة المنبوذة الخارجة عن الدين ؛ حِيطةً لأنفسهن ولأعراضهن أن يعاشرن رجالاً يظنونهم أزواجاً وليسوا بأزواج ، فإنّ زواجهم باطل في دين الله .

ألا فليعلم النساء المسلمات اللاتي ابتلاهن الله بأزواج ارتكسوا في حماة هذه الردة : أنه قد بطل نكاحهن ، وصِرْنَ محرّماتٍ على هؤلاء الرجال ؛ ليسوا لهن بأزواج ، حتى يتوبوا توبة صحيحة عملية ، ثم يتزوجوهن زوجاً جديداً صحيحاً .

✽ ألا فليعلم النساء المسلمات : أنّ مَنْ رَضِيَتْ منهن بالزواج من رجلٍ هذه حاله ، وهي تعلم حاله ، أو رضيت بالبقاء مع زوجٍ تعرف فيه هذه الردّة ؛ فإنّ حكمها وحكمه في الردّة سواءً . ومعاذ الله أن ترضى النساء المسلمات لأنفسهن ، ولأعراضهن ، ولأنساب أولادهن ، ولدينهن شيئاً من هذا .

ألا إنّ الأمر جدُّ وليس بالهزل ، وما يغني فيه قانون يصدر بعقوبة المتعاونين مع الأعداء ، فما أكثر الحيل للخروج من نصوص القوانين ، وما أكثر الطرق لتبرئة المجرمين بالشبهة المصطنعة ، وباللحن في الحجّة . ولكن الأمة مسئولة عن إقامة دينها، والعمل على نصرته في كل وقت وحين . والأفراد مسؤولون بين يدي الله يوم القيامة عما تجترحه أيديهم ، وعما تنطوي عليه قلوبهم .

فليُنظر كل امرئٍ لنفسه ، وليكن سياجاً لدينه من عبث العابثين ، وخيانة الخائنين . وكل مسلم إنما هو على ثغر من ثغور الإسلام ، فليحذر أن يُؤتى الإسلام من قبله . وإنما النصر من عند الله ، ولينصُرَنَّ اللهُ من ينصُرُهُ ^(١) .

خلاصة الحكم في هذه المسألة :

إنَّ إعانة الكافرين على المسلمين ردّة عن الإسلام ، وصاحبها يستتاب منها ، فإن تاب ، وإلا قُتل مرتداً ؛ لا يُغسل ، ولا يُكفن ، ولا يُصلى عليه ، ولا يُدفن في مقابر المسلمين . وهو مع ذلك يقول "لا إله إلا الله" ، ويفعل الأركان الخمسة .

فليعلم المسلم : أنَّ الدخولَ تحت راية الكفار ، والقتالَ معهم ، أو إعانتهم بأي نوع من أنواع الإعانة ؛ كأن يكون قوة إسنادٍ لهم ، أو قوّة تأمينٍ خطوطِ الإمدادِ . أو تأمينُ خطوطِ التموينِ ، وجلبُ الطعامِ أو الشرابِ لهم ، أو حراستهم ، وتنسيقُ الاتصالاتِ لهم ، أو غير ذلك من أوجه الإعانة : ففعله هذا كفرٌ بالله العظيم ، وقد ارتكب بذلك ناقضاً من نواقض الإسلام . فهذا هو : الكُفْرُ البُواح ، والتّفاقُ الصُّراح ، والرِدّةُ الجامحة ؛ التي لا يُقبل معها أيُّ عُذرٍ .

ويجب أن نعلم : أنَّ مَنْ عُرِفَ عنه عملاً يُخْرِجُ من المِلَّةِ ؛ مثل : مظاهره المشركين والكافرين وإعانتهم على المسلمين ، بيدٍ أو لسانٍ أو قلبٍ أو مالٍ . أو أعان المشركين على المسلمين ، وأمدّ المشركين من ماله بما يستعينون به على حرب المسلمين ؛ فقد كفرَ ، ووجب جهادُه ، وقتالُه قتالَ المرتد ؛ لأن البراءة من المشركين شرط لصحة التوحيد وقبوله ، ومن ثمَّ كانت موالاتهم ناقضٌ من نواقض التوحيد ، ورِدّةٌ عن المِلَّةِ الإسلامية ، ومن أعظم أسباب المروقِ من الدين .

^(١) كلمة حق ، (ص ١٢٦ - ١٣٧) ، باختصار .

✽ ويلخص لنا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء لله ، ولدينه ، ولأوليائه المؤمنين ، وفي البراءة والعداوة للكفار ، والمشركين ، والمنافقين ، والباطنيين . يقول رحمه الله : "وَلْيَعْلَمَ : أَنَّ الْمُؤْمِنَ تَجِبُ مَوَالِيَتُهُ ؛ وَإِنْ ظَلَمَكَ وَاعْتَدَى عَلَيْكَ . وَالْكَافِرُ تَجِبُ مَعَادَاتُهُ ؛ وَإِنْ أَعْطَاكَ وَأَحْسَنَ إِلَيْكَ . فَإِنَّهُ تَعَالَى بَعَثَ الرَّسَلَ ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لَهِ . فَيَكُونُ الْحُبُّ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَالْبَغْضُ لِأَعْدَائِهِ ، وَالْإِكْرَامُ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَالْإِهَانَةُ لِأَعْدَائِهِ ، وَالثَّوَابُ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَالْعِقَابُ لِأَعْدَائِهِ" (١)

✽ وما أروع الأثر الصحيح الذي استشهد به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الخليفة الملهم الراشد عمر بن الخطاب ؓ ، عندما كتب إليه خالد بن الوليد ؓ أن بالشام كاتباً نصرانياً ، لا يقوم الخراج إلا به . فكتب إليه عمر : لا تستعمله . فكتب إليه خالد : لا غنى بنا عنه . فكتب إليه عمر : لا تستعمله . فكتب إليه خالد : إن لم نُؤَلِّهِ ضَاعَ الْمَالُ . فكتب إليه عمر : ماتَ النَّصْرَانِيُّ ، وَالسَّلَامُ .

✽ وفي حادثة أخرى مع أبي موسى الأشعري ؓ ، قال له عمر ؓ : لا تُكْرِمْهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللَّهُ ، وَلَا تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمْ اللَّهُ ، وَلَا تَأْمَنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللَّهُ (٢) .

التمييز بين التولي والموالاتة :

التولي : هو اتّخاذ الكفارِ أولياء ؛ بُصرتهم ، ومحبتهم ، ومظاهرتهم على المسلمين ، وإعانتهم بأيّ نوعٍ من أنواع الإعانة بالقول ، أو الفعل . فهو كفرٌ بلا شك ، وناقضٌ من نواقض الإسلام . كما وضحنا ذلك .

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٩/٢٨)

(٢) البيهقي : السنن الكبرى (١٢٧/١٠)

قال الشيخ حمد بن عتيق في كتابه القيم (الدفاع عن أهل السنة والاتباع) : "إن مظاهره المشركين ودلائلهم على عورات المسلمين ، أو الذب عنهم باللسان ، أو رضا بما هم عليه ؛ كل هذه مكفّرات ممن صدرت منه من غير الاكراه المذكور . فهو مرتدٌ ؛ وان كان مع ذلك يُبغض الكفّار ، ويحبُّ المسلمين"^(١) . انتهى كلامه .

وكما قلنا : أجمع علماء الإسلام سلفاً وخلفاً على أنّ مَنْ ظاهر الكفّار على المسلمين ، وساعدهم بأي نوع من أنواع المساعدة ؛ فهو كافراً مثلهم . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّا اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ المائدة: ٥١

أما الموالاتة فهي : القرب من الكفّار ، والدنو منهم .

وهي أقسام : فيها ما يلحق بالتولي فيكون كفراً . وفيها ما يلحق بالكبائر ؛ كالتشبه غير المطلق بالكفار ، ومخالطتهم من غير مصلحة شرعية ، دون مظاهرتهم على المسلمين . وتولي مناصب لديهم فيها مكاسب وشخصية لا تعود بالنفع على المسلمين ؛ بشرط أن لا يتضمّن مظاهره للمشركين عليهم .

وهنالك أمورٌ ليست من الموالاتة ؛ كبر المسلم لقريبه من المشركين والإحسان إليه ؛ إن كان غير محاربٍ . وكذا المودّة والرحمة الطبيعية للزوجة الكتابية ، وكذا مدح الكفار لمحاسن أخلاقهم ، أو مدح بعض تجمّعاتهم التي تقوم بنصرة المظلوم ، وغير ذلك من أعمال البر ومحاسن الأخلاق ؛ فيمتدحون على مثل هذه الأمور على كفرهم ؛ كحلف الفضول الذي قال فيه ﷺ : (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما

(١) (ص ٣٢٣)

أحب أن لي به حمر النعم ولو ادعى به في الإسلام لأجبت^(١) زاد في بعض الروايات :
(تحالفوا أن تُردَّ الفضول على أهلها ، وأن لا يعز ظالمٌ مظلوماً)

والأصل في هذه المسألة : قوله تعالى : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ
وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ المتحنه: ٨

وكان عليه الصلاة والسلام يكافيء المحسن بإحسانه وإن كان كافراً . قال ابن
تيمية رحمه الله تعالى في (الاقتضاء) في شرح حديث : (من تشبه بقوم فهو منهم)^(٢) :
"أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم ، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المشبه به"^(٣) .

✽ وقال ابن القيم : أهل السنة متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية
لله وعداوة من وجهين مختلفين^(٤) . وقال الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ في (الرسائل
والمسائل النجدية) : "إن مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة ؛ منها ما يوجب الردة ،
كذهاب الإسلام بالكلية . ومنها ما دونه من الكبائر والمحرمات"^(٥) .

قلت : إن بعض العلماء جعل التولي أخص من عموم الموالاة ، مع أن جمهوراً
من المفسرين يفسرون التولي بالموالاة . فعلى سبيل المثال :

(١) سنن البيهقي ٦/٣٦٧ .

(٢) أبو داود : السنن (٤/٤٤) ، ٤٠١٣ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (ص ٢١١) تحقيق فؤاد علي (ط ١) ، الكويت
، جمعية إحياء التراث الإسلامي ، ١٤٢١هـ)

(٤) مدارج السالكين ١/٢٨٦ .

(٥) ٣٨/٣ .

قال ابن كثير عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (١٣) المتحنة: ١٣: "ينهى الله تبارك وتعالى عن موالاته الكافرين في آخر هذه السورة ، كما نهى عنها في أولها ، فقال تعالى : ﴿ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ المتحنة: ١ فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء؟! " (١) .

ويقول ابن عطية عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) التوبة: ٢٣ : "أي : والاهم ، واتبعهم في أغراضهم " (٢) .

ويقول البيضاوي عند تفسيره قوله تعالى ﴿ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥١) المائدة: ٥١ : "أي : مَنْ والاهم منكم ، فإنه من جملتهم . وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم " (٣) .

ومما يؤكد أن التولي يكون بمعنى الموالاتة : ما جاء في لغة العرب . فإن التولي والموالاتة من مادة واحدة هي : ولي ؛ بمعنى : قُرب . والولي : الناصرُ ضد العدو (٤) .

(١) التفسير (٤/٣٥٦)

(٢) تفسير ابن عطية (٨/١٥٢)

(٣) تفسير البيضاوي (١/٢٧٩)

(٤) الفيومي ، أحمد بن محمد بن علي المقري (ت ٧٧٠هـ) ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٨٤١) (القاهرة ، ١٩٠٣م)

ولذلك فإن شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله - وفي مواضع عدة من تفسيره - يُفسّر معنى اتخاذ الكفار أولياء : جعلهم أنصاراً . وهو بمعنى : تَوَلَّيَهُمْ .

وإذا كان التولي بمعنى الموالاتة ، وأن موالاتة الكفار ذاتُ شَعَبٍ متفاوتة ؛ منها ما يُخْرِجُ من الملة ؛ كالموالاتة المطلقة لهم . ومنها ما دون ذلك ؛ فإن تولي الكفار مثل موالاتهم ، فهنالك التولي المطلق التام الذي يناقض الإيمان بالكلية ، وهناك مراتب دون ذلك .

إنَّ التَّوَلَّى التَّامَ يُوجِبُ الانتقالَ إلى دينهم ، والتَّوَلَّى القليل يدعو إلى الكثير ، ثم يتدرَّج شيئاً فشيئاً ؛ حتى يكونَ العبدُ منهم^(١) .

وبعدَ أن أوضحَ الشيخ سليمان بن ناصر العلوان (في معرضِ شرحه للناقض الثامن من نواقض الإسلام)^(٢) معنى "المظاهرة" بأنها : المُناصرة . قال :

✽ " ومظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين فتنة عظيمة قد عمت فأعمت، ورزية رمت فأصمت، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون بحب المشركين، ولا سيما في هذا الزمن، الذي كثر فيه الجهل، وقل فيه العلم، وتوفرت فيه أسباب الفتن، وغلب الهوى واستحكمت، وانطمست أعلام السنن والآثار.

أن هذا كله بسبب الإعراض عن تعلم العلوم الشرعية، والإقبال على تعلم العلوم اليونانية والفلسفية، فلا حول ولا قوة إلا بالله، عاد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير، فصاحب الحق اليوم غريب بين الناس، غريب بين أهله، إن طلب مساعداً، لم يجده، وإن طلب صاحب سنة، لم يحصله إلا بكلفة

(١) تفسير السعدي (تيسير الكريم المنان) (ص ٣٠١)

(٢) العلوان : التبيان ، شرح نواقض الإسلام ، للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (ص ٥٠-٥١) (دار المسلم ، الرياض ، الطبعة السادسة ، ١٤١٦هـ)

ومشقة، استحكمت غربة الإسلام، وعاد الإسلام غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، الذين يصلحون ما أفسد الناس.

ومن ذلك^(١) التحذير من مظاهره المشركين على المسلمين ومعاونتهم؛ لأن مظاهرتهم ردة عن الإسلام.

✽ وقد سُئل العلامة عبد الله بن عبد اللطيف عن الفرق بين الموالاة والتولي؟ فأجاب بأن التولي: "كفر يخرج عن الملة، وهو كالذَّبِّ عنهم وإعانتهم بالمال والبدن والرأي".

ولو أن المسلمين صاروا يداً واحدةً على هؤلاء الطغاة المجرمين، وتناصروا فيما بينهم وتعاونوا، لصار للإسلام والمسلمين شأن غير ما نحن فيه الآن، ولصار الكفار أذلاء، يدفعون الجزية كما كانوا يدفعونها للنبي ﷺ ولأصحابه عن يد وهم صاغرون، ثم اعلم أن إعانة الكفار تكون بكل شيء يستعينون به ويتقون به على المسلمين من عَدَدٍ وَعُدَد.

✽ وخلاصة القول: إن مظاهره الكفار ونصرتهم، والذَّبِّ عنهم، يناقض الإيمان بالكلية؛ سواء أَسْمِيَ ذلك تَوَلِيًّا، أم مَوَالَاةً. فلا مشاحة في الاصطلاح.

خطر المنافقين وحكم موالاتهم:

إذا كان من صُلب عقيدة المسلم البراءة من الكفار والمشركين، فكذلك وجوب البراءة من المنافقين الموالين للكفار؛ لأنهم يشتركون مع الكفار والمشركين في حربهم وعداوتهم وكيدهم للإسلام والمسلمين؛ بل إن خَطَرَهُمْ أكبرُ وأشدُّ على المسلمين من الكفار الأصليين. كما قال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ خُشِبُ مُسْتَنْدَةٌ يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ قَالَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ

(١) أي: الإصلاح.

﴿٤﴾ المنافقون: ؛ أي: إنهم أحقُّ بأن يكونوا لكم عدواً من الكافرين المجاهرين ؛ لأن أعدى الأعداء العدو المتظاهر بالموالاة . وهو مدحٌ تحت ضلوعه الداء الدوي .

﴿﴾ وإذا كان المشرك الوثني عدواً والكافر الكتابي عدواً ، فإن المنافق هو العدو ، وحزبه في النفاق الأكبر هم العدو . وهم كما قال ابن الجوزي رحمه الله : "المنافقون عيون الأعداء على المسلمين" (١) .

﴿﴾ وقال الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ ﴿﴾ المنافقون: ؛ "هم العدو يا محمد ، فاحذرهم ؛ فإن ألسنتهم إذا لُقوكم معكم ، وقلوبهم عليكم مع أعدائكم . فهم أغنيُّ لأعدائكم عليكم ؛ لذلك كان جهادهم أعظم منزلةً ، وأزفع قدرًا من جهاد الكفار" (٢) .

﴿﴾ فجهاد المنافقين أصعبُ من جهاد الكفار . قال ابن القيم : "وهو جهاد خواصِّ الأمة وورثة الرسل ، فالقائمون به أفرادٌ في العالم ، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عدداً فهم الأعظمون عند الله قدرًا . ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض ؛ مثل : أن يتكلم به عند من تُخاف سطوته وأذاه ؛ كان للرسول عليهم الصلاة والسلام الحظُّ الأوفر من ذلك ، وكان لنبينا ﷺ من ذلك أكملُ الجهادِ وأتمُّه" (٣) .

﴿﴾ إن المنافقين جمعوا في قلوبهم بين الفسق والكفر ، فقد فسقوا بخروجهم عن أمر الله ، وما أوجب عليهم من الإسلام والإيمان . ومالوا عن التوحيد ، وخرجوا من الإيمان إلى الكفر . وهم كفرةٌ ؛ لأنهم كفروا بالله . وإن تظاهروا بالإسلام ؛ فإنهم

(١) زاد المسير (٣٦٨/٨)

(٢) جامع البيان (٧٠/٣٠)

(٣) زاد المعاد (٦/٣)

أبطنوا ، وأخفوا الكُفْر ، وكرهية الدين ، وكرهية رسول الله ﷺ ، وكرهية المسلمين ، وفرحوا بكل مصيبة وكل هزيمة تلحق الإسلام والمسلمين ، وحزنوا لكل نصر وظفر للإسلام والمسلمين . فجمعوا بين الكُفْر ، والفِسق .

قال تعالى مُخْبِرًا عن هذه الحقيقة : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِلَّا تَكْمٌ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٥٣) التوبة: ٥٣ .

وأخبر تعالى عن كفرهم ، فقال : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴾ (٥٤) التوبة: ٥٤ .

وبين الله تعالى مآلهم ، ومكانهم في جهنم ، فقال : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (١٤٥) النساء: ١٤٥ .

وأخبرنا تعالى أن المنافقين يتربصون بالمسلمين ، ويحاولون خلخلة الصف ، وزعزعة الأمن ، ونشر الفتنة ، وتفريق الكلمة ، فقال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ خَلَائِلًا وَلَا تَجِدُ لَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧) التوبة: ٤٧ .

إن عداوة المنافقين للإسلام والمسلمين أمر واضح لا شبهة فيه ، ولا خلاف ؛ فانهم لا يدعون فرصةً سنحت لهم ، ولا مجالاً للنيل من الإسلام والمسلمين إلا سارعوا بإشباع رغباتهم الدفينة في القضاء على الإسلام وأهله . فهم يفرحون بكل مصيبة تصيب المسلمين ، وتطمئن قلوبهم بها . ويحزنون لكل حسنة تظهر في الإسلام أو على المسلمين . وقد أخبر الله تعالى عن هذه الحقيقة بقوله ﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ

تَسُوهُمُ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ

التوبة: ٥٠ ﴿٥٠﴾

فهؤلاء هم المنافقون الذين يعادون الدين ، ويفرحون بكل مصيبة تصيب المسلمين ، ويحزنون لكل نصر للإسلام والمسلمين .

تحريم موالاة المنافقين :

حَرَّمَ اللهُ ﷻ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَوَالِيَةَ الْمُنَافِقِينَ ؛ لِأَنَّ الْوَالِيَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ تَعَالَى " ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَاٰلِيًا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ النساء: ٨٩ فهى - سبحانه - في هذه الآية عن موالاتهم ثلاث مرات ؛ تأكيداً للتحذير منهم ؛ إذ ليس في ولايتهم للمؤمنين أدنى خير أو نفع .

وفي هذا الإطار ، النهي عن اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَتَأْتُمْ أَزْوَاجًا تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ إن تمسكتم حسنة تسوهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضرركم كيدهم شيئاً إن الله بما تعملون محيط ﴿١٢٠﴾ ﴾ آل عمران: ١١٨ - ١٢٠

ولما منع الله المؤمنين أن يتخذوا المنافقين بطانة ؛ ذكر علة ذلك النهي ، وحصرها في ثمانية أمور :

١- لَا يَأْتُونَكُمْ خَبَالًا

٢- وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ .

٣- قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .

٤- وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ .

٥- هَاتَتْكُمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ .

٦- وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ .

٧- إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ .

٨- تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا .

وهذا تحذير للجماعة المسلمة من أن تتخذ من الأعداء بطانة ، أو أمناء على الأسرار والمصالح ؛ لما يضمرونه للإسلام والمسلمين من الشر المبيت ، والنوايا السيئة التي تملأ صدورهم .

وهذا التحذير لم يكن مقصوداً على فترة معينة ؛ بل هي حقيقة دائمة تستعرضها اليوم وغداً ، في من حول الجماعة المسلمة من الأعداء ، الذين يتظاهرون للمسلمين بالمودة ، وهم لا يقصرون في إيذاء المسلمين

✽ نرى في هذا العصر كثيراً ممن يدعي الإسلام ؛ لا يتخذ بطانةً ، ولا يصادق أو يوالي إلا هؤلاء المنافقين ، ولا يجالس إلا هؤلاء المشككين في الإسلام والدين . ثم يجعلون خاصّة مجالسهم من هذه الطبقة من المنافقين ، ويبيعدون عنهم كل مؤحد ، وينفرون من كل ملتزم بدين الله .

إن اصطفاء المنافقين من دون المؤمنين هو إعلان الولاء لهم ، ومحبتهم ، وودهم . وهو في الوقت نفسه تصريح بالبراءة من المسلمين ، والعداوة لهم . فلا يجتمع في قلب مسلم واحد حُبُّ لأهل الإيمان ، وحُبُّ لأهل النفاق . فهما ضِدَّانِ ، ولا يجتمعان في قلب واحد . فإما الحب للإيمان والموالاتة لأهله ، وإما الحب للنفاق والموالاتة لأهله .

✽ إذن ؛ لابد من تحديد الصَّفِّ ، وبيان الهُويَّةِ ، وإعلان المنهج ، ورفع رايةٍ مجردةٍ ، واعتناق دين واحد ؛ لكي يُعرَفَ المسلم الحقُّ من الكافر والمنافق ، ولتُحدَّدَ وتُحقَّقَ قضيةُ الولاء والبراءِ ، وتكونَ عن بَيِّنَةٍ ؛ ليُحقِّقَ اللهُ الحقَّ بكلماته ، ويمحقَ الكافرين ، ويميزَ اللهُ الخبيثَ من الطَّيِّبِ .

✽ يقول الأستاذ الكبير سيد قطب رحمه الله : "إن موالاتة غير الجماعة المسلمة معناه الارتداد عن دين الله تعالى ، والتُّكُولُ عن هذا الاختيار العظيم ، والتخلي عن هذا التفضُّل الجميل" (١) ؟

إن موالاتة هؤلاء المنافقين ما هو إلا حُبُّ ورَضَى بعقيدتهم ، ودخولٌ في دينهم ، والحياةُ على ملَّتِهِمْ ، والسيرُ على منهجهم . وهو في الوقت نفسه خيانةٌ للدين ، وخروجٌ عن الملة ، وطعنٌ في العقيدة ، وخداعٌ للمؤمنين .

لقد نهانا الله تعالى عن ولاء المنافقين ، وأمرنا بضده ؛ من جهادهم : والغلظة عليهم ، والشدة معهم ، وازدرائهم واحتقارهم . قال الله تعالى ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣) ﴿التوبة: ٧٣﴾ . هذا هو أمر الله لنبيه ﷺ ، وللأمة بمجاهدة الكفار والمنافقين ، والغلظة عليهم . وقد قرنَ ﷺ هذه الغلظة بمجاهدة الكفار ؛ فدلَّ ذلك على أن الغلظة على المنافقين نوع من أنواع

(١) في ظلال القرآن (٢/٩٠٨)

الجهاد الذي أمر الله به . فالغلظة على المنافقين هي : إعلان البراءة منهم ، ومن نفاقهم . هذا هو منهج النبي ﷺ في جهاد المنافقين الخارجين عن الدين .

✽ وكذلك يُحرم أشد التحريم تَوَلِيَةُ المنافقين منصباً في مراكز الدولة ؛ فالمنافقون لا تتوفّر فيهم الأمانة ؛ لانعدام الوازع الديني عندهم . فإنهم إذا استلموا مراكز حساسة في الدولة الإسلامية أفسدوا في الأرض .

فالمنافقون لا يُستشارون ، ولا يُؤلّون مسؤوليّةً ؛ بحيث يكون لهم الأمر على المسلمين .

الرافضة أكثر الناس موالاة للكافرين ومعاداة للمسلمين:

إن تولية المنافقين والباطنيين الولاياتِ والمناصبِ هو أكبر دليل على موالاتهم ، وعلى بُغض الدينِ وأهله ، وحبِّ الباطلِ وأهله . وموالاةُ المنافقين تُغضب رب العالمين ، وتطعنُ في الدينِ . لأنّ الولاءَ عبادةٌ لا بدّ أن يقصد بها وجهُ الله تعالى ، وأن هذا الولاء لا بدّ أن يوجّه الوجه الشرعي ، ولا يُصرّف إلا إلى الله ، ولدينه ، ولرسوله ﷺ وللمؤمنين . وفي صرفه للمنافقين هدمٌ للدين من أساسه .

✽ قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : " وليس المنافقون في طائفة أكثر منهم في الرافضة ، حتى أنه ليس في الروافض إلا من فيه شعبة من شعب النفاق ... ورؤوس الرافضة والجهمية كانوا منافقين زنادقة " (١) .

✽ فمن الخيانة العظمى استخدام هؤلاء المنافقين في مراكز الدولة . والنبي ﷺ لم يُسند إلى المنافقين شيئاً من أمور الدولة ، وكذلك سائر الخلفاء الراشدين ﷺ كانوا على هذا المنهج النبوي الحكيم ، وكذلك خلفاء بني أمية . وما حلّت المصائب العظيمة

(١) منهاج السنة ، (٣ / ٣٧٤)

بالأمة إلا عندما قرب الخليفة العباسي المستعصم بالله قلةً من هؤلاء المنافقين الباطنيين ؛ كابن العلقمي^(١) الخبيث . فكان ما كان من ضياع البلاد والعباد ، وتسلب الكافرين على بلاد المسلمين .

١ ابن العلقمي ؛ هو : مؤيد الدين ، محمد بن أبي طالب العلقمي . وزير الخليفة العباسي المستعصم بالله ؛ جعله مستشاره . وقد كان هذا الوزير داعياً إلى تحويل الخلافة عن أهل السنة إلى الباطنيين . وقد استخدم واستعان لرفع هذه الراية الكفار الصرحاء ، فأقنع ملك الدولة الوثنية التتارية (هولاكو) لغزو دولة الخلافة العباسية ، وكاتبه في ذلك ، فاستجاب (هولاكو) وطلب من ابن العلقمي أن يتمهد له أولاً من طريقه بأن يستغل قُربه من الخليفة كي ينصحه بتسريح أكبر عدد ممكن من الجيش العباسي الإسلامي . وبالفعل استطاع أن يُقنع الخليفة بتسريح خمسة عشر ألفاً من فرسان الجيش ، بذريعة خفض النفقات . ولما أُعفوا من الخدمة في جيش الخلافة أمرهم الوزير بأن يغادروا بغداد ويبحثوا عن أرزاقهم خارجها . وبعد ذلك بمدة اقنع الخليفة بتسريح عشرين ألفاً آخرين مدّعياً أمامه أن البلاد في أمان ، ولا تحتاج إلى كل هؤلاء الجنود . وظل هذا وغيره من المنافقين سائرين على هذه الطريقة الخبيثة في إضعاف الدولة العباسية ؛ حتى استيقن أنها بلغت اشد حالات الضعف حين أصبح جيشها لا يزيد عن عشرة آلاف جندي ، بعد أن كانوا آخر عهد الخليفة السابق نحو مائة ألف جندي . وعندما أنجز = تلك المهمة في غفلة من الولاة اللاهين عن هؤلاء المنافقين الباطنيين ؛ أوعز ابن العلقمي إلى (هولاكو) بأن يقدم على عاصمة الخلافة ، ولا يضيع الفرصة . فتقدم (هولاكو) الوثني بجيوشه الجرارة التي تزيد على مائتي ألف جندي ، ففاجأ أهل بغداد وجنودها ، فاستقبله ابن العلقمي مع جمع من أنصاره وحاشيته . ثم عاد فأشار على الخليفة بأن يخرج إلى (هولاكو) ليصالحه على نصف خراج العراق فخرج ، ومعه سبعمائة من القضاة ، والعلماء ، والأمراء ، فأمر (هولاكو) بعزل هؤلاء جميعاً عن الخليفة إلا سبعة عشر شخصاً ، وقتل الباقي ، وأحضر الخليفة ومن معه إلى مجلسه ، وأهانهم ، ثم أعادهم إلى بغداد ، ومعهم ابن العلقمي ؛ ليأتوا بما في بيت المال من كنوز وأموال . وكان (هولاكو) مستعداً لأن يكتفي بهذا ، ويقبل الصلح على أن يُعطى نصف خراج العراق ، ولكن المنافقين والباطنيين نصحوه بغير ذلك . قال ابن كثير : (وقد أشار أولئك الملأ من الباطنية وغيرهم من المنافقين على (هولاكو) أن لا يصالح الخليفة . وقال الوزير ابن العلقمي : متى وقع الصلح لا يستمر هذا عاماً أو عامين ، ثم يعود الأمر على ما كان عليه قبل ذلك . وحسنوا له قتل

الخليفة . ولما عاد الخليفة إلى السلطان (هولاكو) أمر بقتله . وقد قُتل الخليفة بمشورة ابن العلقمي ، وصاحبه نصير الدين الطوسي) . (البداية والنهاية ٣١٧/٦)

وها هم اليوم أحفاد ابن العلقمي والطوسي في العراق ، الذين أدخلوا الامريكان ؛ يعتزون بأسلافهم : ابن العلقمي ، والطوسي . فيفتحون جامعات في كربلاء والنجف بأسماء هؤلاء الخونة المرتدين .

ومن أهم الكتب التي كتبت عن غدر وعقائد ومؤامرات الرافضة .

أ- الخطوط العريضة التي قام عليها دين الشيعة . لمحج الدين الخطيب . وهو كتاب صغير الحجم ، كثير الفائدة .

ب- مختصر التحفة الاثني عشرية . والتحفة . للشاه عبد العزيز بن شاه ولي الله الدهلوي . اختصرها محمود شكري الألوسي . ويظهر في هذا الكتاب فساد مذهب الشيعة .

ومن أراد التوسع فعليه بمؤلفات إحسان الهي . وهي : الشيعة والقرآن ، الشيعة والسنة ، الشيعة والتشيع ، الشيعة وأهل البيت .

ج- كتاب منهاج السنة النبوية في نقد الشيعة والقدرية ، لابن تيمية . وقد اختصره الحافظ الذهبي اختصاراً جيداً باسم : المتقى بمنهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال .

د- كتاب وجاء دور المجوس . للشيخ عبد الله الغريب . فهو كتاب قيم يفضح مؤامرات الشيعة على أهل السنة قديماً وحديثاً . يبين المؤلف فيه دور الروافض في التآمر على البلدان الإسلامية خدمةً للمشاريع الصفوية واليهودية . وقد أفتى علماء الشيعة بشراء هذا الكتاب من المكتبات وحرقه .

ه- كتابي الدكتور ناصر القفاري : مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة . و أصول مذهب الشيعة الاثني عشرية .

و- كتاب بذل المجهود في تشبيه الرافضة باليهود . (تأليف الشيخ عبد الله الجميلي)

ز- العواصم من القواصم ، لأبي بكر بن العربي .

ح- هل أتاك حديث الرافضة ، الشيخ أحمد الشامي .

✽ وما أروع ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ؛ وهو يؤكد خطورة تقريب هؤلاء المنافقين ، فيقول : "وأما استخدام مثل هؤلاء الباطنيين في ثغور المسلمين ، أو حصونهم ، أو جندهم ؛ فإنه من الكبائر . وهو بميزان من يستخدم الذئاب لرعي الغنم ؛ فإنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمورهم ، وهم أحرص الناس على إفساد المملكة ، والدولة".

✽ وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : " الرافضة أبعد الناس من الإخلاص ، وأغشهم للأئمة والأمة ، واشدهم بعداً عن جماعة المسلمين " (١) .

✽ إن الذي فعله العبيديون (٢) ، وابن العلقمي ، وأحفادهم المنافقون الباطنيون الذين اتخذوا من الكافرين أولياء ؛ هم الذين أسلموا أمة الإسلام ، وأخضعوها

(١) مفتاح دار السعادة ، (٧٣/١)

(٢) العبيديون : أحفاد ميمون بن ديسان القدّاح ، الباطني ، اليهودي ، المجوسي . وهم كُفّار ، فساق ، فجّار ، مُلجّدون ، زنادقة ، معطلون ، للإسلام جاحدون ، ولمذهب المجوس والثنوية معتقدون . قد عطّلوا الحدود ، وأباحوا الفروج ، وأحلّوا الخمر ، وسفكوا الدماء ، وسبّوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادّعوا الربوبية .

* صتّف القاضي الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) كتابه في الرد على هؤلاء سماه (كشف الأسرار وهتك الأستار) بين فيه فضائحتهم وقبائحتهم ، وقال فيهم : إنهم قوم يُظهِرون الرفض ، ويُبيطنون الكُفْر المَحْض .

* سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عنهم فأجاب : إنهم أفسقُ الناس ، وإنّ من شهد لهم بالإيمان والتقوى ، أو بصحة النسب فقد شهد بما لا يعلم . وهؤلاء القوم يشهدُ عليهم علماء الأمة وأئمتها وجماهيرها أنّهم منافقون زنادقة ، يُظهِرون الإسلام ، ويُبيطنون الكفر . أمّا انتسابهم إلى أهل البيت فكذبٌ ، ومحض افتراء ؛ بل كلّهم من المجوس واليهود ، وهم من مؤسسي دعوة الباطنية .

* وجمهور المصنفين من المتقدمين والمتأخرين يذكرون بطلان نسبهم ؛ حتى القاضي ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) في تاريخه ، وكذلك ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) وابو شامة (ت ٦٦٥هـ) والقاضي أبو بكر الباقلاني ؛ ذكروا أنهم من ذرية المجوس ، وأن مذاهبهم شرٌّ من اليهود والنصارى . بل ومن

للكافرين، ومكّنوا الكافر المحتل من استلاب الأمة حضارياً واقتصادياً ، والتحكم فيها سياسياً . وما جرى ويجري في العراق ، وأفغانستان ، وسوريا ، واليمن ، ولبنان ، ودول الخليج العربي في يومنا هذا لأكبر دليل على ولاء هؤلاء الباطنيين للصليبيين واليهود في احتلال بلاد المسلمين .

• يجب أن يُعلم أنّ من ضُلب عقيدة الرافضة موالاته اليهود والنصارى والمشركين في قتال المسلمين ؛ فهم كانوا وما زالوا سائرين على هذا المنهج النفاقي في كل مكان

مذاهب الغالين الذين يدعون ألوهية علي بن ابي طالب (عليه السلام) أو نبوته ؛ فهم أكفر من هؤلاء جميعاً . وفضحهم ابو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) رحمه الله في كتابه الذي سماه (فضائح الباطنية ، وفضائل المستظهيرية) فقال : ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض .

* وهؤلاء بني عبيد القداح مازال علماء الأمة سلفاً وخلفاً علماءً ودينياً يقدحون في نسبهم ودينهم ، ولا يذمونهم بالرفض والتشيع ؛ فإن لهم في هذا شركاء كثيرين ، بل يجعلونهم مع القرامطة والباطنية الذين منهم الإسماعيلية والنصيرية وأمثالهم من الكفار والمنافقين ، الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر . وكان دخول العبيديين إلى مصر سنة (٣٦٢هـ) قبحهم الله .

* وها هو ابو الفرج ابن الجوزي يروي لنا قصة الشهيد أبي بكر النابلسي ، فيقول : أقام (جوهر) القائد لأبي تميم صاحب نصر أبا بكر النابلسي ، فقال له : بلغنا أنك قلت : إذا كان مع الرجل عشرة أسهُمٍ وجب أن يرمي في الروم سهماً وفينا تسعة ؟ قال : ما قلت هذا ، بل قلتُ : إذا كان معه عشرة أسهُمٍ وجب أن يرميكم بتسعة ، وأن يرمي العاشر فيكم أيضاً ؛ فإنكم غيرتم الملة ، وقتلتم الصالحين ، وادعيتم نور الإلهية . فضربه ، ثم أمر يهودياً فسلخه ، فكان يذكر الله ويقرأ قوله تعالى : (كان ذلك في الكتاب مسطوراً) ويصبرُ حتى بلغَ الصُّدرَ ، فطعنه ، ثم حُشي تبناً ، وضُلب سنة (٣٦٣هـ) ينظر : (سير اعلام النبلاء (١٦/١٨٤)

هذه هي أساليب الباطنيين قديماً وحديثاً . تأمل أخي المسلم طريقة أهل النفاق في التنكيل بعلماء الإسلام ، وتصفيتهم الجسدية . وما يفعلونه اليوم بعلماء أهل السنة في العراق لهو أشدّ . فطريق النفاق مستمر من ابن سلول ، وابن سبأ ، وابن العلقمي ، والطوسي ، وابن قَدّاح ؛ إلى أحفادهم الصفويين ، والباطنيين الذين أدخلوا الامريكان إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد ؛ وذلك في عام (١٤٢٤هـ) الموافق (٢٠٠٣م/٩/٤) واتخذ الرافضة من ذلك اليوم عيداً يحتفلون به .

وزمان . فهم أسرع الناس وقوعا في النفاق الاعتقادي الأكبر المخرج من الملة ، وهم أكذب الملل على الإطلاق ، وهم شرُّ الطوائف المنتسبة إلى القبلة .

• قال ابن تيمية رحمه الله في : "فهم أشد ضرراً على الدين وأهله ، وأبعد عن شرائع الإسلام من الخوارج الحرورية . ولهذا كانوا أكذب فرق الأمة ؛ فليس في الطوائف المنتسبة إلى القبلة أكثر كذبا ، ولا أكثر تصديقا للكذب ، وتكديبا للصادق منهم . وسيما النفاق فيهم أظهر ممّن في سائر الناس" (١) .

• وقال ابن تيمية رحمه الله أيضا : "فقد عُرفوا بموالاتهم لليهود والنصارى والمشركين ، ومعاونتهم على قتال المسلمين ما يعرفه الخاص والعام ؛ حتى قيل إن ما اقتتل يهودي ومسلم ولا نصراني ومسلم ولا مشرك ومسلم ؛ إلا كان الرافضي مع اليهودي والنصراني والمشرك" (٢) .

• وقد علل ابن تيمية رحمه الله وقوف الرافضة مع الكفار على المسلمين أنهم يرون المسلمين أهل السنة والجماعة مرتدّين ، وإن كانوا يعاملونهم بالتقية . والمرتد شرٌّ من الكافر الأصلي ؛ ولهذا يعاونون الكفار الأصليين على المسلمين ؛ لأنهم مرتدون عندهم" (٣) .

• وما أعظم ما فتح الله على هذا العالم الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فيقول في كتابه القيم منهاج السنة : " إذا صار لليهود دولة بالعراق وغيره ، تكون

(١) مجموع الفتاوى (٦٣٨/٢٨) .

(٢) منهاج السنة (٤٥٢/٢) .

(٣) مجموع الفتاوى (٤٧٨/٢٨) .

- الرافضة أعظم أعوانهم ، فهم دائماً يوالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم ، فالرافضة أحباء اليهود والنصارى " (١).
- وأضاف رحمه الله تعالى: " الرافضة حمير اليهود يركبون عليهم في كل فتنة " (٢).
- وقال رحمه الله تعالى أيضاً موضعاً حقيقة ولاء الرافضة : " النصارى الذين قاتلهم المسلمون بالشام كانت الرافضة من أعظم أعوانهم " (٣).
- " فإنهم (الرافضة) دائماً يستعينون بالكفار والفجار على مطالبهم ، ويعاونون الكفار والفجار على مآربهم ، وهذا أمر مشهود في كل مكان وزمان " (٤).
- فالرافضة يرجون في دولة الكفار ظهور كلمتهم ما لا يرجون في دولة المسلمين.
- وهذا ما فعله الرافضة في العراق من موالاة الأمريكان ، ومعاونتهم على احتلال العراق . ولم يكتفوا بهذه الإعانة القولية والفعلية ؛ بل ذهبوا إلى قتل أهل السنة في العراق بالتعاون مع الصليبيين واليهود ؛ فتعرض أهل السنة في العراق إلى إبادة جماعية رافضية صفوية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً . بل فاقوا ما فعله التتر بالمسلمين عند سقوط بغداد ، وفاقوا ما فعله النصارى بالمسلمين عند سقوط الأندلس ، وفاقت الرافضة ما فعله الصرب بالمسلمين في البوسنة . وكانت حسينيّاتهم (٥) محاكم التفتيش في تعذيب أهل السنة . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

(١) منهاج السنة (٢ / ٣٧٨)

(٢) منهاج السنة (١ / ٦٠)

(٣) منهاج السنة (٣ / ٣٧٨)

(٤) منهاج السنة (٤ / ١١١)

(٥) الحسينية : أوجدها الرافضة مضاهاة للمساجد ، فهم عندهم عقدة من مساجد أهل السنة التي يعبد الله فيها وحده ولذلك نراهم فجرؤا وحرقوا مئات المساجد في العراق وقتلوا الأئمة

- وهذه الفرقة هي التي وصفها شيخ الاستلام ابن تيمية بقوله: "إن الرافضة أمة ليس لها عقلٌ صريح ، ولا نقلٌ صحيح ، ولا دينٌ مقبول ، ولا دنيا منصورَةٌ ؛ بل هم من أعظم الطوائف كذبا وجهلاً . ودينُهُم يُدخِل على المسلمين كلَّ زنديق ومرتدٍّ ؛ كما دخل فيهم النصرية والإسماعيلية ، وغيرهم . وأنهم يعمدون إلى خيار الأمة يعادونهم^(١) ، وإلى أعداء الله من اليهود والنصارى والمشركين يوالونهم . ويعمدون إلى الصدق الظاهر المتواتر يدفعونه ، وإلى الكذب المختلق الذي يُعلمُ فساده يقيمونه . فهم كما قال فيهم الشعبي رحمه الله - وكان أعلمَ الناس بهم - : "لو كانوا من البهائم لكانوا حُمراً ، ولو كانوا من الطير لكانوا رَحَمًا"^(٢) .
- وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : " ولقد أصبح هؤلاء الشيعة عاراً على بني آدم ، يسخر منهم كل عاقل "^(٣) .
- وأضاف أيضاً : " إذا أردت أن ترى ظلمة المعاصي فانظر في وجوه الرافضة ، ومن لم يرَ فيهم المسخ لم تصب فراسته "
- وما أروع ما قاله الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : " ليست الرافضة من الإسلام في شيء "^(٤) .

والخطباء والمؤذنين والمصلين ، كما أوجد الرافضة : الإمامة مضاهاة للنبوة وعندهم الأئمة المعصومون أفضل من الأنبياء ، وأوجدوا الخمس مضاهاة للزكاة ، وأوجدوا الزيارات الشركية للقبور والأضرحة : مضاهاة للحج .

(١) بل يقتلونهم ويمثلون بهم ، كما فعلوا بأهل السنة في العراق .

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٤٣٥) منهاج السنة النبوية (١/٣-٢٠) الرخمة : طائر يقع على شكل النسر خُلقةً . وهو موصوف بالغدر ، وبالقدر . لسان العرب (١٢/٢٣٥) .

(٣) المنار المنيف ص ١٥٢

(٤) طبقات الحنابلة ، (٣٢/١)

• وعن مشابعتهم لليهود والنصارى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كلاماً لو خط بماء الذهب ما كان كثيراً : " فالرافضة فيهم شبه من اليهود من وجه ، وشبه من النصارى من وجه ، ففيهم شرك وغلو وتصديق بالباطل كالنصارى ، وفيهم جبن وكيد وحسد وتكذيب للحق كاليهود " (١) .

صور من أهم مظاهر الموالاتة الكفرية والمحرمات للمنافقين في عصرنا الحاضر :

١- التولي العام . واتخاذهم أعواناً وأولياءً وأنصاراً ، ونصرتهم على حرب المسلمين . وهذا - كما وضّحنا - كُفْرٌ بُوَاحٍ ، وردّة جامحةٌ مُخرِجةٌ من المِلّة . لقوله تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ اَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيْءٍ اِلَّا اَنْ تَكْتُمُوْا مِنْهُمْ ثَقَلَتْ عَلَيْهِمْ نَفْسُهُمْ وَيَحْذَرُكُمْ اللّٰهُ نَفْسَهُۥٓ وَيَلِي اللّٰهُ الْمَصِيْرُ ﴾ ﴿٢٨﴾ آل عمران: ٢٨

٢ - الرضا بكفر الكافرين ، وعدم تكفيرهم ، أو الشك في كفرهم ، أو تصحيح أيّ مذهبٍ من مذاهبهم الكافرة . وهذا أيضاً ناقض من نواقض الإسلام (٢) .

٣ - طاعتهم في أمور التشريع ، والتحاكم إليهم دون كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ . فهذا أيضاً كُفْرٌ مخرج من الملة .

وسوف نفصل هذا الناقض الذي هو منهجٌ ثابتٌ للمنافقين في الفصل الثاني ؛ إن شاء الله تعالى .

٤ - مجالستهم ، والدخول عليهم وقت استهزائهم بآيات الله . فيكون كافراً مثلهم سواء بسواء ، لقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتٰبِ اَنْ اِذَا سَمِعْتُمْ اٰيٰتِ اللّٰهِ يُكْفَرُ بِهَا

(١) منهاج السنة (٧/٢١٠)

(٢) القحطاني : الولاء والبراء ، (ص ٢٣٠ - ٢٣٧) ، بتصرف يسير .

وَيُسَنِّزُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ النساء: ١٤٠

٥- توليتهم أمراً من أمور المسلمين . ومن ذلك : الإمارة ، والوزارة . والتولية شقيق الولاية ؛ لذلك فإن توليتهم من نوع توليتهم . وقد حكم الله أن من تولاهم فإنه منهم . ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم ، والولاية تنافي البراءة ؛ فلا تجتمع الولاية والبراءة أبداً . كما وضحنا .

٦ - موذنتهم ومحبتهم ، وقد نهى الله عنه بقوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ المجادلة: ٢٢

ولله در العلامة سليمان بن سحمان ؛ إذ يقول :

عَفَاءً فَأُضْحَتِ طَامِسَاتِ الْمَعَالِمِ	وَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ غُودَرَ نَهْجُهَا
عَلَيْهَا السَّوَافِي فِي جَمِيعِ الْأَقَالِمِ	وَقَدْ غُدِمَتْ فِينَا وَكَيْفَ وَقَدْ سَفَتْ
كَذَاكَ الْبِرَا مِنْ كُلِّ غَاوٍ وَأَثِمِ	وَمَا الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ وَالْبُغْضُ وَالْوَلَا
بِدينِ النَّبِيِّ الْأَبْطَحِيِّ ابْنِ هَاشِمِ	وَلَيْسَ لَهَا مِنْ سَالِكٍ مُتَمَسِّكِ
بِهِ الْمِلَّةُ السَّمْحَاءُ إِحْدَى الْقَوَاصِمِ	فَلَسْنَا نَرَى مَا حَلَّ بِالدِّينِ وَأَنَمَحَتْ
إِلَى اللَّهِ فِي مَحْوِ الذُّنُوبِ الْعِظَائِمِ	فَنَأْسَى عَلَى التَّقْصِيرِ مِنَّا وَنَلْتَجِي
وَرَانَ عَلَيْهَا كَسْبُ تِلْكَ الْمَآثِمِ	فَنَشْكُوا إِلَى اللَّهِ الْقُلُوبَ الَّتِي قَسَتْ
بِأَوْضَارِ أَهْلِ الشُّرْكِ مِنْ كُلِّ ظَالِمِ	أَلْسِنَا إِذَا مَا جَاءَنَا مُتَضَمِّحٌ
وَنُهْرَعُ فِي إِكْرَامِهِمْ بِالْوَلَائِمِ	نَهْشُ إِلَيْهِمْ بِالتَّحِيَّةِ وَالثَّنَا

وَقَدْ بَرِئَ الْمُعْصُومُ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَدَارِ الشَّرِكِ غَيْرَ مُصَارِمٍ
وَلَكِنَّمَا الْعَقْلُ الْمَعِيشِيُّ عِنْدَنَا مُسَالَمَةُ الْعَاصِينَ مِنْ كُلِّ آثِمٍ

٧ - انتمائهم ، والوثوق بهم . وقد خوّنهم الله تعالى .

٨ - معاونتهم على ظلمهم ، ونصرتهم ومناصحتهم ، والثناء عليهم ، ونشر فضائلهم ، واعتقاد مساواتهم بالمسلمين ، وأن المسلمين لا ميزة لهم . والبشاشة لهم ، والطلاقة وانسراح الصدر لهم ، وإكرامهم ، وتقريبهم ، وتعظيمهم ، وإطلاق الألقاب عليهم على سبيل الإكرام والتعظيم . فهذه الأمور كلها كُفريات . فمن فعل واحدة منها فقد وقع في الكفر . والعياذ بالله .

٩ - الانخراط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية ؛ كالشيوعية ، والبعثية ، والاشتراكية ، والقومية ، والماسونية ، والباطنية ، والرافضية . فهذه أيضاً كسابقاتها : كفر بلا شك .

١٠ - الإقامة ببلاد الكفار . اختياراً لصحبتهم ، مع الرضا بما هم عليه من الدين . أو القيام بمدح دينهم وإرضائهم بعيب المسلمين . فهذه الموالاة ردة عن الإسلام . قال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٢٨) آل عمران: ٢٨ وقال رسول الله ﷺ : (مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ ، وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ) ^(١) وقال ﷺ : (لا

^(١) أبو داود : السنن (٩٣/٣) حديث رقم (٢٧٨٧) ؛ الطبراني : المعجم الكبير (٥٢١/٧) حديث رقم (٧٠٢٣) ، من حديث سمرة ابن جندب ، وحسنه الألباني .

تُساكنوا المشركين ، ولا تجامعوهم . فمن ساكنهم ، أو جامعهم فليس منا^(١) . وقوله ﷺ :
(أنا بريء من كلِّ مسلمٍ يُقيمُ بين أظهر المشركين)^(٢) .

فَمَنْ تَوَلَّى الكافرين ، ورضي عن دينهم ، وابتعد عن المسلمين وعابهم ؛ فهو
كافرٌ ، عدوٌّ لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين .

١١ - أن يتجنس بجنسية دولة كافرة تحارب المسلمين ، ويلتزم بجميع قوانينها
وأنظمتها ؛ بما في ذلك التجنيد الإجباري ، ومحاربة المسلمين ، ونحو ذلك . فالتجنس
على هذا الحال كُفْرٌ وردة عن دين الإسلام ؛ بإجماع المسلمين . وهذا كله فيما إذا كان
ذلك عن رغبة ورضا من المسلم .

أما إذا كان مُلْجأً إلى ذلك ؛ لعدم وجود بلد مسلم يمكنه الهجرة إليه ، أو لعدم
وجود بلد كافرٍ أحسن حالاً من حال هذا البلد المحارب للمسلمين ينتقل إليه ، فحكمه
حُكْمُ المُكْرَه ؛ فلا يحرم عليه ذلك إذا كره ذلك بقلبه^(٣) .

وقد سُئِلَ الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله عن تجنُّس المسلم بجنسية تنافي
الإسلام ، كما هو حاصل في بلاد تونس آنذاك ، وما يتضمنه هذا التجنُّس من إنكار لما
هو معلوم من الدين بالضرورة ، والوقوف مع الكفار عسكرياً لقتال المسلمين... الخ .

^(١) الترمذي : السنن (١٥٥/٤) حديث رقم (١٦٠٥) ؛ الطبراني : المعجم الكبير (٢١٧/٧) حديث
(٦٩٠٥) ؛ الحاكم : المستدرک (١٥٤/٢) حديث رقم (٢٦٢٧) ، وقال عنه : صحيح على شرط
البخاري ، ووافقه الذهبي .

^(٢) أبو داود ، السنن (٤٥/٣) ح (٢٦٤٥) ؛ الترمذي : السنن (١٥٥/٤) حديث رقم (١٦٠٤)

^(٣) ابن جبرين ، عبد الله بن عبد العزيز ، مختصر العقيدة الإسلامية (ص ١٤٨) (ط ١) ، الرياض ،
مطابع جرير ، ١٤٢٤هـ)

✽ فكان جوابه : "إذا كان الحال كما ذُكر في السؤال ؛ فلا خلاف بين المسلمين في أن قبول الجنسية ردةً صريحة ، وخروجٌ من الملة الإسلامية ، حتى إن الاستفتاء فيها يعد غريباً في مثل البلاد التونسية ، التي يُظن أن عوامها لا يجهلون حكم ما في السؤال من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة .

✽ وأضاف قائلاً : "إن قبول المسلم الجنسية ذات أحكام مخالفة لشريعة الإسلام ، خروجٌ من الإسلام ؛ فإنه ردٌّ له ، وتفضيلٌ لشريعة الجنسية الجديدة على شريعته . ويكفي في هذا أن يكون عالماً بكون تلك الأحكام التي آثر غيرها عليها هي أحكام الإسلام ؛ فلا يُعامل معاملة المسلمين . وإذا وقع من أهل بلد أو قبيلة ، وجب قتالهم عليه حتى يرجعوا"^(١) .

ولعل من أخطر التبعات المترتبة على هذا التجنس ، ما يُفرض على أولئك المتجنسين من التجنيد العسكري ، وجعلهم جنوداً لتلك الدولة الكافرة ، في مواجهة المسلمين ، فيصير بذلك مظاهراً لأولئك الكفار ضد المسلمين ، وقد قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١

✽ وفي الحقيقة : أن الحكم على هذه المسألة يحتاج إلى تفصيل ؛ لأن "التجنس بجنسية أمة غير مسلمة لها ملابسات مختلفة لا تنفك عنها ، عند تحديد مناط حكم هذه النازلة . فأحوال أولئك المتجنسين متفاوتة ، ولذا ينبغي التفصيل عند الحكم على واقع أولئك المتجنسين . فمن نال تلك الجنسية عن رغبة في بلاد الكفر ، وانتماءً إلى الكفار ، ورضاً بأحكامهم الطاغوتية ، وتبعيةً لأنظمتهم الوضعية ، فهذا لا شك أنه كافرٌ خارجٌ عن الملة . فهذا النوع من الناس لا يسوّى بمن اضطر إلى هذا التجنس ؛ بسبب أنظمة طاغوتية استولت على بلاد المسلمين ، فأذاقت أهلها سوء العذاب ، وأنواع الافتتان ، مما اضطر بعض أولئك المسلمين إلى ترك ديارهم ، والإقامة في دار الكفر ، والتجنس

^(١) مجلة المنار ، (مجلد ٢٥ / ج ١ / ص ٢٢)

بجنسيتهم ؟ وهم مع ذلك مبغضون للكفر وأهله ، قائمون بدينهم حسب الاستطاعة . كما إن هناك عوامل أخرى لا بد من مراعاتها عند الحكم في هذه المسألة . منها : الظروف المختلفة التي يعيشها المقيمون في تلك البلاد ، ونوعية تلك الديار ؛ كأن تكون دار حربٍ أو عهدٍ ونوعية التجسس ، وأسبابه ودوافعه ، والتوقيت الزمني لتلك النازلة.... الخ" (١) .

١٢ - التشبه المطلق بالكفار . بأن يتشبه بهم في أعمالهم ، فيلبس لباسهم ، ويقلدهم في هيئة الشعر وطريقة الكلام ، وغيرها ؛ لأن التشبه بهم في الملبس والكلام وغيرها دلالة على محبة المتشبه للمتشبه به . ولهذا قال النبي ﷺ : (ومن تشبه بقوم فهو منهم) (٢)

١٣ - أن يزور كنائسهم معتقداً أن زيارتها قرينة إلى الله تعالى . عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ قال : " لا تعلموا رطانة الأعاجم ، ولا تدخلوا على المشركين في كنائسهم ؛ فإن السخطة تنزل عليهم" (٣) . وقال عمر ؓ أيضاً : "اجتنبوا أعداء الله في عيدهم" (٤) .

✽ ويقول ابن تيمية رحمه الله : "وإذا زار أهل الذمة كنيسة بيت المقدس ، فهل يُقال لهم يا حاجّ مثلاً ؟ لا ينبغي أن يُقال ذلك تشبيهاً بحاجّ البيت الحرام . ومن اعتقد

(١) عبد العزيز بن محمد علي العبد اللطيف ، نواقض الإيمان القولية والفعلية (ص ٣٧١) بتصرف يسير (ط ٣، الرياض ، دار الوطن للنشر، ١٤٢٧هـ) .

(٢) أبو داود : السنن (٤ / ٤٤) حديث رقم (٤٠١٣) ؛ ابن أبي شيبة : المصنف (٦/٤٧٠) حديث رقم (٣٣٠١٠)

(٣) البيهقي : السنن الكبرى (٩/٢٣٤)

(٤) المصدر نفسه (٩/٢٣٤)

أن زيارتها قربةً ، فقد كفر . فإن كان مسلماً فهو مرتدٌ ، يُستتاب ، فإن تاب وإلا قُتل ، فإن جهل أن ذلك محرّمٌ عرّف ذلك ، فإن أصرّ فقد كفر ، وصار مرتداً^(١) .

✽ ويقول أيضاً : "وأما زيارة معابد الكفار ، مثل الموضع المسمى ب(القيامة) أو بيت لحم ، أو صهيون . أو غير ذلك ؛ مثل كنائس النصارى ؛ فمنهني عنها . فمن زار مكاناً من هذه الأمكنة معتقداً أن زيارته مستحبة ، والعبادة فيه أفضل من العبادة في بيته ، فهو ضالٌّ خارجٌ عن شريعة الإسلام ، يُستتاب ، وإلا قُتل"^(٢) .

١٤ - التشبُّه بهم في أمرٍ يوجب الخروج من دين الإسلام ؛ كأن يلبس الصليب ، أو يتبرك به ؛ مع علمه بأنه شعار النصارى ، وأنهم يشيرون به إلى عقيدتهم الباطلة في عيسى بن مريم عليه السلام ، حيث يزعمون أنه قُتل وُصِّلب . وقد كفرهم الله تعالى بذلك في كتابه ، فقال ﷻ : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا

النساء: ١٥٧

✽ وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء في حكم لبس الصليب: "إذا تبين له حكم لبس الصليب ، وأنه شعار النصارى ، ودليلٌ على أن لا يسئه راضٍ بانتسابه إليهم ، والرضا بما هم عليه ، وأصرّ على ذلك ، حُكِمَ بكفره ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥١ ﴾ المائدة: ٥١ والظلم إذا أُطلق يراد به الشرك الأكبر ، وفيه إظهارٌ لموافقة النصارى على ما زعموه من قتل عيسى عليه السلام . والله ﷻ قد نفى ذلك في كتابه ، فقال : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ

(١) مختصر الفتاوى المصرية (ص ٥١٤)

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/٢٧)

أَخْلَفُوا فِيهِ لَفِيَ شَكِّ مَنَّهُ مَا لَهُمْ بِهِ، مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَنَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ النساء: ١٥٧ وقال ابن حجر الهيثمي: "ولو شدَّ على وسطه زُنَّارًا ، ودخل دار الحرب للتجارة ، كَفَرَ" (١) .

﴿ وقال ابن نُجَيْم الحنفي: "ويكفر بوضع فُلُنْسُوةِ المَجُوسِيَّ على رأسه على الصحيح ؛ إلا لضرورة دفع الحرِّ ، أو البرد . وبشدِّ الزُّنَّار في وسطه ؛ إلا إذا فعله خديعة في الحرب" (٢) .

١٥ - اتَّخَذَهُمْ بَطَانَةً . فلا يجوز للمسلم أن يجعل الكافر بَطَانَةً له ؛ بأن يُطْلِعَهُ على بواطن أموره ، ويستشيره في أموره الخاصة ، أو يستشيره في أمور المسلمين . أو يعتمد عليه في قضاء شيء من أمورهم التي يطلع من خلالها على أسرارهم ؛ كأن يكون كاتباً يطلع على أخبار المسلمين ؛ لأن الكافر عدو المسلم لا ينصح له ؛ بل يفرح بما يشقُّ عليه ويضربه . قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتْ أَلْبَعُضَهُ مِّنْ أَوْهَاهِم مَّ وَمَا تُوْحَفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاتَمْتُمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْرَبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ آل عمران: ١١٨ - ١٢٠

١٦ - الدعوة إلى وَحْدَةِ الأديان ، أو التقارب بين الأديان . فمن قال : إنَّ دِينًا غير الإسلام دينٌ صحيح ، ويمكن التقريبُ بينه وبين الإسلام ، أو أنهما دين واحد صحيح ؛ فهو كافرٌ مرتدٌ . بل مَنْ شكَّ في بطلان جميع الأديان غير دين الإسلام ؛ كَفَرَ ؛ لِرَدِّهِ قَوْلَهُ تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

(١) ذكر النووي أن الصواب عدم كفره ، ينظر : روضة الطالبين (٦٩/١٠)

(٢) الملا علي القاري ، شرح الفقه الأكبر ، (ص ٢٨٠)

﴿ ٨٥ ﴾ آل عمران: ٨٥ . وَلَزِدَّهُ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالضَّرُورَةِ ؛ مَنْ أَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ قَدْ نَسَخَ جَمِيعَ الْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ ، وَأَنَّهَا كُلُّهَا أَدْيَانٌ مَحْرَفَةٌ ، وَأَنَّ مِنْ دَانَ بِشَيْءٍ مِنْهَا فَهُوَ كَافِرٌ مُشْرِكٌ .

✽ والدعوة إلى توحيد الأديان هي دعوة إلحادية نفاقية ، فلا حوار مع أصحاب الأديان إلا على أساس دعوتهم إلى الإسلام . إن هذه الدعوات والمؤتمرات من المنافقين ؛ الغرض منها موالاتة اليهود والنصارى تحت شعار ما يُسمى : وحدة الأديان .

✽ وقد نشأت هذه الدعوات المنحرفة في أحضان التنصير والصهيونية العالمية ، كما كان للبهائية مشاركة في إيجاد دينٍ يوافق عليه الجميع . ويُذكَرُ أَنَّ مِنْ أَشْهُرِ دَعَاةِ وَحْدَةِ الْأَدْيَانِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ : جَمَالُ الدِّينِ الْفَارَسِيِّ ، الْمَشْهُورُ بِالْأَفْغَانِيِّ ^(١) . فَقَدْ كَانَ لَهُ دَوْرٌ خَطِيرٌ فِي السَّعْيِ إِلَى تَوْحِيدِ الْأَدْيَانِ الثَّلَاثَةِ . وَتَلَقَّفَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ مِنْ بَعْدِهِ تَلْمِيزُهُ مُحَمَّدَ عَبْدِهِ ^(٢) . فَقَدْ كَانَ لَهُ مِشَارَكَةٌ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ .

ومن الدعاة إلى هذه العقيدة الضالة حديثاً : رجاء جارودي ، الذي دعا إليها في رسالته المسماة بـ (وثيقة إشبيلية)

^(١) جمال الدين بن صفدر بن علي ، المشهور بالأفغاني . واسع الاطلاع على مختلف العلوم ، رحل إلى عدة بلدان ، واشتغل بالسياسة . له مؤلفات . وهو ذو شخصية غامضة ، صاحب أفكار منحرفة . توفي بتركيا سنة (١٣١٤هـ) . يُنظَرُ : معجم المؤلفين (١٥٤/٣) حسين ، محمد محمد ، الإسلام والحضارة الغربية (ص ٦٣)

^(٢) محمد عبده بن حسن آل التركماني . فقيه ، مفسر ، متكلم ، مارس التعليم ، واشتغل بالسياسة والقضاء . له مؤلفات . وهو صاحب نزعة عقلية ، وميوله غربية . توفي بالإسكندرية سنة (١٣٢٣هـ) . يُنظَرُ : معجم المؤلفين (٢٧٢/١٠) الإسلام والحضارة الغربية (ص ٦٣)

وهذه الفكرة الخبيثة وُجِدَتْ قديماً عند ملاحدة الصوفية ؛ كابن سبعين^(١) ، والتلمساني^(٢) : "كان هؤلاء كابن سبعين ونحوه ، يجعلون أفضل الخلق ، المحقق - عندهم - هو القائل بالوحدة . وإذا وصل إلى هذا فلا يضره عندهم أن يكون يهودياً أو نصرانياً ؛ بل كان ابن سبعين ، وابن هود^(٣) ، والتلمساني ، وغيرهم ، يسوّغون للرجل أن يتمسك باليهودية والنصرانية كما يتمسك بالإسلام ، ويجعلون هذا طريقاً إلى الله".

إن الدعوة إلى وحدة الأديان كُفِّرَ صريح ؛ لما تتضمنه من تكذيب للنصوص الصحيحة الظاهرة ، التي تقرر قطعياً بأن دين الإسلام الدين الكامل ، الذي أتم الله به النعمة ، ورضيه لنا ديناً ، وأنه هو الناسخ لما سبقه من ديانات اعترأها التحريف والتبديل . قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ ﴿٨٥﴾ .
 آل عمران: ٨٥ . كما إن هذا القرآن حجة على كل من بلغه ، كما أن بعثة محمد ﷺ للثقلين كافة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿١٥٨﴾ الاعراف: ١٥٨

^(١) عبد الحق بن إبراهيم بن محمد الرقوتي . اشتغل بالفلسفة ، فأصابه إحداد . جاور بغار حراء راجياً النبوة . هلك سنة (٦٦٩هـ) يُنظر : ابن كثير : البداية والنهاية (٢٦١/١٣) ؛ ابن العماد : شذرات الذهب (٣٢٩/٥)

^(٢) أبو الربيع ، سليمان بن علي بن عبد الله العابدي ، شاعر نحوي ، نُسِبَ إليه حلول ، واتحاد ، وزندقة . له مؤلفات . هلك سنة (٦٩٠هـ) يُنظر : ابن كثير : البداية والنهاية (٣٢٦/١٣) ؛ ابن العماد : شذرات الذهب (٤١٢/٥)

^(٣) حسن بن علي المغربي الأندلسي . متصوف ، فيلسوف . له صلة باليهود ، صاحب شطح ، وذحول . هلك سنة (٦٩٩هـ) ابن العماد : شذرات الذهب (٤٤٦/٥) ؛ الزركلي : الأعلام (٢٠٣/٣)

ومن خطورة هذه الدعوة : أنها تدعو إلى إلغاء وإنكار أحكام كثيرة معلومة من الدين بالضرورة ، منها : استحلال موالاة الكفار ، وعدم تكفيرهم ، وإلغاء الجهاد في سبيل الله وتوابعه ، وتحليل ما حرم الله تعالى ؛ كتزويج المسلمة باليهودي ، والنصراني ، وغيرهم .

١٧ - موالاة الكفار . بإعانتهم على المسلمين . وإعانة الكفار على المسلمين سواء أكانت بالقتال معهم ، أم بإعانتهم بالمال ، أو السلاح ، أم كانت بالتجسس لهم على المسلمين . فهذا كُفْرٌ بُوَاحٍ ، وِرْدَةٌ جامحة . وهي منهج المنافقين . كما فصلنا ذلك . ويخرج من ذلك : التعامل معهم بالعدل ، ومخالطتهم لدعوتهم للإسلام ، والسفر إليهم للبلاغ ، ونشر الإسلام .

١٨ - ومن مظاهر موالاة الكفار : الاستغفار لهم ، والترحم عليهم . وقد حرم الله تعالى ذلك بقوله تعالى ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (التوبة: ١١٣) - ومن مظاهر موالاة الكفار : التسمي بأسمائهم ، بحيث يسمون أبناءهم وبناتهم بأسماء أجنبية ، ويتركون أسماء آبائهم وأمهاتهم . قال رسول الله ﷺ : (خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن)^(١) . وبسبب تغير الأسماء وُجد جيلٌ يحمل أسماء غريبة ؛ مما تسبب في تعميق الانفصال بين هذا الجيل وبين الأجيال الخيرية السابقة ، وقطع التعارف بين الأسر التي كانت تُعرف بأسمائها الخاصة .

٢٠ - ومن مظاهر موالاة الكفار : التأريخ بتواريخهم ، خصوصاً التاريخ الذي يعبر عن طقوسهم وأعيادهم ؛ كالتاريخ الميلادي ، الذي هو عبارة عن ذكرى مولد

^(١) أحمد : المسند (٤/١٧٨) ، من حديث سبرة بن أبي سبرة ؓ .

المسيح عليه السلام . وهو تاريخ ابتدعوه من عند أنفسهم ، وليس هو من دين المسيح . فاستعمال هذا التاريخ فيه مشاركة في إحياء شعائرهم وأعيادهم^(١) .

٢١ - ومن مظاهر موالاتة الكفار : السفر إلى بلادهم ؛ لغرض النزهة . والسفر إلى بلاد الكفار محرّم إلا عند الضرورة ؛ كالعلاج ، والتجارة ، وتعلّم التخصصات النافعة التي لا يمكن الحصول عليها إلا بالسفر إليهم . فيجوز بقدر الحاجة ، فإذا انتهت الحاجة وجب الرجوع إلى بلاد المسلمين . ويشترط لجواز هذا السفر أن يكون مُظهراً لدينه ، مُعْتزّاً بإسلامه ، مبتعداً عن مواطن الشر ، حذراً من دسائس الأعداء ومكائدهم . واشترط ابن عثيمين رحمه الله في (المجموع الثمين) لمن أراد السفر إلى بلاد الكفار شرطين اثنين ؛ هما : علّم يمنعه من الوقوع في الشبهات ، ودين يمنعه من الوقوع في الشهوات . وكذلك يجوز السفر إلى بلاد الكفار ؛ إذا كان لأجل الدعوة إلى الله ، ونشر الإسلام . بالشرطين السابقين .

٢٢ - مشاركة الكفار في أعيادهم الدينية . كعيد رأس السنة الميلادية (الكرسمس) فلا يجوز للمسلم مخالطتهم ، أو مشاركتهم ، أو تهنئتهم في أعيادهم الدينية ؛ لأن ذلك إقراراً لعملهم ، ورضى به ، وإعانةً عليه . فَمَنْ فَعَلَ ذلك فهو كافر بإجماع أهل العلم . وقد ثبت عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : "من بنى ببلاد الأعاجم ، وصنّع نيروزهم ومهرجانهم ، وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك ؛ حُشر معهم يوم القيامة"^(٢) . والتهنئة لأهل الكتاب بعيدهم هي بمثابة مَنْ يهنئهم بسجودهم للصليب .

^(١) يُنظر : البراء بن عازب سيرته ومروياته التاريخية في الكتب الستة ، شرح مروية الهجرة ، د.عبدالستار الجنابي

^(٢) البيهقي : السنن الكبرى (٢٣٤/٩)

✽ قال ابن القيم رحمه الله في أحكام أهل الذمة: "فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات ، وهو بمنزلة أن يهتته بسجوده للصليب . بل ذلك أعظم عند الله ، وأشدُّ مقتاً من التهتة بشرب الخمر ، وقتل النفس ، وارتكاب الفرج الحرام ، ونحوه .

يجب أن يُعلم أن الأعياد النصرانية من الشعائر والشرائع الدينية المتعلقة بالدين ، ولقد لعن اليهود والنصارى بما بدّلوا وحرّفوا في دين الله ﷻ في كتبه ، ولذلك أعيادهم هي من جنس دينهم المحرّف".

✽ وقال ابن تيمية رحمه الله: "والمحذور في أعياد أهل الكتاب التي نقرهم عليها ، أشد من المحذور في أعياد الجاهلية التي لا نقرهم عليها ، فإن الأمة قد حذروا من مشابهة اليهود والنصارى . ومن المعلوم في شروط عمر رضي الله عنه : أن أهل الذمة لا يُظهرون أعيادهم . وقال ﷺ : (من تشبه بقوم فهو منهم)^(١) . (من كثر سواد قوم حُسر

معهم)^(٢) ، وقال تعالى ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المائدة: ٥١

✽ قال العلماء: "ومن موالاتهم التشبه بهم ، وإظهار أعيادهم ، وهم مأمورون بإخفائها في بلاد المسلمين ، فإذا فعلها المسلم فقد أعان على إظهارها . وذهب ابن تيمية رحمه الله إلى أنه : "لا يجوز بيع كل ما يستعين به أهل الذمة على إقامة شعائرهم".

✽ ويجب أن يُعلم أن مشاركة المسلم في أعياد الكفار هي مشاركة في الكفر . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "إن الأعياد من جملة الشرائع ، والمناهج ، والمناسك ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ الحج: ٦٧ ؛ كالقبلة ، والصلاة ،

(١) أبو داود : السنن (٤٤/٤) ، ٤٠١٣ .

(٢) الديلمي ، شيرويه بن شهردار (ت ٥٠٩هـ) ، الفردوس بمأثور الخطاب (٣/٥١٩) تحقيق سعيد بسيوني (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦هـ)

والصيام . ولا فرق بين مشاركتهم في العيد ، وبين مشاركتهم في سائر المناهج ؛ فإن الموافقة في جميع العيد موافقة في الكفر ، والموافقة في بعض فروع موافقة في بعض شُعبِ الكفر . بل الأعياد هي أخص ما تتميز به الشرائع ، ومن أظهر ما لها من الشعائر . فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر ، وأظهر شرائعهم . ولا ريب أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة ؛ بشروط . وأما مبدؤها فأقل أحواله أن يكون معصيةً .

✽ والى هذا الاختصاص أشار النبي ﷺ بقوله : (إن لكل قوم عيداً ، وإن هذا عيدنا)^(١) . وهذا أقبح من مشاركتهم في لبس الزنار ، ونحوه من علاماتهم ؛ لأن تلك علامةٌ وضعية ليست من الدين ، إنما الغرض منها مجرد التمييز بين المسلم والكافر . وأما العيد وتوابعه فإنه من الدين الملعونون أهله . فالموافقة فيه فيما يتميزون به من أسباب سخط الله وعقابه . فعيد الكفار شريعة من شرائع الكفر ، أو شعيرة من شعائره ؛ فخرمت موافقتهم فيه كسائر شعائر الكفر وشرائعه .

✽ وفعل أعياد الكتابيين وغيرهم التي تُتخذ ديناً وعبادةً أعظم تحريماً من عيدٍ يُتخذ لهواً ولعباً ؛ لأن التعبد بما يسخطه الله ويكرهه أعظم من اقتضاء الشهوات بما حرّمه . ولهذا كان الشرك أعظم إثماً من الزنا ، ولهذا كان جهاد أهل الكتاب أفضل من جهاد الوثنيين^(٢) .

(١) البخاري ، الصحيح (٣٢٤/١) حديث رقم (٩٠٩) ؛ مسلم : الصحيح (٦٠٧/٢) حديث رقم (٨٩٢)

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٢٢)

الشروط العمرية على أهل الذمة فيما شرطوه على أنفسهم:

إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم عامة الصحابة معه ، ثم عامة الأئمة بعده ، وسائر الفقهاء ، جعلوا في الشروط المشروطة على أهل الذمة من النصارى وغيرهم فيما شرطوه على أنفسهم :

أن نوقر المسلمين ، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم : قلنسوة^(١) ، أو عمامة ، أو نعلين ، أو فَرْقَ شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتكلم بكُنَاهم ، ولا نركب الشُّروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله ، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمر . وأن نُجَزَّ مقادم رؤوسنا ، وأن نلزم زِينَا حيث كنا ، وأن نشدّ الزنانير^(٢) على أوساطنا ، وأن لا نُظهِر الصليب على كنائسنا ، ولا نُظهِر صليباً ، ولا كُتُباً في شيء من طرق المسلمين ، ولا أسواقهم ، ولا نضرب بنواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفياً . ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نُظهِر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين^(٣) .

فهذه الشروط أشهر شيء في كتب الفقه والعلم ، وهي مُجْمَعٌ عليها في الجملة بين العلماء من الأئمة المتبوعين ، وأصحابهم ، وسائر الأئمة .

والقصد من هذه الشروط : أن يمتاز المسلم عن الكافر ، ولا يتشبه أحدهما بالآخر في الظاهر . ولم يرض عمر رضي الله عنه والمسلمون بأصل التمييز ؛ بل بالتمييز في عامة الهدى . وذلك يقتضي إجماع المسلمين على التمييز على الكفار ظاهراً ، وترك التشبه بهم .

(١) القلنسوة : من ملابس الرؤوس معروف . لسان العرب (١٨١/٦)

(٢) الزنانير : جمع زنارة : ما يلبسه المجوسي والنصراني على وسطه يشده به . لسان العرب (٣٣٠/٤)

(٣) البيهقي السنن (٢٠٢/٩)

✽ ومما تقدم من هذه الشروط العمرية المُجمَع عليها عند الأمة الإسلامية ، والتي اتفق عليها الصحابة رضي الله عنهم ، وسائر الفقهاء بعدهم : أن أهل الذمة لا يُظهرون أعيادهم في دار الإسلام . وسُموا الشعانين^(١) ، والباعوث^(٢) . فإذا كان المسلمون قد اتفقوا على منعهم من إظهارها فكيف يسوغ للمسلمين فعلها ؟ وأليس فعل المسلم لها أشد من فعل الكافر لها مُظهِراً لها ؟ وذلك أتا منعناهم من إظهارها ؛ لما فيه من الفساد . أمّا لأنها معصية أو شعار معصية ، على التقديرين ؛ فالمسلم ممنوع من المعصية ومن شعارها . ولو لم يكن من فعل المسلم لها من الشرِّ إلا تجرئة الكافر على إظهارها لقوة قلبه للمسلم إذا فعلها ، فكيف وفيها من الشر الشيء الكثير !؟

العواقب الوخيمة من مشابهة أهل الكتاب وغيرهم في الأعياد والعبادات والعبادات ظاهراً وباطناً :

أولاً : إن مشابهة أهل الكتاب في بعض أعيادهم يوجب سرور قلوبهم بما هم عليه من الباطل ، خصوصاً إذا كانوا مقهورين تحت ظل الجزية والصغار ، فأوأ المسلمين قد صاروا فرعاً لهم في خصائص دينهم ؛ فإن ذلك يوجب قوة قلوبهم وانسراح صدورهم . وربما أطمعهم ذلك في انتهاز الفرص ، واستدلال الضعفاء . وهذا أمرٌ محسوسٌ ، لا يستريب فيه عاقلٌ . فكيف يجمع ما يقتضي إكرامهم بما يوجب مع شرح الصَّغار في حقهم !؟

(١) هو أول أحدٍ في صومهم ، يُخرجون فيه ورق الزيتون ونحوه ، ويزعمون أن ذلك مشابهة لما جرى للمسيح ابن مريم عليه السلام حين دخل بيت المقدس راكباً أتاناً مع جحشها ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فثار عليه غوغاء الناس . وكان اليهود قد وكلوا قوما معهم عصي يضرّبونه بها ، فأورقت تلك العصي ، وسجد أولئك للمسيح . فعيد الشعانين مشابهة لذلك الأمر .

يُراجع : اقتضاء الصراط المستقيم (٤٧٨ - ٤٧٩)

(٢) يخرج فيه النصرى ، ويجتمعون فيه كما يخرج المسلمون يوم الاضحى والفطر ، ينبعثون إليه من كل ناحية . يُراجع : اقتضاء الصراط المستقيم (٣٢١/١) وأحكام أهل الذمة (٧٢١/٢)

ثانياً : عندما يفعلون في عيدهم ما هو كُفْرٌ ، وما هو حرامٌ ، وما هو مباح . لو تجرّد عن مفسدة المشابهة . ثم التمييز بين هذا وهذا يظهر غالباً ، وقد يخفى على كثير من العامة . فالمشابهة فيما لم يظهر تحريمه للعالم يوقع العامي في أن يشابههم فيما هو حرامٌ . وهذا هو الواقع . والفرق بين هذا الوجه وبين وجه الذريعة -الوجه الثالث- : أنا هناك قلنا الموافقة في القليل تدعو إلى الموافقة في الكثير ، وهنا جنس الموافقة يلبس على العامة دينهم ، حتى لا يميّزوا بين المعروف والمنكر .

ثالثاً : إن ما يفعلونه في أعيادهم معصية لله ؛ لأنه إما مُحدثٌ مُبتدعٌ ، وإما منسوخ . وأحسن أحواله -ولا حُسنَ فيه- : أن يكون بمنزلة صلاة المسلم إلى بيت المقدس . هذا إذا كان المفعول فيما يُتدَيّنُ به . وأما ما لا يتبع ذلك من التوسع في العادات من الطعام ، واللباس ، واللعب له في دين الله الإسلام أصلٌ ؛ فيكون بمنزلة أن يتخذ بعض المسلمين عيداً مُبتدعاً يخرج به إلى الصحراء ، ويفعل فيه من العبادات والعادات من جنس المشروع في يومي الفطر والنحر .

أو مثل : أن ينصب بِنِيَّةٍ يُطاف بها ويُحجَّ إليها ، ويضع لمن يفعل ذلك طعاماً ، ونحو ذلك ؛ فلو فعل المسلم ذلك لكان غيرَ عادته ذلك اليوم كما يغير أهل البدعة عاداتهم في الأمور العادية ، أو بعضها ؛ بِنُصْنَعِهِمْ طعاماً ، أو زينةً لباسٍ ، وتوسّع في نفقةٍ ، ونحو ذلك ؛ من غير أن يتعبد بتلك العادة المحدثّة : ألم يكن هذا من أقبح المنكرات؟! فكذلك موافقة هؤلاء المغضوب عليهم والضالين أشدّ . وأهل الكتاب يُقرّون على دينهم المبتدع والمنسوخ مُستَسِرِّين به ، والمسلم لا يُقرُّ على مُبتدعٍ ، ولا منسوخٍ ؛ لا سراً ولا علانيةً . وأما مشابهة الكفار فكمشابهة أهل البدع ، وأشدّ .

رابعاً : إنّه إن سُوغَ فِعْلُ القليل من ذلك أدى إلى فِعْلِ الكثير ، ثم إذا اشتهر الشيء دخل فيه عوامُّ الناس ، وتناسوا أصله ؛ حتى يصير عبادةً للناس ، بل عيداً ؛ حتى يُضاهى بعيد الله . بل قد يُزاد عليه حتى يكاد أن يُفِضِي إلى موت الإسلام ، وحياة الكفر . كما قد سوله الشيطان لكثير ممن يدعي الإسلام فيما يفعلونه في أواخر صوم النصارى .

من الهدايا والأفراح ، مما يصير به مثل عيد المسلمين . بل إنّ في البلاد المصابقة الملاصقة للنصارى التي قلّ علّم أهلها وإيمانهم ، قد صار ذلك أغلب عندهم وأبهى في نفوسهم من عيد الله ورسوله .

فالمُشابهة تفضي إلى الكفر ، أو معصية غالباً ، أو تفضي إليهما في الجملة .

خامساً : إن الله تعالى جبل بني آدم ؛ بل سائر المخلوقات على التفاعل بين الشئيين المتشابهين ، وكلّما كانت المشابهة أكثر ، كان التفاعل في الإخلال والصفات أتمّ ؛ حتى يؤول الأمر أن لا يتميز أحدهما عن الآخر ؛ إلا بالعين فقط . فالمشابهة والمشاركة في الأمور الظاهرة توجب مشابهةً ومشاركةً في الأمور الباطنة ؛ على وجه المُسارَقة ، والتدرُّج الخفيّ . ويظهر هذا في اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين . فهم أقلّ كُفراً من غيرهم ، والمسلمون الذين أكثروا من معاشرّة اليهود والنصارى هم أقلّ إيماناً من غيرهم ممن تجرّد للإسلام . والمشاركة في الهدى الظاهر توجب أيضاً مناسبةً واتّلافاً وإن بُعد المكان والزمان . فمشابھتهم في أعيادهم -ولو بالقليل- هو سبب لنوع ما من اكتساب أخلاقهم ؛ التي هي ملعونة . وما كان مَظَنَّةً بفساد خفيّ غير منضبط عُلق الحكم بها ، وأدير التحريم عليه .

فنعولُ : مشابھتهم في الظاهر سبب ومظنة لمشابھتهم في عين الأخلاق والأفعال المذمومة ؛ بل في الاعتقادات نفسها .

سادساً - إنّ المشابهة في الظاهر تورث نوع محبة ومودة موالاة في الباطن ، كما إنّ المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر . وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة ؛ حتى إنّ الرجلين إذا كانا من بلدٍ واحدٍ ثم اجتمعا في دار غربة كان بينهما من المودة والاتّلاف أمر عظيم ، وإن كانا في مصرهما لم يكونا متعارفين ، أو كانا متهاجرين .

وكذلك نجد أرباب الصناعات الدنيوية يألف بعضهم بعضاً ، ما لا يألفون غيرهم . وكذلك الملوك والرؤساء ، وإن تباعدت ديارهم وممالكهم ؛ إلا أن يمنع ذلك ديناً ،

أو غرض خاص . فإذا كانت المشابهة في أمورٍ دنيوية تورث المحبة والولاء لهم ، فكيف بالمشابهة في أمورٍ دينية؟! فإن إفضاءها إلى نوعٍ من الموالاة أكثر وأشد . والمحبة والموالاة لهم تنافي الإيمان .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَدِيمِينَ ﴿٥٢﴾ المائدة: ٥١ - ٥٢

وقال تعالى فيما يذم به أهل الكتاب : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ المائدة: ٧٨ - ٨١

فبين - سبحانه وتعالى - أن الإيمان بالله ، والنبي ، وما أنزل إليه ؛ مُستلزمٌ لعدم ولايتهم . فثبوت ولايتهم يُوجبُ عدم الإيمان ؛ لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم .

قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ المجادلة: ٢٢

فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يوجد مؤمن يوادُّ كافراً . فَمَنْ وَادَّ كَافِرًا فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ .
والمشابهة الظاهرة مظنة المودة ، فتكون محرمة^(١) .

قال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ
الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۗ ﴾ البقرة: ١٢٠

إن الله تعالى قال في الخبر (ملتهم) وقال في التَّهْيِي (أهواءهم) لأن القوم لا
يرضون إلا باتباع الملة مطلقاً ، والزجر وقع عن اتباع أهوائهم في قليل أو كثير . ومن
المعلوم أن متابعتهم في بعض ما هم عليه من الدين نوع متابعة لهم في بعض ما
يَهْوَوْنَهُ ، أو مظنة لمتابعتهم فيما يهويونه^(٢) .

خلاصة:

مما تقدّم يتبين لنا أن مشابهة الكفار -على وجه العموم أو الخصوص- في
أعيادهم : حرام ، أو كفر ، أو مُنَافٍ للإيمان . ولا يخفى على كل مسلم أن التشبه بأهل
الكتاب ؛ سواء في عاداتهم ، أو أعيادهم ، أو أخلاقهم ؛ يدلُّ على نوع مودّة ومحبة
وموالاة ، وإن لم يجاهر المتشبه بذلك .

وهو وإن لم يُورث نوع مودة ومحبة فهو على الأقل مَظَنَّة المودّة ؛ فيكون محرماً
من هذا الوجه ، سداً للذريعة ، وحسماً لعادة حُب الكافرين والولاء لهم ؛ فضلاً عن
كونه محرماً من وجوه أخرى بالنصوص ، والأدلة التي ذكرناها .

وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم ؛ حتى يؤول
الأمر أن لا يتميز أحدهما عن الآخر ؛ إلا بالعين فقط . بعكس المتمسكين بهدي

(١) يُراجع اقتضاء الصراط المستقيم ٤٨٨/١ - ٤٩٠ .

(٢) الاقتضاء (٨٦/١)

الإسلام ، البعيدين عن مشابهة الأمم الاخرى ؛ فهم أكثر نُفرةً ، وأقلّ مودّةً لغير المسلمين . كما إن التشبه بأهل الكتاب -كما وضحنا- لا يقتصر على المودة الظاهرة بين المسلم والكافر ، بل قد يصل إلى الأمور الاعتقادية والفكرية الباطنية ، وهذا هو مكنم الخطر في التشبه ؛ لأن المسلم الذي يقلّد الكفار في الظاهر يقوده ذلك إلى التأثير باعتقاداتهم الباطنية ؛ وذلك عن طريق الاستدراج الخفي ، شيئاً فشيئاً^(١) .

✽ وأخيراً ؛ فالواجب علينا أن نُربي أنفسنا ، وأبناءنا ، ومن هم تحت أيدينا على البراءة من أعداء الله من الكافرين والمنافقين ، وبُغضهم في قلوبنا ، وألستنا ، وأيدينا . والإعداد لهؤلاء الكافرين والمنافقين . وعلينا أيضاً : أن نربي أنفسنا وأبناءنا على الولاء والمحبة لله ولرسوله وللمؤمنين ؛ لأن من أوجب الواجبات نصرة المؤمنين ، وإعانتهم ، والدفاع عنهم باليد واللسان ، وبالمال ، وبكل ما نملك . "فإن أعمالنا ونصرتنا لإخواننا

(١) يُعدّ كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) من أحسن ما ألف في هذا الباب . فقد ذكر فيه تحريم مشابهة الكفار بالأدلة من الكتاب والسنة ، والإجماع ، والآثار ، والاعتبار . فذكر من الآيات القرآنية ما يزيد عن ثلاثين آية ، وقُرّر بعد كل آية وجه دلالتها على ذلك . ثم ذكر الأحاديث النبوية الدالة على تحريم مشابهة أهل الكتاب ما يقارب مئة حديث ، وأعقب كل حديث بذكر وجه دلالاته على ذلك . ثم ذكر الإجماع على التحريم ، ثم ذكر الآثار ، ثم ذكر من الاعتبار ما في بعضه الكفاية . فما أجّل هذا الكتاب ، وأنفسه !! فَحَرِّثِي بكل مسلم أن يقتني هذا الكتاب ، ويدرسه دراسةً عملية بين طلاب العلم .

فالواجب على كل مسلم الحذر كلّ الحذر من مشابهة أهل الكتاب وغيرهم في العادات ، والأعياد ، والتقاليد ، والعبادات ؛ ظاهراً وباطناً ، خاصّاً وعماماً ، صغيراً وكبيراً ؛ لأنه من تشبه بقوم فهو منهم . وعلينا أيضاً أن نقوم بواجب النصح والإرشاد والتي هي أحسن لمن رأيناه يقلدهم ويتشبه بهم ، لعلنا نكون سبباً في تركهم لهذه المشابهة ، فيحصل بذلك الأجر والثواب ؛ لا سيما إن بدأنا بأنفسنا ، ومن هم تحت أيدينا بترك كل ما فيه مشابهة للكفار والباطنيين ، وغيرهم .

لم تزل إبلاً يُورِدُها سعدٌ ، وعواطِفُ لا عَضُدَ لها ولا ساعدٌ ولا زند ، فلنجرِد سيف الحقيقة العقديّ الحديديّ من الغمد" (١) .

فلا بدّ من الاهتمام بغرس عقيدة الولاء والبراء ، والموالاة والمعاداة في قلوب المسلمين عامة ، وفي النشء من الأجيال خاصة ؛ لكي يعلم المسلم من يوالي ومن يعادي ، ولكي يعلم لمن يصرف ولاءه ، ولمن يتوجّه بالعداء ، ولكي يعلم المسلمون أين حزب الله ، وأين حزب الشيطان .

إذن لا بدّ من تربية الأجيال على بُغض اليهود والنصارى ، والمنافقين ، والباطنيين ، والملحدين ، وكلّ أعداء الدين (٢) .

ج- الصد عن الإنفاق والدعوة إلى البخل والجبن :

وصف الله ﷻ المنافقين بأنواع الأخلاق المذمومة . منها ما هو موسوم في هذه الآية الكريمة ﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١٧) التوبة: ٦٧ أي : إنّ المنافقين يشحّون فيما ينبغي إخراجهُ من المال في الصدقة ، والصلّة ، والجهاد . فالقبضُ كناية عن البخل والشح ، كما البسط كناية عن الكرم والجدود .

(١) القرني ، علي عبد الخالق ، ما حقيقة كخيال (ص ١٤٧)

(٢) عبد الغني ، سعيد ، حقيقة الولاء والبراء (ص ٧٠٦) ، بتصرف يسير (ط ٢ ، مكة المكرمة ، إدارة المطبوعات في وزارة الإعلام ، ١٤٢٢هـ)

فالإنفاق في طاعة الله معروف ، وهو منهى عنه في عقيدة المنافقين . والبخل في طاعة الله مُنكر ، وهو مأمور به في منهج المنافقين . فوصفهم الله تعالى بقوله : ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ مما يفيد أن المنافقين بخلاء ، ويدعون غيرهم إلى البخل .

ولعل أكبر دليل على أن المنافقين بخلاء ويدعون غيرهم إلى البخل في طاعة الله ؛ صدأً عن الإنفاق في سبيل الله ما بينه القرآن الكريم في هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ حَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ^(٧) المنافقون: ٧ فالنهي عن بذل المال في سبيل الله للقتال دلالة على النفاق ؛ لأنه شرُّها وأضرُّها وأقواها ، كما إن الإنفاق في سبيل الله أعظم دلالة على الإيمان . كأن المنافقين في المدينة يقولون للأنصار : لا تطعموا محمداً ولا أصحابه ؛ حتى تصيبهم مجاعة ، فيتركوا نبيهم حين يعرضهم الجوع بأنبياءه .

✽ فمن أساليب المنافقين الدنيئة هي : تخويف المصلحين بقطع أرزاقهم إن دعوا إلى الحق ونصروه ، كما دلت عليه الآية السابقة .

✽ قال الاستاذ الكبير سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية : "وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية ؛ لينفض أصحاب رسول الله ﷺ عنه تحت وطأة الجوع . وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من البطاقات التموينية ؛ ليموتوا جوعاً ، أو يكفروا بالله ويتركوا الصلاة . وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام ؛ بالحصار ، والجوع" ^(١) .

إن خطة المنافقين التي يمارسونها ضد أهل الحق ، ويتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان ؛ إنما هي تعبيرٌ عن خسة مشاعرهم ، حيث يحسبون أن لقمة العيش هي كل شيء في الحياة ، كما هي في حسهم ، فلذلك يحاربون المؤمنين .

^(١) في ظلال القرآن (٦/٣٥٧٩)

إنها هي خطة المنافقين في حربهم لرسول الله ﷺ ، وهي خطة غيرهم ممن يحارب الدعوة إلى الله والدعاة والمجاهدين في سبيل الله . وهكذا يتواصى على هذه الخطة الخبيثة كل خصوم الإسلام ، من قديم الزمان إلى وقتنا الحاضر .

✽ إن خطة المنافقين في التجويع لا يفكر بها إلا أخس الأخساء ؛ لذلك نجد أعداء الإسلام يكرّرون مثل هذا الأسلوب في كل زمان ومكان . وما هو جارٍ اليوم على شعوبنا الإسلامية في العراق، وأفغانستان، والسودان ، وفلسطين ، وغيرها ؛ من الحصار الاقتصادي من قبل الصليبيين ، ومن معهم من المنافقين ؛ لأكبر شاهدٍ على ما نقول .

أمّا موقف المنافقين المنحرف من الباذلين أموالهم في سبيل الله ، فهو اللّمز والهمزُ ، فمن تصدق من المؤمنين بالمال الكثير في سبيل الله ، قالوا عنه مرأئي ، ومن تصدّق باليسير ، قالوا : إن الله لَغَنِيٌّ عن صدقة هذا . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٩) ﴿ التوبة: ٧٩ .

فهذا من أعظم الأضرار على الجهاد والمجاهدين ، وعلى المجتمع المسلم الذي يواجه التحديات من الداخل والخارج .

فصفة البخل المذمومة للمنافقين مقرونةٌ بصفة الجبن . فالمنافقون بخلاء جبناء ، وأمّا المؤمنون الصادقون فهم كرماء وشجعان ؛ لذلك جمع النبي ﷺ وأصحابه الكرام بين صفتي الكرم والشجاعة ، فكان ﷺ أشجع الناس وأكرمهم . ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس)^(١) .

(١) البخاري : الصحيح (١٠٦٥/٣) حديث رقم (٢٧٥١) مسلم : الصحيح (١٨٠٢/٤) حديث رقم (٢٣٠٧) ؛ ابن حبان : الصحيح (٢٨٤/١٤) حديث رقم (٦٣٦٩)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (ما رأيتُ أحداً أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أضوء من رسول الله ﷺ)^(١)

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : (كنا إذا احمرَّ البأس نتقي به ، وإنَّ الشجاع منا يحاذي به)^(٢) يعني : رسول الله ﷺ .

✽ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : (لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ ، وكان أشد الناس بأساً ، وما كان أحد أقرب إلى العدو منه)^(٣) .

وذمَّ النبي ﷺ صفتي البخل والجبن ، فقال ﷺ : (شرُّ ما في المرء ، شحُّ هالع ، وجُبْنُ خالع)^(٤) .

✽ وقد وضع ﷺ خطورة صفة البخل في الأفراد ، وبين ﷺ أن البخيل لا يصلح أن يكون رأساً على قومه . قال ﷺ : (مَنْ سيِّدكم يا بني سلمة ؟) فقالوا : الجد بن قيس ، على أنا نزنه بالبخل . فقال ﷺ : (وأي داءٍ أدوى من البخل ؟ إن السيد لا يكون

^(١) الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي (ت ٢٥٥هـ) السنن (٤٤/١) (ط١، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧هـ)

^(٢) ابن أبي شيبة : المصنف (٤٢٦/٦) حديث رقم (٣٢٦١٥) مسلم : الصحيح (١٤٠١/٣) حديث رقم (١٧٧٦)

^(٣) البيهقي : السنن الكبرى (٤٥٧/٥)

^(٤) ابن أبي شيبة : المصنف (٣٣٢/٥) حديث رقم (٢٦٦٠٩) أبو داود : السنن (١٢/٣) حديث رقم (٢٥١١) ابن حبان : الصحيح (٤٢/٨) حديث رقم (٣٢٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وشح هالع ، أي : يجزغ فيه العبد ، ويحزن . وجبن خالع ، أي : شديد ، كأنه خلع فؤاده من شدة الخوف . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (هلع) و (خلع)

بخيلاً. بل سيدكم الأبيض بشر بن البراء بن معرور^(١). وقد قال النبي ﷺ لما سأله الأعراب حتى اضطروه إلى سُمرة فتعلقت بردائه ، فالتفت إليهم وقال : (أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاة نَعماً لقسمته عليكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ، ولا جباناً ، ولا كذوباً)^(٢).

✽ وكذلك قول جابر بن عبد الله ﷺ لأبي بكر ﷺ : إما أن تعطيني ، وإما أن تبخل عني ؟ ، فقال : تقول : وإما أن تبخل عني ! وأي داء أدوى من البخل ؟ ^(٣) . فجعل البخل من أعظم الأمراض .

✽ وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال : قَسَمَ النبي ﷺ قسماً ، فقلت : يا رسول الله ، والله لغير هؤلاء أحق به منهم ، فقال : (إنهم خيروني بين أن يسألوني بالفحش ، وبين أن ييخلوني ، ولست بياخل)^(٤)

^(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ٧١) ، والطبراني في الكبير (٣٥/٢) حديث رقم (١٢٠٣) والحاكم : المستدرک

(٢٤٢/٣) حديث رقم (٤٩٦٥) وقد ورد في بعض الروايات (عمرو بن الجموح) بدلاً من (بشر بن البراء بن معرور) ورواية (عمرو بن الجموح) هي الأصح ، والله أعلم ، فقد حسنها الحافظ العراقي في (المغني على هامش الأحياء) (٤٢/١٠) طبعة دار الغد العربي ، كتاب ذم البخل . وصححها الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص ١٢٥) أما رواية (سيدكم بشر بن البراء بن معرور) فقد قال عنها الحافظ : "ورجال هذا الإسناد ثقات ، إلا أنه اختلف في وصله وإرساله عن الزهري ، ثم قال رحمه الله : "ويمكن الجمع بأنه تحمل قصة بشر على أنها كانت بعد قتل عمرو بن الجموح ﷺ و جمعاً بين الحديثين" ، فتح الباري (١٧٩ /٥)

^(٢) البخاري : الصحيح (١٠٣٨/٣) حديث رقم (٢٦٦٦) ابن حبان : الصحيح (٨٥/١٣) حديث رقم (٥٧٧٢)

^(٣) البخاري : الصحيح (١١٤٢/٣) حديث رقم (٢٩٦٨)

^(٤) مسلم : الصحيح (٧٣٠/٢) حديث رقم (١٠٥٦)

يقول : إنهم يسألوني مسألة لا تصلح ، فإن أعطيتهم ، وإلا قالوا : هو بخيل ، فقد خيروني بين أمرين مكروهين لا يتركوني من أحدهما : المسألة الفاحشة ، والتبخيل . والتبخيل أشد ؛ فأدفع الأشد بإعطائهم .

✽ والبخل جنس تحته أنواع : كبائر ، وغير كبائر . قال تعالى في وصف المنافقين بالبخل : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ التوبة: ٧٥ - ٧٦

وقال : ﴿ هَاتِمَةٌ هُنَالًا تَدْعُونَ لِنُفِيقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ (٣٨) محمد: ٣٨

وقال : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (٣٧) النساء: ٣٧

✽ وكذلك ذم الله الجبن في المنافقين في قوله تعالى ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (٥٧) التوبة: ٥٧ . وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ محمد: ٢٠ وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧٧) النساء: ٧٧

✽ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(١): "لَمَّا كَانَ صَلَاحُ بَنِي آدَمَ لَا يَتِمُّ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ إِلَّا بِالشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ ؛ بَيْنَ اللَّهِ ﷻ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ بِتَرْكِ الْجِهَادِ بِنَفْسِهِ يُبَدِّلُ اللَّهُ مِنْ يَقُومُ بِذَلِكَ ، وَمَنْ تَوَلَّى عَنْهُ بِإِنْفَاقِ مَالِهِ أَبَدَلَهُ اللَّهُ بِهِ مَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قَاتِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ءَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ ﴾ (٣٨) إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾" التوبة: ٣٨ - ٣٩ وبالشجاعة والكرم فضل الله السابقين الأولين ، فقال ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَئِيَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ الحديد: ١٠ .

وختلاصة القول :

يظهر لنا مما سبق ذكره من النصوص : أنّ الجبن والبخل والدعوة إليهما منهج ثابت للمنافقين قديماً وحديثاً ، وأن الشجاعة الكرم منهج سار عليه النبي ﷺ ، وحث عليه أصحابه الكرام ﷺ . فالكرم والشجاعة أعظم دلائل الإيمان ، والبخل والجبن أعظم دلائل النفاق .

د : نشر الفساد والرذيلة بالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف :

المنافقون يسلكون منهج حياتهم بالنفاق ، وهو منهج قائم على الكذب ، والخداع ، والمكر . لا يحبون العيش بسلام ووثام ، يتقدم كل واحد على الغير بالنهي عن المعروف ، قال تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ

^(١) الربانيات والإلهيات ، (مصر ، المكتبة الإسلامية ، د.ت) (ص ٨٣)

بِالْمُنْكَرِ وَيَهْوُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ التوبة: ٦٧

فَعندهم : المنكرُ مأمور ومشجع ، والمعروف منهئي عنه ومرغوبٌ عنه . وكلُّ واحد منهم بخيل ، ولا يعطي . ولا يرون الصلاح ، ولا الإصلاح . ولأجل ذلك سماهم الله عز وجلّ المفسدين : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة: ١٢ . فهم مفسدون بنظرياتهم ، وأفعالهم ، وعقيدتهم ، ولذلك تراهم كما قال الله تعالى : ﴿ مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ النساء: ١٤٣ لا ينضمون إلى أهل الصلاح ولا إلى أهل الفساد منهجاً ، يقفون على منهج أفسد وأقبح من منهج أهل الفساد ، فوجودهم منبع كل فسادٍ في مجتمع موجودون فيه . ولشدة غضب الله عليهم ، عذبهم بأشد أنواع العذاب ، فقال تعالى تمهيداً وإنذاراً لمن وقع في شركٍ منهجهم الثقافي : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ النساء: ١٤٥

ويتمثل خطر المنافقين على المجتمع الإسلامي في النواحي التالية :

١- الناحية الفكرية :

النفاق إفساد في الأرض من الناحية الفكرية ؛ لأن التذبذب بين الطوائف المختلفة في الاتجاه يجعل الأمور الجدوية محلاً للعب والهزل ، ويحول بين أصحابه وبين التفكير في البحث عن الحق والاهتداء إليه . كما إن وجود المنافقين في المجتمع الإسلامي يحول بين الناس وبين الدخول في الإسلام ومحاولة فهم دعوته ؛ لأن أهم ما يجذب الناس إلى الإسلام هو ما يرونه من سلوك أتباعه المتمسكين بتعاليمه السامية . وما حدث من انتشار للإسلام بين الأعاجم في عهود الفتح الإسلامي يشهد بذلك ؛ لأن الأعاجم لا يفهمون القرآن ، وإنما جذبهم إلى هذا الدين ما تمتع به الصحابة رضوان الله

عليهم من مكارم الأخلاق . فإذا وُجد المنافقون في المجتمع الإسلامي ، كان وجودهم فيه مدعاة لئفرة الناس من الإسلام ، أو محاولة فهمه ؛ لأنهم لم يتقيدوا بتعاليمه السامية.

ويتضاعف إفسادُ المنافقين ؛ إذا كان ممن ينتسب إلى العلم بالإسلام ، ويتخصص بدراسة علومه ؛ لأنهم سيّخذون من التظاهر بالدعوة إلى الإسلام وتعليم علومه وسيلةً لتغطية نواياهم السيئة في هدم الإسلام ، وتضليل المسلمين .

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين من هؤلاء المنافقين الذين ينتسبون إلى العلم بالدين ؛ كما قال ﷺ : (إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي منافق عليم اللسان)^(١)

٢- الناحية الاجتماعية :

والنفاق فساد في الأرض من الناحية الاجتماعية ؛ لأن المنافقين لا يتحلّون بالإيمان الذي يعصم صاحبه من الوقوع في الجرائم ، والاستهانة بمكارم الأخلاق . فإذا شاع هذا السلوك المنحرف في المجتمع اختلّ نظامه ، وأصبح المنكر فيه معروفاً ، والمعروف منكراً .

وكون المنافقين ينتسبون إلى الإسلام ظاهراً يهيئ لهم الجو الملائم للإفساد في المجتمع الصالح ؛ لأنهم يختلطون بالمؤمنين اختلاطاً كاملاً ، فلا يمكن التحرّز منهم .

ونظراً لما للمنافقين من أثر سيء على المجتمع ، كان حكم الإسلام في المرتدين أن يُقتلوا حتى يتطهر المجتمع منهم . وإنّ من أهم الخطوات التي يجب

^(١) أحمد : المسند (٢٢/١) حديث رقم (١٤٣) ؛ الطبراني : المعجم الكبير (٢٣٧/١٨) حديث رقم (٥٩٣)

اتخاذها في سبيل تكوين مجتمع صالح هي إيجاد البيئة الصالحة التي يتربى فيها المؤمنون ، ثم القيام بالرقابة التامة على أفراد هذه البيئة لتطهيرها من عناصر الإفساد .

٣- من الناحية السياسية :

والنفاق فساد في الأرض من الناحية السياسية ؛ لأن عُمران الأرض لا يمكن أن يتحقق إلا بقيام الدولة الإسلامية التي تنفذ شرع الله في الأرض ، فإذا وُجِدَ المنافقون في هذه الدولة أصبحت في خطرٍ عظيمٍ ؛ لأنهم يتظاهرون بمحبتها والتفاني في خدمتها ، ثم يخونونها في أخرج المواقف ، وينقلون أسرارها إلى أعدائها . كما سنرى ذلك واضحاً في صفحات هذه الرسالة .

فالمنافقون يكرهون قيام الدولة الإسلامية ؛ لأنها تحول بينهم وبين إفسادهم للمجتمع . وحينما يتولى النفاق السلطة على المسلمين ؛ فإنه يُعْمَلُ يده في المخلصين منهم قتلاً وتشريداً ، لا يُنكر ذلك إلا القليل من المؤمنين . رأينا ذلك في كثير من الدول العربية والإسلامية التي تسلط المنافقون فيها على زمام الأمور ، وأوقعوا قتلاً في المخلصين ، والعلماء العاملين .

ومن هنا كان المنافقون أخطر على الأمة الإسلامية فيما لو تولوا السلطة عليها ؛ مما إذا تولّاه الكفار . والمنافق جريء على الظلم والتدمير ؛ لأنه يفتقد الوازع الديني الذي يأمره بالخير وينهاه عن الشر ، فإذا وصل إلى مركز كبير في الدولة الإسلامية بدأ بالعبث والإفساد في الأرض بشكل منظم ، بحيث لا يلفت أنظار الناس إليه ؛ كالسوس الذي ينخر في الجسم حتى يتركه هيكلاً متداعياً لا روح فيه . فالمنافق يُنْخِرُ في جسد الأمة شيئاً فشيئاً ؛ حتى ينقُضَ كيانها ، ويُبْقِي مبادئها خيالية بعيدة عن الواقع ؛ لأن الذين يؤمنون بها ويستطيعون تطبيقها أبعُدوا عن المراكز الحساسة في الدولة^(١) .

^(١) يُنظر : المنافقون في القرآن الكريم ، د. عبدالعزيز الحميدي .

المطلب الثاني : المنافقون أشد خطراً من الكافرين :

مع خطورة الكفار على الإسلام والمسلمين ؛ إلا أن المنافقين أشد خطراً منهم . فقد ذكرهم الله تعالى في ثلاث عشرة آية من سورة البقرة ، في حين لم يرد ذكر الكافرين إلا في آيتين فقط . وقد بلغت الآيات الواردة في المنافقين أكثر من ثلثمائة آية ، موزعة على عشرين سورة من سور القرآن الكريم . ومما يؤسف له أن كثيراً من الناس لا يشعرون بهذا الصنف ، ولقد أسف لهذا الحال من قبل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ؛ إذ قال : "فإن كثيراً من المتأخرين ما بقي في المظهرين للإسلام عندهم إلا عدلٌ أو فاسقٌ ، وأعرضوا عن حكم المنافقين"^(١) .

وقد عدَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جدال المنافقين بالكتاب أحد أمور ثلاثة تهدم الإسلام ، فعن زياد بن حدير قال : قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "تعرف ما يهدم الإسلام ؟ ، قلت : لا ، قال : يهدمه زلة عالم ، وجدال منافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين"^(٢) .

✽ وعن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان"^(٣) . أي : علمه بالإسلام لا يتجاوز حدود لسانه ، فكلامه يخدع المؤمنين ، ولكنه يُضمر في قلبه الكيد ، وإرادة الشر .


^(١) مجموع الفتاوى ، (٢١٢/٧)

^(٢) الدارمي ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٥هـ) ، السنن (١/ ١٦٧) حديث رقم (٢١٤) تحقيق أحمد زمرلي وخالد السبع (ط ١ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧هـ) ،

^(٣) أحمد : المسند (٢٢/١) حديث رقم (١٤٣)

✽ وعن عمران بن الحصين ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان"^(١) . وفي رواية "إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة كل منافق عليم اللسان"^(٢) .

✽ وروي بإسناد صحيح عن حذيفة بن اليمان ﷺ موقوفاً عليه ، قال : "إن من أقرأ الناس المنافق الذي لا يترك واواً ولا ألفاً يلفته كما تلفت البقرة الخلى"^(٣) بلسانها"^(٤) .

إن بلية الأمة بالمنافقين أعظم من بليتهم بالكافرين المجاهرين ؛ لهذا يقول الله في حقهم : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ مُسْتَسَدِّدُونَ كُلٌّ صِحَّةٌ عَلَيْهِمْ هُوَ الْعَدُوُّ فَأَحْذَرْتَهُمْ فَاتْلُوهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾  المنافقون : ٤

أي : إنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكافرين المجاهرين ؛ لأن أعدى الأعداء العدو المتظاهر بالموالاة ، وهو مدّاح ، وتحت ضلوعه الداء الدوي . أي : إنه إذا كان المشرك الوثني عدواً ، والكافر الكتابي عدواً ، والمرتد المنقلب على عقبيه عدواً ؛ فإن المنافق هو العدو ، وحزبه في النفاق الأكبر هم العدو . وهم كما قال ابن الجوزي رحمه الله : "المنافقون عيون الأعداء على المسلمين"^(٥) .

(١) الطبراني : المعجم الكبير (٢٣٧/١٨) حديث رقم (٥٩٣)

(٢) أحمد : المسند (٤٤/١) حديث رقم (٣١٠)

(٣) الخلى : الحشيش وكل نبات رطب . واحده : خلاة ، ابن منظور : لسان العرب (٢٨٣/٦)

(٤) الفريابي ، جعفر بن محمد (ت ٣٠١هـ) صفة المنافق (ص ٥٩) تحقيق بدر البدر (ط ١ ، الكويت ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، ١٤٠٥هـ)

(٥) ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ) زاد المسير في علم التفسير (٣٦٨/٨) (بيروت ، دار الجيل ١٩٨٩م)

وكما ذكر الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾ المنافقون: ؛ قال: "هم العدو يا محمد ، فاحذرهم ، فإن أَلَسْتَهُمْ إِذَا لَقَوْكُمْ مَعَكُمْ ، وقلوبهم عليكم مع أعدائكم ، فهم أَعْيُنٌ لِأَعْدَائِكُمْ عَلَيْكُمْ" ^(١) .

لذلك كان جهادهم أعظم منزلةً ، وأرفع قدرًا من جهاد الكافرين ، لأن :

١ - جهاد الكافرين يجيء ويذهب باختلاف الأزمنة والأمكنة ، ووقت وجود دوافعه ومسبباته ، من مدهامة الكفار لبلاد المسلمين ، أو فتح المسلمين معاقل الكفار الصادين عن سبيل الله . أما المنافقون فجهادهم قائم دائم مستمر في السلم وفي الحرب ؛ لأن أذاهم للمسلمين موصول في السلم وفي الحرب .

٢ - عداة المنافقين في الغالب مستترٌ خفيٌّ ، وعداء الكُفْر مُغْلَنٌ جَلِيٌّ . ولا شك أن المستعلن بالعداء يعطي من يعاديه فرصة الاستعداد وأخذ الحذر ، بخلاف من يتآمر في الخفاء ، ويموّه العداة .

٣ - خطر المنافقين من الداخل بين صفوف المسلمين ، بينما خطر الكافرين الظاهرين يأتي في أغلب الأحيان من الخارج . وخطر الخارج لا يستفحل دائماً إلا بمساندة من في الداخل ، والواقع الذي عاشته أمة الإسلام في عصرنا الحاضر هو أكبر دليل على ذلك ، فما دخل الأمريكان العراق وأفغانستان إلا بمعونة المنافقين .

إن العدو المُخَالِطِ المُدَاخِلِ المُسَاكِنِ أخطر وأشد كيداً من العدو البعيد ، واللص المُخَالِطِ المُدَاخِلِ الذي يلبس ثوب صديق وفي أمين أكثر ضرراً وأنفذ مكرًا من اللص

^(١) الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) جامع البيان في تأويل القرآن (٣٠ / ٧٠) (بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٥هـ)

المكشوف ، الذي يُعرف بأنه خائن غدار ، فيحذر الناس منه ، ويقون أنفسهم من سطوته أو حيله ومكايده . ويقول الحكماء في أمثالهم : "لِصُّ الدار لا تراقبه الأنظار" .

ومما يؤيد عِظْمَ منزلة مُجاهدة المنافقين هو أن عداوتهم شاملة ، لا تقتصر على جانب دون جانب ، فهي تبدأ من الكلمة همزاً ولمزاً وسخرية ، وتنتهي إلى الخيانة العظمى بالقتال في صفوف الكفار ، وتحت رايتهم ، والتأمر معهم على المسلمين ، وكشف أسرارهم . شاهدنا ذلك بأعيننا ورأينا الخيانة العظمى من المنافقين ، عندما دخل الأمريكان العراق وأفغانستان . فكان المنافقون ولا يزالون يقفون مع الأمريكان ، ويحاربون الإسلام والمسلمين .

٤ - جهاد الكفار قد يكون فرض عين أو فرض كفاية ، وقد يسقط بالأعداء ، أما جهاد المنافقين فهو غير قابل للسقوط ، فهو واجب على كل مكلفٍ بِحَسَبِهِ . كما قال ﷺ : (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي ، إلا كان له من أمتة حواريين وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخاف من بعدهم خُلوفاً ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يأمرهم . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) ^(١)

لذلك فإن جهاد المنافقين المأمور به في قوله تعالى : ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرُ الْمَصِيرُ﴾ ^(٧٣) التوبة: ٧٣ ^(٢) يبدأ بالقلب ، وينتهي بالسيف .

^(١) مسلم : الصحيح (٦٩/١) حديث رقم (٥٠) ابن حبان : الصحيح (٧١/١٤) حديث رقم (٦١٩٣)

^(٢) سورة التوبة ، الآية (٧٣)

❁ يقول ابن القيم رحمه الله : "فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار ، وهو جهاد خواص الأمة ، وورثة الرسل . والقائمون به أفراد في العالم ، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عدداً ، فهم الأعظم عند الله قدراً . ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض ؛ مثل : أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه ، كان للرسول ﷺ من ذلك الحظ الأوفر ، وكان لنبينا ﷺ من ذلك أكمل الجهاد وأتمه" (١) .

وقال الله عنهم وعن كيدهم وخداعهم : ❁ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ البقرة: ٨ - ٩ وقال تعالى : ❁ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ البقرة: ١٤ .

هذا هو حالهم ، وهذا هو دأبهم : الخداع والمكر ، والكيد للإسلام وللمسلمين . فوجبت معاداتهم والبراءة منهم ؛ طاعة لله ولرسوله ﷺ ، وموالاته لله ولرسوله ﷺ ، وللإسلام ، وللمسلمين .

٥ - المنافقين جمعوا في قلوبهم بين الفسق والكفر . فلقد فسقوا بخروجهم عن أمر الله ، وما أوجب عليهم من الإسلام والإيمان ، ومالوا عن التوحيد وخرجوا منه إلى الكفر . وهم كفرة ؛ لأنهم كفروا بالله وإن تظاهروا بالإسلام ، فإنهم أبطنوا وأخفوا الكفر ، وكراهية الدين ، وكراهية الرسول ﷺ وكراهية المسلمين ، وفرحوا بكل مصيبة وكل هزيمة تلحق بالإسلام والمسلمين ، وحننوا لكل نصر وظفر للإسلام والمسلمين . فجمعوا بين الكفر ، والفسق .

(١) زاد المعاد (٣ / ٦)

قال الله تعالى مخبراً عن فسقهم : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنِّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٥٣) التوبة: ٥٣

وأخبر تعالى عن كفرهم ، فقال : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴾ (٥٤) التوبة: ٥٤ . وبين الله تعالى مآلهم ومكانهم في جهنم ، فقال : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (١٤٥) النساء: ١٤٥

وأخبرنا الله تعالى أن المنافقين يترصدون بالمسلمين ، ويحاولون خلخلة الصف ، وزعزعة الأمن ، ونشر الفتنة ، وتفريق الكلمة ، فقال تعالى عنهم : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ خَلَائِلًا وَسِعَتْ غُوْنُكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧) التوبة: ٤٧

﴿ إن عداوة المنافقين للإسلام والمسلمين أمر واضح لا شبهة فيه ، ولا خلاف فيه؛ فإنهم لا يدعون فرصة سنحت لهم ، ولا مجالاً للنيل من الإسلام والمسلمين إلا سارعوا بإشباع رغباتهم الدفينة في القضاء على الإسلام وأهله ، فهم يفرحون بكل مصيبة تصيب المسلمين ، وتطمئن قلوبهم بها ، ويحزنون لكل حسنة تظهر في الإسلام أو على المسلمين ، وقد أخبر الله تعالى عن هذه الحقيقة بقوله : ﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٠) التوبة: ٥٠ .

فهؤلاء الذين يعادون الدين ، ويفرحون بكل مصيبة تصيبه وتصيب المسلمين ، ويحزنون لكل نصر للإسلام والمسلمين ، هؤلاء لا بد من جهادهم بكل ما نملك ، والبراءة منهم جميعاً ، وبغضهم ؟ والحذر كل الحذر من الميل لهم والركون إليهم ،

فضلاً عن موالاتهم ؛ فإن البراءة منهم من أوجب الواجبات ، وموالاتهم والركون إليهم كُفْرٌ بُوَاح ، ينقض التوحيد من أصله ، ويُخْرِجُ صاحبه من دائرة الإيمان .

• فالواجب علينا كشف عوراتهم باليد واللسان وبغضهم في القلب والجنان ، كما

قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾

المتحنة: ٤ .

المبحث الرابع

بواعث النفاق ، وكيفية معرفة المنافقين

المطلب الأول : بواعث النفاق :

النفاق في العقيدة كفر ؛ لأن العبرة بمعتقد القلب لا بما يظهر على اللسان . فالمنافق كافرٌ يُخْفِي كفره . ولكن لماذا أخفى الكفر ، وأظهر الإيمان ؟ وما الباعث على هذا السلوك المنحرف ؟ .

الواقع : أن الباعث على النفاق مكوّن من أمور عدة ؛ منها :

- اعتقاد الكفر وكرهية الإسلام .
- وجود المنافق تحت سيطرة حكومة إسلامية .
- ضعفه عن مواجهة هذه الحكومة بعقيدته التي يضمها في نفسه .

والنفاق من الناحية النفسية يعد نتيجةً لضعف النفس ، وعدم قدرتها على التصريح بمعتقداتها . فالنفوس إذا كانت قويّة تُصْرِح بمعتقداتها مهما ترتب على ذلك من نتائج ؛ لأن النفاق يُورثها عذاباً في النفوس ، ووخزاً في الضمير ؛ يهون احتمال عذاب البدن دونه . أما النفوس الضعيفة ، فإنها عندما تواجه معتقداً قوياً يخالف معتقدها ، وهو يملك الهيمنة عليها لا تصرح بمعتقداتها ؛ بل تضعف أمام تلك القوة المهيمنة عليها ، وتحاول أن تسلك طريقاً يؤمن لها سبل الحياة في ظل تلك القوة . وإن كان ذلك يؤدي إلى تغطية ومعتقداتها . وكلما زادت قوة الدولة المهيمنة وتكررت انتصاراتها ، زادت تلك النفوس ضِعْفاً على ضعفٍ ، واشتدَّ هَلْعُها .

وقد يوجد النفاق ممن يملك قوةً وهيمنة على المسلمين ، فيظهر لهم الإسلام نفاقاً ؛ ليحتفظ بمركزه بينهم . ومع ذلك ؛ فإن هذا لا يُخرج النفاق عن كونه ضعفاً في النفس ؛ لأن صاحب النفس القوية لا يرضى لنفسه أن يُقيم حكمه على مداهنة من يختلفون معه في العقيدة .

المطلب الثاني : كيفية معرفة المنافقين في عصر الرسالة ، وأن بعض المنافقين معروف بعينه :

المنافقون في عهد النبي ﷺ كانوا يُعرفون تارةً بالكلمة يسمعها منهم الرجل المؤمن ، فينقلها إلى النبي ﷺ ، فيحلفون بالله أنهم ما قالوها ، أو لا يحلفون . كما نقل زيد بن أرقم ^(١) ما قاله عبد الله بن أبي ﴿ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٨) المنافقون: ٨ فحلف المنافق أنه ما قالها ، فنزلت سورة المنافقين كاملةً تأييداً لزيد بن أرقم ، وتكديماً لابن سلول . كان ذلك بعد غزوة بني المصطلق سنة (٥هـ)

ويُعرف المنافقون تارةً بما يظهر من تأخرهم عن الصلاة ، وعن الجهاد ، واستثقالهم للزكاة ، وظهور الكراهية منهم لكثير من أحكام الله .

وعامتهم يُعرفون من لحن القول . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ^(٣٠) محمد: ٣٠ فأخبر تعالى أن لو شاء لعرفهم رسوله بالسيماء في وجوههم ، ثم لعرفهم بلحن القول .

^(١) الخزرجي ، شهد الخندق وما بعدها من المشاهد ، وشهد صفين مع علي ﷺ ، ومات بالكوفة سنة (٦٦هـ) ابن حجر : الإصابة (١/٥٦٠)

ومنهم من كان يقول القول ، أو يعمل العمل ، فينزل القرآن بخبر أن صاحب ذلك القول والعمل منهم . كما في سورة التوبة^(١) .

وكان المسلمون أيضاً يعلمون كثيراً منهم بالشواهد ، والدلالات ، والقرائن والأمارات .

ومنهم من لم يكن يُعرف ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٠١) التوبة: ١٠١

فجميع هؤلاء المنافقين يُظهرون الإسلام ، ويحلفون أنهم مسلمون ، وقد اتخذوا أيمانهم جنة . كما أخبر الله تعالى عنهم .

وهذه بعض الأسماء التي كان لها دور خطير في معسكر المنافقين في المدينة ، وأحدثت الفرقة ، والشقاق ، والكيد ، والخيانة العظمى ؛ إلا أن النبي ﷺ استطاع بحكمته وقوته أن يبطل كيدهم ومكرهم . كما سنرى ذلك واضحاً في المنهج الذي سار عليه ﷺ في التعامل مع المنافقين .

هؤلاء المنافقون ؛ إما من الأوس ، أو من الخزرج ، أو من أهل الكتاب الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر .

• عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي . هو رأس المنافقين وزعيمهم ، ورئيس الأوس والخزرج أيضاً . وكان الأوس والخزرج قد أجمعوا أمرهم على أن يملكوه عليهم في الجاهلية ، فلما هداهم الله إلى الإسلام ، شَرَقَ بِرِيقِهِ ، وغاظه ذلك . وهو الذي قال - كما حكى الله عنه في القرآن الكريم - : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ

^(١) ينظر على سبيل المثال ، الآيات : (٤٩ - ٥٨ - ٦١)

لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴿١﴾. يقول ابن القيم^(١): "فإن نفاق عبد الله ابن أبي ، وأقواله في النفاق كانت كثيرة كالمتواترة عند النبي ﷺ وأصحابه ، ونزل في حقه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الحشر: ١١ حين مآل هو ومن معه من المنافقين من رهطه إلى يهود بني النضير . ونزل في حقه قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا ﴿٥٤﴾ ﴾ المائدة: ٥٢

ومن أهم مواقفه الخيانية :

الموقف الأول : مناصرته ليهود بني قينقاع عندما نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ في أواخر الشهر السابع من السنة الثانية للهجرة . وسوف نفصل هذا الموقف الخياني في الفصل الثاني - إن شاء الله - .

الموقف الثاني : في غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة ، انخذل ابن سلول بأتباعه ، وكانوا قريباً من ثلاثمائة رجل ، رجعوا إلى المدينة ، وخذلوا جيش المسلمين في أصعب موقف قبل معركة أحد . فقال : "علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ وسوف نفصل هذا الموقف أيضاً في الفصل الثاني . ونبين - إن شاء الله - كيف تعامل معه النبي ﷺ .

الموقف الثالث : لما حاصر رسول الله ﷺ يهود بني النضير عقاباً لهم على محاولتهم اغتياله ﷺ وهو في حيتهم ، جعل رهط من بني عمرو بن عوف من الخزرج ؛ منهم : عبد الله بن أبي ، ووديعه بن ثابت ، ومالك بن أبي قوقل ، وسويد ، وداعس يبعثون إلى بني النضير سرّاً : أن اثبتوا ، وتمنّعوا ؛ فإننا لا نُسلمكم ، وإن قُوتلتم قاتلنا

^(١) زاد المعاد (٣/٥٦٧)

معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، فخذف الله في قلوب بني النضير الرعب ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجليهم ، ويكف عن دمائهم ، فأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة .

الموقف الرابع : في غزوة بني المصطلق في شعبان سنة خمس للهجرة ؛ كان لابن سلول دورٌ خبيثٌ في إشعال فتنة النزعة العشائرية بين المهاجرين والأنصار ؛ إلا أن حكمة النبي ﷺ فوتت عليه الفرصة ، وفضحه الله بين قومه . وسوف نفصل هذا الموقف أيضاً في الفصل الثاني - إن شاء الله - .

الموقف الخامس : في غزوة بني المصطلق أيضاً ؛ كان لرأس النفاق دورٌ كبيرٌ وخبيثٌ في تولي كبر حادثة الإفك ، والطعن في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عرض رسول الله ﷺ ، ونزل بسببه برسول الله ﷺ وزوجه وآل أبي بكر ﷺ من البلاء والكرب شيء عظيم ، حتى نزل القرآن ببراءة عائشة رضي الله عنها ، والتشيع على أصحاب الإفك في سورة النور . والموقف - كذلك - مفصّل في الفصل الثاني .

الموقف السادس : في غزوة تبوك في رجب من السنة التاسعة للهجرة ، كان للمنافقين دورٌ كبيرٌ ضخماً في هذه الغزوة ، يقوده رأس النفاق ابن سلول ؛ حيث قاد عملية تمردٍ واسعةٍ داخل الجيش الإسلامي الخارج لقتال الروم ، وأخذ يثبط المجاهدين ، ويبث الإشاعات الكاذبة هو وأتباعه - كما هو ديدن المنافقين دائماً عندما يُعلن الجهاد في الأمة الإسلامية - . وسوف نُفصل دور المنافقين الكبير في هذه الغزوة في الفصل الثالث من هذا الكتاب إن شاء الله .

• جلاس بن سويد بن الصامت . وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُو أَلْمَامٍ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ التوبة: ٧٤ وذلك أنه قال للنبي ﷺ

حين تخلف عن غزوة تبوك : "لئن كان هذا الرجل صادقاً لَنَحْنُ شَرُّ مَنْ الحُمْر" (١) . فنام ابن امرأته عمير بن سعد (٢) ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنكر الجلاس ذلك ، وحلف بالله ما قال . فنزل فيه ذلك . ويقال : إنه تاب بعد ذلك ، وحسنت توبته (٣) .

• الحارث بن سويد ، أخو الجلاس . وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٦) آل عمران: ٨٦

• نبتل بن الحارث . وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ : "من أراد أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث" (٤) . وكان جسيماً ، أذله ، نائر الرأس ، أحمر العينين ، أسفع الخدين . وكان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ، ثم ينقله إلى المنافقين ؛ فأنزل الله فيه قوله : ﴿ وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦١) التوبة: ٦١

• مُعْتَب بن قُشَيْر . وهو الذي قال يوم أحد : ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . وهو الذي قال يوم الأحزاب : "كان محمد يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كَنُوزَ كَسْرَى وَقَيْصَرَ ، وَأَحَدُنَا

(١) الطبري : التفسير (١٨٥/١٠) ؛ القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧١هـ) ، جامع البيان في تفسير القرآن (١٩٣/٨) تحقيق أحمد عبد العليم (ط٢ ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٣٧٢هـ)

(٢) الأوسي ، كان يقال له : نسيج وحده ، شهد فتوح الشام ، وكان عامل عمر على مدينة حمص إلى أن مات . يُنظر : ابن حجر : الإصابة (٣٢/٣)

(٣) ابن حجر : الإصابة (٢٤٠/١)

(٤) القرطبي : التفسير (١٩٢/٨)

لا يؤمن أن يذهب إلى الغائط" (١) . فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ الأحزاب: ١٣ :

• مزيع بن قيظي . وكان أعمى ، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين جاز في بستانه وهو ذاهب إلى أحد : "لا أحلّ لك إن كنت نبياً أن تمرّ في حائطي ، وأخذ في يده حفنةً من ترابٍ ، ثم قال : والله لو أعلم أنني لا أصيب بها غيرك لرميتك بها" . فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب ، أعمى البصر" . وقد ضربه سعد بن زيد الأشهلي (٢) بالقوس ، فشجّه (٣) .

• أوس بن قيظي . وهو أخو مربع . وهو الذي قال يوم الأحزاب : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ الأحزاب: ١٣ فرد الله تعالى عليه في قوله : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ الأحزاب: ١٣

• الجذ بن قيس . وهو من أشرف بني سلمة ، وسيدهم . وهو الذي قال له رسول الله ﷺ يوم تبوك وهو في جهازه : هل لك يا جُدّ العامّ في جلاد بني الأصفر ؟ فقال يا رسول الله : أو تأذن لي ، ولا تفتني ؟ فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشدّ عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وقال : أذنتُ لك (٤) . فنزل في حقه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُرُ

(١) ابن هشام : السيرة النبوية (٥٥/٣) الطبري : التفسير (١٣١/٢١)

(٢) شهد بيعة العقبة وبدراً . ابن حجر : الإصابة (٢٨/٢)

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية (١١/٤)

(٤) الطبري : التفسير (١٤٨/١٠)

أَعِذْنِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾
التوبة: ٤٩؛ فأخبر تعالى أنه سقط في الفتنة، وهي ترك الجهاد، وهو من أكبر الكبائر.

وكان الجد بن قيس مع الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ لأداء العمرة التي صدّوا فيها عن البيت؛ لأن قريشاً منعتهم من أدائها، فتحلّلوا من إحرامهم باعتبارهم مُحَصِّرِينَ. وحين بلغ رسول الله ﷺ أنّ رسوله إلى قريش عثمان بن عفان ﷺ قُتل - ولم يكن قد قُتل فعلاً - قال ﷺ: (لا نبرح حتى نناجز القوم) فكانت بيعة الرضوان في ذي القعدة سنة ست للهجرة. وبإيعاز رسول الله ﷺ المسلمون فيها على ألا يفروا، ولم يتخلف عن البيعة أحد من المسلمين الذين كانوا معه إلا الجدّ ابن قيس؛ فإنه الوحيد الذي لم يبايع. قال جابر بن عبد الله ﷺ: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ بها - أي لَصِقَ - يستتر بها من الناس^(١).

• الأخنس بن شريق. وأصله من ثقيف، وكان حسن المنظر، حلو المنطق، وكان ممن ادعى الإسلام، غير أنه كان منافقاً. وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(٢)

• ودیعة بن ثابت. وكان ممن بنى مسجد الضرار. وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾^(٣) التوبة: ٦٥.

^(١) ابن هشام: السيرة النبوية (٢٨٣/٤)

^(٢) ينظر: الطبري: التفسير (٣١٢/٢)

^(٣) ينظر: ابن هشام: السيرة (٥٦/٣)؛ الطبري: التفسير (١٧٢/١٠)

• بشر بن أبيرق ، أبو طعمة . سارق الدرّعين ، الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٧) ^(١)

أما المنافقون من اليهود ، فقد كان هناك من أسلم من أحبار اليهود على سبيل التقية ، فكانوا كفاراً في الباطن . ومن شرهم :

• زيد بن الصليت . من يهود بني قينقاع ، وهو الذي قال حين ضلّت ناقة رسول الله ﷺ : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقتة !! . فقال رسول الله ﷺ : والله لا أعلم إلا ما علّمني الله ، وقد دلّني الله عليها ، فهي في هذا الشعب ، وقد حبستها شجرة بزمامها . فذهب رجالٌ من المسلمين فوجدوها كذلك ^(٢) .

• رافع بن حريمة . وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ : (قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين) ^(٣) .

• رفاعة بن زيد بن التابوت . من يهود بني قينقاع ، وهو الذي هبّت الريح الشديدة يوم موته عند مرجع رسول الله ﷺ من تبوك ، فقال : (إنها هبت لموت عظيم من عظماء الكفار) فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة قد مات في ذلك اليوم الذي هبّت فيه الريح ^(٤) .

^(١) ينظر : ابن هشام : السيرة (٥٨/٣) ؛ الطبري : التفسير (٢٦٧/٥)

^(٢) ابن هشام : السيرة (٦٠/٣)

^(٣) أحمد : المسند (٤٤١/١)

^(٤) الطبري : التفسير (١٤٨/١٠) أبو يعلى : المسند (٢٠١/٤)

الفصل الثاني

منهج سياسة المنافقين

في عهد النبي ﷺ

وكيف جاهدهم

وفيما يلي أهم مناهج سياسة المنافقين في عهد النبوة، وكيف جاهدهم النبي ﷺ.

المبحث الأول

منهج المنافقين في مناصرة اليهود

إنّ من يريد أن يقتفي أثر فساد المنافقين خلال عهد الرسالة ، بل وفي كل زمن ؛ فعليه أن يبحث عن ذلك في مظانّ الحديث عن اليهود ، فأينما وُجد اليهودُ ، وُجد المنافقون والواقع لأكبر شاهد على ما نقول .

المطلب الأول : مناصرة المنافقين ليهود بني قينقاع :

كان النبي ﷺ عندما قدم المدينة واتخذها عاصمة لدار الإسلام ، قد أرسى دعائم الاستقرار والاستمرار لمجتمع تسوده علاقات مع الطوائف المجاورة ، أو الساكنة مع المسلمين في أرض الإسلام . وكان من هؤلاء : قبائل من اليهود ، قدم رسول الله ﷺ وهم فيها ، فأراد ﷺ أن يقَي المسلمين شرَّهم ، فعقد معهم عهداً يؤمّنهم فيه على أرواحهم وأموالهم ؛ على ألا ينقلبوا على المسلمين بغدرٍ ، أو خيانةٍ ، أو مظاهرٍ للأعداء من خارج المدينة . ولكن طَبَعَ اليهود غَلَبَ محاولات تطبيعهم ، أو تطويعهم لقيم الأمانة والوفاء ، فغدرت منهم قبيلة بني قينقاع ، وخانت العهد ، فتمّ جلاؤهم بعد غزوة بدر الكبرى ، وبالتحديد في شوال من السنة الثانية من الهجرة^(١) .

روى ابن هشام^(٢) : " أن امرأةً من العرب قدِمَت بِجَلْبٍ لها ، فباعته في سوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغٍ ، فَرَاوَدَهَا على كَشْفِ وجهها ، فَأَبَتْ ، فعمد الصائغ

^(١) ابن هشام : السيرة النبوية (٣/٣١٤)

^(٢) المرجع ذاته (٣/٣١٥)

إلى طرف ثوبها فعقدته خلف ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ ، فقتله - وكان يهودياً - ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع ، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن استعدّ لحربهم ، وإخراجهم من المدينة . وبدأ في حصارهم ، مستمرّاً في ذلك نحواً من خمسٍ وعشرين ليلة ، حتى ألقى الله الرعب في قلوبهم ، فطلبوا الاستسلام ، وارتضوا المصير الذي يحكم به رسول الله ﷺ جزاء نقض العهد .

✽ ولكن اليهود وجدوا من يتصدّر لهم ، ويتوسط لإطلاقهم ؛ فطلب زعيم المنافقين عبد الله بن أبي سلول إطلاقهم ، بدعوى أنهم كانوا حلفاءه في الجاهلية . ووضع يده في جيب درع النبي ﷺ حتى اشتد غضبه ﷺ ، وقال له : (ويحك !! أرسلني) قال : "لا والله ، لا أرسلك حتى تحسن في موالي - وكانوا أربعمئة حاسر^(١) ، وثلاثمئة دارع - قد منعوني الأحمر والأسود ، وتريد أن تحصدهم في غداة واحدة؟! ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر" . فقال رسول الله ﷺ : (هم لك)^(٢) . وفي ذلك نزل قوله ﷻ :

﴿ قَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ المائدة: ٥٢^(٣) .

لقد اكتفى رسول الله ﷺ منهم بالجلاء عن المدينة ، وأن لا يساكنوه فيها .

فهل قرّ قرار النفاق بذلك ؟ وهل ارتدع بقية اليهود بذلك ؟

(١) هو الذي ليس عليه درع . ابن منظور : لسان العرب (٨٢/٨)

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية (٣١٥/٣)

(٣) يُنظَر : الطبري : التفسير (٤٨٠/٢)

أبدأ ؛ كان المنافقون واليهود -ولا يزالون- هم أصل كلِّ بلاءٍ ومحنةٍ تقع على المسلمين في عصر الرسالة ، وفي عصرنا هذا .

ومن الرواية يتضح مدى تشبُّث المنافقين باليهود ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول ، كما يُلاحظ قوة الاستماتة التي أبدوها في الدفاع والمناصرة عن اليهود ؛ حتى كان له ما أراد .

بل جاء في بعض الروايات الصحيحة ، أنه لم يكتف بذلك ، بل أراد من رسول الله ﷺ أن يقترهم في ديارهم^(١) . ولا غرابة في ذلك ، فهم جميعاً مشتركون في الكفر بالإسلام ، وعداوة النبي ﷺ .

إن مثل هذا الموقف الذي أظهره هذا المنافق ، وغيره من المواقف كشف الكثير من أمرهم . قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّعَلَّ يَكُنِ اللَّهُ لِيَعْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ (١٣٧) ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٣٨) النساء: ١٣٧ - ١٣٨ "

وما يجدر ذكره هنا : أن المنافقين بعد موقفهم هذا ظهر حالهم ، وانكشف كيدهم للإسلام والمسلمين ، فلم يكن بمقدورهم بعدها أن يمارسوا مثل هذا الأسلوب ؛ بل انقلبوا إلى الدس والمؤامرات الخفية . كما سيأتي في هذا الفصل .

✽ حكمة النبي ﷺ في التعامل مع رأس المنافقين بشأن يهود بني قينقاع :

وهنا لابد من بيان الوجه السياسي لسكوت النبي ﷺ عن تصرف عبد الله بن أبي بن سلول ، واستجابته لطلبه : فقد كان ابن سلول ذا مكانة مرموقة في المدينة المنورة ،

(١) ابن هشام : السيرة النبوية (٢/٥٢٠١)

وقد قَدِمَ النبي ﷺ المدينة وَإِنَّ قَوْمَهُ لَيَنْظُمُونَ لَهُ الْخَرْزَ لِيَتَوَجَّوهَ عَلَيْهِمْ^(١) . وكان له أَتْبَاعٌ كَثِيرٌ ؛ يَضُمُّونَ جَمِيعَ الْحَاقِدِينَ ، وَالْمَنَافِقِينَ الْمَتَّامِرِينَ . وكان هؤلاء يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ . وهو هنا يذکر أَنَّهُ هَبَّ لِحِمَايَتِهِ سَبْعِمِائَةَ مَسْلُحٍ مِنْهُمْ ، وَقَدْ اسْتَطَاعَ يَوْمَ "أَحُدٍ" أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَحْتَجًّا عَلَى تَصَرُّفِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَيَرْجِعَ وَمَعَهُ ثُلُثُ النَّاسِ . فَأَمَرَ الرَّجُلَ إِذْنًا لَيْسَ بِالْيَسِيرِ .

وَمَنْ تَلَمَّسَ خُطُواتِ النَّبِيِّ ﷺ السِّيَاسِيَّةِ ؛ يَجِدُ أَنَّهُ كَانَ يُؤَثِّرُ -دَائِمًا- اسْتِقْرَارَ الْأُمُورِ فِي الدَّخْلِ ، وَيَجْعَلُ ذَلِكَ مُنْطَلَقَهُ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا مَا سَاءَتِ الْأُمُورُ فِي الدَّخْلِ ، سَاءَ مَعَهَا كُلُّ شَيْءٍ . ولو لم يَغْضُ النَّبِيُّ ﷺ الطَّرْفَ عَن تَصَرُّفِ هَذَا الْمَنَافِقِ ، وَلَوْ لَمْ يُبَدِّ لَهُ شَيْئًا مِنَ التَّنَازَلَاتِ ، لَأَهَاجَ عَلَيْهِ النَّاسُ .

ثم ؛ عَلَيْنَا أَنْ لَا نَنْسَى أَنَّ هَذَا الْمَنَافِقِ كَانَ يَظْهَرُ الْإِسْلَامَ ، وَيَتَّبِعُهُ أَنَاسٌ مِنَ الْمَنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ ؛ إِذَا مَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ كَانَتْ حَرْبًا أَهْلِيَّةً تُجْهِضُ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ، وَتَقْوِضُ أَرْكَانَ الدَّوْلَةِ ؛ لِأَنَّ النَّازِرَ إِلَى هَذَا الْقِتَالِ مِنَ الْخَارِجِ يَرَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَسِيْشَاعُ فِي أَرْجَاءِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ ؛ وَسِيْرَجُفُ الْمَرْجِفُونَ بِذَلِكَ . وَفِي ذَلِكَ إِسَاءَةٌ لِسُمْعَةِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَصَدُّ عَنِ دِينِ اللَّهِ . وَتِلْكَ مَفْسَدَةٌ كَبِيرَةٌ .

✽ وَيَظْهَرُ فِي هَذَا الْخَبَرِ فَقْهُ النَّبِيِّ ﷺ السِّيَاسِيَّ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنٍ سَلُولٍ ؛ إِذْ لَبَّى لَهُ طَلِبَهُ ، فَقَالَ لَهُ : (هُمُ لَكَ) وَلَعَلَّهُ كَانَ يَرْجُو أَنْ تَزُولَ الْغِشَاوَةُ عَنْهُ ، فَتَمَّ هِدَايَتُهُ ، فَيَصْلُحَ بِصِلَاحِهِ الَّذِينَ يَسِيرُونَ وَرَاءَ زَعَامَتِهِ ، فَيَتِمَّاسِكُ الصَّفِّ ، وَيَلْتَحِمَ ، فَلَا يَتَأَثَّرُ مِنْ كَيْدِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ^(٢) .

^(١) ابن هشام : السيرة النبوية (٣/١٣١) الغضبان ، منير محمد ، المنهج الحركي للسيرة النبوية (ص٢٤٧) (الأردن، مكتبة المنار ، د. ت)

^(٢) غضبان : المنهج الحركي للسيرة النبوية ، ص (٢٤٧)

وهناك أمر آخر ، وهو : حِزْصِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى تَفَادِي حَدُوثِ أَيِّ فِتْنَةٍ فِي مَجْتَمَعِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِذْ إِنَّ بَعْضَ الْأَنْصَارِ كَانَ حَدِيثَ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ ، وَيُخْشَى أَنْ يُوَثِّرَ فِيهِمْ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ ؛ لَسَمِعْتَهُ الْكَبِيرَةَ فِيهِمْ^(١) . لِذَلِكَ سَلَكَ ﷺ مَعَهُ أَسْلُوبَ الْمَدَارَاةِ ، وَالصَّبْرَ عَلَيْهِ ، وَعَلَى إِسَاءَاتِهِ ؛ تَجَنُّباً لِلْفِتْنَةِ ، وَإِظْهَاراً لِحَقِيقَةِ الرَّجُلِ مِنْ خِلَالِ تَصَرُّفَاتِهِ ، وَمَوَاقِفِهِ عِنْدَ مَنْ يَجْهَلُهَا ، وَمِنْ ثَمَّ يَفِرُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ ، وَلَا يَتَعَاطَفُونَ مَعَهُ .

وَقَدْ حَقَّقَ هَذَا الْأَسْلُوبَ نَجَاحاً بَاهِراً ، فَقَدْ ظَهَرَتْ حَقِيقَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ لِجَمِيعِ النَّاسِ ، حَتَّى لِأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ ، وَمِنْهُمْ وَلَدُهُ عَبْدُ اللَّهِ^(٢) . فَكَانُوا بَعْدَهَا إِذَا تَكَلَّمَ أَسْكَتُوهُ ، وَتَضَايَقُوا مِنْ كَلَامِهِ^(٣) ؛ بَلْ أَرَادُوا قَتْلَهُ .

كَمَا تَذَكَّرَ كِتَابُ السِّيْرَةِ أَنَّ هُنَاكَ مِنْ زَعَمَاءِ الْمَدِينَةِ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكًَ مَغَايِرًا مَسْلَكَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ ، فَقَدْ كَانَ بَيْنَ عِبَادَةِ بِنِ الصَّامِتِ^(٤) وَبَيْنَ بِنِي قَيْنِقَاعٍ حَلْفٌ كَالْحَلْفِ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ ، وَلَكِنْ عِبَادَةُ بِنِ الصَّامِتِ ﷺ مَا إِنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى تَوَجَّهُ إِلَى رَسُولِ ﷺ وَخَلَعَهُمْ ، وَتَبَرَّأَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ حَلْفِهِمْ ، وَقَالَ : " يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَتَوَلَّى اللَّهُ ، وَرَسُولَهُ ، وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَبْرَأُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ ، وَوَلَايَتِهِمْ " . فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ عِبَادَةِ بِنِ الصَّامِتِ ﷺ آيَةً الْإِيمَانَ الصَّادِقَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَقَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ مَسْجِلاً هَذَا الْمَوْقِفَ فِي قَوْلِهِ

(١) الحميدي : عبد العزيز عبد الله ، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (٥٣.٥٢) (ط١) ، الإسكندرية - جدة ، دار الدعوة - دار الأندلس الخضراء ، ١٤١٨هـ

(٢) الخزرجي ، كان اسمه الحباب ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله . شهد بدرًا والمشاهد بعدها ، وكان ممن كتب للنبي ﷺ . استشهد في معركة اليمامة سنة (١٢هـ) ابن حجر : الإصابة (٣٣٦/٢)

(٣) فارس : الصراع مع اليهود (١/١٤٨)

(٤) الخزرجي ، شهد بدرًا والمشاهد بعدها ، وكان من النقباء ، وشهد فتح مصر . روى عن النبي ﷺ كثيراً . مات بالرملة سنة (٣٤هـ) على الصحيح . ابن حجر : الإصابة (٢٦٨/٢)

تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (المائدة: ٥١) ^(١)

المطلب الثاني : مناصرة المنافقين ليهود بني النضير :

ذكرت كتب السيرة أن مسلماً قتل رجلين من المشركين ثاراً لمقتل سبعين من الصحابة ﷺ قتلوا ظلماً على يد قبائل مُشركّة ، دون أن يعلم هذا الرجل المسلم الذي قتل هذين الرجلين بالعهد الذي بينهما وبين رسول الله ﷺ ، . فقرّر رسول الله ﷺ دفع ديتهما ، وذهب بنفسه ﷺ لطلب مشاركة يهود بني النضير في مقدار الدية ، فتظاهروا بالقبول . وفي الوقت نفسه وجدوا أنّ وجود رسول الله ﷺ في حصونهم فرصة ثمينة لا تفوت ، فعزموا على الغدر به عندما أغراهم جلوسه ﷺ تحت بيت من بيوتهم ، فأرادوا أن يلقوا عليه من أعلى البيت حجراً كبيراً ، ولكن الله ﷻ أطلع رسوله ﷺ على تأمرهم ، فقام رسول الله ﷺ مسرعاً عائداً إلى المدينة ، وعازماً على حرب بني النضير ، ثم تبعه أصحابه ﷺ بعده بقليل ، وذلك في شهر ربيع الأول من العام الرابع للهجرة ^(٢).

وتحصّن اليهود في حصونهم ، فضرب رسول الله ﷺ عليهم الحصار بسبب نقضهم العهد وغدرهم . وبينما الحصار مضروب ، إذ بالنفاق يطل برأسه من جديد مناصرة لليهود ، وممالة لقتلة الأنبياء . وهذا هو ديدنهم في كل عصر . فذهب وفد من المنافقين إلى معاقلي اليهود ، ليهدئ من روعهم ، ويكفّف لوعتّهم ، ويعدّهم بالوقوف معهم ، ومساندتهم ، وبذل المستطاع في نصرتهم ، ولوا اقتضى الدفاع عنهم أن يقاتلوا في صفوفهم ضد المسلمين ! ممن يحدث هذا ؟ إنه من أناس يعيشون بين المسلمين ، ويتسبون إليهم ، ويصلون معهم !

^(١) يُنظر : الطبري : التفسير (٢٧٤/٦)

^(٢) الواقدي ، عمر بن محمد بن واقد (ت ٢٠٧هـ) المغازي (١/٣٥٦) (ط٣، بيروت ، دار الكتب ، ١٩٨٤م)

لقد كان أمراً خارجاً عن الحد الأدنى من طبائع الأمناء الشرفاء ؛ حتى جعل القرآن الكريم ينزل بحكاية خبر القوم . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مَنِ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَدِّرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ الحشر: ١١ - ١٤ (١)

لقد انتهى الأمر بإجلاء بني النضير ، وإلحاقهم بإخوانهم في البُهت والسحت : بني قينقاع . وحالت عزة الإسلام من أن يسئل المنافقون سيوفهم ضد المسلمين معهم ، وإلا فإنهم لو تمكنوا ما تأخروا ؛ لكنها الرهبة من الإسلام عظمت حتى ملأت قلوب الكافرين والمنافقين جميعاً . قال تعالى : ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مَنِ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ الحشر: ١٣

وهذه حقيقة يقرها الله تعالى بأن اليهود والمنافقون يخافون من المؤمنين أكثر من خوفهم من الله تعالى . وهذه الحال منهم ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : لا يقدرّون الله حق قدره وعظّمته ؛ حتى يخشوه حق خشيتِهِ .

وضرب الله مثلاً للمنافقين الذين أغروا بني النضير بالمقاومة ، ثم خذلوهم وقت المحنة ، فقال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ الحشر: ١٦

(١) ينظر : الطبري : التفسير (٤٧/٢٨)

ثم لما حَقَّتْ الحَقَائِقُ ، وَوُضِعَ عَلَيْهِمُ الحِصَارُ وَالقِتَالُ ، تَخَلَّوْا عَنْهُمْ ، وَأَسْلَمُوهُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؛ مِثَالَهُمْ فِي ذَلِكَ الشَّيْطَانُ ؛ إِذْ سَوَّلَ لِلإِنْسَانِ الكُفْرَ ، فَلَمَّا دَخَلَ فِيهَا سَوَّلَ لَهُ تَبَرُّاً مِنْهُ ، وَتَنَصَّلَ ، وَقَالَ : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

روى ابن هشام قال : "كان رهط من عوف بن الخزرج ؛ منهم : عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول ، ووديعة ، ومالك بن أبي قوقل ، وسويد ، وداعس ، قد بعثوا إلى بني النضير ، أن اثبتوا ، وتمنعوا ، فإننا لن نُسَلِّمَكم ، إذا قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أُخْرِجْتُمْ خَرَجْنَا معكم ^(١) . لكن الله ﷻ منَّ عَلَى رَسولِهِ بالنصر عَلَى اليهود ، وَغَنِمَ أموالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ؛ بسبب غدرهم ، واعتمادهم عَلَى وعود المنافقين الكاذبة . وما كان المنافقون يريدون لَهُم هذه النتيجة ، وإنما كانوا يريدون إلحاق الضرر بالمؤمنين ، فردَّ اللهُ ﷻ كيدَهُمْ فِي نحرِهِمْ ، وَنَصَرَ رَسولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ .

^(١) السيرة النبوية (٢٢١/٣)

المبحث الثاني

منهج المنافقين في خذلان المسلمين في المواقف الصعبة والحرَجَة

بعد أن عزمت قريش على الثأر لهزيمتها في معركة بدر الكبرى سنة (٢هـ) عَلمَ رسول الله ﷺ بنواياهم وتحركاتهم . واستقرَّ الأمرُ -بعد المشورة- على أن لا يمكث المسلمون في المدينة للدفاع عنها ، بل يخرجوا للقاء قريش قبل أن تهجم على المدينة . وهذا ما لم يكن زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول راغباً فيه .

وجاءت قريش في جمعٍ حاشدٍ من ثلاثة آلاف مقاتل ، في كامل الإعداد ، والعدَّة ، والعتاد . وكان جيش المسلمين آنذاك ألف مقاتل ، وهم في موقفٍ دفاعي . وبينما كان الفريقان يستعدان للنزال في معركةٍ فاصلةٍ إذ بزعم المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول ينسحب بنحو ثلثمائة مقاتل ليعود بهم إلى المدينة ، معللاً خذلانه للمسلمين في هذا الموقف بقوله عن رسول الله ﷺ : "أطاعهم وعصاني" . ولحق بهم عبد الله بن عمرو بن حرام^(١) يناديهم : "يا قوم ، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ، ونييكم عندما حضر العدو" . ولكن هيهات أن يستجيب لدعوات الرجولة والمروءة قوم ينتظرون ظُرف الانتقام من الدعوة وأهلها . ولهذا قال لهم ذلك الصحابي لما علم خستهم وانتهازيتهم : "أبعدكم الله أعداء الله"^(٢)

إن مصالحتهم الأنانية الآنية الشخصية ، وسوء ظنهم بالله تعالى ، جعلهم يخذلون المسلمين في هذا الظرف الدقيق ، متعللين بأن رأيهم لم يُحترم ، وكلامهم لم

^(١) الأنصاري الخزرجي ، الصحابي الجليل ، شهد بيعة العقبة ومعركة بدر ، وكان من النقباء ، واستشهد في معركة أحد وهو والد الصحابي المشهور جابر ، ابن حجر : الإصابة (٣٥٠/٢)

^(٢) ابن هشام : السيرة النبوية (٦٤/٣)

يُؤخَذُ به ؛ ولهذا فإن مشاركتهم لن تتم . وكان الشورى يُشترط فيها ترجيح قولهم على أقوال غيرهم !

يصور القرآن الكريم هذا المشهد ، ويحكي هذا التصرف ؛ في معرض حديثه عن غزوة أحد . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ آل عمران: ١٥٤

وقد عدّ القرآن الكريم هذه المواقف الانتهازية من المنافقين أكبر من مجرد جبن الجبناء ، أو التخلي عن المسؤولية . إن الأمر أخطر من ذلك ، إنه خيانة لأهل الإسلام ؛ وذلك بإسلامهم إلى الأعداء ، وتعريض الدين إلى خطر الضياع أو الضعف ، وتعريض حملته إلى الاستئصال . ومن أجل هذا عدت إعانة الكفار على المسلمين ، أو تمكينهم منهم مسارعة إلى الكفر ، ونصرة له . ولهذا قال تعالى لنبية ﷺ بعد أن سجّل على المنافقين جرمهم : ﴿ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ آل عمران: ١٧٦

ويشاء الله ﷻ أن تجري المقادير في غزوة أحد على نحو لم يفرح به المؤمنون ، ولكن كان وراء ذلك حكمة بالغة ؛ سئقت في معرض الخطاب القرآني عن ما أصابهم في معركة أحد ، فقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۗ وَإِن تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ آل عمران: ١٧٦

كان هدفُ عبد الله بن أبي بن سلول بانسحابه بثلاثمائة من المنافقين أن يُحْدِث بلبلةً واضطراباً في جيش المسلمين ، لكي تنهار معنوياتهم ، ويتشجع العدة ، وتعلو هِمَّتُهُ . وعمله هذا ينطوي على استهانة بمستقبل الإسلام ، وغدراً به في أحلك الظروف . وقد حاول عبدُ الله بن عمرو بن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخزال ؛ إلا أنهم رفضوا دعوته . وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَيِّ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنِتَلُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧

وعلى الرغم من خطورة الموقف ، وحاجة المسلمين لهذا العدد ؛ لقلّة جيش المسلمين ، وكثرة جيش قريش ؛ إلا أن الرسول ﷺ ترك هؤلاء المنافقين وشأنهم ، ولم يُعْزِهِمْ أَيَّ اهْتِمَامٍ ، واكتفى بفضح أمرهم أمام الناس . وكان لهذا الأسلوب أثره في توبيخ وإهانة ابن سلول ، فعندما رجع رسول الله ﷺ من غزوته من حمراء الأسد^(١) أراد عبد الله بن أبي بن سلول أن يقوم -كعادته- بحثّ الناس على طاعة رسول الله ﷺ . فتجاذبه القوم يقولون : يا عدو الله .

❁ يحكي لنا الإمام الزهري^(٢) - رحمه الله - هذه الواقعة ، فيقول :

(١) ابن هشام : السيرة النبوية (٥٢/٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك (٧٥ / ٢) (ط١) ، بيروت ، دار الكتب العلمية (١٤٠٧هـ)

(٢) أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب ، الإمام ، أعلم الحفاظ ، ومناقبه جمة . ترجم له الحفاظ ابن عساكر ترجمة طويلة . مات سنة (١٢٤هـ) يُنظَر : ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن هبة الله (ت ٥٧١هـ) ، تاريخ مدينة دمشق (٢٤٩/٥٥) تحقيق عمر غرامة العمري (ط١) ، بيروت ، دار الفكر ، (١٩٩٥م) الذهبي ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) ، تذكرة الحفاظ

"كان عبد الله بن أبي بن سلول له مقام بقومه كل جمعة ، لا ينكسر له شرف في نفسه وفي قومه ، وكان فيهم شريفاً ، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال : أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم ، أكرمكم الله به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ، ورجع الناس ، قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا : اجلس ، أي عدو الله ! والله لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ! ، فخرج يتخطى رقاب الناس ، وهو يقول : والله لكأنما قلت بُجراً^(١) ، إن قمتُ أشدُّ أمره . فلقية رجال من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا : ويلك ، مالك ؟ فقال : قمتُ أشدُّ أمره ، فقام رجال من أصحابه يجذبونني ، ويعتفونني ، لكأنما قلتُ بُجراً ، إن قمتُ أشدُّ أمره . قالوا : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله . قال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي"^(٢) .

كيف كان المنهج النبوي الحكيم في التعامل مع المنافقين بعد غزوة أحد ؟

نلاحظ أن الخط النبوي في أحدٍ قد اختلف عن الخط في بني قينقاع ؛ من حيث التعامل مع زعيم النفاق . فقد كانت المراعاة في الموقف الأول كافيةً لتبيان نوعية هذا النموذج ، وكفيلةً بأن تعيدهم إلى حظيرة الإيمان . غير أن مواقفهم لم تتغير ، لا سيما في معركة أحد ، الذي أفرز فيما أفرز وجود تكتلٍ مُحادٍ لكتلة المسلمين وجماعتهم ، وهو أمر لا يمكن القبول به ، على الرغم من حاجة رسول الله ﷺ إلى العدد ؛ إذ يواجه ثلاثة آلاف من قريش بألف مقاتلٍ من المسلمين .

(١٠٨/١) تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني ، (حيدر آباد الدكن دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٦م)

(١) أي شراً ، يقال : ذكر عُجْرَهُ وَبُجْرَهُ . أي : عيوبه ، وأمره كله . ابن منظور : لسان العرب (٣٩/٤)

(٢) ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) ، البداية والنهاية (٥٣/٤) (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤م)

فلطالما أنهم لم يعلنوا انضمامهم للصف الإسلامي ، فلا استعانة بأهل الكفر على أهل الشرك . والأخطر من ذلك : أنّ هؤلاء ليسوا حلفاء المسلمين ، إنما هم حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول . فسلامة الصف ، ووضوح الولاء أهم بكثير من التجمّع العشوائي . فكان انفصال عبد الله بن أبي ابن سلول رحمةً للمؤمنين . وكما قال لهم عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه : "أبعدكم الله ، فسيُغني الله عنكم نبيّه" .

وكان بالإمكان بعد العودة من أخذ أن يوجد في الصف الإسلامي الخالص مَنْ يعذّر عبد الله بن أبي ابن سلول ويدافع عنه ، ويجد له ولحزبه العذر بالعودة ، بحجة أنهم مسلمون ، لهم ظروفهم ؛ لكن كلام الله تعالى جاء كوقوع الصاعقة عليهم ، فيدمغهم بالنفاق بأوضح بيان . قال تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ ﴾ ثم يربط القرآن الكريم بين الفريقين : الذين استمروا في الجيش لإشاعة البلبلة والهزيمة ، والذين انخذلوا إلى المدينة ، فيقول : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

ولا نبالغ إذا قلنا : إنّ قِمةَ تجمّع المنافقين وخطره برز يوم أخذ . لكننا نؤكد في الوقت ذاته أنه قد افتضح أمرهم ، وبرز المنافقون بأشخاصهم وأعيانهم ، فيعلن القرآن الكريم بأنهم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان . وبذلك تمت المفاصلة بينهم وبين المؤمنين ، وغدت الجماعة المؤمنة تنظر إليهم بعين الحذر والكراهية ؛ إن استمروا على مواقفهم . وأصبح المسلم يكف عن بث أسرارِهِ لأخيه من أبيه وأمه ، إن كان ممّن وُصِم بالنفاق . وأدت هذه المواقف الحاسمة منهم بعد ذلك إلى أن يخنسوا ، ويحاولوا التقرب من الصفّ المؤمن ، والاعتذار منه ، وأن يتراجعوا عن موقف المواجهة والتحدي ، ويغيروا خططهم للعمل في الخفاء . أما الذين كانوا مغرراً بهم فقد بدؤوا ينضمون إلى الصف الإسلامي ، في توبة نصوح خالصة ؛ إذ فتح لهم القرآن طريق

التوبة ، بعد التحذير العنيف الرهيب بسوء مصيرهم إن استمروا على موقفهم . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ١٤٥)

❁ وهكذا سار الهدي النبوي الكريم في التعامل مع المنافقين ، على أمل تفتيت جمعهم ، والتحذير من كيدهم ، وتحذيرهم من مغبة السير في طريق النفاق ؛ طريق الخزي في الدنيا ، وعذاب في الآخرة . وحققت هذه الخطة أهدافها بشكل واضح ، وبدأ خط التصاعد للمنافقين بالانحدار ، رأينا ذلك واضحاً عندما أهين رأس المنافقين في المسجد من قبل قومه ، ورسول الله ﷺ تاركاً الأمر لهم لإهانتهم وتوبيخه ، فكانت هذه المعاملة قد حققت أهدافاً عظيمة لمصلحة المسلمين ، بتحجيم النفاق والمنافقين في المدينة المنورة .

❁ إن معاملة المؤمنين للمنافقين قد تغيرت بعد معركة أُحُد ؛ إذ أصبح يشوبها كثير من الحذر والتحفظ ، والرفض لبعض صور النفاق التي لم تكن قبل ذلك تُقَابَل بالاعتراض والرد . وهذا يبدو جلياً في موقف الصحابة رضي الله عنهم من عبد الله بن أبي بن سلول، عندما قام يوم الجمعة بعد معركة أُحُد في المسجد ، وحصل له ما حصل من التوبيخ والإهانة .

وَحَرِيٌّ بِنَا هَهْنَا أَنْ نَذْكَرُ مَوْقِفَ الْإِبْنِ الْمُؤْمِنِ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ أَبِيهِ الْمُنَافِقِ ، حِينَمَا وَبَّخَهُ أَبُوهُ عَلَى خُرُوجِهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَثْخَنَتْهُ الْجِرَاحَةُ ، فَقَالَ لِأَبِيهِ : "الَّذِي صَنَعَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ"^(١) . فقد أجاب أباه بتقرير عقيدة الإيمان بقضاء الله وقدره ، وبيّن له أن ما كتبه الله على المؤمنين هو الخير ، وإن كان ظاهره الشر .

(١) الحلبي ، علي بن إبراهيم (ت ١٠٤٤هـ) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ، المعروفة بـ (السيرة الحلبية) (٣٧٠/٢) (مصر ، ١٣٤٩هـ)

✽ وكانت سورة النساء وحديثها عن الجهاد والنفاق ، وسورة آل عمران تعري كل المخططات المشبوهة ، وتعالج كل الشبهات المبتوثة ، وتفسح المجال رحباً أمام التوبة .

المبحث الثالث

منهج المنافقين في إثارة فتنة النزعة العشائرية

من المواقف التي كانت ملازمة للمنافقين ومنهجاً ثابتاً لهم على الدوام : إثارة الفتن والنزاعات العشائرية في مجتمع المدينة ، وفي جيش المسلمين ؛ خاصة عند خروج الجيش للجهاد .

ففي غزوة بني المصطلق^(١) كاد زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول أن يُشعل حرباً طاحنة بين المسلمين (المهاجرين والأنصار) وذلك أن رجلاً من غفار^(٢) حليفاً للمهاجرين اسمه جَهْجَاه^(٣) ، وسان بن وبرة الجهني^(٤) تخاصما على الماء ،

^(١) غزوة بني المصطلق وقعت في شعبان من السنة (٥هـ) على ما رجّحه بعض المؤرخين .

وبنو المصطلق : بطن من خزاعة من القحطانيين ، الذين نزحوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب ، لهم في الجاهلية وقائع مشهورة مع هذيل من القبائل العدنانية . واسم المصطلق : جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة . وتسمى الغزوة أيضاً بـ"المريسيح" وهو : ماء لبني المصطلق من ناحية قديد على الساحل ، قريب من مكة . ينظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى (٦٤/٢) الطبري : التاريخ (١٠٤/٢) البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ) ، السنن الكبرى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا (٥٤/٩) مكة المكرمة ، مكتبة دار الباز ، ١٩٩٤م) الحموي ، أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ) المقتضب من كتاب جمهرة النسب ، تحقيق ناجي حسن ، (ص ٢٣٤) (ط ١) ، بيروت ، الدار العربية للموسوعات ، ١٩٨٧م) ابن تيمية : مجموع الفتاوى (١٥ / ٣٦٥) ابن القيم : زاد المعاد (١١٢/٢) ابن حجر : فتح الباري (٤٣٠/٧)

^(٢) قبيلة معروفة يعود نسبها إلى كنانة بن خزيمة . الحموي : المقتضب ، ص (٨١)

^(٣) ابن مسعود الغفاري ؓ . شهد بيعة الرضوان بالحديبية ، ومات بعد استشهاد عثمان ؓ بسنة . ابن حجر : الإصابة (٢٣٥/١)

^(٤) حليف بني الحارث بن الخزرج ، صحابيٌّ مُقْتَلٌ . ابن حجر : الإصابة (٨٤ / ٢)

فصرخ الغفاري مستغيثاً : يا لکنانة ! وصرخ الجهني : يا للأنصار ! وعندها أقبل جمعٌ من الفريقين (الأنصار ، وقريش) وقد شهروا السلاح حميَّةً ، فكادت تحدث فتنةً داميةً ، لولا أن رسول الله ﷺ بادَرَ بالخروج إلى مكان الحادث ، وقضى على الفتنة بحكمته المعروفة ؛ إذ وقف ﷺ في ذلك الحشد من المسلمين مستنكراً ما حدث قائلاً : (ما بال دعوى الجاهلية؟) (أي : تلك الكلمة القبلية التقليدية : يا فلان) ، فقالوا : رجلٌ من المهاجرين ضرب رجلاً من الأنصار . فقال : (دعوها) أي : دعوى العنصرية لجاهلية . (فإنها مُتَنَتَّة . من ادعى دعوى الجاهلية كان من جُثي جهنم) قيل : يا رسول الله ، وإن صام ، وإن صلّى ، وزعم أنه مسلم . قال : (وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم)^(١)

وقد انتهت الفتنة ، لا سيما أن الأنصاري المضروب تنازل عن حقه لدى المهاجري ، فماتت بذلك الفتنة .

لكن انتهاء الأمور على هذا النحو ، وبهذه السرعة لم يَرُقْ لرأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ، الذي كان موجوداً في الجيش مع المسلمين ، فقد عدّ مثل هذا الحادث فرصةً المنافقين الذهبية لإذكاء نيران الفتنة بين أصحاب النبي ﷺ ، لكن هذه الفرصة فاتت على المنافقين بتصالح الرجلين ، وانصياح الفريقين لتوجيهات نبيهم ﷺ .

فغاض ذلك عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال - وهو في رهط من قومه الخزرج في المعسكر ، وفيهم زيد ابن أرقم^(٢) - وكان غلاماً صغيراً : (قال وهو في حنق وعصبية وغيظ) : "أَوَ قد فعلوها . يعني المهاجرين؟! ما رأيت كاليوم مَذَلَّةً قطُّ ... قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ... والله ما أعدُّنا وجلابيب^(٣) قريش هذه ، إلا كما قال الأول : سَمِنُ

^(١) الحلبي : السيرة الحلبية (٧٦/٢)

^(٢) أبو عمرو الخزرجي ، كانت أول مشاهدته الخندق ، وقيل : المريسي ، ثم شهد باقي الغزوات مع رسول الله ﷺ نزل الكوفة ، وبنى بها داراً . مات سنة (٦٦هـ) ابن حجر : الإصابة (٥٦٠/١)

^(٣) الجلباب ، الرداء ، وهو من ملابس الفقراء ، ابن منظور : لسان العرب (٢٦٦/١)

كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأَعْرُضُ منها الأذْلَ . ثم أقبل رأس النفاق على من حضر من قومه ، مُذَكِّياً في نفوسهم روحَ العداة للمهاجرين ، قائلاً : "هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم ^(١) . ثم قال (موجّهاً كلامه للأَنْصار): ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا ، فقتلتم دونَه (يعني : النبي ﷺ) فأيتتم أولادكم ، وقللتم وكثروا ؛ فلا تنفقوا عليهم حتى ينفصوا من عند محمد .

وفي الحال نقل زيد بن أرقم ؓ هذا الكلام الخطير الذي فاه به رأس النفاق إلى رسول الله ﷺ ، وقد غضب الرسول ﷺ لهذا الخبر غضباً شديداً ، وتغيّر وجهه ، إلا أنه ﷺ ولئلا تتسع الشقة وتحدث فتنة في المعسكر من جديد ، أراد تلطيف الأمر ، فأظهر شكّه في صدق ما نقل إليه زيد بن أرقم ؓ ، وكان شاباً حديث السن ، فقال له : (يا غلام ، لعلك غضبت عليه ؟) ، قال : والله ، يا رسول الله ، لقد سمعته منه ، قال : (لعله أخطأ سمعك !)

وقد لامّ الغلام رجالاً من الخزرج ، فقالوا له : عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل ؟ ، فقال زيد بن أرقم ؓ : والله لقد سمعت ما قال ، ولو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله ﷺ ، وإنني لأرجو أن ينزل الله تعالى على نبيه ﷺ ما يصدّق حديثي .

سياسة النبي ﷺ في مواجهة الموقف من إثارة الفتنة

أولاً : كان عبد الله بن أبي بن سلول سيداً في قومه الخزرج ، وما كانت عداوته للنبي ﷺ وبغضه للمسلمين لتخفى على النبي ﷺ ، لكن رسول الله ﷺ لم يشأ التوسع في الموضوع ، بل حاول إسدال الستار عليه ، خشية الفتنة . وعندما طلب عمر بن الخطاب ؓ من النبي ﷺ أن يسمح له بقتله ، وهم لما يزالوا في بني المصطلق ، رفض النبي ﷺ

(١) ابن هشام : السيرة النبوية (٢٥٤/٤)

هذا الطلب قائلاً : (فكيف يا عمر ؟ إذا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه!)^(١)
فقال عمر : "أن يقتله مهاجري ؟ فَمُرْ أَنْصَارِيّاً يَقتله . فلم يوافق النبي ﷺ على ذلك ، بل
رفض هذا الاقتراح أيضاً قائلاً لعمر : (تَزَعُدْ لَهُ إِذْ ذُنُ أَنْفٍ كَثِيرَةٌ يَشْرَبُ)^(٢)

وعنى النبي ﷺ بقوله هذا : أن قَتَلَ عبد الله بن أبي بن سلول على هذه الصورة قد
يكون سبباً في إثارة حرب أهلية بين المسلمين ؛ لأنه كان يتوقع غضب رجال كثيرين من
الخزرج بسبب قتل زعيمهم ، لاسيما وأن كثيراً منهم لا يعلمون حقيقة نفاقه .

غير أن النبي ﷺ سارع -بصفته قائداً أعلى للجيش- إلى حسم الخطر الناجم
عن تطور الأحداث المتسارع ، بأن أشغل عموم الجيش عن الخوض بهذا الحديث .

ثانياً : أمر النبي ﷺ أن يتحرك الجيش باتجاه المدينة ، وأمر بأن يسير الجيش
نحواً من ثلاثين ساعة دونما توقف . وقصد من وراء ذلك أن يتعب الناس ، فلا يجدوا
فُسْحَةً من الوقت للحديث عن الموضوع الذي أثاره عبد الله بن أبي بن سلول ، وهم في
ديار بني المصطلق . قال ابن كثير : "ثم مشى رسول الله ﷺ يوماً حتى أمسى ، وليلتهم
حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن
وجدوا مَسَّ الأرض فوقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن
الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي"^(٣).

ثالثاً : لم يواجه النبي ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول ومؤامراته المدبّرة بالقوة
واستعمال السلاح ؛ حرصاً على وحدة الصف المسلم ، لأن لابن سلول أتباعاً وأنصاراً

^(١) البخاري : الصحيح (١٢٩٦/٣) حديث رقم (٣٣٣٠) مسلم : الصحيح (١٩٩٤/٤) حديث رقم
(٢٥٨٤)

^(٢) الطبري : التفسير (١١٤/٢٨)

^(٣) البداية والنهاية (١٥٨/٤)

من المسلمين مغرورين ، ولو فتك به لأرعدت له أنوف ، وغضب له رجال متحمسون له ، يدفعهم حماسهم إلى تقطيع أواصر الوحدة الإسلامية ، وليس في ذلك أية مصلحة للمسلمين ، ولا للإسلام .

✽ إنها السياسة الشرعية الحكيمة الرشيدة في معالجة المواقف العصبية ، في حزم ، وقوة ، وبُعْدِ نَظْرٍ . وهذه البراعة في الحكمة ، والسياسة ، وتدبير الأمور متفَرِّعَةٌ عن كونه ﷺ نبياً ورسولاً إلى الناس أجمعين ؛ لكي تقتدي به الأمة في تصرفاته العظيمة .

✽ وقد كان لتسامح النبي ﷺ مع رأس المنافقين أبعد الآثار ، فكان عبد الله بن أبي بن سلول بعد ذلك كلما أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعتقونه ، ويعرضون قتله على النبي ﷺ ، فيأبى ﷺ ، ويصفح . فأراد ﷺ أن يكشف الحق عن آثار سياسته الحكيمة ، فقال : (كيف ترى يا عمر ؟ ، أما والله لو قتلته يوم قلت لي ، لأرعدت له أنوف ، لو أمرتها اليوم لقتلته) ، فقال عمر : " قد والله علمتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركةً من أمري " (١) .

رابعاً : لم يشأ النبي ﷺ أن يجري أيُّ تحقيق فيما نُسب إلى عبد الله بن أبي بن سلول من قولٍ خطيرٍ ، أو يتخذ أي إجراء ضده للمقالة التي قالها ، إلا أن وجوه قوم عبد الله ابن أبي من الخزرج جاءوا إليه ، وقالوا له : "يا أبا الحُبَاب ، إن كنت قلت ما نقل عنك ، فأخبر به النبي ﷺ ، فليستغفر لك ، ولا تجحدهُ فينزل فيك ما يكذبك . وإن كنت لم تقله ، فأت رسول الله ﷺ فاعتذر له . فحلف لقومه بالله العظيم أنه ما قال من ذلك شيئاً ، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ ، وأخذ يحلف له بالله : لم يقل شيئاً مما نقل إليه زيد ابن أرقم رضي الله عنه" (٢) .

(١) الطبري : التفسير (١١٦/٢٨ - ١١٧)

(٢) ابن هشام : السيرة (٢٥٤/٤)

نتائج سياسة النبي ﷺ الحكيم:

أولاً: هو - والله! - الذليل وأنت العزيز:

قال ابن إسحق: " فلما استقلّ رسول الله ﷺ لقيه أسيد بن حضير^(١) (وكان من خاصة أصحابه) فحيّاه بتحية النبوة ، وسلّم عليه ، ثم قال : يا نبي الله ، والله لقد رُحِتَ في ساعة مُنكرة ، ما كنت تروح في مثلها ؟ ، فقال له : (أوما بلغك ما قال صاحبكم) قال : وأيّ صاحبٍ يا رسول الله ؟ قال : (عبد الله بن أبيّ) ، قال : وما قال ؟ قال : (زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزَّ منها الأذلّ) ، قال : فأنت يا رسول الله -والله- تُخرجُه منها إن شئت . هو -والله- الذليل ، وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ! و فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك قد سلّبتَه مُلكاً^(٢) .

ثانياً: مثال أعلى للإيمان: عبد الله بن عبد الله بن أبي يسفه رأي أبيه:

وقد كان لهذا المنافق الكبير عبد الله بن أبي بن سلول ، ابنٌ صالح بارٌّ . فلما بلغه مقالة أبيه ، وما أشيع من استئذان عمر بن الخطاب ﷺ في قتله ، جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله (يعني والده) فيما بلغك عنه ، فإن كنتَ فاعلاً ، فمُرني أن أحلّ لك رأسه ، فوالله لقد علمتُ الخرج ما كان بها رجل أبرّ بوالده مني ، إنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي

(١) الأشهلي الأوسي ، كان من السابقين إلى الإسلام ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ، كان شريفاً كاملاً ، شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، ومات سنة (٢١هـ) ، ابن حجر : الإصابة (٤٩/١)

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية (٤ / ٢٥٤) الطبري : التفسير (١١٦/٢٨)

يمشي في الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافرٍ ، فأدخل النار^(١) . فقال رسول الله ﷺ لهذا الشاب المؤمن : (ما أردتُ قتله ، ولا أمرتُ به ، ولنُحسِنَ ضُحبتَه ما كان بين أظهرنا)^(٢)

ثالثاً : عبد الله بن عبد الله يمنع أباه من دخول المدينة :

وكان لعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول موقفٌ آخر ينم عن عميق إيمانه ، فعندما بلغته مقالة أبيه في رسول الله ﷺ ، وقف له إثر مرجع الجيش من بني المصطلق عند مدخل المدينة ، ثم قال له : قِفْ ، فو الله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك . فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك ، فأذن له ، فأرسله حتى دخل المدينة^(٣)

رابعاً : القرآن الكريم يكذب مقالة عبد الله بن أبي :

وأنزل الله ﷻ سورةً من القرآن ، بعد المقالة التي قالها عبد الله بن أبي بن سلول يوضح فيها أمر هذا المنافق الكاذب . قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ

﴿ المنافقون : ٨ ﴾

ولما نزلت هذه السورة وفيها تأكيد ما قاله زيد بن أرقم ﷺ عن عبد الله بن أبي بن سلول ، أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ، ثم قال مؤكداً صدقه : (هذا الذي أوفى الله بأذنه)^(٤)

(١) الطبري : التفسير (١١٦/٢٨)

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية (٢٥٦/٤)

(٣) الطبري : التفسير (١١٣/٢٨)

(٤) الطبري : التفسير (١١٦/٢٨)

وقد عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة من غزوة بني المصطلق في غرة شهر رمضان ، فاستغرقت غيبته عن المدينة في هذه الغزوة ثمانية وعشرين يوماً .

دروس مستفادة من قصة عبد الله بن عبد الله بن أبي في غزوة بني المصطلق :^(١)

أولاً : ظهرت حكمة النبي ﷺ وحنكته في كيفية معالجته للموضوع ، والقضاء على أسباب الفتنة . كما وضحنا ذلك آنفاً .

ثانياً : منهج النبي ﷺ في تربية أصحابه الكرام بنذ العصبية القبلية ؛ لأن النفس البشرية تميل دائماً إلى الأرض ، فوجب تربيتها حتى لا تنسلخ من الدين ، وحتى لا تركز إلى الهوى وتتبع الشهوات ، وتقع في حبال الشيطان ؛ فهو ينزغ بين المؤمنين بالتفريق بينهم ، كما حدث ذلك بين المهاجري والأنصاري ، فقال لهم رسول الله ﷺ (دعوا فإنها متنتة)

ثالثاً : وضوح مدى بغض المنافقين لله ولرسوله ﷺ ، وللإسلام وللمؤمنين . وظهر ذلك جلياً في موقف رأس النفاق والمنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، فإنه يود أن تكون الذلة لرسول الله ﷺ ولصحبه الكرام من المهاجرين والأنصار . وحاشا ذلك لرسول الله ﷺ وأصحابه ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

رابعاً : المنافقون يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين ، وينتهزون أي فرصة لإشاعة الفوضى والفرقة بينهم ، فأرادوا بهذا الموقف بين رجلين من المسلمين أن يؤلبوا الأنصار على المهاجرين ، ويثيروا فتنة النزعة العشائرية القبلية التي نبذها الإسلام ، وجعل هوية المسلم وجنسيته هي عقيدته الإسلامية ، التي لا شيء فوقها .

^(١) يُنظر : أساليب المنافقين في محاربة المسلمين في القرآن الكريم ، د. عبدالستار الجنابي ، ص ٧٣ .

خامساً : غيرة عمر بن الخطاب ؓ على الدين وعلى رسول الله ﷺ ، وأنه لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يرده عن الحق راداً ؛ فما إن سمع مقولة ذلك المنافق حتى همَّ بضرب عنقه .

سادساً : أدب الصحابة ؓ مع رسول الله ﷺ ، وعدم الإقدام على فعلٍ أي شيءٍ حتى يأذن لهم . وفي ذلك أدبٌ جمٌّ ، وضربٌ لأروع الأمثلة في الولاء والطاعة للقائد الأعلى ﷺ . ويتضح ذلك في استئذان عمر بن الخطاب وأسيد بن حضير ؓ في ضرب عنق رأس المنافقين ، وفي استئذان عمر بن الخطاب وعبد الله بن عبد الله بن أبي في قتل رأس المنافقين ، وامتناعهم حينما منعهم .

سابعاً : تغلب أخوة الإسلام ورابطة العقيدة على رابطة العرق والنسب والدم ، واتضح ذلك في موقف الصحابي الجليل صاحب العقيدة والتوحيد ، وصاحب (الولاء والبراء) ، الولاء للنبي ﷺ والبراء من أبيه المنافق ، الذي همَّ بقتله ، لأنه يعلم أن العقيدة فوق القرابة والرحم . نعم ؛ لقد أمرنا الله ﷻ بصلة الرحم وخصوصاً الوالدين ، والإحسان إليهما ، والبر بهما ، وجعل ذلك قربةً إليه ، وأخبرنا ﷺ فيما يرويه عن ربه في الحديث الصحيح : أن الرِّحِمَ مشتقة من اسم الله تعالى ، فمن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعته الله ^(١) . ولكن إذا تعارض هذا البر وهذا الإحسان وهذه الصلة مع العقيدة ، فلا مقارنة ولا مفاضلة ؛ بل يُضرب بهذه القرابة وهذه الرحم عرض الحائط . فإذا كان المقام مقام التوحيد والقضية قضية العقيدة ، فلا يُوضع أمامها في الكفة أي شيء .

^(١) عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الرحم شجنة من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته " ، البخاري : الصحيح (٢٢٣٢/٥) حديث رقم (٥٦٤٣) أحمد : المسند (٣٢١/١) حديث رقم (٢٩٥٦) ابن حبان : الصحيح (١٨٥/٢) حديث رقم (٤٤٢) ، وقوله (شجنة من الرحمن) أي : مشتقة من اسم الرحمن .

✽ ظهرت هذه العقيدة واضحةً جليةً في ذلك الصحابي الجليل ، عندما استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه . هذه هي التربية النبوية في الولاء والبراء . ولقد قتل أبو عبيدة ؓ أباه يوم بدر ، وهم أبو بكر ؓ بقتل ولده عبد الرحمن ، وقتل مصعب بن عمير أخاه غيباً بن عمير ، وقتل عُمَرُ وحمزة وعلي وعبيدة بن الحارث ؓ أقرباءهم وعشيرتهم ؛ متجردين من علائق الدم والقرباة إلى أصرة الدين والعقيدة . فكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصوُّر الروابط والقيم في ميزان الله ﷻ . إن الولاء عقيدة وعبادة يتعبد بها المسلم لربه ﷻ ، ويدين له بها ؛ فهي من مقتضيات لا إله إلا الله . فلا إله إلا الله تقتضي أن توالي أنصارها ومعتنقيها ، ولا إله إلا الله تقتضي البراء ، ومعاداة من يعادي هذه الكلمة ، ومحاربة من يحاربها ، ومن لم يدن بها . فهذه هي العقيدة التي فهمها الصحابة ؓ ، وهذا هو الدين الذي تلقَّوه من رسول الله ﷺ .

✽ يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله : "قد أباح الله للمسلمين في حالة الاستضعاف ألا يُظهِروا العداوة لأعدائهم ، ولكنّه لم يبح لهم قط أن يوالوهم ... فعدم إظهار العداوة شيء ، والموالاة شيء آخر . الموالاة تشمل مودة القلب ، والتناصر ، والمحبة" ^(١) . وهذه لا تكون إلا بين المؤمنين بعضهم لبعض . ورأينا كيف جسّد عبد الله بن عبد الله بن أبي عقيدة الولاء والبراء بأروع صورها .

ثامناً : مدى حب الصحابة ؓ لرسول الله ﷺ :

ظهر ذلك في :

١ - إصرار عبد الله بن عبد الله ألا يدخل المنافق عبد الله بن أبي - وهو أبوه - المدينة إلا إذا أذن له رسول الله ﷺ .

^(١) ينظر : لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، (القاهرة ، مكتبة السنة ، ١٤١١هـ) ص ١٦٤ -

٢ - لا يدخل عبد الله بن أبي المدينة حتى يقول عن نفسه أنه هو الأذل ، ورسول الله ﷺ هو الأعز .

٣ - فعل ذلك كله ، وهو شاهر السيف في وجه أبيه .

تاسعاً : مدى تبرؤ الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي من أبيه ، وظهر ذلك في حديثه مع رسول الله ﷺ حينما جاءه ليعرض عليه قتل أبيه ، فقال له : "إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله ابن أبي ... " ولم يقل : أبي . أو : والدي . وفي ذلك براءة من ذلك المنافق ، وحتى لا يكون في ذلك تأثير على ما يريده رسول الله ﷺ .

عاشراً : تلطف النبي ﷺ بأصحابه الكرام ، فكان النبي ﷺ عدل عن معاقبة عبد الله بن أبي كرامة وإكراماً لابنه عبد الله ، وأيضاً مراعاة لشعور الأنصار ، وخاصة قومه ، لا سيما أنه لم يأمر بقتل المنافقين . فقال للصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله : (بل نرفق به ، ونحسن صحبته ما بقي معنا)

الحادي عشر : التهديد والوعيد للمنافقين ، وإن كان غير صريح ، لكن لَمَحَ به رسول الله ﷺ في قوله : (نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا) ففيه دلالة على أنه بعد فراق هذه الحياة فلا رفق ، ولا إحسان ؛ بل العذاب والهلاك . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ النساء: ١٤٥

المبحث الرابع

منهج المنافقين في استخدام الإشاعة والشعر

الإعلامي في محاربة النبي ﷺ

المطلب الأول : أسلوب الإشاعة :

إن الإشاعة سهلة الاستخدام ، وسريعة الانتشار ، وقوية التأثير في النفس . ومن هذا نجد وعيد الله ﷻ وزواجه لمحبي ذلك ومُشيعيه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

النور: ١٩

إن استخدام المنافقين لأسلوب الإشاعة كان الهدف من ورائه تحطيم وحدة الصف المسلم ، وزعزعة ثقة المسلمين برسول الله ﷺ ؛ لذلك كان دأب المنافقين وشغلهم الشاغل إشاعة كل منكر ضد الإسلام والرسول ﷺ ، فمثّلوا ما يسمى اليوم بـ (الطابور الخامس) في المجتمع المسلم ، هدفهم ؛ الطعن في الأعراس ، الذي هدف منه أولاً : بيت النبي ﷺ . فكانت حادثة الإفك ، وزواج النبي ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش^(١) ، غرضاً للطعن في شخص النبي ﷺ . وسيأتي توضيح ذلك في هذا المبحث .

(١) ابن رثاب بن يعمر الأسدي ، أم المؤمنين ، وأخت عبد الله بن جحش وحمنة بنت جحش ﷺ . أمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمه رسول الله ﷺ وأخت حمزة بن عبد المطلب ﷺ ، كان اسمها برة ، فسامها رسول الله ﷺ زينب ، كانت من المهاجرات الأول ، ورعة صوامة قوامة ، كثيرة الخير والصدقة ، ونزلت بسببها آية الحجاب تزوجها رسول الله ﷺ سنة (٥هـ) على الصحيح ، وماتت في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ سنة (٢٠هـ) فكانت أول نسائه ﷺ لحوقاً به كما أخبر بذلك ﷺ . يُنظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى (١٠١/٨) ابن خياط ،

أ- زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش
أولاً :

إن قضية إبطال عادة التبني الجاهلية قد استدعت - قبل إنزال أحكامها في الإسلام ، وقبل تغيير التقليد الجاهلي فيها عن طريق البيان القولي والعملي - التمهيد لها بإعداد نفس الرسول ﷺ ونفوس المؤمنين لذلك ؛ ولأن التغيير العملي من الرسول ﷺ لهذا التقليد الجاهلي بتطبيق حكم الله المنزل ستحمل الرسول نفسه ﷺ المشاق ، ومقالات السوء من الكافرين والمنافقين ؛ لأنها تمس شخصه الكريم ﷺ .

وهذه الاتهامات تمكّن الكافرين والمنافقين من توجيه مقالة السوء له ، على اعتبار أنه يفعل - بنظرهم القاصر ، ووفق عاداتهم الجاهلية - كبيرة من الكبائر التي يستنكف عن فعلها مشركو العرب ؛ اتباعاً لتقاليدهم وأعرافهم وأحكام جاهليتهم . فكانت هذه فرصة للكافرين والمنافقين ليطلقوا مقالات السوء على شخص الرسول ﷺ .

وبالنظر إلى بشرية النبي ﷺ فقد يدفعه الحذر الشديد من أن تُمسّ قدسية رسالته بمطاعن الشبهات ، إلى التردد أو التمهّل ، أو التريث في القيام بالتكليف الخاص المحاط بشبهات الاتهامات الشخصية . لذلك بدأ الله ﷻ هذا التمهيد في خطابه لنيه ﷺ بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ ﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ ﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

وَكَيْلًا ﴿٣﴾ الأحزاب: ١ - ٣

خليفة العصفري (ت ٢٤٠هـ) ، الطبقات ، تحقيق أكرم ضياء العمري (ص ٣٣٦) (ط ٢) ، الرياض ، دار طيبة ، ١٩٨٢م) ابن عبد البر الاستيعاب (٤ / ١٨٤٩)

ثانياً :

عمد المنافقون إلى إثارة هذه الحادثة وإشاعتها ؛ إذ كيف برسول الله ﷺ أن يتزوج بمطلقة مُتَبَنِّاهُ زيد بن حارثة^(١) ﷺ ؟ حيث كانت تقاليد التبني لا تزال على ما هي عليه قبل الإسلام ؟

أَلْحَقَ النَّبِيُّ ﷺ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ بِهِ ؛ بِنَاءً عَلَى الْعَرَفِ السَّائِدِ وَقَتْنِدٍ ، فَكَانَ قَبْلَ الْبُعْثَةِ وَنَزُولِ الْوَحْيِ يُدْعَى (زيد بن محمد) وَقَدْ زَوَّجَهُ ﷺ بَابْنَةَ عَمَتِهِ (زينب بنت جحش) ﷺ لِيَحْطُمَ بِهَذَا الزَّوْجِ فَوَارِقَ الطَّبَقَاتِ ، وَيَقَرَّرَ مِيزَانَ السَّمَاءِ ، وَيَحَقِّقَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ الْحَجَرَاتِ: ١٣ كما شاءت إرادة الله تبارك وتعالى أن يُطَلِّقَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ ﷺ لِيَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؛ لِيُزِيلَ بِهَذَا الزَّوْجِ آخِرَ آثَارِ عَادَةِ التَّبْنِيِّ الَّذِي حَرَّمَهُ الْإِسْلَامُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ الْأَحْزَابِ: ٤ - ٥ .

هذه الحكمة ذكرها الله في آياتِ الحَدِيثِ نفسه ؛ حتى لا يبقى مسوغٌ لمقولة أعداء الإسلام ضد رسول الله ﷺ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ

(١) الصحابي الجليل ، حَبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . كَانَ مِنْ أَوَائِلِ مَنْ اسْتَجَابَ لِدَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ . شَهِدَ الْمَشَاهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَشْهَدَ فِي مَعْرَكَةِ مَوْتَةَ سَنَةِ (٥٧هـ) وَنَزَلَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِتَسْمِيَةِ صَرِيحَةٍ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ غَيْرِهِ هَذِهِ الْمَنْقَبَةُ ابْنِ سَعْدٍ : الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى (٤٠/٣) خَلِيفَةُ : الطَّبَقَاتُ ، ص (١٦) ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ : الْاسْتِيعَابُ (٥٤٢/٢)

تَحْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ
إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ الأحزاب: ٣٧

وهكذا بين الله تبارك وتعالى الحكمة من الحادثة برمتها ، فقد حصل ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج المطلقات الأدياء ^(١) ؛ فقال تعالى : ﴿ لِكَيْ ﴾ أي : قضينا بهذا الزواج وأمرنا به ؛ لكي يكون الرسول ﷺ فيما يطبق من أمر الله قدوة للمؤمنين ؛ فلا يكون على المؤمنين بعد تطبيق الرسول ﷺ بنفسه لحكم الله حرج ، ولا تخوف من مقالة الناس في زواجهم -إذا رغبوا- من اللواتي كن أزواج أديائهم الذين كانوا قد تبنوهم وفق العرف القديم عند أهل الجاهلية . والجمع بين اللام التي هي للتعليل و(كي) التي هي للتعليل أيضاً تفيد تأكيد التعليل بالعلة المذكورة بعدها ، مع بيان أهميتها .

وعلى الرغم من هذا البيان والوضوح فيما حدث ، إلا أن المنافقين اتخذوا ذلك مادةً للطعن في رسول الله ﷺ . ولقد كان رسول الله ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر ، واللين ، واللطف .

وبعد كل هذا ؛ نجد في عصرنا الحديث ، وعلى لسان أحفاد الأعداء من زمرة المستشرقين والشعوبيين والباطنيين والعلمانيين من اتخذ هذه الحادثة مادةً للخوض في عرض رسول الله ﷺ وطعناً في نبوته . وأنى لهم ذلك ! وحديث التاريخ ومنطق سيرته ﷺ أصدق شاهد على كذب ما زعموه . إنها الخصومة القديمة للإسلام ، خصومة تأصلت في نفوس .

^(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩٢) (بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٨٠م)

ب : موقف الكافرين والمنافقين من إبطال عادة التبني

بعد زواج النبي ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش بأمر الله تعالى ؛ أخذ المنافقون يقولون مقالة السوء بحق شخص النبي ﷺ وهي : " إن محمداً يحرم نكاح نساء الأبناء ، وقد تزوج امرأة ابنه زيد " .

قال ابن الأثير : " وتكلم المنافقون في ذلك ، وقالوا : إن محمداً يحرم نكاح نساء الأولاد ، وقد تزوج امرأة ابنه زيد" ^(١) . ورد الكفار الصُّرحاء مقالة السوء هذه التي ابتدعها المنافقون في هذه القضية ، ودل على ذلك قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقَى اللَّهُ وَلَا تَطْعَ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ﴿١﴾﴾

ج : التوجيهات الربانية للنبي ﷺ في هذه المحنة لمواجهة الكافرين والمنافقين :

بعد أن عرفنا مقالة السوء والإشاعة التي روج لها المنافقون في قولهم : "إن محمداً يحرم نكاح نساء الأولاد ، وقد تزوج امرأة ابنه زيد " . فقد تعرض بعدها ﷺ لأشد الأذى من قبل الكافرين والمنافقين ؛ من أجل تنفيذه العملي لأمر الله بإلغاء حكم التبني الجاهلي ، فكانت العناية الإلهية والتوجيه الرباني لنبية ﷺ ، فثبتته الله أشد الثبوت ، فكان :

التوجيه الأول :

التمهيد له بإعداد نفس النبي ﷺ لهذا التغيير العملي لهذا التقليد الجاهلي بتنفيذ حكم الله ، وقد جاء هذا التمهيد والتوجيه في أول سورة الأحزاب في خطاب الله لنبية ﷺ بقوله : ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقَى اللَّهُ وَلَا تَطْعَ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ﴿١﴾﴾ فأمر الله تعالى نبية ﷺ بأن يتقي الله ولا يطيع الكافرين والمنافقين خوفاً من تشنيعاتهم

^(١) ابن الأثير ، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ) ، أسد الغابة في معرفة الصحابة (١٢٦/٧) (ط ١ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٧هـ)

عليه ، وحفاظاً على قدسية رسالته ، ونزاهته من الأغراض الشخصية الدنيوية في القضايا الدينية ، وفي كل تبليغاته عن ربه . وأرشده إلى الأساس العميق الذي يستلزم أن يحضر تقواه بالله ، ولا يخشى أحداً سواه ، مهما كانت الدواعي لهذه الخشية .

إن هذا التوجيه يقدم برهاناً عقلياً وعملياً على ضرورة الالتزام بجانب تقوى الله ، خاصة في أوقات المحن والشدائد ؛ إذ ليس لها من دون الله كاشف ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ ويجعل له من كل ضيقٍ مخرجاً ، ومن كل همٍّ فرجاً .

التوجيه الثاني :

﴿ وَلَا تَطْعِ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ ﴾ أي : لا تتأثر بأقوال الكافرين والمنافقين ، واتهاماتهم وإشاعاتهم الباطلة ، وضغوطهم الظالمة .

ولما كانت أحكام الله وأفضيئته القدرية والتشريعية تستند إلى علمه الشامل لكل معلوم موجود أو معدوم ، وإلى حكمته العظيمة التي يختار بها -دون اضطرار ولا إجبار- ما هو أحكم وأعدل ؛ انسجاماً مع كمال صفاته ﷻ = ختم الله ﷻ الآية الأولى من السورة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ أي : إن صفتي كمال العلم وكمال الحكمة ؛ هما من صفات الله الحسنی . ومن كان عليماً حكيماً فهو لا يختار في أحكامه وأفضيئته القدرية والتشريعية إلا ما هو أحكم وأعدل ، ولا مجبر له سبحانه ؛ بل أفعاله وأوامره الحكيمة هي من مقتضى كمال صفاته ﷻ .

هذا التمهيد الموجه للرسول ﷺ بطريقة مباشرة يتضمن توجيهاً غير مباشر للمؤمنين وللآخرين ؛ إذ فيه إشعاراً بأن الرسول ﷺ -وهو النبي المُجتبى- يقع تحت طائلة العقاب إن هو عصى (حاشاه) فكيف يكون حال من هو دونه .

وفيه إعلامٌ بأن زواج الرسول ﷺ من مطلقة زيد الذي كان قد تبناه قبل تحريم التبني ، وإلغاءه تكليف من الله ؛ لا خيرة له فيه ، ومخالفته هذا التكليف تُعرضه للعقوبة .

التوجيه الثالث :

أرشد الله تعالى نبيه ﷺ بما جاء في الآية (٤٨) من السورة الأحزاب نفسها ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا نُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَٱلْمُنٰفِقِينَ وَدَعَّ ٱذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ ﴿٤٨﴾ الأحزاب: ؛ فقوله : ﴿ وَلَا نُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَٱلْمُنٰفِقِينَ ﴾ تأكيد لما جاء في صدر السورة؛ وقوله ﴿ وَدَعَّ ٱذْنَهُمْ ﴾ أي : اترك أذاهم ، فلا تهتم له ، ولا تنظر إليه ، ولا تُشغِل نفسك بدفعه أو الانتصار لنفسك ؛ فمن شأن هذا التَّوَكُّل والإهمال للأذى أن تنطفئ ناره ، أو يذوب جليده ، وينساح في الأرض .

وأصل الموضوع في المجتمع الإسلامي ؛ هو : توجيه رباني من أحكم الحاكمين لنبيه ﷺ في مواجهة الكافرين والمنافقين . وهذه وصية ربانية نفسية لكل من يتعرض للأذى . فتزك الأذى وعدم الاهتمام من شأنه أن يطفئ نار المؤذنين ، ويبطئ حركتهم ، ويجعل أقوالهم كالهباء المنثور . بخلاف مقاومته ؛ فإنها توقد نار الأذى ، وتضاعف جهود المؤذنين ، فتزيد من الألم والأذى .

التوجيه الرابع : التوكل على الله :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ وهو تأكيد لما جاء في صدر السورة أيضاً . أي : ومن توكل على الله كفاه ما أهمه ، وردّ كيد أعدائه إلى نحورهم .

وبعد هذه التوجيهات والتمهيدات التربوية من الله ﷻ لرسوله ﷺ ، أمره تعالى بالتوكل ، وهذا يستدعي في التربية الحكيمة : تهيئة نفس الرسول ﷺ وقلبه وفكره تهيئة نابعة من القاعدة الإيمانية . وهي في هذا الموضع : التذكير (بالتوكل على الله) الذي وُجِّه له التكليف ، فهو الذي يحميه ويصونه ، ويجعل ما يخشى من سبب في زيادة التمكين لنبوته ورسالته ، وكمال نزاهته ، ورفع ذكره ، فقال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

❖ **حادثة الإفك^(١)** :

عند رجوع النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق ، حاك المنافقون حادثة الإفك ، بعد أن فشل كيدهم في إثارة النعرة العشائرية بين المهاجرين والأنصار . كما سبق ذكره .

تعد حادثة الإفك من أخطر الشائعات التي رُوِّجت في المجتمع المسلم ، وكان القصد منها النيل من النبي ﷺ ، ومن أهل بيته . فوَجَّهت السهام إلى أقرب الناس من النبي ﷺ وألصقهم به ، ومن ثم تروى في المجتمع المسلم . وقد تولى كِبَر نُشْر هذه الإشاعة عبد الله بن أبي بن سلول . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَب مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ النور: ١١ وتعد هذه الحادثة فريدة في نوعها ؛ لأن تاريخ الدعوة لم يشهد لها مثيلاً من قبل ، وفي الصف المسلم بالذات .

❖ لقد كانت حادثة الإفك معركة خاضها رسول الله ﷺ ، وخاضتها الجماعة المسلمة ضد المنافقين يوم ذاك ، وخاضها الإسلام . فهي من أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ وخرج منها منتصراً كاظماً لآلامه الكبار ، محتفظاً بوقار نفسه ، وعظيمة قلبه ، وجميل صبره ، فلم تُؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاذ صبره ، وضعف احتمالته ، والآلام التي تتناوشه ، التي لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته .

(١) وردت كلمة الإفك في القرآن الكريم على عدة معاني ، منها : الكذب ، وقذف المحصنات - الذي هو موضوعها- ، ووضف الحق سبحانه وتعالى بالشريك والولد ، والانقلاب ، والسحر .

والإفك في الأصل : كل مصروفٍ عن وجهه ، الذي يحق أن يكون عليه . ورجل مأفوك ، بمعنى : مصروف عن الحق إلى الباطل . يُنظر : الفيروز آبادي ، بصائر ذوي التمييز بلطائف الكتاب العزيز . تحقيق محمد علي البجاوي (١٠١/٢) (بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٨٤م)

والخطر على الإسلام من تلك الفرية التي صنعها المنافقون من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه^(١) .

إن الإنسان ليقف متأملاً أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة رسول الله ﷺ ، وأمام تلك الآلام العميقة اللادعة لعائشة^(٢) زوجة المقرّبة ، وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة . تلك السنّ المليئة بالحساسية المرهفة ، والرقّة الشفيفة . فها هي ذي عائشة الطيبة الطاهرة ، ها هي ذي وفي برائتها ، ووضاعة ضميرها ، ونظافة تصوراتها ؛ ها هي تُرمى في أعز ما تعز به ، تُرمى في شرفها ؛ وهي ابنة الصديق الناشئة في العش الطاهر الرفيع . وتُرمى في أمانتها ، وهي زوج محمد بن عبد الله ﷺ من ذرية بني هاشم . وتُرمى في وفائها ، وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير ... ثم تُرمى في إيمانها ، وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام ، من أول يوم تفتحت عينها فيه على الحياة ، وهي زوج رسول الله ﷺ . ها هي ذي تُرمى وهي بريئة غرّة غافلة ، لا تحتاط لشيء ، ولا تتوقع شيئاً ، فلا تجد ما يبرئها ، إلا أن ترجو من جناب الله ، وتترقب أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا تبرئها مما رُميت به . ولكن الوحي يتلبّث في حكمةٍ يريد بها الله شهراً كاملاً ، وفي مثل هذا العذاب^(٣) .

عائشة رضي الله عنها تروي القصة المؤلمة :

(١) قطب : في ظلال القرآن (٣/١٢٢٠)

(٢) الصديقة ابنة الصديق أبي بكر بن أبي قحافة التيمي القرشي ، تزوجها رسول الله ﷺ وهي ابنة تسع سنين مناقبها جمّة . كانت من أفقه النساء ، عالمة بالشعر والأنساب والطب ، ماتت بالمدينة سنة (٥٧هـ) ابن سعد : الطبقات (٨/٥٨) ابن عبد البر : الاستيعاب (٤/١٨٨١) ابن حجر : الإصابة (٤/٣٥٩)

(٣) قطب : في ظلال القرآن (٣/١٢٢١)

ولما في هذا الحادث الخطير من عِبرٍ وعِظَاتٍ ، يمكن أن يستفيد منها الذين يتسرعون في رمي الأبرياء ؛ فإننا سندع أم المؤمنين ﷺ تروي لنا قصة هذا الألم القاتل ، الذي عاشته طيلة شهر كامل .

قالت رضي الله عنها : " ان رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَفْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ ، فَأَيُّتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ - قَالَتْ عَائِشَةُ - ، فَأَفْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا (غزوة بني المصطلق) فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي ، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي ، وَأُنْزَلُ فِيهِ مَسِيرَنَا . حَتَّى إِذَا فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوِهِ ، وَقَفَلَ ، وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ ؛ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ مِنْ شَأْنِي ، أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي ، فَإِذَا عِقْدِي مِنْ جَزَعِ ظَفَارٍ^(١) قَدْ انْقَطَعَ ، فَرَجَعْتُ ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي ، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَزْحَلُونَ لِي ، فَحَمَلُوا هَوْدَجِي ، فَوَحَلُوهُ عَلَيَّ بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فِيهِ - قَالَتْ - وَكَانَتِ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُهَبَّلْنَ ، وَلَمْ يَعْشَهُنَّ اللَّحْمُ ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ^(٢) مِنَ الطَّعَامِ ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ ثِقَلِ الْهُودَجِ حِينَ رَحَلُوهُ وَرَفَعُوهُ ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ . فَبَعَثُوا الْجَمَلَ ، وَسَارُوا ، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَ الْجَيْشُ ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ . فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي ، فَنِمْتُ . وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ

^(١) نوع من الخرز ، والبلد التي ينسب إليها (ظفار) في جنوب شرق اليمن . وفي رواية : (أظفار) قال ابن حجر في توجيهِ هذه الرواية : " فلعل عقدها من الظفر ، أحد أنواع القسط ، وهو طيب الرائحة يتبخر به) فتح الباري (٤٥٩/٨)

^(٢) بضم وفتح ، جمع علقمة ، وهي ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء . ابن منظور : لسان العرب (٢٦٣/١٠)

الدُّكْوَانِيُّ^(١) ، قَدْ عَرَسَ^(٢) مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ ، فَادَّلَجَ^(٣) ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي ، فَرَأَى سَوَادَ
إِنْسَانٍ نَائِمٍ ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَيْتِي ، وَقَدْ كَانَ يَرَانِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ عَلَيَّ ،
فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِزْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي ، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي ، وَوَاللَّهِ مَا يُكَلِّمُنِي كَلِمَةً ،
وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِزْجَاعِهِ ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ ، فَوَطِئْتُ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا ،
فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُوْغِرِينَ فِي نَحْرِ الظُّهَيْرَةِ^(٤) .
وَقَالَتْ : فَهَلْكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولَ .

قَالَتْ : فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ، فَاسْتَكَيْتُ^(٥) حِينَ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ شَهْرًا ، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ
فِي قَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ ، وَلَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ يَرِيْبُنِي فِي وَجْعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي ، إِنَّمَا يَدْخُلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
فَيَسْلِمُ ، ثُمَّ يَقُولُ : (كَيْفَ تَيْكُمُ؟) فَذَاكَ يَرِيْبُنِي ، وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ . حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَ مَا

^(١) صحابي معروف من السابقين إلى الإسلام ، شهد الخندق والمشاهد بعدها ، كان أميراً على ساقية
الجيش في هذه الغزوة ، لذلك كان آخر من يرتحل من رجال الجيش . مات شهيداً بأرمينية سنة
(١٩هـ) ابن خياط : الطبقات ص(٥١) ابن قانع ، أبو الحسين عبد الباقي (ت ٣٥١هـ) ، معجم
الصحابة ، تحقيق صلاح المصراطي ، (ط ١) ، المدينة المنورة ، مكتبة الغرباء الأثرية ، (١٤١٨هـ) ،
(١٣/٢) ابن عبد البر : الاستيعاب (٢/٧٥٢)

^(٢) التعريس ، نزول القوم من آخر الليل ، ينامون فيه نومة خفيفة ، ثم يقومون مع الفجر للمواصلة
السير ، ابن منظور : لسان العرب (٦/١٣٦)

^(٣) الإدلاج : السير الليل كله . ابن منظور : لسان العرب (٢/٢٧٣)

^(٤) هو : حين تَبْلُغُ الشَّمْسُ مُنْتَهَاهَا مِنَ الارتفاعِ كَأَنَّهَا وَصَلَتْ إِلَى النَّحْرِ وَهُوَ أَعْلَى الصَّدْرِ . يُنْظَرُ :
ابن الأثير ، مجد الدين المبارك محمد الجزري (ت ٦٠٦هـ) ، النهاية في غريب الحديث والأثر
(٥/٢٠٨) تحقيق طاهر الزواوي ، ومحمود الطناحي ، (ط ١) ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ،
(١٣٨٣هـ)

^(٥) أي : مرضت . والشكوى : المرض . ابن الأثير ، النهاية (٢/٤٩٧)

نَقِهُتُ^(١) . وَخَرَجْتُ مَعِيَ أُمُّ مِسْطَحٍ^(٢) قِبَلَ الْمَنَاصِعِ ، وَهُوَ مُتَبَرِّزُنَا ، وَلَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ . وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنْفَ قَرِيبًا مِنْ بَيْوتِنَا ، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي التَّنَزُّهِ . وَكُنَّا نَتَأَذَى بِالْكُنْفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بَيْوتِنَا .

انتشار الدعاية بالمدينة :

قَالَتْ : فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ - وَهِيَ بِنْتُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَأُمُّهَا ابْنَةُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُنَاثَةَ بْنِ عَبَادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ - ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَبِنْتُ أَبِي رُهْمٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَعْنَا مِنْ شَأْنِنَا ، فَعَثَرْتُ أُمَّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا^(٣) ، فَقَالَتْ : تَعَسَ مِسْطَحٌ . فَقُلْتُ لَهَا : بِئْسَ مَا قُلْتَ ، أَتَسِيئِينَ رَجُلًا قَدْ شَهِدَ بَدْرًا؟ قَالَتْ : أَيُّ هَتَّاءُ ، أَوْلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قُلْتُ : وَمَاذَا قَالَ؟ قَالَتْ : فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي . فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : (كَيْفَ تَيْكُمُ؟) قُلْتُ : أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ . قَالَتْ : وَأَنَا حَيْثُ أُرِيدُ أَنْ أَتَيْقَنَّ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا . فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

قَالَتْ : فَحِثُّتُ أَبَوَيَّ ، فَقُلْتُ لِأُمِّي : يَا أُمَّتَاهُ ، مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ : يَا بَيْتِي هَوْنِي عَلَيْكَ ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ ، إِلَّا كَثُرْنَ

(١) نَقَهُ الْمَرِيضُ يَنْقُهُهُ فَهُوَ نَاقَةٌ ؛ أَي : بَرِيءٌ ، وَأَفَاقٌ ، وَكَانَ قَرِيبَ الْعَهْدِ بِالْمَرَضِ ، لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ كَمَا لَمْ يَرْجِعْ إِلَى أَبِيهِ . وَفَوْتُهُ . ابْنُ الْأَثِيرِ : النَّهْيَةُ (١١٠/٥)

(٢) سَلَمَى بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ - أَنْيسٌ - ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ الْقُرَشِيَّةُ . أَسْلَمَتْ ، وَحَسَنَ إِسْلَامُهَا ، وَكَانَتْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى ابْنِهَا مِسْطَحٍ حِينَ تَكَلَّمَ مَعَ أَهْلِ الْإِفْكِ . ابْنُ سَعْدٍ : الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى (٢٢٨/٨) ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : الْإِسْتِيعَابُ (١٢٢٤/٣) ابْنُ حَجْرٍ : الْإِصَابَةُ (٤٩٦/٤)

(٣) كَسَاءٌ يَكُونُ مِنْ صَوْفٍ ، أَوْ مِنْ خَزٍّ . ابْنُ الْأَثِيرِ : النَّهْيَةُ (٣١٩ /٤)

عَلَيْهَا - قَالَتْ - قُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا ؟ قَالَتْ : فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ ، لَا يَزِقًا^(١) لِي دَمْعٌ ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ^(٢) ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي .

استشارة رسول الله ﷺ بعض أصحابه عند تأخر نزول الوحي :

وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلَبْتَ الْوَحْيَ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ - قَالَتْ - فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنَ الْوُدِّ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هُمْ أَهْلُكَ ، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا . وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ : لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ ، وَإِنْ تَسَأَلَ الْجَارِيَةَ تَضُدُّكَ - قَالَتْ - فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ^(٣) قَالَ : (أَيُّ بَرِيرَةَ ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيْبُكَ مِنْ عَائِشَةَ ؟) قَالَتْ لَهَا بَرِيرَةُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ، إِنْ رَأَيْتِ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَعْمَصُهُ^(٤) عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ^(٥) فَتَأْكُلُهُ .

رسول الله ﷺ يطلب كف أذى رأس النفاق :

(١) رقا الدمع : جف ، وانقطع . ابن منظور : لسان العرب (٨٨/١)

(٢) استعارة عن السهر . ابن حجر : فتح الباري (٤٦٧/٨)

(٣) كانت مولاة لبعض الأنصار ، فاشترتها عائشة ؓ ، ثم أعتقتها . تأخرت وفاتها إلى زمن معاوية ؓ . ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢٥٦/٨) ابن عبد البر : الاستيعاب (١٧٩٥/٤) ابن حجر : الإصابة (٢٥١ /٤)

(٤) أي : أعيها عليه ، وأطعن عليها به . ابن منظور : لسان العرب (١٦١/٧) ابن حجر : فتح الباري (٤٨٨/٨)

(٥) كل ما يؤلف في البيوت من الطير ، وغيره . وتعني به هنا : الشاة . ابن منظور : لسان العرب (١٤٨/١٣) ابن حجر : فتح الباري (٤٨٨/٨)

قالت : فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَاسْتَعَدَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ .
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ : (يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْدِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ
أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ
عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي)

قالت : فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ ﷺ^(١) فَقَالَ : أَنَا أَعْدِرُكَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ . قَالَتْ
: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ^(٢) ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا ، وَلَكِنْ اجْتَهَلَتْهُ
الْحَمِيَّةُ ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ : كَذَبْتَ لَعْمُرَ اللَّهِ ، لَا تَقْتُلُهُ ، وَلَا تَقْدِرْ عَلَى قَتْلِهِ . فَقَامَ
أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ^(٣) وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ : كَذَبْتَ لَعْمُرَ
اللَّهِ ، لَنَقْتُلَنَّه ؛ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ .

كادت الفتنة أن تنشب بين الأوس والخزرج :

قالت : فَتَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هُمُوا أَنْ يَقْتَتِلُوا (وهذا غاية ما يتمناه
ويسعى عبد الله بن أبي بن سلول وحزبه من المنافقين واليهود) وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى
الْمِنْبَرِ ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْفِضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا ، وَسَكَتَ .

^(١) الأوسي الأشهلي ، الصحابي الجليل ، شهد بدرًا وما بعدها من الغزوات ، واستشهد في غزوة
الخنديق ، أصابه سهم كان به حتفه ، فاهتز له عرش الرحمن فرحاً بمقدمه . ابن خياط : الطبقات
، ص (٧٧) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٤٢٠/٣) ابن عبد البر : الاستيعاب (٦٠٢/٢)

^(٢) الساعدي ، نقيب بني ساعدة ، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد ، خرج إلى الشام في خلافة أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، ومات بها سنة (١٥هـ) ابن خياط : الطبقات ، ص (٩٧) ابن سعد
: الطبقات الكبرى (٣٨٩/٣) ؛ ابن عبد البر : الاستيعاب (٥٩٤/٢)

^(٣) الأنصاري الأشهلي ، صحابي جليل ، من السابقين إلى الإسلام ، كان شريفاً كاملاً ، وهو أحد
النباء ليلة العقبة ، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد ، ومات في خلافة أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب ﷺ سنة (٢٠هـ) ، ابن عبد البر : الاستيعاب (٩٢/١) ابن حجر : الإصابة (٤٩/١)

قَالَتْ : وَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَزِقًا لِي دَمْعٌ ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ، ثُمَّ بَكَيْتُ لَيْلَتِي الْمُقْبِلَةَ لَا يَزِقًا لِي دَمْعٌ ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ . وَأَبَوَايَ يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقُ كَبِدِي . فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي ، اسْتَأْذَنْتُ عَلَيَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَأَذِنْتُ لَهَا ، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي .

قَالَتْ : فَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ ، ثُمَّ جَلَسَ . قَالَتْ : وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ لِي مَا قِيلَ . وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ . قَالَتْ : فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ ، ثُمَّ قَالَ : (أَمَّا بَعْدُ ، يَا عَائِشَةُ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسَيَبْرُئُكَ اللَّهُ ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتَ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ ، وَتُوبِي إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ)

قَالَتْ : فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي ، حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً . فَقُلْتُ لِأَبِي : أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ . فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَقُلْتُ لِأُمِّي : أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . فَقَالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقُلْتُ -وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ ، لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ- : إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُ أَنْكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ بِهَذَا ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِكُمْ ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ ؛ فَإِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ؛ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ . وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ؛ لَتُصَدِّقُونِي . وَإِنِّي وَاللَّهُ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

قَالَتْ : ثُمَّ تَحَوَّلْتُ ، فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي . قَالَتْ : وَأَنَا وَاللَّهُ حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبْرئِي بِرَاءَتِي ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى وَلِشَأْنِي كَانَ أَحَقَّرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى .

نزول الوحي ببراءة عائشة ﷺ :

قالت : وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبْرِئُنِي اللَّهُ بِهَا .
 قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا رَأَمَ^(١) مَجْلِسُهُ ، وَلَا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَحَدٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
 عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ^(٢) عِنْدَ الْوَحْيِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ
 مِثْلُ الْجِمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي الْيَوْمِ الشَّاتِ ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ . قَالَتْ : فَلَمَّا
 سُرِّيَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ : (أُبَشِّرِي يَا
 عَائِشَةُ ، أَمَا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكَ) فَقَالَتْ لِي أُمِّي : قَوْمِي إِلَيْهِ . فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ ، وَلَا
 أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ ؛ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي . قَالَتْ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ
 عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ
 مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ تَوَلَّى إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ
 ﴿١٢﴾ تَوَلَّى جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأَوَّلَتْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَتَوَلَّى
 فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسْتُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوهُ
 بِالسِّنْتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَتَوَلَّى إِذْ
 سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا
 لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ
 أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
 ﴿١٩﴾ وَتَوَلَّى فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴿النور: ١١ - ٢٠﴾

قالت عائشة ؓ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشِ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ
 أَمْرِي : (مَا عَلِمْتَ أَوْ مَا رَأَيْتِ؟) فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي . وَاللَّهِ مَا

(١) أي : برح وزال عن مكانه . ابن الأثير : النهاية (٢/٢٩٠) ابن منظور : لسان العرب (١٢/٢٥٨)

(٢) أي : الشدة والكرب من ثقل الوحي . ابن الأثير : النهاية (١/١١٣) ابن منظور : لسان العرب
 (٢/٤١٠)

عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا . قَالَتْ عَائِشَةُ : وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي ^(١) مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ ، وَطَفَقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ ^(٢) تُحَارِبُ لَهَا ، فَهَلَكَتْ فِي مَنْ هَلَكَ - مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ - ^(٣) .

القضاء على الفتنة :

وبذلك انتهى حديث الإفك ، وبطل مفعولُه ، فُقِضِي على تلك الفتنة الاجتماعية التي كادت أن تذهب بوحدة المسلمين ، بل وتثير حرباً أهلية طاحنة ، فتزلزل بُنيان هذا الدِّين الوليد . وما قصدتْ عُصْبَةُ النِّفَاقِ من تضخيم حديث الإفك وإشاعته ؛ إلا تفريق كلمة المسلمين ؛ بإثارة النزاعات بينهم ، لأن هذه العُصْبَةُ تعلم أن إشاعة مثل هذا الحديث الخطير سيكون مَثَارَ جَدَلٍ واختلاف بين المسلمين ، يصل بهم إلى درجة التلاحى ، وإثارة التَّعَرَاتِ القديمة ؛ مما يكون سبباً في إثارة حرب قبلية بين الخصمين القديمين العنيدين (الأوس والخزرج)

لقد كاد ذلك يحدث فعلاً ؛ وتلك هي الغاية الكبرى التي هدَفَ إلى تحقيقها حِزْبُ النِّفَاقِ ، الذي حمل لواء حديث الإفك ، وقام بطرقٍ مدروسةٍ وملتويةٍ باشاعته . فباعثُ الحديث ، هو باعثٌ سياسي ذو مَرَامٍ بعيدةٍ . ويكفي لتأكيد ما نقول : أن مُطْلَقَ شرارة الفتنة هو رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ، الذي لا يزال - منذ وَطِئَتْ قَدَمَا

^(١) أي : تُعاليني . من السمو ؛ وهو : الارتفاع ، والعلو . أي : تطلب العلو والرفعة ، والحظوة عند النبي ﷺ ما أطلب ، وتعتقد أن الذي لها عنده مثل الذي لي عنده . ابن الأثير : النهاية (٤٠٥/٢) ابن حجر : فتح الباري (٤٧٦/٨)

^(٢) الأَسَدِيَّة ، كانت زوج مصعب بن عمير ﷺ ، فقتل عنها يوم أحد ، فتزوجها بعده طلحة بن عبيد الله ﷺ . شهدت أُحُدًا ، فكانت تسقي الجرحى وتداويهم . ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢٤١/٨) ابن عبد البر : الاستيعاب (١٨١٣/٤) ابن حجر : الإصابة (٢٧٥ /٤)

^(٣) البخاري : الصحيح (١٥٢١/٤) حديث رقم (٣٩١٠) مسلم : الصحيح (٢١٢٩/٤) حديث رقم (٢٧٧٠) ابن حبان : الصحيح (٢٢/١٠) حديث رقم (٤٢١٢) واللفظ لمسلم .

رسول الله ﷺ المدينة المنورة- يَحِيكُ الدسائس ، وينظّم المؤامرات ضد هذا النبي الكريم ﷺ ، وضد الدين القيم الذي جاء به .

حكمة النبي ﷺ في مواجهة الحدث :

ما كان للنبي ﷺ أمام هذا الحدث العظيم إلا أن يصبر ؛ باحثاً عن حقيقة الخبر ، مستشيراً أصحابه حين تأخر نزول الوحي في فراق أهله .

إنها حكمة النبوة في مواجهة ما حدث بروية . كما طلب النبي ﷺ من المسلمين أن يعذروه من عبد الله بن أبي بن سلول ، قائلاً وهو على المنبر : (يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل بلغ أذاه في أهل بيتي ، فوالله ما علمت على أهل بيتي إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي) فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : "يا رسول الله ، أنا أعذرك منه ؛ إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج ، أمرتنا ففعلنا فيه أمرك" .

ولعل ما رآه النبي ﷺ من ثناء أسامة بن زيد ؓ ، وإصرار الجارية بريرة ؓ على تزكيتها -وهي أخبئ الناس بها- علاوة على تزكية زينب بنت جحش ، الصومامة القوامة ، الورعة ؓ = هو الذي شجع النبي ﷺ أن يقوم فيستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول .

إن مثل هذه الخطوات التي اتخذها رسول الله ﷺ لتوحي بعظم آثار هذه الإشاعة؛ سواءً ما ظهر منها أو ما خفي ، وما علق في النفوس منها . وما أثارته في القلوب من بلبلة ، واضطراب بين المسلمين ؛ كان -ولا شك- أكبر ، وأعظم .

جاءت فتنة الإفك منطوية على حكمة إلهية ، استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ ، وإظهارها صافية متميزة على ما قد يلتبس بها .

فلو كان الوحي أمراً ذاتياً غير منفصلٍ عن شخصية النبي ﷺ ، لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة بكلِّ أبعادها شهراً كاملاً .

إقامة الحد على المفترين منهجاً نبوياً حكيماً للقضاء على الفتنة :
بعد نزول القرآن بتبرئة أم المؤمنين عائشة ؓ أُجْرِي تحقيقٌ مع الذين كان لهم دورٌ في إشاعة حديث الإفك ، فأقيم الحدُّ على رجلين وامرأة ، وهم : حسان بن ثابت^(١) ، ومسطح بن أثانة ، وحمنة بنت جحش . وقد أُقيم الحدُّ على هؤلاء الثلاثة ، ثمانين جلدَةً ، وجُلِدَ كُلُّ واحدٍ منهم .

✽ قالت عائشة رضي الله عنها : "لما نزل عُذْرِي ، قام رسول الله ﷺ على المنبر ، فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أمرَ برجلين وامرأةً فُضِرْبُوا حَدَّهُمْ"^(٢) .

✽ وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها : "فأمر برجلين وامرأةً ممن تكلم بالفاحشة : حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثانة ، وحمنة بنت جحش"^(٣) .

فهذه الأحاديث صريحة بأن الذين أُقيم عليهم الحد ثلاثة ، وليس فيها ذكْرٌ لعبد الله بن أبي بن سلول .

✽ قال ابن القيم : "أقيم الحدُّ عليهم جميعاً ، إلا عبد الله بن أبي"^(١) .

(١) الأنصاري النجاري ، شاعر رسول الله ﷺ . عاش مائة وعشرين سنة ، ومات قبل سنة (٤٤٠هـ) يُنظَرُ : ابن عبد البر : الاستيعاب (٢٥١/١) ابن حجر : الإصابة (٣٢٦/١)

(٢) الترمذي : السنن (٣٣٦/٥) حديث رقم (٣١٨١)

(٣) أبو داود : السنن (١٦٢/٤) حديث رقم (٤٤٧٤) ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ) السنن ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٨٧٥/٢) حديث رقم (٢٥٦٧) (بيروت ، دار الفكر ، د.ت) المباركفوري ، محمد بن عبد الرحمن (ت ١٣٥٣هـ) ، تحفة الأحوذِي شرح سنن الترمذي (٢٧/٩) (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت) العظيم آبادي ، محمد شمس الحق ، عون المعبود شرح سنن أبي داود (١١٣/١٢) (ط ٢ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٥هـ)

وقد قيل في تعليل عدم إقامة الحدّ على عبد الله بن أبي بن سلول ، أنّه لم يصرّح بالقذف ؛ بل كان يجمع الحديث ، ويستخرجه بالبحث عنه .

وممن قال بذلك القاضي عياض ؛ كما ذكر ابن حجر^(٢) .

وقد قيل : إنّ النبي ﷺ ترك حدّه لمصلحةٍ أعظم من إقامته ، كما ترك قتله -مع ظهور نفاقه- خشيةً من وقوع الفتنة بسببه ؛ لأنّه مطاعٌ في قومه^(٣) .

لكن القول الراجح : أنّه أُقيم عليه الحدُّ كغيره ممن صرّح بالإفك . وما يدلّ على ذلك : ما أخرجه الطبراني عن سعيد بن جبير^(٤) ، قال : "جَلَدَ النَّبِيُّ ﷺ حَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي ، وَمِسْطَحًا ، وَحِمْنَةَ بِنْتَ جَحْشٍ ؛ كُلٌّ وَاحِدٌ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، فِي قَذْفِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، ثُمَّ تَابُوا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ غَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْمُنَافِقِينَ ، مَاتَ عَلَى نِفَاقِهِ"^(٥) .

الظاهر أن هذا القول هو الأرجح ؛ لأسبابٍ منها :

ثبت في الحديث الذي أخرجه أصحاب السنن أنّ النبي ﷺ أقام الحدّ على الثلاثة المذكورين ، ولا يمكن شرعاً أن يقيم الحدّ على بعض القذفة ، ويترك البعض الآخر .

(١) زاد المعاد (١١٤/٢)

(٢) فتح الباري (٤٨١/٨)

(٣) م.ن (٤٨١/٨)

(٤) الوالبي ، مولاهم ، الكوفي ، الفقيه ، أحد الأعلام . سمع ابن عباس رضي الله عنهما ، قتله الحجاج سنة (٧٦هـ) ، الذهبي : تذكرة الحفاظ (٧٦/١)

(٥) الطبراني : المعجم الكبير (١٥٢/٢٣) حديث رقم (٢٢٨) ابن حجر : فتح الباري (٤٨١/٨)

أما القول بأن النبي ﷺ ترك إقامة الحد على عبد الله بن أبي بن سلول ؛ لأنه مُطاعٌ في قومه ، فربما حصل بسبب ذلك فتنة . فهو مردودٌ ؛ لأنه إما أن يكون كافراً ، فيجب قتله ردةً ؛ لإعلانه الكُفْر ، ولن يثورَ لِقْتله أحدٌ ؛ لأنه مُرتدٌ . وإما أن يكون مُظهراً للإسلام ؛ فلا بد من إقامة الحد عليه إذا ارتكب جريمةً ؛ كغيره من المسلمين ، ولن يثور لذلك ثائرٌ . وقد كان عبد الله ابن أبي بن سلول ممن يُظهر الإسلام ؛ نفاقاً . لذلك لم يقتله النبي ﷺ على الرغم من ظهور أمارات الكفر عليه ، واقتناع النبي ﷺ بذلك ؛ حتى لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه . كما سبق بيانه .

أما أن يترك إقامة الحد عليه ؛ خوفاً من قومه = فهذا ما لا يمكن وقوعه ؛ لأن كونه مُظهراً للإيمان يستلزم إقامة الحد عليه إذا عصى . ثم ؛ من هم قومه الذين سيثورون له ؟! أليسوا من المؤمنين ؟! وهل يثور المؤمنون إذا أُقيم حدُّ الله على واحدٍ منهم بحقٍ ؛ وإن كان شريفاً فيهم ؟! هذا ما لا يمكن وقوعه ألَبَتَهُ من مؤمن حقاً .

أما ترك قتله مع ظهور نفاقه ؛ فإنه يختلف عن هذا ، لأنه يُظهر الإيمان ، فحقنَ بذلك دمه ، وليس هناك سبب ظاهرٌ يستوجب قتله .

والرسول ﷺ هو أول مَنْ أنكر على الأمم السابقة إقامة الحد على ضعفائهم ، وترك إقامة على أشrafهم . ففي حادثة المرأة المخزومية التي سرقت ؛ قال النبي ﷺ : (أيها الناس ، إنما أهلك مَنْ كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وإيْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطع محمدٌ يدها)^(١)

فكيف ينكر النبي ﷺ شيئاً ثم يرتكبه ؟، هذا ما لا يمكن حدوثه ، ولا يليق بمقام النبوة !

(١) البخاري : الصحيح (١٢٨٢/٣) حديث رقم (٣٢٨٨) مسلم : الصحيح (١٣١٥/٣) حديث رقم (١٦٨٨) ابن حبان : الصحيح (٢٤٨/١٠) حديث رقم (٤٤٠٢)

أهم الآداب والأحكام التي تؤخذ من محنة الإفك

أولاً : تبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها من الإفك ؛ بقرآن يتلى إلى آخر الزمان، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

ثانياً : تكذيب القائلين بالإفك ، قال تعالى : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

ثالثاً : النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

رابعاً : غيرة الله ﷻ على عباده المؤمنين الصادقين ، ودفاعه عنهم ، وتهديده لمن يرميهم بالفحش ، ولعنهم في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

النور: ٢٣ - ٢٥ .

قال صاحب الكشاف عند تفسير هذه الآيات : "ولو فليت القرآن كله ، وفتشت عما أوعد العصاة ؛ لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد ، والعتاب البليغ ، والزجر العنيف ، واستعظام ما ارتكب من ذلك ، واستفطاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه على طرق مختلفة ، وأساليب مفتتة ؛ كل واحد منها كافٍ في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثلاث لكفى بها ؛ حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً ، وتوعدهم

بالعذاب العظيم في الآخرة ، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيهم جزاءهم الحقَّ الواجب ؛ الذي هم أهلُه" (١).

خامساً : بيانُ سنةٍ من سنن الله الجارية في الكون ، وهي : أن الطيبين يجعلهم الله من نصيب الطيبات . والطيبات يجعلهم الله من نصيب الطيبين ، قال تعالى : ﴿ الْحَيْثُ لِلْحَيْثِ وَالْحَيْثُ لِلْحَيْثِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ النور: ٢٦ .

سادساً : بين الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء المشيعة لهذه التهمة الباطلة لم يعتمدوا في اتهامهم على أصلٍ معتبر شرعاً ، حيث قال تعالى : ﴿ تَوَلَّآ جَاءُو عَلَيَّ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ ﴾ أي : هلا أحضروا في اتهامهم هذا أربعة شهداء ممن تُرضى شهادتهم ؛ يشهدون أنهم رأوا الجريمة ! فإذ لم يأتوا بالشهداء - كما هو الحال في أهل الإفك - فأولئك في حكم الله وشريعته هم الكاذبون ، الذين بلغوا من الكذب حداً بالغاً ؛ كأن غيره من الكذب لا شيء معه .

سابعاً : نظراً لخطورة هذا الأمر ، أرشد الله المؤمنين الذين لم ينكروا خبر الإفك إلى الواجب الشرعي عليهم إزاء هذا الخبر الكاذب ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ النور: ١٦ أي : هلا إذ سمعتم خبر الإفك أنكرتموه من أول وهلة ، وقلتم : ما يصح لنا ، ولا يستقيم مع أصول ديننا أن ننطق بهذا الخبر الكاذب !

(١) الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ) ، الكشاف عن حقائق التنزيل (٣/٣٢٣) (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)

ثامناً : كان موقف الصحابة ﷺ من قصة الإفك موقفاً كريماً نزيهاً ، وقد رويت عن بعضهم كلمات في تبرئة أم المؤمنين ﷺ تدلّ على ورعهم ، وقوة إيمانهم ، كما تدلّ على نزاهة عائشة ﷺ ومقدار قيمتها في نفوس المؤمنين .

ومن هؤلاء : أبو أيوب الأنصاري ^(١) . فقد ذكرت عائشة ﷺ ، قالت : " وكانت أم أيوب الأنصارية ^(٢) قالت لأبي أيوب : أما سمعت ما يتحدث الناس به ؟ ، فحدثته بقول أهل الإفك ، فقال : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ^(٣) . وفي رواية : أن أم أيوب قالت : ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذب . أكنت يا أم أيوب فاعلةً ؟ ، قالت : لا ، والله ، ما كنت فاعلةً . قال : فعائشة - والله - خيرٌ منك ^(٤) .

ومنهم : سعد بن معاذ ﷺ ، فعن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾

قال : يعني : ألا قلت مثل ما قال سعد بن معاذ الأنصاري في أمر عائشة ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(٥) .

^(١) خالد بن زيد بن كليب الأنصاري النجاري ، صحابي جليل ، كثير المناقب ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقد نزل النبي ﷺ في داره مقدمه المدينة . مات بأرض الروم مجاهداً سنة (٥٥٠هـ) ، ابن خياط : الطبقات (ص ٨٩) يُنظر : ابن عبد البر : الاستيعاب (٢/ ٤٢٤) ابن حجر : الإصابة (١/ ٤٠٥)

^(٢) بنت قيس بن عمرو بن امرئ القيس الخزرجية الأنصارية ، امرأة أبي أيوب الصحابي المشهور . يُنظر : ابن حجر : الإصابة (٤/ ٤٣٤)

^(٣) الطبراني : المعجم الكبير (٢٣/ ٧٦) ابن حجر : فتح الباري (٨/ ٤٧٠)

^(٤) ابن هشام : السيرة النبوية (٤/ ٢٦٨) الطبري : التاريخ (٢/ ١١٤) ابن كثير : التفسير (٣/ ٢٧٣)

^(٥) الطبراني : المعجم الكبير (٢٣/ ١٤٤)

ومنهم : زينب بنت جحش ﷺ ؛ فإنها أثت على عائشة ﷺ ، ولم تتهمها حين استشارها رسول الله ﷺ .

تاسعاً : ترتبت على حادثة الإفك أهمُّ الأمور . ومنها : ذلك التشريع الإلهي الحكيم المتعلق بحماية المجتمع من الفوضى والانفلات . فإنه لما كان جانب العِرض جانباً حساساً في المجتمعات التي تحافظ عليه ، أصبح يقع بسبب انتهاكها قتلٌ ، وتفكُّكٌ في الأسر وتشويةٌ للشُّمعة ؛ حتى تحطَّ بعض الأسر العريقة في الشرف والعلو إلى الحضيض . فأراد الله ﷻ بتقديره وقوع ذلك الحدث أن يضرب المثل للمؤمنين بأن الاتهام الكاذب لم يبرأ منه حتى سيد البشر ﷺ ، وأسرة أبي بكر الصديق ﷺ أفضل الناس بعد النبي ﷺ . حتى لا يتسرع المؤمنون في مواجهة هذا الحدث إذا ما وقعوا فيه ، فيتصرفوا تصرفاً شائناً ؛ بالقتل ، أو الطلاق -بالنسبة لمن وقعت عليهم التهمة- ، أو بإشاعة الخبر ، والظنون السيئة -لمن سمع به من المؤمنين- .

فقدّر الله ﷻ وقوع هذا الحدث ليتحمّل من أصيب بمثل ذلك بالصبر ، ويتصرف بحكمة وروية ، وليظنّ المؤمنون بإخوانهم خيراً ، فيكفُّوا عن الخوض في مثل هذه الأمور التي تشتت بعض النفوس الخوض فيها ، حتى يستقيم المجتمع الإسلامي ، ويتطهّر من إشاعة مثل هذه الأخبار السيئة ، التي تحطم كيانه الأخلاقي .

عاشراً : بيّن الله ﷻ في محنة الإفك : كيف يأتي بالفرج والسرور بعد الشدة والبلاء . فلما تحيرت الصديقة وأبوها وأمها ﷺ بماذا يجيبون ، أتاهم الله ﷻ بما تقرّ به أعينهم من الوحي الصادق على رسول الله ﷻ ، فنزل كالغيث الذي جاء بعد القحط والشدة^(١) .

^(١) فريد ، أحمد ، وقفات تربوية مع السيرة النبوية (ص ٢٨٧) ، (ط ٧ ، الرياض ، دار طيبة ، ١٤٢٤هـ)

قال الله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فإذا كان فيها شدة وألم ، ففيها من الدروس والعبر والتربية للأمة ما يفوق هذا الشرِّ بكثيرٍ . فكم ارتفعت عائشة ﷺ حين نزل ببراءتها قرآنٌ يُتلى إلى يوم القيامة !؟

حادي عشر : قال الزمخشري في تفسير الآية السابقة : "ومعنى كونه خيراً لهم : أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم ، لأنه كان بلاءً مبيناً ومحنة ظاهرة ، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ، بما هو تعظيم لشأن النبي ﷺ وتسلية له ، وتنزيه لأم المؤمنين ﷺ وتطهير لأهل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه ، وعدة ألطاف السامعين والتالين إلى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأملها" (١) .

ثاني عشر : ومن هذه الأحكام ما نقله القرطبي عن الإمام مالك رحمه الله قال : " من سب أبا بكر قتل ومن سب عمر قتل ، ومن سب عائشة قُتل ، لأن الله تعالى يقول ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ١٧) ، فمن سب عائشة خالف القرآن ، ومن خالف القرآن قُتل ، وكل من سبها بما برأها الله به مُكذِّب لله ، ومن كذَّب الله فهو كافر بالإجماع" (٢) .

ثالث عشر : وحيث كان النبي ﷺ أطيب الطيبين وخيرة الأولين ولآخرين ، تبين كون الصديقة ﷺ من أطيب الطيبات بالضرورة ، واتضح بطلان ما قيل في حقها من قبل المنافقين والباطنيين من خرافات ، لأن الله تعالى الذي برأها من فوق سبع سموات

(١) الكشاف (٣/٢١٨.٢١٧)

(٢) التفسير : (٦/٥٠٤) ، وينظر : الهيتمي : الصواعق المحرقة ص (٣٨٤)

يقول ﴿ الْحَيْثُ لِلْحَيْثِينَ وَالْحَيْثُوتُ لِلْحَيْثِثِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ النور: ٢٦ وهو : الجنة (١) .

قال ابن كثير : أي : ما كان ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة ، لأنه أطيّب من كل طيب البشر . ولو كانت خبيثة لما صلحت له شرعاً ، ولا قدراً . ولهذا قال تعالى ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾

أي : عما يقول أهل الإفك ، والعدوان (٢) .

رابع عشر : أزواج النبي ﷺ هنّ من أهل بيته ، كما دل عليه سياق آية الأحزاب ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ الأحزاب: ٣٣

ومذهب أهل السنة والجماعة أنهم يتولّون جميع أزواج النبي ﷺ ، ويترضون عنهنّ ، ويؤمنون أنهنّ أزواجه في الدنيا والآخرة ، وأنهنّ أمهات المؤمنين في الاحترام ، والتعظيم ، وتحريم نكاحهنّ ، وأنهنّ مطهّرات مبرّات من كل سوء . ويتبرّؤون ممّن آذاهنّ ، أو سبهنّ . ويحرّمون الطعن فيهنّ ، وقدفهنّ ؛ خصوصاً خديجة ﷺ أم أكثر أولاده ، وأول من آمن به وعاضده في أمره ، وكان لها من المنزلة العالية .

وكذلك الصّديقة بنت الصديق ﷺ التي قال فيها النبي ﷺ : (كَمُلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ ، وَأَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ

(١) القاسمي : محاسن التأويل (١٠٢/١٢)

(٢) التفسير (٣٧٨/٣)

على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام^(١)

ومن زوجاته :

- حفصة أم المؤمنين بنت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ .
- أم سلمة . ذات الهجرتين التي هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة .
- زينب أم المؤمنين ، التي زوجهُ الله إياها من فوق سبع سماوات .
- صفية بنت حيي . من ولد هارون بن عمران ؑ .
- جويرية بنت الحارث . زعيم بني المصطلق .
- سودة بنت زمعة . التي نزلت بسببها آية الحجاب .
- أمّ حبيبة بنت أبي سفيان . زعيم قريش . التي هاجرت الهجرتين أيضاً .
- ميمونة بنت الحارث .
- رضي الله عنهن أجمعين .

خامس عشر : وأخيراً ؛ بين الله تعالى فظاعة هذا العمل ، وحذر عباده المؤمنين من أن يعودوا لمثل هذا التصرف ، فينتهكون أعراض إخوانهم المؤمنين بلا بينة ، ولا برهان : ﴿ يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

^(١) البخاري : الصحيح (١٢٥٢/٣) حديث رقم (٣٥٥٨) مسلم : الصحيح (١٨٨٦/٤) حديث رقم (٢٤٣١) النسائي : السنن الكبرى (١٦١/٤) حديث رقم (٦٦٩٢) ابن ماجه : السنن (١٠٩١/٢) حديث رقم (٣٢٨٠) من حديث أبي موسى الأشعري ؓ .

فضائل السيدة عائشة رضي الله عنها الصديقة، الصادقة، المصدقة، ابنة الصديق الأكبر رضي الله عنه، وزوجة الصادق المصدق وحببيه حبيب الله صلى الله عليه وسلم:

حفلت كتب الحديث النبوي الشريف بطائفة طيبة من فضائل أم المؤمنين ، الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها . كيف لا وقد نزل الوحي من فوق سبع سموات ببرائتها وطهارتها مما رماها به المنافقون !؟

١- عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : ((بعثني رسول الله ﷺ إلى جيش ذات السلاسل ، قال : فأتيته فقلت : يا رسول الله ! أيّ الناس أحب إليك؟ قال : عائشة ، قلت : من الرجال؟ قال : أبوها ، إذن قال ثم؟ قال : عمر رضي الله عنه ، قال فعد رجالاً^(١) .

٢- عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : (أُرِيْتُكَ فِي الْمَنَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ ؛ جَاءَنِي بِكَ الْمَلَكُ فِي سُرْقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ ، فيقول : هذه امرأتك ، فأكشِفُ عن وجهك ، فإذا أنت هي ، فأقول : إن يكن هذا من عند الله يُمضِه)^(٢)

٣- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)^(٣)

٤- عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ يوماً : (يا عائش ، هذا جبريل يقرئك السلام) . فقلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ؛ ترى ما لا أرى^(١)

(١) صحيح البخاري ، (٣٦٢٢) ، صحيح مسلم ، (٢٣٨٤) .

(٢) البخاري : الصحيح ، (١٤١٥/٣) ، حديث رقم (٣٦٨٢) مسلم : الصحيح (١٨٨٩/٤) ، حديث رقم (٢٤٣٨)

(٣) أحمد : المسند (١٥٦/٣) حديث رقم (١٢٦١٩) البخاري : الصحيح (١٣٧٥/٣) حديث رقم (٣٥٥٩) مسلم : الصحيح (١٨٩٥/٤) حديث رقم (٢٤٤٦)

٥- عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان النَّاسُ يَتَحَرَّوْنَ بهداياهم يومَ عَاشَةَ ، فاجتمعن صواحيبي إلى أم سلمة ، فقُلن : يا أم سلمة ، إنَّ النَّاسَ يَتَحَرَّوْنَ بهداياهم يومَ عَاشَةَ ، وإنا نريد من الخير كما تريد عائشةُ ، فقولِي لرسول الله ﷺ يأمرُ النَّاسَ ، فيُهدُونِ إليه أينما كان . فذكرتُ ذلكُ أمُّ سلمة ، فأعرضَ عنها ، ثم عاد إليها ، فأعدت الكلام ، فقالت : يا رسول الله ، إن صواحيبي قد ذكزن أنَّ النَّاسَ يَتَحَرَّوْنَ بهداياهم يومَ عَاشَةَ ، فَأَمُرُ النَّاسَ أَنْ يُهدُوا أينما كنت . فلما كانت الثالثة ، قالت ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : (يا أم سلمة ، لا تؤذيني في عائشة ، فإنه ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها)^(٢)

٦- عن ذكوان مولى عائشة رضي الله عنها ، قال : استأذن ابنُ عباس رضي الله عنهما على عائشة رضي الله عنها ، وهي تموت فسلم ، ثم جلس ، فقال : "أبشري يا أم المؤمنين كنت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ، ولم يكن ليحب إلا طيباً ، وأنزل الله ﷻ براءتك من فوق سبع سموات ، فليس في الأرض مسجداً إلا وهو يتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار ، وسقطت فلادتك ليلة الأبناء ، فاحتبس النبي ﷺ في المنزل والناس معه في ابتغائها ؛ حتى أصبح القوم وليسوا على ماء ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فكان ذلك رخصة للناس عامة في سبيلك ، فوالله إنك لمباركة" ^(٣) .

(١) أحمد : المسند (٢٠٨/٦) حديث رقم (٢٥٧٨٧) البخاري : الصحيح (١٣٧٤/٣) حديث رقم (٣٥٥٧) الترمذي : السنن (٥٥/٥) ، (٢٦٩٣)

(٢) أحمد : المسند (٢٩٣/٦) حديث رقم (٢٦٥٥٥) البخاري : الصحيح (١٣٧٦/٣) (٣٥٦٤) مسلم : الصحيح (١٨٩١/٤) حديث رقم (٢٤٤١) الترمذي : السنن (٧٠٣/٥) حديث رقم (٣٨٧٩) النسائي : السنن الكبرى (٢٨٤/٥) حديث رقم (٨٨٩٨)

(٣) أحمد : فضائل الصحابة (٨٦٨/٢) حديث رقم (١٦٣٩)

٧- عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن كان رسول الله ﷺ ليتعذر في مرضه : أين أنا اليوم ؟ أين أنا غداً ؟ استبطاءً ليوم عائشة . فلما كان يومي ، قبضه الله بين سحري ونحري ، ودُفِن في بيتي ^(١) .

٨- عن عائشة رضي الله عنها قالت : "قبض رسول الله ﷺ في بيتي ، وفي يومي ، وعلى صدري ، وكان آخر ما أصاب من الدنيا ريقِي ، مضغْتُ له السواك ، فناولته إياه" ^(٢) .

٩- قال حسان بن ثابت ﷺ يعتذر إلى عائشة رضي الله عنها ويمدحها:

حَصان رزان ، ما تزن بريية	وتصبح غرثي من لحوم الغوافل
عقيلة حي من لؤي بن غالب	كرام المساعي مجدهم غير زائل
مهذبة ، قد طيب الله خيمها	وطهرها من كل سوء وباطل
لئن كان ما قد قيل عني قلته	فلا رفعت سوطي إلى أناملي
وكيف ؟ وودي ما حيثُ ونصرتي	لآل رسول الله زين المحافل

وكانت عائشة رضي الله عنها لا ترضى أن يُذكر حسان بشيء يكرهه ، وتقول :
إنه الذي يقول :

فإنَّ أبي ، ووالدتي ، وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

❁ ١٠- وذكر ابن القيم ^(١) - رحمه الله تعالى - كلامًا نفيسًا في جلاء الأفهام ،
موضحًا فضائل وخصائص أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فقال :

^(١) البخاري : الصحيح (٤٦٨/١) حديث رقم (١٣٢٣) مسلم : الصحيح (٤/١٨٩٣) حديث رقم (٢٤٤٣)

^(٢) أحمد : فضائل الصحابة (٨٧٧/٢) حديث رقم (١٦٤٩)

((أَنَّهَا كَانَتْ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكَرٍّ غَيْرِهَا ، وَأَنَّ الْوَحْيَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ فِي لِحَافِهَا ، وَأَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِ آيَةُ التَّخْيِيرِ بِدَأْبِهَا ، فَخَيَّرَهَا فَاخْتَارَتْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاسْتَنَّ بِهَا بَقِيَّةَ أَزْوَاجِهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ بَرَّأَهَا مِمَّا رَمَاهَا بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ ، وَأَنْزَلَ فِي عِزِّهَا وَحْيًا يُتْلَى فِي مَحَارِبِ الْمُسْلِمِينَ وَصَلَوَاتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَشَهِدَ لَهَا بِأَنَّهَا مِنْ الطَّيِّبَاتِ ، وَوَعَدَهَا الْمَغْفِرَةَ وَالرِّزْقَ الْكَرِيمَ ، وَمَعَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الْعَلِيَّةِ تَتَوَاضَعُ لِلَّهِ وَتَقُولُ : ((وَلِشَأْنِي فِي نَفْسِي أَهْوَنُ مِنْ أَنْ يُنَزَلَ فِيَّ قُرْآنًا يُتْلَى)). وَأَنَّ أَكْبَرَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ مِنَ الدِّينِ اسْتَفْتَوْهَا ، فَيَجِدُونَ عِلْمَهُ عِنْدَهَا ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تُوْفِيَ فِي بَيْتِهَا ، وَفِي يَوْمِهَا ، وَبَيْنَ سِحْرِهَا وَنَحْرِهَا ، وَدُفِنَ فِي بَيْتِهَا ، وَأَنَّ الْمَلِكَ أَرَى صُورَتَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ ، فَقَالَ ﷺ : ((إِنْ يَكُنْ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَمْضِي)) ، وَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَيُتَحَفُّونَهُ بِمَا يُحِبُّ فِي مَنْزِلِ أَحَبِّ نِسَائِهِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ .

(١) ابن القيم ، جلاء الأفهام ، (١/٢٢٧-٢٣٨) .

المطلب الثاني : الشعر الإعلامي :

استخدم المنافقون الشعر كأسلوب من أساليبهم الإعلامية في محاربة الإسلام، متميزين في شعرهم ضد الإسلام وأهله ، وسوء الأدب مع النبي ﷺ وأصحابه ﷺ ، وإثارة الفتن والنعرات بين أفراد المجتمع المسلم ، وهذا كله من طبيعتهم التي كانوا عليها في وسط المجتمع المسلم في المدينة المنورة .

لقد استخدم المنافقون -رجالاً ونساءً- الشعر ؛ ليؤذوا به رسول الله ﷺ أيما إيذاء ، وحاربوه في سلمه وحزبه . ومن هؤلاء :

١- عصماء بنت مروان بن أمية بن زيد اليهودية :

نافقت بعد مقتل أبو عفك^(١) ، فكانت تقول الشعر تؤذي به النبي ﷺ ، وتعيب الإسلام ، وتحرض عليه . وكانت شاعرة . ومن شعرها^(٢) :

باست بني مالك والنبيت	وعوف وباست بني الخزرج
أطعتم أتاوي من غيركم	فلا من مرادٍ ولا مذحج
ترجونه بعد قتل الرؤوس	كما يُرتجى مرق المنضج
ألا أنف يُتغى عزة	فيقطع من أمل المرتجى

وهذه الأبيات تحكي حقد أعداء الإسلام -ومنهم المنافقون- على الإسلام ، ورسول الله ﷺ ، والمؤمنين .

^(١) يأتي الكلام عنه لاحقاً .

^(٢) ابن هشام : السيرة النبوية (٤٥/٦)؛ الواقدي : المغازي (٢٧٣/١) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢٧/٢) ابن عبد البر : الاستيعاب (١٢١٨/٣)

فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك : (لا أضّر من ابنة مروان) فسمع ذلك من قول رسول الله ﷺ عمير بن عدي الخطمي^(١) ، وهو عنده ، فلما أمسى من تلك الليلة سرى عليها في بيتها فقتلها ، ثم أصبح مع رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إني قد قتلتها ، فقال : (نصرت الله ورسوله يا عمير)، فقال : هل علي شيء من شأنها يا رسول الله ؟ فقال : (لا ينتطح فيها عنزان)^(٢)

٢- بشر بن أبيرق الظفري :

كان من الشعراء الذين قالوا الشعر في هجاء الصحابة ﷺ ، وكان في شعره كثير التحريض في مقاومة المسلمين ؛ حتى عُرف عنه أنه ما من قضية تُذكر وفيها إساءة إلى الإسلام والصحابة إلا وتُنسب إليه . وفي هذا يقول^(٣):

أو كلما قال الرجال قصيدة أصموا وقالوا : ابن أبيرق قالها
متعصبين كأنني أخشاهم جدع الإله أنوفهم فأمالها

٣- أبو عفك المنافق^(١) :

^(١) صحابي جليل ، كان رسول الله ﷺ يزوره في بني واقف ، وكان أعمى فسماه رسول الله ﷺ بالبصير . مات في حياة النبي ﷺ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢٧/٢) ابن حجر : الإصابة (٣٣/٣)

^(٢) القضاعي ، محمد بن سلامة بن جعفر (ت ٤٥٤هـ) ، مسند الشهاب، تحقيق حمدي عبد المجيد (٤٦/٢) (ط٢، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦م)

^(٣) البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله (٢٧٨/١) (مصر ، دار المعارف ، ١٩٥٩م) ابن عساكر : تاريخ دمشق (٢٧١/٤٩) الثعالبي ، عبد الرحمن بن محمد .

(ت ٨٧٥هـ) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، المعروف بـ (تفسير الثعالبي) ، تحقيق عبد الفتاح أبو سنة وآخرين (٢٩٥/٢) (ط١، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٨هـ) ،

وكان من المنافقين الذين آذوا ، وحرّضوا ضد الإسلام بشعرهم . وكان قد نجّم نفاقه حين قتل رسول الله ﷺ الحارث بن سويد بن الصامت ، فقال :

لقد عشت وما إن أرى من الناس داراً ولا مجمعاً
أبر عهداً وأوفى لمن يعاقد فيهم إذا دعا
من أولاد قليلة في جمعهم يهد الجبال ولم يخضعوا
فصدعهم راكب جاءهم حلال حرام لستي معاً
فلو أن بالعز صدقتم أو المملك تابعتم تبعاً

فالأبيات صورةٌ لبعض ما يكنه المنافقون في صدورهم من حقدٍ وحسدٍ .

فقال رسول الله ﷺ عندما سمع هذه الأبيات : (من لي بهذا الخبيث ؟) فخرج سالم بن عمير^(٢) أخو عمرو بن عوف ، فقتله .

فقال أمانة المريديّة^(٣) :

أتكذب دين الله والمرء أحمدا لعمر الذي أمنك أن بس ما يُمني

^(١) من بني عمرو بن عوف ، كان شيخاً كبيراً قد نجم نفاقه ، وبلغ المائة والعشرين حين مقدم النبي ﷺ المدينة . حرّض على عداوة المسلمين ، وقال شعره ضدهم . قتله سالم بن عمير ليلاً في شوال على رأس عشرين شهراً من مقدم النبي ﷺ . الواقدي : المغازي (١/١٧٤-١٧٥) ابن هشام : السيرة النبوية (٤٨/٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢/٢٨)

^(٢) شهد العقبة وبدراً وما بعدها من المشاهد ، ومات في خلافة معاوية رضي الله عنه . ابن سعد : الطبقات الكبرى

(٤٨٠/٣) ابن حجر : الإصابة (٥/٢)

^(٣) ذكرها ابن حجر في القسم الأول من الصحابة ، ولم يترجم لها أكثر من قصة قتل أبي عفاك ، وقولها الشعر في حقه . الإصابة (٤/٢٣٨)

حباك حنيف آخر الدهر طعنة أبا عفك خذها على كبر السنِّ

إن حكمة النبوة التي أمرت بقتل هذا المنافق (أبو عفك) والمنافقة (عصماء بنت مروان) إنما جاء اتقاءً للفتنة ، ومنعاً للفرقة والانقسام ، وتجنباً لاضطرابات قد تحدث . ولعل الفرصة كانت سانحةً للتخلص من هذا المنافق ، وإسكات هذه المنافقة .

ونحن ندرك جيداً خطورة الشعر عند العرب ، فكم حدثنا التاريخ أن بيتاً واحداً من الشعر أو بيتين كثيراً ما تسبباً في نكبة أو نكبات ؛ لذلك كان العلاج النبوي الحاسم هو القتل ؛ لكي لا تكون فتنةً كبيرة يُنكب بها مجتمع المدينة . ومن هنا لأن أعطى النبي ﷺ القرار بالقتل في الوقت المناسب . وهذه هي قمة الحكمة ، التي تعني فِعْلَ ما ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي .

المبحث الخامس

منهج المنافقين في نقض العهود ، والتحالف مع المشركين

كشفت غزوة الأحزاب^(١) حقيقة صدق إيمان المؤمنين ، وحقيقة كذب وادعاء المنافقين . ففي غزوة الأحزاب ظهر إرجاف المنافقين ، ونقضهم للعهود واضحاً .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ [الأحزاب: ١٥] فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب لإثابة المؤمنين ، وتعذيب المنافقين ، أو يتوب عليهم : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٤]

وسنة الله في عباده المؤمنين هي ابتلاؤهم بأعدائهم ؛ لتمحيصهم . قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢]

فكانت حال المؤمنين في الحصار شديدة ، وزاد من شدتها نقض المنافقين ويهود بني قريظة العهد ، وتحالفهم مع المشركين .

^(١) وقعت هذه الغزوة في شوال من السنة الخامسة للهجرة ، وسميت هذه الغزوة بغزوة الخندق ، لأجل الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة ، وسميت بغزوة الأحزاب لاجتماع المشركين والمنافقين واليهود على غزو المسلمين ، وقد أنزل الله تعالى صدر سورة الأحزاب وكانت مدة الحصار نحواً من عشرين يوماً ، ابن هشام : السيرة النبوية (٤/١٧٠) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢/٦٥) الطبري : التاريخ (٢/٩٠)

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلِيلًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ الأَحْزَاب: ٩ - ١١

والذي يهمننا هنا هو : إبراز دور المنافقين في هذه الغزوة .

❖ مواقف المنافقين أثناء حصار الأحزاب^(١) :

الموقف الأول :

بدأ بعض المنافقين يتسللون ، ويرجعون إلى المدينة ، بعد إظهار الثاقل والسامة، وشكك بعضهم في فكرة الخندق نفسها ، وأطلق آخرون عبارات الشيط وإشارات الوهن ؛ لترويج الشائعات ، وبثّ الفرقة . فهذا (معتب بن قشير) قال في ساعات الخوف والزلزلة - بعد أن سمع بُشريات رسول الله ﷺ بالفتح المبين لهذا الدين في أقطار الأرض- : "يَعِدُّنَا مُحَمَّدٌ أَنْ نَأْكُلَ كَنُوزَ كَسْرَى وَقَيْصَرَ ، وَأَحْدُنَا لَا يَأْمَنُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى حَاجَتِهِ ، مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا"^(٢) .

^(١) يُنظَر : كتاب (أساليب المنافقين في محاربة المسلمين في القرآن الكريم) ، للدكتور عبد الستار الجنابي .

^(٢) ابن هشام : السيرة النبوية (٥٥/٣) الطبري : التفسير (١٣١/٢١)

وطبيعة هذا القول تشي بأنه قولٌ مخنوقٌ يُقال في الخفاء ، بين مجموعة موثوقة تقبل هذا المعنى على الأقل ، ويحسب هؤلاء أن أمرهم لن يظهر ، وقولهم لن يُكشَف ؛ لكنَّ القرآنَ الكريمَ لاحَقَ مؤامراتِهِمْ ، وكَذَبَهُمْ في كلِّ جُحْرٍ يَلْتَقُونَ فيه .
الموقف الثاني :

ويتبجح آخرون بضرورة الرجوع لحماية الحُرَمَاتِ ، بأعذارٍ واهيةٍ ، فقالوا : "إن بيوتنا عورة ، وليس دارٌ من دُورِ الأنصارِ مثل دارنا ، ليس بيننا وبين غطفان^(١) أحدٌ يردُّهم . فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا ، وذرائعنا ، ونسائنا . فأذن لهم رسول الله ﷺ . فبلغ سعد بن معاذٍ لك ، فقال : يا رسول الله ، لا تأذن لهم ، إننا والله ما أصابنا وإياهم شدةٌ ، إلا صنعوا هكذا"^(٢) .

ويتحدث القرآن الكريم عن جُبنهم وهلعهم : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣]

الموقف الثالث :

أما أشدُّهم حِسَةً ، وأبْلَعُهُمْ وَضَاعَةً ، فأقوامٌ لم يكتفوا بجُبنهم وتشكيكهم في شجاعة الشرفاء ؛ بل ندبوا أنفسهم إلى جَرٍّ مَنْ يستطيعون إلى صفوف القاعدين ؛ هؤلاء

^(١) بطن عظيم متسع ، كثير الشعوب والأفخاذ ، من قيس عيلان ، من العدنانية . كانت منازلهم مما يلي وادي القرى وجبل طيء ، ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية ، كحالة ، عمر رضا ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (٨٨٨/٣) (ط ٢ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٣٨٨هـ)

^(٢) الواقدي : المغازي (٤٦٢/٢) المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) ، إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأبناء والأموال والحفدة ، صححه وشرحه : محمود محمد شاكر (٢٢٩/١) (القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ، د.ت)

هم المنافقون المعوقون : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٨) الأحزاب: ١٨ أي : لا يأتون القتال إلا إيتاءً قليلاً ، خوفاً من الموت .

فهم يخرجون مع المؤمنين ، يوهمونهم أنهم خرجوا معهم للقتال ، ولكنهم في الواقع لا يبارزون ، ولا يقاتلون ، إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه . وهذه الآية نزلت في قومٍ من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم : " ما كان محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، ولو كانوا لحمًا لآلتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، دعوا هذا الرجل فإنه هالك " (١) .

كُلُّ هذا قبل أن يأتي الموت الحقيقي ، فلما جاء كانوا كما وصفهم الله تعالى : ﴿ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (١٩) يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادؤوا في الأعراب يسألون عن أنبيائكم ولو كانوا فيكم ما قتلوا إلا قليلاً ﴿ (٢٠) الأحزاب: ١٩ - ٢٠

طارت قلوبهم من صدورهم رعباً . وهؤلاء حكّم القرآن عليهم أنهم غير مؤمنين ، وهم على استعداد أن يتركوا المدينة ومن فيها ، إذا جاء الخوف ، واشتدت المصيبة .

لقد بدأت تظهر أبعاد مؤامرة المنافقين ، وتبين أن قوى التحالف المعادي للإسلام قد قذفت إلى حدود المدينة نحواً من أربعة آلاف من أشداء قريش ، ومن عاونها من قبائل العرب ، ونحواً من ستة آلاف من قبائل غطفان ومن عاونها من قبائل العرب ، علاوة على جموع من اليهود الذين حزبوا الأحزاب ، ودبروا الغارة ، وأوقدوا الفتنة .

(١) الطبري : التفسير (١٣٩/٢١)

لقد استغلَّ الجميع الفرصة ، وأحاطوا المدينة من جوانبها ، وحاصروا المسلمين وراء الخندق الذي لم يقدرُوا على اقتحامه .

وطال الحصارُ قريباً من شهر ، حتى نزل بالمسلمين الخوف ، والجوع ، والبرد ، والبلاء .

وصوّر القرآن هذه المشاهد في تلك اللحظات الرهيبة : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

كان المتصوّر من جميع المنافقين الساكنين مع المسلمين أن يتماسكوا ، أو يتظاهروا بالتماسك في تلك اللحظات العصبية المصيرية ، ولكنهم مضوا يخذلون ويخدّرون ، ويشكّكون في كل شيء ، حتى في الوعد الصادق من الله ورسوله ﷺ :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ١٢﴾ الأحزاب: ١٢

آيات ، وعِظَاتٌ تحكي واقعة الأحزاب ، وحال المنافقين ، ومواقفهم الخيانية نحو الإسلام والمسلمين . إنها شخصية ونفسية المنافقين في كل زمان ومكان ؛ خيانة ، وتأمّر ، ووضاعة ، وتخاذل ، وشكّ فيما وعد الله به ، ونقض لما عاهدوا الله عليه . قال

تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا الْأَذْبَنَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ١٣﴾

ولكن هذا الجبن المستحکم سرعان ما يتحول إلى شجاعة مصطنعة ، وجسارة جبارة تقذف السموم من أفواه المنافقين على الصادقين العاملين ، الذين لا يرجون إلا رضا الله . ولا يكون ذلك الهجوم من المنافقين إلا بعد أن يولّي الخطر ، وينقشع الغبار . قال تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي

يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَيْتِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا
فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾

أي : إذا كان الأئمنُ تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً ، وادّعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة ، وهم يكذبون في ذلك ؛ آذوكُم بالكلام الشديد . والسَّلَقُ : الأذى . فعند الغنيمة هم أشحّ القوم ، وأبسطهم لساناً ، ووقت البأس أجبنُ قوم ، وأخوفُهم .

ومن صفات المنافقين القبيحة في الجبن والخور ، والتي ظهرت بجلاء يوم الأحزاب : أنهم لا يصدّقون بهزيمة الكفار . قال تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٢٠﴾ الأحزاب: ٢٠ أي : لم ينهزموا بما أرسل الله عليهم من الرياح والجنود ، وأنّ لهم عودةً إليهم ؛ يظنون هذا الظن لِحَوْرِهِمْ ، واضطرابهم .

إنّ المحنة هي التي تمحّض القلوب ، وتكشف ما في الصدور من إيمانٍ ، أو نفاقٍ ، أو كُفْرٍ . وقد يتزلزل المؤمن ؛ لكنه لا يفقد إيمانه . وأما المنافق المتجلبب بجلباب الإسلام ؛ فإنه حين يكشف الغطاء ، ويرى أن دولة الإيمان على وشك الزوال =يكشّفُ خبيئة نفسه ، ويظهر نتن قلبه ، ويُعلن شكّه بربه . وهؤلاء لم يؤمنوا ؛ فأحبط الله أعمالهم في الدارين .

الحذر من المنافقين :

على جماعة المسلمين أن تعلم يقيناً أنّ بعض المنافقين يمكن أن يتسلّلوا إلى في صفوف الجماعة المسلمة ، فليسوا هم بأفضل من جماعة المسلمين الأولى ، وقد تسلل بعض المنافقين في صفوفها ، مع وجود النبي ﷺ وتنزل الوحي عليه ؛ لفضحهم ، وبيان خبايا نفوسهم . فحدوثه الآن بين صفوف الجماعة المسلمة أقرب احتمالاً ، وأيسرُ

وقوعاً . فعلينا جميعاً أن نرصد المتّصّفين ببعض صفات المنافقين التي ذكرها القرآن الكريم ؛ وبخاصة في معركة الأحزاب ، حتى يحذّرهم المؤمنون ، ولا يتأثروا بإرجافهم وتخذيلهم للمؤمنين .

• **فمن صفاتهم :** استبعاد النصر لدعوة الإسلام ودعائه ، وإشاعة اليأس في النفوس ، وأنه لا جدوى من الدعوة ومن العمل للإسلام . وهم في وقت الشدائد يفرون ، وفي وقت الرخاء يدعون لأنفسهم الدعاوى الباطلة من الشجاعة والإقدام ، والحرص على الدعوة ومصالحتها .

الوطنية : من شعار المنافقين قديماً وحديثاً على حساب الأخوة الإيمانية : ومن صفاتهم وأساليبهم التي ظهرت جلية واضحة في غزوة الأحزاب هي : المناداة بالوطنية والتعصب لها ، وترك الأخوة الإيمانية ، ورابطة العقيدة الإسلامية ، ففضحهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ الأحزاب: ١٣ لتأمل هذه الإشارة اللطيفة في هذه الآية ، التي ذكرها العلامة السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره ؛ إذ قال : ((﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ ﴾ الأحزاب: ١٣ من المنافقين ، بعدما جزعوا وقلّ صبرهم صاروا أيضاً من المخذّلين ؛ فلا صبروا بأنفسهم ، ولا تركوا الناس من شرّهم . فقالت هذه الطائفة : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ الأحزاب: ١٣ يريدون (يا أهل المدينة) ، فنادوهم باسم الوطن . فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ليس له في قلوبهم قدرٌ ، وأنّ الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي ... فهذه الطائفة تخذّل عن الجهاد ، وتبين أنهم لا قوّة لهم بقتال عدوّهم ، ويأمرونهم بترك القتال . فهذه الطائفة أشرّ الطوائف وأضرّها))^(١) . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

(١) تفسير السعدي (ص ٦٢٩) .

- إنَّ المناداة بالوطنية والتعصُّب لها وترك الأخوة الإيمانية ورابطة العقيدة الإسلامية - هي بلا شكَّ من أعمال الجاهلية ، وليست من الإسلام في شيء . لأنَّ الأبوة الدينية أقوى من الأبوة الطينية^(١) .
- فعلينا أن نرصد المنافقين من صفاتهم وأقوالهم ، ونحذّر المؤمنين والدعاة والمجاهدين منهم ؛ حتى لا يتأثروا بإرجافهم وأقوالهم .

هدي النبي ﷺ في مواجهة تشكيك المنافقين وإرجافهم :

سَمَةٌ هذا المنهج : التبشير بنصر الله . فما عرف التاريخ قوَّة بشريةً أعظم من الرسول ﷺ ، ولا أقوى تأثيراً في صفوف الجيش ؛ مثل الرسول ﷺ .

لقد كان دائماً في المحنة رَجُلَهَا الأوَّل ، وبكلمات قلائل ينفخ في جنده روح الاستبسال والجهاد ويتحدّث عن النصر حين يفقد الناس أملهم فيه . لهذا أمرنا الله تعالى بالتأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله كلها ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب: ٢١

هذه الآية أضلُّ كبير في التأسي برسول الله ﷺ . نزلت هذه الآية يوم الأحزاب ، في الوقت الذي أخذ المنافقون يشكِّون بنصر الله ، وفي ساعة الضيق والحرَج والعسرة ، واجتماع الأحزاب من كل مكان ، والمسلمون محاصرون في المدينة ، يواجهون المشاقَّ والخوف والجوع .

نعم ، أمرنا الله تعالى بالافتداء به ، والسير على منهجه الحكيم في صبره ومصابرته ، ومرابطته ومجاهدته للكافرين والمنافقين . فمنهجُه ﷺ - وهو القائد ،

(١) قال بكر بن عبدالله ابو زيد رحمه الله : " وقد سمعتها من شيخنا الشنقيطي " ينظر النظائر ،

الأسوة الحسنة- تجسّد يوم المحنة الكبرى ، يوم الأحزاب يوم اجتماع المشركين والمنافقين واليهود ؛ هو : التبشير بالنصر ، وبأن النصر سيتجاوز حدود أرض العرب ؛ بل سيشمل الأرض كلّها . يقول لجيش محاصرٍ من كل الجهات : سيفتح الله لكم وبكم الشام ، وفارس ، واليمن ؛ حيث يقع العدو في الشمال ، والشرق ، والجنوب ، وستدين الأرض كلّها لله .

قال البراء بن عازب^(١) ﷺ : "عَرَضَ لَنَا فِي بَعْضِ الْخَنْدَقِ صَخْرَةٌ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ ، فَاشْتَكَيْنَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَجَاءَ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ ، فَقَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ ، فَضْرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثَلَاثَهَا ، وَقَالَ : (اللَّهُ أَكْبَرُ ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ . وَاللَّهُ ، إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحَمْرَاءَ السَّاعَةَ) . ثُمَّ ضْرَبَ الثَّانِيَةَ ، فَقَطَعَ الثَّلَاثَ الْآخَرَ ، فَقَالَ : (اللَّهُ أَكْبَرُ ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارَسَ ، وَاللَّهُ ، إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصْرَ الْمَدَائِنِ الْأَبْيَضِ) ثُمَّ ضْرَبَ الثَّالِثَةَ ، وَقَالَ : (بِاسْمِ اللَّهِ) فَقَطَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ ، فَقَالَ : (اللَّهُ أَكْبَرُ ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ ، وَاللَّهُ ، إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ) ففرح المسلمون ، واستبشروا"^(٢) .

وكان يقول ﷺ يوم الأحزاب مبشراً أصحابه المؤمنين ، ورداً على تشكيك المنافقين ، وإرجاف المرجفين ، وتثييط المثبطين : (لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده)^(٣)

^(١) الأوسي الأنصاري . له ولأبيه صحبة . شهد أحداً والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ وهو الذي فتح إقليم الري سنة (٥٢٤هـ) وشهد مع أمير المؤمنين علي ﷺ الجمل وصفين وقاتل الخوارج ، ونزل الكوفة ، ومات بها سنة (٥٧٢هـ) خياط : الطبقات ص(٨٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٣٦٤/٤) ابن حجر : الإصابة (١٤٢/١)

^(٢) ابن أبي شيبة : المصنف (٣٧٨/٣) حديث رقم (٣٦٨٢٠) أحمد : المسند (٣٠٣/٤)

^(٣) الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١هـ) ، المصنف ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي (٢٨٢/٩) (ط ٢) ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٣هـ) أحمد : المسند (٤١١/٥) حديث رقم (٢٣٥٤٠) أبو داود : السنن (١٨٥/٤) حديث رقم (٤٥٤٧)

وكان موقف المؤمنين يوم الأحزاب من هذه البشارة ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢)

أما موقف المنافقين المرجفين ، الذين سخروا من هذه البشارة ، فقد فضحه القرآن الكريم ، بقوله عنهم : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الأحزاب: ١٢)

وصورت الآيات من (١٣ - ٢٠) من سورة الأحزاب نفسيّة المنافقين تصويراً دقيقاً ، وحكّت أقوالهم في الإرجاف والتخذيل ، وأساليبهم في التهزّب من العمل وجهاد العدو . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (١٣) وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴾ (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُواكُمُ الْآذِينَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوكَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢٠) (الأحزاب: ١٣ - ٢٠)

✽ إن الواجب على المسلمين من الدعاة والمجاهدين ، ألا يعبثوا بأراجيف المرجفين ، وألا يؤثر تخذيلهم في صدورهم ، وألا تُحزَنهم وتُخيفهم أكاذيبهم وافتراءاتهم ولومهم في وسائل إعلامهم ؛ لأن هذا هو منهج المنافقين في كل زمان ومكان . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

يونس: ٦٥

✽ إن من أعظم خصال أهل الإيمان أن يوقن المؤمنون بوعد الله ، ونصره ، وتمكينه لعباده المؤمنين الصادقين المجاهدين . وقد أكد الله تعالى هذه الحقيقة بقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ غافر: ٥١ - ٥٢

✽ وإذا كان النصر في الآخرة لا يجادل فيه مؤمن ؛ فإن النصر في الحياة الدنيا في حاجة إلى جلاء ، وبيان أن وعد الله قاطع جازم . قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ غافر: ٥١

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ الأنفال: ٣٦

هذا هو شأن الكافرين في كل زمان ومكان ، ينفقون أموالهم ، ويبدلون جهودهم في الصد عن سبيل الله ، وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين ، وفي حرب أهل الإيمان ، وستعود عليهم أموالهم بالحسرة ، ويهزمون شر هزيمة ، وينتصر الحق في هذه الدنيا .

✽ إن التحالف الإجرامي الآثم ، الذي يجمع الصليبيين ، واليهود ، والمرتدين ، والمنافقين والصحوات ، والباطنيين والصفويين والرافضة والشعوبيين والعلمانيين على

حرب الإسلام ، والمسلمين ، والمجاهدين = ليس لعرض من أعراض الدنيا ، وإنما يعادونهم لإيمانهم بالله تعالى ، ولتمسكهم بإسلامهم ، وإخلاصهم العبودية والطاعة والخضوع لله تبارك وتعالى . قال تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

البروج: ٨

﴿ إن الأمة الإسلامية ، أمة منصور ، ومبشرة بالنصر والتمكين في كتاب ربها تبارك وتعالى ، وسنة نبيه ﷺ . وقد تحقق لها في الواقع ما أخبر به رسول الله ﷺ من النصر والتمكين ، والبشارة بالانتصار على الفرس والروم ، وفتح القسطنطينية ، وغيرها من البشائر . وهناك بشائر سوف تحقق في المستقبل ؛ كفتح روما ، وعودة الخلافة على منهاج النبوة ، وغيرها من البشارات . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ الفتح: ٢٨ وقال تعالى : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ النور: ٥٥

﴿ قال ابن كثير رحمه الله : " هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أي : أئمة الناس ، والولادة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد . وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس أمناً ، وحكماً فيهم . وقد فعله تبارك وتعالى ، وله الحمد والمنة ؛ فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة ، وخيبر ، والبحرين ، وسائر جزيرة العرب ، وأرض اليمن بكاملها ، وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، وصاحب مصر والإسكندرية - وهو المقوقس - ، وملوك عمان ، والنجاشي ملك الحبشة ؛ الذي تملك بعد أصحمة - رحمه الله وأكرمه - .

✽ ثم مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة ، وقام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ، فَلَمَّ شَعَثَ ما وَهَى بعد موته ﷺ ، وأطدَّ جزيرة العرب ، ومهدّها ، وبعثَ الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس ضُحْبَةَ خالد بن الوليد ﷺ ففتحوا طرفاً من أرضها ، وقتلوا خلقاً من أهلها ، وجيشاً آخر ضُحْبَةَ عمرو بن العاص ﷺ إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ، ودمشق ومخاليقها من بلاد حوران ، وما والاهما ، وتوفاه الله ﷻ ، واختار له ما عنده من الكرامة .

✽ ومنَّ الله على أهل الإسلام بأنَّ ألهم الصديق أن يستخلفَ عمر الفاروق ﷺ ، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً ، لم يُدْرُ الفلك بعد الأنبياء على مثله في قُوَّة سيرته ، وكمال عدله . وتمَّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكاملها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكَسَرَ كسرى ، وأهانه غاية الهوان ، وتقهر إلى أقصى مملكته ، وقصّر قيصر ، وانتزع عن يده بلاد الشام ، وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالها في سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ﷺ . ثم لما كانت الدولة العثمانية (يعني : خلافة عثمان ﷺ) امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك إلى الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سبته مما يلي البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقُتِلَ كسرى ، وباد ملكه بالكُليَّة ، وفتحت مدائن العراق ، وخراسان ، والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلةً عظيمة جداً ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجُبي الخراج من المشارق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ .

ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، ويبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها) ^(١) فها نحن نتقلّب فيما وعدنا

^(١) مسلم : الصحيح (٢٢١٥/٤) حديث رقم (٢٨٨٩) أبو داود : السنن (٩٧/٤) حديث رقم (٤٢٥٢) الترمذي : السنن (٤٧٢/٤) حديث رقم (٢١٧٦) من حديث ثوبان ﷺ . أحمد : المسند (١٢٣/٤) ، من حديث شداد بن أوس ﷺ .

الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فسأل الله الإيمانَ به ورسوله ، والقيامَ بشكره على الوجه الذي يُرضيه عنا" (١)

وهناك أحاديث كثيرة تبشر بنصرة الإسلام ، وظهوره على الأرض جميعاً ، وانضواء كل الأمم تحت لوائه . فقد قال رسول الله ﷺ : (لِيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبِرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ ، بَعِزٌّ عَزِيزٌ ، أَوْ ذُلٌّ ذَلِيلٌ ، عَزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ) (٢)

✽ ومن المبشرات الواردة في السنة : فتح روما -إن شاء الله- . فعن أبي قبيل ، قال : كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَسُئِلَ : أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْلَى ، الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ ، أَوْ رُومِيَّةٌ ؟ فَدَعَا عَبْدَ اللَّهِ بِصَنْدُوقٍ لَهُ حَلَقٌ ، قَالَ : فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا ، قَالَ : فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : بَيْنَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَكْتُبُ ؛ إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْلَى ، الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ ، أَوْ رُومِيَّةٌ ؟ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَدِينَةُ هِرَقْلٍ تُفْتَحُ أَوْلَى) يعني : القسطنطينية (٣) . ورومية ، هي عاصمة إيطاليا اليوم ، ومقر الفاتيكان عُقر دار النصرانية .

✽ وقد تحقّق الفتح الأول على يد السلطان العثماني البطل ، محمد الفاتح ، وهو ابن ثلاثٍ وعشرين سنة ، يوم الثلاثاء ، العشرون من جمادى الأولى سنة (٨٥٧هـ)

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤١٢ - ٤١٣)

(٢) أحمد : المسند (٤/١٠٣) الحاكم : المستدرک (٤/٤٧٧) حديث رقم (٨٣٢٦) من حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٣) أحمد : المسند (٢/١٧٦) حديث رقم (٦٦٤٥) الدارمي : السنن (١/١٣٧) حديث رقم (٤٦٨) الحاكم : المستدرک

(٤/٤٦٨) حديث رقم (٨٣٠١)

الموافق للتاسع والعشرين من مايو سنة (١٤٥٣م) وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ . وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله -ولا بد- ، ولتعلّمن نبأه بعد حين .

✽ قال الشيخ الألباني رحمه الله : (ولا شك أيضاً : أنّ تحقّق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة ، وهذا ما بشرنا به ﷺ" ^(١) .

✽ وعن أبي بن كعب ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : (بشّر هذه الأمة بالسنة والرفعة ، والدين ، والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة من نصيب) ^(٢)

✽ ومن المبشرات على عودة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة -إن شاء الله- : ما رواه حذيفة بن اليمان ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاصباً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إن شاء ، ثم تكون ملكاً جبرياً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت) ^(٣) .

✽ إن هذه البشائر من نصوص الكتاب والسنة ، ومن واقع الحضارات المادية الآيلة للانقراض ، ومن واقع الأمة الإسلامية التي بدأت تصحو على نداء المخلصين ، إن هذه وتلك لتقول بلسان حالها : " الإسلام قادم "

لئن عرف التاريخ أوساً وخزرجاً فله أوس قادمون وخزرج

^(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٨/١)

^(٢) أحمد : المسند (١٣٤/٥) حديث رقم (٢١٢٦٠) الحاكم : المستدرک (٣٤٦/٤) حديث رقم (٧٨٦٢)

^(٣) أحمد : المسند (٢٧٣/٤) وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة /٥)

وإن سجوف الغيب تخفي طلائعاً مجاهدة رغم الزعازع تخرج
ومن المبشرات : بقاء الطائفة المنصورة :

✧ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي
ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى تقوم الساعة)^(١)

✧ عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على
الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)^(٢)

✧ عن قرة بن إياس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي
منصورين ، لا يضرهم خذلان من خذلهم ، حتى تقوم الساعة)^(٣)

✧ عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على
الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم : تعال ، فصلِّ
لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أميرٌ ؛ تَكْرِمَةً اللهُ لهذه الأمة)^(٤)

✧ عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي
يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوهم ، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال)^(٥) .

^(١) الحاكم : المستدرک (٤/٤٩٦) حديث رقم (٨٣٩٠)

^(٢) مسلم : الصحيح (٣/١٥٢٣) ح ١٩٢٠٠

^(٣) أحمد : المسند (٥/٣٤) الترمذي : السنن (٤/٤٨٥) حديث رقم (٢١٩٢) ابن ماجه : السنن (١/٤)
حديث رقم (٦) ابن حبان : الصحيح (١/٢٦١) حديث رقم (٦١) ، وصححه الألباني في السلسلة
الصحيحة برقم (٧١٦٩)

^(٤) أحمد : المسند (٣/٣٤٥) حديث رقم (١٤٧٦٢) مسلم : الصحيح (١/١٣٧) حديث رقم (١٥٦)
ابن حبان : الصحيح (١٥/٢٣١) حديث رقم (٦٨١٩)

^(٥) أحمد : المسند (٤/٤٣٧) أبو داود : السنن (٣/٤) حديث رقم (٢٤٨٤) الطبراني : المعجم الكبير
(١١٦/١٨) حديث رقم (٢٢٨) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٥٩)

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تزال عصابة من أمتي يُقاتلون على الحق لا يضرهم من خالفهم ، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك)^(١)

لكن ما أهمّ سمة للطائفة المنصورة ؟

هي : القتال في سبيل الله . أي : إن صاحبها من المجاهدين لا من القاعدين . لنقرأ ما جاء عن إمام المجاهدين وقائد الغرّ الميامين ، رسولنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم :

عن سلمة بن نُفيل الكندي رضي الله عنه ، - وكان قومه بعثوه وافداً إلى رسول الله ﷺ - : بينا أنا مع رسول الله ﷺ تمسُّ ركبتي ركبته مستقبلاً الشام بوجهه مولياً إلى اليمن ظهره ، إذ أتاه رجل فقال : يا رسول الله أذال^(٢) الناس الخيل ، ووضعوا السلاح ، وزعموا أن الحرب قد وضعت أوزارها . فقال رسول الله ﷺ : (كَذَبُوا الْآنَ ، الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ ، وَلَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ، وَيُزِيغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ ، وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَحَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودَةٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ يُوحَى إِلَيَّ أَنِّي مَقْبُوضٌ غَيْرَ مُلَبَّثٍ ، وَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونِي أَفْنَادًا^(٣) ، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، وَعَقْرُ^(٤) دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ)^(٥) .

عن سلمة بن نفيل رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال : إني سئمت الخيل ، وألقيت السلاح ، ووضعْتُ الحرب أوزارها ، قلت : لا قتال ، فقال له النبي ﷺ : (الآن جاء القتال ، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس ، يُزيغُ الله قلوبَ أقوامٍ يُقاتلونهم ،

(١) مسلم : الصحيح (١٥٢٣/٣) حديث رقم (١٩٢٠)

(٢) أذال الناس الخيل : الإذالة : الإهانة ، أي : أهانوها وأستخفوا بها بقلة الرغبة فيها . وقيل : وضعوا أداة الحرب عنها وأرسلوها .

(٣) أفناداً : أي : جماعات متفرقين قوم بعد قوم . واحداً فند . النهاية ، ابن الأثير (٤٧٥/٣) .

(٤) العقر : بضم العين وفتحها : أي أصلها وموضعها .

(٥) سنن النسائي .

ويرزقهم الله منهم ، حتى يأتي أمر الله ﷻ وهم على ذلك . ألا إن عقر دار المؤمنين بالشام ، والخيّل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة^(١) . وفي رواية أخرى : (ولا يزال من أمتي أمة يُقاتلون على الحق ، ويزيغ الله قلوب أقوام ، ويرزقهم منهم ، حتى تقوم الساعة ، وحتى يأتي وعد الله)^(٢)

✽ وهذه الطائفة هم أصحاب الحديث المجاهدين لا القاعدين ، وهذا قول عبد الله بن المبارك وعلي بن المدني . قال الإمام أحمد : " إن لم تكن الطائفة المنصورة أصحاب الحديث ، فلا أدري من هم " . وقال البخاري : " يعني أصحاب الحديث " . وقال أيضاً : " وهم أهل العلم " . والله در الخطيب البغدادي حين بوّب في كتابه (شرف أصحاب الحديث) فقال: "وقد جعل الله أهله أركان الشريعة ، وهدم بهم كل شنيعة ، فهم أمناء الله في خليقته ، والواسطة بين النبي ﷺ وأُمَّته ، والمجتهدون في حفظ ملته . أنوارهم زاهرة ، وفضائلهم سائرة ، وآياتهم باهرة ، ومذاهبهم ظاهرة ، وحُججهم قاهرة . وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه ، وتستحسن رأياً تعكف عليه ، سوى أصحاب الحديث ، فإن الكتاب عُدَّتْهم ، والسنة حجَّتْهم ، والرسول فئتْهم ، وإليه نسبَّتْهم ، لا يَعرجون على الأهواء ، ولا يلتفتون إلى الآراء . يُقبل ما رَووا عن رسول الله ﷺ ، وهم المأمونون عليه . العدوُّ ، حفظة الدين وخزنته ، وأوعية العلم وحملته . إذا اختلف في حديث كان إليهم الرجوع ، فما حكموا به فهو المقبول المسموع . ومنهم كل عالم فقيه ، وإمام رفيع نبيه ، وزاهد في قبيلة ، ومخصوص بفضيلة ... " ^(٣) .

^(١) أحمد : المسند (١٠٤/٤) الطبراني : المعجم الكبير (٥٢/٧) حديث رقم (٦٣٥٧) ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٦١)

^(٢) النسائي : السنن الكبرى (٣٥/٣) حديث رقم (٤٤٠١) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٣٥)

^(٣) البغدادي : شرف أصحاب الحديث (٧/١)

أولئك حزب الله ولا تموت أمة هم فيها . فلن تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، ولا يزال في هذه الأمة أهل علم يدعون من ضلّ إلى الهدى ، ويُبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضالّ تائه قد هدّوه ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين .

وهذا إن دلّ ، فإنما يدل على بقاء الخيرية في هذه الأمة ، وعدم انقطاعها . قال رسول الله ﷺ : (مثل أمتي مثل المطر ، لا يدرى أوله خيرٌ أم آخره)^(١)

إنّ النصوص الواردة في التبشير بمستقبل الإسلام كثيرة ، وإنّ جميع هذه النصوص يبعث الأمل في نفس المسلم ، ويقشع عن قلبه غشاوة اليأس والقنوط .

ويجب على المسلم أن يعلم أنّ الدين الإسلامي هو الدين الذي يوافق الفطرة ، ويحقّق للناس مصالحهم في الدنيا والآخرة ، فالأديان السماوية قد نُسخت ، وحُرّف ما فيها وبُدّل ، والأنظمة البشرية يكفي في تصوّر قصورها وفشلها أنّها من صنّع البشر . فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين ، ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج ، نستمد نحنُ يقيننا الذي لا يتزعزع ، في أن المستقبل لهذا الدين ، وأن له دوراً في هذه الأرض ، هو مدعوٌّ لأدائه ؛ أراد أعداؤه أم لم يريدوا .

(١) أحمد : المسند (١٣٠/٣) حديث رقم (١٢٣٤٩) الترمذي : السنن (١٥٢/٥) (٢٨٦٩) ابن حبان : الصحيح (٢١٠/١٦) حديث رقم (٧٢٢٦) ، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه .

المبحث السادس

منهج المنافقين في التملق لمراكز القوى

سار المنافقون على منهج التملق إلى مراكز القوة قديماً وحديثاً ؛ لأن المنافقين بنوا منهجهم الثقافي على أساس الكذب والخداع ؛ لمصلحة أرادوها من المؤمنين ؛ من الأمن وأخذ الصدقات ، والغنائم . ولأهداف يتجهون إليها ؛ من تشتيت الوحدة ، والتشكيك في الإيمان ، وإحداث الفتن داخل المجتمع الإسلامي . فالمنافقون أرادوا من تملقهم إلى النبي ﷺ والمسلمين حماية مصلحةهم عند المسلمين .

ومن المواقف التي تكشف تلك الحقيقة : ما روي أن عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه استقبلهم نفرٌ من الصحابة رضي الله عنهم ، فقال لقومه : انظروا كيف أُرِدُّ السفهاء عنكم . فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه ، فقال : مرحباً بالصديق سيد بني تيم ، وشيخ الإسلام وثاني رسول الله ﷺ في الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ . ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه ، فقال : مرحباً بسيد بني عدي ، الفاروق ، القوي في دينه ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ . ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه ، فقال : مرحباً بابن عم رسول الله ﷺ وخنته ، سيد بني هاشم ، ما خلا رسول الله ﷺ^(١) . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ البقرة: ١٤ .

فهم مع شياطينهم في الكفر بدين محمد ﷺ ، ولكنهم كلما يلقون المؤمنين يقولون معلنين : نحن مؤمنين .

(١) الطبري ، أبو جعفر أحمد بن عبد الله (ت ٦٩٤هـ) ، الرياض النضرة في مناقب العشرة ، تحقيق عيسى الحميري (١/٣٠٥) (ط ١) ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٦م

وماذا يعني هذا القول ، وقولهم أمام شياطينهم : إنما نحن مستهزئون ؟

والجواب : ما قاله الفخر الرازي رحمه الله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾ يعني : نُظْهِرْ لَهُمُ الْمَوَافَقَةَ عَلَى دِينِهِمْ (دين المؤمنين) لِئَامَنَ شَرَّهُمْ ، وَنَقَفَ عَلَى أَسْرَارِهِمْ ، وَنَأْخَذَ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ وَغَنَائِمِهِمْ ^(١) .

قال الله تعالى حكاية عن تودُّد المنافقين إلى المؤمنين ، والكافرين : ﴿ الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ فَكُلُوا أَلْمَ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ النساء: ١٤١

وفي هذه الآية يتبيَّن لنا أن المنافقين لما رأوا المؤمنين في نصرٍ وتأيدٍ ، وظفرٍ وغنيمة ؛ يقولون للمؤمنين متودِّدين : ألم نكن معكم ، نجاهد عدوكم ؟ فأعطينا نصيباً من الغنيمة ^(٢) .

وإذا كان للكافرين نصيب يقولون : ﴿ أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : ألم نغلبكم ، وتمكّن من قتلكم ، فأبقينا عليكم؟ ونمنعكم من المؤمنين : بأنّ ثبطناهم عنكم ؟ فأسهّموا لنا بحكم أنّنا نواليكم ؛ فلا تؤذيكم ، ولا نترك أحداً يؤذيكم ^(٣) .

^(١) مفاتيح الغيب (٢٨/١) ويُظنر : أبو الليث السمرقندي ، نصر بن محمد (٣٧٣هـ) ، بحر العلوم (٢٧٥/١)

(بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٩م)

^(٢) ابن كثير : التفسير (٥٣٧/١) لاشين : لغة المنافقين ، ص (١٣٣)

^(٣) البيضاوي : التفسير (١٤٤/١) لاشين : لغة المنافقين ، ص (١٣٣)

إذا كان المسلمون يطلبون وجه الله تعالى في عبادتهم ومعاملتهم بين الناس ، فالمنافقون يطلبون وجه المسلمين ؛ وذلك لأن المنافقين يعيشون بين المؤمنين في بيئة واحدة ، وشكل واحد ، إلا أن قلوبهم شتى . المؤمنون يعبدون الله تعالى إيماناً وطاعة ، والمنافقون يعبدون الله رياءً وتسترًا . فخوفاً من أن يعرف المؤمنون أن إيمانهم مخالف للإيمان المؤمنين وعبادتهم الخالية من الإخلاص والخشوع - كما هي مطلوبة في كل العبادات- فهم يطلبون صفحاً وعتفاً عن أفعالهم السيئة ؛ كإيذاء النبي ﷺ ، والتخلف عن الجهاد . قال تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ آخِبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٩٤﴾ التوبة: ٩٤

هنا يعتذر المنافقون إلى النبي ﷺ والمؤمنين عن تخلفهم عن الجهاد ، وقد لا يكفيهم الاعتذار كأول طلب من المؤمنين : ﴿ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿٩٦﴾ التوبة: ٩٦

✽ قال الاستاذ الكبير سيد قطب رحمه الله : " إنهم يطلبون ابتداءً من المسلمين أن يعرضوا عن فعلهم صفحاً وعتفاً ، ثم يتدرجون من هذا الباب إلى طلب رضى المسلمين عنهم ؛ ليضمنوا السلامة في المجتمع المسلم بهذا الرضى ، ويضمنوا أن يظل المسلمون يعاملونهم بظاهر إسلامهم ، كما كانوا يعاملونهم ، ولا يجاهدونهم ويغلظون عليهم ؛ كما أمرهم الله في هذه السورة أن يفعلوا ، فحدّد بذلك العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين" ^(١) . قال تعالى : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٦٢﴾ التوبة: ٦٢

^(١) في ظلال القرآن (٣/١٦٩٦)

والمنافقون يحلفون على معاذيرهم فيما قالوا ، ويرضى عنهم المؤمنون . ذلك لأنهم دائماً يخافون أن يحكم المسلمون عليهم بحكم الكفر ؛ لظهور كفرهم قولاً .

قال تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُو إِيمَانٍ قَلِيلٌ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا يَعَذِبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

التوبة: ٧٤

ولظهور كفرهم ؛ كقوله تعالى : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكُفْرَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْبَسْنَاهُمْ لُكُومًا مِنَ الْعِزَّةِ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

النساء: ١٣٨ - ١٣٩ ، فيخشون أن يعاملهم المؤمنون كالكفار المحاربين أو الذميين ، فتضيع منهم مصالحهم ، وأهدافهم السخيفة التي من أجلها هم ينافقون في المجتمع المسلم القوي النظيف .

المبحث السابع

منهج المنافقين في الإعراض والصد

عن تحكيم الله ورسوله ﷺ

إن قضية تحكيم شرع الله مرتبطة بالتوحيد ارتباطاً وثيقاً ، وهي أصل من أصول العقيدة الإسلامية ؛ لأن أصل الإسلام قائم على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ . فهذا هو أصل الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُوهٖ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ النور: ٥١ وقال تعالى : ﴿ وَمَا ءَانَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ الحشر: ٧

وحَكَمَ اللهُ ﷻ بالكفر على كل من يُعْرِضُ عن طاعته ، وطاعة رسوله ﷺ فقال : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢

وهناك الكثير من الأدلة التي توضح أن التحاكم إلى غير شرع الله والإعراض عن حكمه كفرٌ وشركٌ . قال تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ ۗ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلِيَٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدَ لَكُمْ وَإِن أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١

وقال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠

فإذا كان الحُكْمُ لله وحده ، فلا بدّ من اتّباع جميع ما جاء به الرسول ﷺ ، دون تفریق . وهذا هو منهج المؤمنين الصادقين . وأما الإعراض عن شريعة الله التي جاء بها رسول الله ﷺ ، فهو تحاكمٌ إلى الطاغوت . وهذا هو منهج المنافقين قديماً ، وحديثاً .

وهذه بعض الشواهد على منهج المنافقين في اللجوء إلى غير حكم الله وحكم رسوله ﷺ ؛ لترويج باطلهم ، ورغبةً في الظلم والجور .

الموقف الأول للمنافقين في التحاكم إلى الطاغوت :

١- عن ابن عباس ؓ قال : "إن منافقاً خاصم يهودياً إلى النبي ﷺ ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله ﷺ ، ففضى لليهودي ، فلم يرضَ المنافق ، فدعاه إلى عمر بن الخطاب ؓ ، فقال اليهودي : قضى لي رسول الله ﷺ ، فلم يرضَ بقضائه . فقال عمر للمنافق : أهكذا ؟ قال : نعم . فقال عمر : مكانكما حتى أخرج أليكما . فدخل فاشتمل على سيفه ، ثم خرج فضرب به عُقُقَ المنافق حتى برَدَ ، ثم قال : هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسوله ﷺ ، فنزلت : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١١﴾ النساء: ٦٠ - ٦١

نزل جبريل ؑ فقال : إن عمر فرّق بين الحق والباطل . فقال رسول الله ﷺ : (أنتَ الفاروق) ^(١) .

^(١) الواحدي ، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري ، (ت ٤٦٨هـ) ، أسباب النزول ، (القاهرة ، مؤسسة الحلبي وشركاؤه ، ١٣٨٨هـ) ، ص (١٠٨) القرطبي : التفسير (٥ / ٢٦٣) ، وهو ضعيف

❖ وفي روايةٍ ذكرها ابن حجر العسقلاني : فدعا اليهوديَّ المنافقَ إلى النبي ﷺ ؛ لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة . ودعا المنافقَ اليهوديَّ إلى حَاكِمِهِمْ ؛ لأنه علم أنهم يأخذون الرشوة في أحكامهم^(١) .

تُبَيِّنُ هذه الحادثة أن المنافقين إنما كانوا يُؤثِّرون حكم الطاغوت على حكم الله، وأنهم إذا دُعوا إلى حكم الله ورسوله ليحكم بينهم صدُّوا ، وأعرضوا .

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى عن هذه الآية : "والآية دأمةٌ لمن عدل عن الكتاب والسنة ، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل . وهذا المراد بالطاغوت ها هنا"^(٢) .

❖ وقال الشعبي في تفسيره لهذه الآية : "فتبيِّن أنَّ المنافق يكون أشد كراهةً لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى ، ويكون أشدَّ عداوة منهم لأهل الإيمان . كما هو واقع في هذه الأزمنة وقبلها ؛ من إعانة المنافقين العدوَّ على المسلمين ، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان"^(٣) .

ومنْ تدبَّر ما حدث بسببهم في التاريخ من الوقائع ، عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً . وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والتقرب إليهم ، وحضَّه على جهادهم في مواضع من كتابه ، فقال تعالى : ﴿ يَتَأَيَّمُوا النَّبِيَّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَدُهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴾^(٧٣) التوبة: ٧٣

(١) يُنظر : فتح الباري (٥ / ٣٧) .

(٢) التفسير (٥١٩ / ١)

(٣) فتح المجيد ، ص (٤٧٦)

وفي قصة عمر رضي الله عنه وقتله للمنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي ، دليل على قتل من أظهر النفاق . كما في الصحيحين : أن النبي ﷺ ترك قتل من أظهر النفاق تأليفاً للناس ؛ فإنه قال : (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)^(١)

✽ قال ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية : (فجعل الإعراض عما جاء به النبي ﷺ ، والالتفات إلى غيره ؛ هو حقيقة النفاق ")^(٢) .

وخلاصة ما دلت عليه هذه الآية وما بعدها :

- أن التحاكم إلى الطاغوت من صفات المنافقين .
- أن (الطاغوت) عامٌ ؛ فقد يكون رجلاً واحداً يُتحاكم إليه ، وقد يكون أكثر من ذلك .
- أن المعرض عن التحاكم إلى الكتاب والسنة قد حكم الله بنفاقه . إذن ؛ فالذي يضم إلى ذلك منع الناس من التحاكم إلى الكتاب والسنة = أشد كفراً ونفاقاً .

فما الطاغوت ؟ وما صفة الكفر بالطواغيت ؟ ومن هم رؤوس الطواغيت ؟

✽ قال ابن القيم رحمه الله في تعريفه للطاغوت : " وأنه : كل ما تجاوز به العبد حده ، من معبود ، أو متبوع ، أو مطاع . فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فقد حاكم على الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به ؛ فإن

^(١) البخاري : الصحيح (١٢٩٦/٣) حديث رقم (٣٣٣٠) مسلم : الصحيح (٤/١٩٩٨) حديث رقم (٢٥٨٤)

^(٢) مختصر الصواعق المرسله على فرق الجهمية والمعتلة ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت) ، (٣٥٣/٢)

التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فمن حاكم إلى غيرهما فقد تجاوز حدّه ، وخرج عما شرع الله ورسوله ﷺ ، وأنزله منزلاً لا يستحقّها . وكذلك : من عبد شيئاً من دون الله ؛ فإنّما عبد الطاغوت . فإذا كان المعبود صالحاً صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها" (١) .

❖ وقال الإمام مالك رحمه الله : "الطاغوت : ما عُبد من دون الله" (٢) .

❖ وقال الطبري : "والصوابُ من القول عندي في الطاغوت : أنّه كلُّ ذي طُغيان على الله ، فُعبد من دونه ، إمّا بقهرٍ منه لمن عبده ، وإمّا بطاعةٍ ممن عبده له ؛ إنساناً كان ذلك المعبود ، أو شيطاناً ، أو وثناً ، أو صنماً ، أو كائناً ما كان من شيءٍ" (٣) .

❖ ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : "والطاغوت عامٌّ ؛ فكلُّ ما عُبد من دون الله ، ورَضِيَ بالعبادة ؛ من معبودٍ ، أو متبوعٍ ، أو مطاعٍ في غير طاعة الله ورسوله ﷺ فهو : طاغوتٌ" (٤) .

وقال في مسائل الباب الأول من كتاب التوحيد : المسألة الثامنة : أنّ الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبد من دون الله" (٥) .

قلت : ولكنّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مسائل الباب الأول من كتاب التوحيد جعل الطاغوت عامّاً في كلّ ما عُبد من دون الله ، ولم يقيدَه بمن رَضِيَ بالعبادة.

(١) ابن القيم : أعلام الموقعين (٥٠/١)

(٢) فتح المجيد ، ص (٤٧٦)

(٣) التفسير (١٣/٣)

(٤) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٣٧٧/١)

(٥) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، ص (٣٤)

وكذلك : ما ذكرناه عن الإمام مالك ، وابن جرير الطبري ، وابن القيم . إنما نُقِلَ بصيغة العموم ؛ من غير تقييد بمن رضي بالعبادة .

لذلك لا ينبغي أن يُطَلَقَ على الملائكة والأنبياء والصالحين بأنهم طواغيتُ ؛ إذا عُبِدوا من دون الله ؛ لأن الطغيان ومجاوزة الحدِّ واقعةٌ من عابديهم لا منهم ، فالعابدون لهم هم الذين رفعوهم فوق منزلة المخلوقين ، وصرفوا لهم ما لا يُصرف إلا لله .

فاعتقاد العابدين هذا هو الطاغوت ، والذي أمرهم به من شياطين الأنس والجن هم الطواغيت الحقيقية . فالطاغوت الذي يُعبد من دون الله برضاهُ : كفرعون ، والنمرود ، ونحوهما . أمّا من لا يرضى ذلك : كعيسى بن مريم عليه السلام ، وعزير عليه السلام اللذين أنكرا ذلك ، ودعيا إلى عبادة الله وحده ؛ فلا ينبغي إطلاق كلمة الطواغيت عليهم .

ومما يدل على أن مسمى الطاغوت شاملٌ لكل ما عُبد من دون الله برضاه : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُكذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ النحل: ٣٦

أنواع الطواغيت :

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : الطواغيت كثيرة ، ورؤسهم خمسة :

١. الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله . والدليل : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يس: ٦٠ .

٢. الحاكم الجائر المغيّر لأحكام الله تعالى . والدليل : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ النساء: ٦٠ .

٣. الذي يحكم بغير ما أنزل الله . والدليل : قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤ ؛ (١) .

(١) يتبين من هذا : أنّ الحاكم بغير ما أنزل الله طاغوت ؛ بل هو رأس في الطغيان ؛ لأنه يشرع للناس من القوانين الكفرية البشرية ، التي هي زبالات أذهان البشر ، وينحّي شرع الله جانباً . وهو مع ذلك يأمر الناس بطاعة هذه القوانين . ومن هنا يتبين أيضاً : كُفر البرلمانات ، ومجالس النواب ؛ التي تشرع للناس ديناً باسم الديمقراطية . وهي دينٌ عند أهلها ، وهي عقيدة كُفر ، ومن يعتقدها يكفر أيضاً . فالديمقراطية معناها : "تشريع الشعب للشعب" لا "تشريع الله للشعب" . فالشعب ، ومجلسه ، ونوابه ، وحاكمه : هم أصحاب السلطة التشريعية في هذا الدين الذي اختارته الديمقراطية باسم الأكثرية ، وليس الحكم لأحكام الحاكمين ، القائل : ﴿ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ والقائل : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ والقائل : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ فكلُّ حكمٍ غير حكم الله هو جاهليةٌ . وسنفضّل هذه المسألة في المبحث القادم - إن شاء الله تعالى - .

٤. الذي يدعي علم الغيب من دون الله . الدليل : قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٧) الجن: ٢٧ وقوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩) الانعام: ٥٩

٥. الذي يُعبد من دون الله ، وهو راضٍ بالعبادة . والدليل : قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩) الانبياء: ٢٩
وأضاف آخرون إلى هؤلاء ، الساحر ، والكاهن ومردة أهل الكتاب ، وقال بعض أنه بعض زعماء اليهود الذين يُتحاكم إليهم من قبل المنافقين في المدينة .

علاقة الكفر بالطاغوت بالإيمان بالله :

﴿الإيمان لا يتحقق إلا بالكفر بالطاغوت ، ولا بد أن يسبق الإيمان بالله الكفر بالطاغوت ؛ لأن الكفر بالطاغوت شرطٌ لصحة التوحيد . قال تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦) البقرة: ٢٥٦

فقد بين الله تعالى أن التمسك بالعروة الوثقى هو : الذي جمع بين الكفر بالطاغوت والإيمان بالله .

وقد نُقل عن الطبري بسنده عن مجاهدٍ : أن المراد بالعروة الوثقى الإيمان . وعن السديّ : الإسلام . وعن ابن جبير ، والضحاك : لا إله إلا الله . وهذه التفاسير عن السلف ؛ لا اختلاف بينها . فإن الإيمان إذا أُطلق شمل الإسلام ، والإسلام إذا أُطلق شمل الإيمان . ولا إله إلا الله هي أصل الإسلام والإيمان . ويفهم منه : أن من لم يكفر بالطاغوت لم يستمسك بالعروة الوثقى ، ومن لم يستمسك بها فهو مُتردٍ مع الهالكين .

❁ وكما جمع الله تعالى بين اشتراط الإيمان بالله . والكفر بالطاغوت في التمسك بالإسلام ، والإيمان ، ولا إله إلا الله = فقد جمع الله بين اشتراط الإيمان والعمل الصالح في النجاة من عذاب الله . كما في قوله ﷻ : ﴿ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ المائدة: ٦٩ وقوله : ﴿ فَمَن ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الانعام: ٤٨ ؛ وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَى ﴾
الكهف: ٨٨ .

ونظائر هذا في القرآن كثيرة ، وشبيهة بالآيات المتقدمة قوله تعالى : ﴿ وَمَن
يُسَلِّمِ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ لقمان: ٢٢

وهذه الآيات المتدمات دلّت على اشتراط العمل مع الإيمان ، كما دلّت آية البقرة على اشتراط الكفر بالطاغوت مع الإيمان ؛ فإذا فُقد جنس العمل بطل الإيمان ، وإذا فُقد الكفر بالطاغوت بطل الإيمان^(١) .

وبهذا يكون الكفر بالطاغوت ركناً للإيمان بالله تعالى ، فإذا أنهدم هذا الركنُ أنهدم الإيمان .

ولتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله له دلالات عظيمة منها :

١. عدم الاستهانة بقضية الكفر بالطاغوت .
٢. لا بدّ أن يسبق الإيمان بالله الكفر بالطاغوت ؛ لأن الإيمان بالله لا ينفع صاحبه في شيء إلا بعد الكفر بالطاغوت .

(١) ابن القيم ، كتاب الصلاة وحكم تاركها تحقيق تيسير زعيتر (ص ٣٥) (ط ٢، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٥م)

٣. أنّ الإيمان بالله وعدم الكفر بالطاغوت لا يمكن اجتماعهما في قلب المؤمن الموحد؛ وإنما ذلك من صفات المنافقين .

من أعظم معاني (لا إله إلا الله) : الكفر بالطاغوت والإيمان بالله :

أولاً :

من معاني لا إله إلا الله العظيمة : التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ . والتَّخْلِيَةُ هنا : الكفر بالطاغوت . والتَّخْلِيَةُ هي : الإيمان بالله وحده . ولا بدّ أن تسبق التَّخْلِيَةُ التَّحْلِيَةَ . قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ البقرة: ٢٥٦

ثانياً :

شهادة أن لا إله إلا الله ، نفْيٌ ، وإثباتٌ . والنفي هو (لا إله) وهو : الكفر بالطاغوت . والإثبات هو (إلا الله) وهو : الإيمان بالله تعالى . ولا بدّ أن يسبق النفي الإثبات . فدلّ على أنّ من لا يكفر بالطاغوت (كالديمقراطية ، أو الهيئات ، أو الدساتير، أو البرلمانات) فهذا لم يؤمن بالله ، ولم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله ؛ لأنّ الإيمان بالله يقتضي الكُفْرَ بالأنظمة المخالفة للإسلام ، وليس التوفيق والجمع بينها وبين الإسلام . وهذا كحال من يسعى من الأفراد والأحزاب إلى التوفيق بين الإسلام ، وبين الديمقراطية ، أو غيرها من الطواغيت .

﴿ ومن هنا يتبيّن أنّ رأس الأمر ، وأصله ، وعموده هو : الكُفْرُ بالطاغوت ، واجتنابه ، وتجريدُ التوحيد لله تعالى . فلاجل ذلك خلق الله ﷻ الخلق . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦ وقال تعالى عن النصارى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣١) التوبة: ٣١ .

وهم لم يكونوا يسجدون أو يركعون لأحبارهم ، ولكن أطاعوهم في تحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، وتواطؤوا معهم على ذلك ، فجعل الله ﷻ ذلك اتخاذاً لهم

أرباباً ؛ لأن الطاعة في التشريع عبادة لا يجوز أن تُصرف لغير الله تعالى ، فلو صرفها المرء لغير الله تعالى -ولو في حكمٍ واحدٍ- كان ذلك شركاً .

✽ عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب ، فقال : يا عدي ، اطرح هذا الوثن من عنقك . قال : فطرحته ، وانتهيت إليه ، وهو يقرأ في سورة براءة هذه الآية : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ قال : قلت : يا رسول الله ، إنا لسنا نعبدهم . فقال : (أليس يحرمون ما أحل الله ، فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟) قال : قلت : بلى . قال : (فتلك عبادتهم)

وفي رواية : "قلت : يا رسول الله : أما إنهم لم يكونوا يُصلُّون لهم . قال : (صدقت ، ولكن كانوا يُحلُّون ما حرم الله فيستحلُّونه ، ويحرمون ما أحلَّ الله فيحرمونه)"^(١)

✽ وعن حذيفة رضي الله عنه أنه سُئل عن قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ أكانوا يعبدونهم ؟ قال : لا ، كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلَّوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه . وفي رواية : أنه قال : "أما إنهم لم يكونوا يصومون لهم ، ولا يصلون لهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلَّوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً أحلَّه الله حرموه . فتلك كانت ربوبيتهم" ^(٢) .

✽ ولأهمية هذا الأمر العقدي أفرَدَ له الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله باباً في كتابه القيم (التوحيد) وهو : الباب السادس : من أطاع العلماء والأمرأ في

^(١) الترمذي : السنن (٢٧٨/٥) حديث رقم (٣٠٩٥) البيهقي : السنن الكبرى (١١٦/١٠) وحسنه ابن تيمية في المجموع .

^(٢) الطبري : التفسير (١١٥/١٠)

تحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرم الله ؛ فقد اتخذهم أرباباً من دون الله . وذكر الآية ،
وحدِيثُ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ .

ويقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ
مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِء وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ
يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ النساء: ٦٠ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "ولهذا
سُمِّيَ مِنْ تَحَاكَمِهِمْ إِلَيْهِ مَمَّنْ حَكَمَ بِغَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ : الطَّاغُوتُ" .

ومن أنواع الطواغيت المعبودة من دون الله تعالى في هذا الزمان ، والواجب
على كل موحد أن يكفر بها : هذه الآلهة الزائفة ، والأربابُ المزعومة التي تعبد من دون
الله في التشريع . لأن الطاعة في التشريع عبادة ، ولا يجوز أن تصرف إلا لله وحده .

❖ وفي رواية عن مجاهد في تفسيره لهذه الآية قال : "تنازع رجل من المنافقين
ورجل من اليهود ، فقال اليهودي : اذهب بنا إلى محمد . وقال المنافق : اذهب بنا إلى
كعب بن الأشرف . فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِء ﴾ النساء: ٦٠ وهو
كعب بن الأشرف" (١) .

❖ ومرَّ بنا قول ابن كثير : والآية أعم من ذلك كله ، فإنها دأمة لمن عدل عن
الكتاب والسنة ، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت هنا (٢) .

ومن أنواع الطواغيت المعبودة من دون الله تعالى في زماننا هذا ، والواجب
علينا أن نكفر بها ، ونحاربها : هذه القوانين ، والمحاكم ، والبرلمانات الكفرية التي

(١) مجاهد بن جبر (ت ١٠٣هـ) ، التفسير (١/١٦٣-١٦٤)

(٢) ابن كثير : التفسير (١/٥١٩)

تشرع للناس ما لم يُنزل الله به سلطاناً ، والتي اتخذها كثير من الناس شركاء مشرعين من دون الله تعالى ؛ حيث تابعوهم على جعل التشريع حقاً وصفةً لهم ولدساتيرهم الكفرية ، وبرلماناتهم الشركية ، وهيئاتهم الدولية أو المحلية ، وثبتوا ذلك في قوانينهم ودساتيرهم .

✽ يقول ابن تيمية رحمه الله : "ومتى ترك العالم ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله ، واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله ، كان مرتدداً كافراً ، يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة" (١) .

فمن تحاكم إلى غير الله تعالى ، واتخذ غير الله حكماً ومشرعاً ، فقد أشرك بالله شركاً أكبر يُخرج من ارتكبه من الإسلام . فهذا هو (شرك التشريع) والتحاكم إلى غير الله ، والطاعة في التشريع = عبادة لا يجوز صرفها إلا لله تعالى . قال تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف: ٢٦ وفي قراءة: ﴿وَلَا تُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٢) بصيغة النهي عن الإشراف بالله تعالى في الحكم والتشريع . وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الكهف: ١١٠

✽ فالشرك في التشريع هو من الشرك في العبادة ؛ فإن التحاكم من العبادة . قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ يوسف: ٤٠ ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَيْكُمُ الْوَحْيَ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١٣١) الأنعام: ١٢١ . أي : إذا أطعتم المشركين في حل أكل الميتة : إنكم لمشركون .

(١) مجموع الفتاوى (٣٧٣-٣٧٢/٣٥)

(٢) قرأ بها ابن عامر ، ووافقه المطوعي ، والحسن ، والدمياطي ، وأحمد بن محمد البنا (ت ١١١٧هـ) إتحاف فضلاء البشر ، علي محمد الضباع (ص ٢٨٩) (القاهرة ، ١٣٥٩هـ)

فتأمل هذه الآية ، فقد حكم الله تعالى عليهم بأنهم مشركون إذا أطاعوا المشركين في مسألة واحدة . فكيف بمن تحاكم إلى غير الله ؛ كالقوانين ، أو الدساتير ، أو البرلمانات - في جميع شؤون الحياة ، أو بعضها-!؟
وكيف بمن اتخذ نفسه مشرعاً ، وحكم القوانين الوضعية في البلاد ، وألزم الناس بها ، وحماها ، ودافع عنها بجنده وإعلامه!؟
فإذا حكم الله تعالى على من أطاع المشركين في مسألة واحدة بالشرك ؛ فالحكم على الحكام المبدلين لشرع الله بالكفر ، والشرك ، والخروج من الإسلام = من باب أولى .

وهذه المسألة من مسائل الإجماع ، والأدلة عليها واضحة صريحة ، ولا يتعمى عنها إلا من أعمى الله بصيرته ، وصرفه عن الحق .
* قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه ، وحرّم الحلال المجمع عليه ، أو بدّل الشرع المجمع عليه ؛ كان كافراً مرتدّاً ؛ باتفاق الفقهاء" (١) .

(١) مجموع الفتاوى (٢٦٧/٣)

تحقيق شروط (لا إله إلا الله) هو تحقيق الكفر بالطاغوت والإيمان بالله :

فالشرط الأول : العلم بمعناها المراد منها ، نفيًا وإثباتاً . وإذا لم يتحقق للناطق بها ، فإنه لا يكون كافراً بالطاغوت . وهو لا يعلم هل يستحق شيئاً من العبادة أم لا ؟ وهل العبادة مقصورة على الله أم يشركه فيها غيره ؟ ولأجل ذلك قيد قبول الشهادة التي هي أصل الإيمان بالعلم . قال تعالى : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ محمد: ١٩ وقال ﷺ: (من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة)^(١)

والشرط الثاني : اليقين المنافي للشك . فإن من شك في معنى لا إله إلا الله زال عنه العلم الذي يكتسب به الإيمان ، وإذا زال الإيمان حصل نقيضه الذي هو الكفر . وهو كفر الشك . وعلى هذا ؛ فلا يكون صاحبه كافراً بالطاغوت ؛ لأنه لم يُوقن ببطلان عبادة الطاغوت ، ولم يوقن بانحصار العبادة في الله .

ولذا قيد قبول الشهادة باليقين بما دلت عليه من نفي وإثبات . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَنَّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١٥) الحجرات: ١٥ وقال ﷺ : (أشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، لا يلقي بهما عبدٌ غير شاكٍ فيهما إلا دخل الجنة)^(٢) .

وقال ﷺ لأبي هريرة ؓ : (فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة)^(٣)

^(١) مسلم : الصحيح (٥٥/١) حديث رقم (٢٦)

^(٢) مسلم : الصحيح (٥٥/١) حديث رقم (٢٧)

^(٣) مسلم : الصحيح (٦٠/١) حديث رقم (٣١)

لذلك وصف ربنا ﷺ المنافقين أنهم يشكون في لا إله إلا الله . قال تعالى :
﴿ إِنَّمَا يَسْتَعِزُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ
يَتَرَدَّدُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ التوبة: ٤٥ ؛ ولذلك ؛ فالمنافق مذذب بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى
هؤلاء . قال تعالى : ﴿ مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ
سَبِيلًا ﴾ ﴿١٤٣﴾ النساء: ١٤٣

ومن هنا قال أهل العلم : " الكفر الذي يُخرج من الملة خمسة أنواع " :

النوع الأول : كُفر التكذيب . والدليل : قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٦٨﴾ العنكبوت: ٦٨

النوع الثاني : كفر الإباء والاستكبار مع التصديق . والدليل : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ
قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٣٤﴾ البقرة: ٣٤

النوع الثالث : كفر الشك ، وكُفر الظن . والدليل : قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ
وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى
رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ ﴿٣٧﴾ لَنَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ ﴿٣٨﴾ الكهف: ٣٥ - ٣٨

النوع الرابع : كفر الإعراض . والدليل : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا
مُعْرِضُونَ ﴾ ﴿٣﴾ الأحقاف: ٣

النوع الخامس : كفر النفاق . والدليل : قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا
فَطَبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ﴿٣﴾ المنافقون: ٣

أما أنواع النفاق الاعتقادي الستة فقد مرّ ذكرها في الفصل الأول .

هذه هي أقسام الكفر الذي يخرج من الملة ، وهي ردُّ على مذهب المرجئة البدعي الباطل ، الذين يحضرون الكفر بالجحود ، والتكذيب ، والاستحلال القلبي . وهذا خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الكفر يكون بالاعتقاد ، وبالقول ، وبالفعل ، وبالشك .

ولكن المنافقين ومرجئة العصر يلمزون أهل السنة والجماعة بالخوارج والتكفيريين ^(١) .

^(١) قلتُ : إنَّ عقيدة أهل السنة والجماعة عقيدة واضحة صافية ، لا لبس فيها ولا غموض ؛ لأنها مأخوذة من هدي النبي ﷺ ، قد دُونَتْ أصولها ومبانيها في كتب معتمدة ، توارثها الخلف عن السلف ، وتدارسوها وحرروها ، وتواصوا بها ، وحثوا على التمسك بها . قال ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ، لا يضربهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ؛ حتى يأتي أمر الله) فتكفير المرتدين ليس من تشريع الخوارج ، وليس هو فكراً ، بل هو حكم شرعي ، حكم به الله ورسوله ﷺ على من يستحقه ؛ بارتكاب ناقض من نواقض الإسلام القولية ، أو الاعتقادية ، أو الفعلية . وقد بينها العلماء في باب "أحكام المرتد" وهي مأخوذة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . فإله قد حكم بالكفر على أناس بعد إيمانهم ، بارتكابهم ناقضاً من نواقض الإيمان . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ^(٦٥) لَانْعَنْدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ ^(٦٦) إلا أن المرجئة أصحاب عقيدة ضالة = تريد فصل العمل ، وإخراجه عن حقيقة الإيمان ؛ بحيث يصبح الإنسان مؤمناً بدون عمل ، فلا يؤثر تزكُّه في الإيمان انتفاءً ، ولا انتقاضاً . وعقيدة الإرجاء عقيدة باطلة . أما عقيدة أهل السنة والجماعة التي هي وسط بين مذهب الخوارج الذين يكفرون بالكبائر التي هي دون الكفر (وهو مذهب باطل) وبين مذهب المرجئة الذين يقولون : لا يضر مع الإيمان (الذي هو عندهم مجرد التصديق) معصية ؛ وإن كانت كبيرة . فأهل السنة والجماعة يقولون : إن مرتكب الكبيرة التي هي دون الكفر ، لا يكفر (كما يقول الخوارج) ولا يكون مؤمناً كامل الإيمان (كما يقول المرجئة) بل هو عند أهل السنة مؤمن ناقص الإيمان ، وهو تحت

أما الشرطان الثالث والرابع ؛ فهما : شرطُ القبول ، وشرطُ الانقياد . فهما داخلان في مسمى الرضا ، ولا يؤمنُ العبد ، ولا تُقبل منه لا إله إلا الله حتى يرضى بمدلولها ، نفيًا وإثباتًا . ولا شكَّ أن من رَضِيَ بالشَّيء يكون قد قَبِلَهُ ، وانقاد له ؛ فإذا امتنع عن قَبُولِهِ والانقيادِ له ؛ فإنه غير راضٍ به .

معنى ذلك : أن من لم يرض بما دلت عليه لا إله إلا الله ؛ فإنه لا يقبلها ، ولا ينقاد لها ، ولا يتسخط عبادة غير الله التي هي عبادة الطاغوت . ومن لم يتسخط عبادة الطاغوت فإنه لم يكفر به ، ولم يتحقق له شرط القبول والانقياد . فإن تسخط عبادة الطاغوت قُبِلت منه لا إله إلا الله .

وشرطُ القَبُولِ دليلُهُ : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ النور: ٥١

وشرط الانقياد والاستسلام دليلُهُ : قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ﴿٢٢﴾ لقمان: ٢٢

المشيئة ؛ إن شاء الله عذبه بقدر ذنوبه ، وإن شاء غفر له . قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٤٨﴾ النساء: ٤٨ .

• يُنظَرُ في التحذير من الإرجاء ، وبعض الكتب الداعية إليه : رفع اللائمة عن فتاوى اللجنة الدائمة ، لأصحاب الفضيلة : الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين ، وفضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان ، وظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ، د. سفر الحوالي .

أما الشرط الخامس ؛ فهو : الإخلاص في قبول لا إله إلا الله من قائلها . وأدلته كثيرة ، منها : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ البينة: هـ وقوله ﷺ : (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه)^(١)

وضد الإخلاص: الشُّرْكُ . وهو عبادة الطاغوت ؛ لأن الطاغوت -كما قلنا- : كل ما عُبد من دون الله برضاه . فشُرْطُ الإخلاص يلزم منه الكُفْرُ بالطاغوت ؛ لا محالة . والإخلاص هو : إفرادُ الله ﷻ بالعبادة ، وتركِ عبادة ما سواه . وهذا التُّرْكُ هو الكفر بالطاغوت . فتيب من هذا : أن الكُفْرَ بالطاغوت ركنٌ مهمٌّ للإيمان ؛ لا يصحُّ بدونه .

أما الشرط السادس ؛ فهو : الصدق المنافي للكذب . في قبول لا إله إلا الله من قائلها . يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٨ وقوله ﷺ : (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه ؛ إلا حرمه الله على النار)^(٢)

والتصديق يشمل أمرين اثنين : الأول : العلمُ بالحق . والثاني : الإقرار به ، وإنشاء الالتزام بمدلوله . وكلا الأمرين شرط في قبول لا إله إلا الله . فإن كان من كذب بقلبه فهو المنافق ، الذي يُظهِر ما لا يُبْطِن . ومن صدق بقلبه ، وعلم بالحق ، ولكنه لم يُقَرِّ به ، ولم يُقَمِّ في قلبه إنشاء الالتزام بمدلول اللفظ الذي تلفظ به ؛ فهو المستكبر .

وإذا فقد التصديق هذين المعنيين = لم يحصل الإيمان ؛ لانهدام رُكْنٍ ، وهو : الكُفْرُ بالطاغوتِ ، الصَّارفُ للعبد عن التصديق بالمعنيين السابقين .

(١) البخاري : الصحيح (٤٩/١) حديث رقم (٩٩) النسائي : السنن الكبرى (٤٢٦/٣) حديث رقم (٥٨٤٢)

(٢) البخاري : الصحيح (٥٩/١) حديث رقم (١٢٨)

أما الشرط السابع ؛ فهو : المحبة في قبول لا إله إلا الله من قائلها . فإنه من أعظم الشروط . ودليله : قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ البقرة: ١٦٥ . وقوله ﷺ : (ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّنْ سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ)^(١)

وشرط المحبة يعني : قصر العبادة على الله ونفيها عن سواه من قائلها ، وإذا فُقد هذا الشرط فُقد الإيمان ، ولأن نقيض المحبة هو الكره والبغض والعداوة والبراءة ، فمن أفرد الله بالمحبة جعل نقيضها للطاغوت (وهذا معنى الكفر بالطاغوت كما قلنا) فيحصل له الإيمان ؛ فإن أشرك الطاغوت في المحبة مع الله ارتفع نقيضها عنه ، ومن ثم ارتفع الكفر بالطاغوت من أعماله ، ففسد إيمانه وبطل ؛ بسبب الشرك في المحبة .

فتبين لنا من هذا : أن الكفر بالطاغوت ركن مهم في الإيمان لا يتحقق الإيمان بدونه .

أما الشرط الثامن ؛ فهو : الكفر بالطواغيت . ومن العلماء من جعله شرطاً مستقلاً لقبول لا إله إلا الله . ودليله : قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ البقرة: ٢٥٦ وقوله ﷺ : (من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله ؛ حَرَّمَ مَالَهُ وَدَمَهُ ، وحسابه على الله)^(٢)

هذه ثمانية شروط مستنبطة من الكتاب والسنة لقبول لا إله إلا الله من قائلها .

^(١) البخاري : الصحيح (١٤/١) حديث رقم (١٦) مسلم : الصحيح (٦٦/١) حديث رقم (٤٣)

^(٢) مسلم : الصحيح (٥٣/١) حديث رقم (٢٣)

إلا أنّ الشيخ حافظ الحكمي^(١) رحمه الله ذكر سبعة شروط ، معتبراً شرط الكفر بالطاغوت ضمناً في هذه الشروط (كما وضحنا) ، فقال :

وبشروط سبعة قد قيّدت	وفي نصوص الوحي حقاً قد وردت
فإنه لم ينفع قائلها	بالنطق إلا حيث يستكملها
العلم واليقين والقبول	والانقياد فأدر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة	وفقك الله لما أحبه ^(٢)

✽ ومما يدلّ ويؤكد على أن الكفر بالطاغوت ركن ركين في الإيمان : أن الله ﷻ ذكر هذا الركن العظيم في كتابه العزيز بأساليب متعددة . ومن هذه الأساليب :

أولاً : أسلوب الشرط ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٥٦

ثانياً : الإخبار بأنه من لم يكفر بالطاغوت يكون إيمانه مزعوماً لا حقيقة له ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ النساء: ٦٠

^(١) الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي (ت ١٣٧٧هـ) من علماء الجزيرة العربية ، له أكثر من عشرين مؤلفاً كلها في العقيدة ، أشهرها : معارج القبول . ومن أشهر طلابه شيخنا واستاذنا ومُجيزنا العلامة علي بن قاسم بن سلمان آل طارش الضيفي حفظه الله تعالى .

^(٢) معارج القبول (١/٩٩ - ١٠٢)

ثالثاً : الإخبار بأنه من أثنى على الطاغوت (ولو باللسان) فإنه مؤمن به ، والمؤمن به ضد الكافر به . وكذلك حكم المؤمن بالطاغوت ضد حكم الكافر به . فحكم الكافر بالطاغوت : الاستمساك بالعروة الوثقى . وحكم المؤمن به : الانخلاع من العروة الوثقى . ومن انخلع من العروة الوثقى ، وهي : شهادة أن لا إله إلا الله ، وبآيئها فإنه كافر لا محالة . قال ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ النساء: ٥١

رابعاً : الإخبار بأن الكفار أولياؤهم الطاغوت ، وأنهم يقاتلون في سبيله ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ البقرة: ٢٥٧ وقوله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ النساء: ٧٦

خامساً : الإخبار بأن جميع الأنبياء اتفقوا على الأمر باجتنب الطاغوت ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦

وفُسر هذا الاجتناب في آيات أخر بأنه الشرك . ولا شك أن اجتناب الشرك ركن مهم في الإيمان ، لا يصح الإيمان بدونه . قال ﷺ : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ ﴾ المائدة: ٧٢

صفة الكفر بالطاغوت :

أولاً : تكون بتكفير الطاغوت . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ صَلَاةً بَعِيدًا ﴾ ﴿٦٠﴾ النساء: ٦٠ فإذا كان من أراد التحاكم إلى الطاغوت كافراً ، فما بالك بالطاغوت نفسه ، الذي يفرض على الناس الأحكام المخالفة لله ولرسوله ﷺ ، ويجعلها دستوراً في محاكم المسلمين !؟

✽ قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : " فأما صفة الكفر بالطاغوت فإنه يعتقد بطلان عبادة غير الله تعالى ، ويتركها ، ويُبغضها ، ويكفر أهلها ، ويُعادِيهم " (١)

ويُفهم من الآية : أن كلَّ تحاكمٍ إلى غير شرع الله ، فهو تحاكمٌ إلى الطاغوت . فلا بد من تكفيره ، وبُغضه ، ومعاداته .

ثانياً : اجتنابهم واعتزالهم . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ ءَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦ قال الشيخ سلمان بن سحمان رحمه الله : " والمرادُ باجتناب الطاغوت ؛ هو : بُغْضُه ، وعداوتُه ، وسبُّه ، وتقبيحُه باللسان ، وإزالته باليد ، ومفارقته . ومن ادعى اجتناب الطاغوت ولم يفعل ذلك ، فما صدق " (٢)

ثالثاً : الإغلاظ عليهم ، وجهادهم ، وقتالهم . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَكْثَرُوا أَيَّمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقْتُلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ التوبة: ١٢ وأئمة الكفر هم الطواغيت . قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : " لا يصح الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء الطواغيت المعبودين من دون الله ،

(١) الدرر السنية (١/٥٠٢)

(٢) الدرر السنية (١٠/٥٥)

وتكفيرهم ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ البقرة: ٢٥٦ (١) . وقال رحمه الله : "اعلم -رحمك الله- أن أول ما فرض الله على ابن آدم الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله . والدليل : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦ .

وقال في كتاب التوحيد : "المسألة السابعة : المسألة الكبيرة : أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت" (٢) .

﴿ وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله : " التوحيد هو الكفر بكل طاغوت من دون الله ... والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال ، وتفسد بعده " (٣) .

قلت : ولا شك أن مقاتلة الطاغوت هي نهاية البُغض ، والعداوة ، والبراءة . وهذا مما يدل على أن بُغض الطاغوت لا استثناء فيه بوجه من الوجوه ، وأن إزالته من الأرض مع القدرة على ذلك من أوجب الواجبات ؛ حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الطاغوت هي السفلى .

قال ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) (٤) وقال ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا

(١) الدرر السنية (٥٥/١٠)

(٢) فتح المجيد ، (ص ٢٩)

(٣) فتح المجيد ، ص (٣٩٣)

(٤) البخاري : الصحيح (٥٨/١) حديث رقم (١٢٣) مسلم : الصحيح (١٥١٢/٣) حديث رقم (١٩٠٤)

الصلاة ، ويؤتوا الزكاة . فَإِنْ فعلوا ذلك عصموا دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله^(١)

وقال ﷺ : (بُعِثْتُ بالسيف بين يدي الساعة ، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له . وَجُعِلَ رزقي تحت ظل رمحي ، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصُّغَارُ على من خالف أمري . ومن تشبَّه بقوم فهو منهم)^(٢)

وإن أعظم مراتب الكفر بالطاغوت : جهاده ، وجهاد أوليائه ، وأتباعه ، والسعي لهدمه ، وإخراج الناس من عبادته إلى عبادة الله سبحانه وحده . ومن ذلك : الصَّدْعُ بهذا الحق ، وإعلانه . وهذا هو شأن الأنبياء ﷺ ، وطريقتهم التي بيَّنها الله تعالى لنا أحسن بيان ، عندما أمرنا بالافتداء بملة إبراهيم ﷺ ، ودعوته ، فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ ^{﴿المتحنة﴾} ؛

فتأمل :

أولاً : تقديم العداوة على البغضاء ؛ لأنها أهم ، ولأنَّ الإنسان قد يُبغض أولياء الطاغوت ولا يعاديهم ؛ فلا يكون آتياً بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة ، والبغضاء .

ثانياً : تأمل ؛ كيف ذكر الله تعالى براءتهم من الأقوام المشركين قبل البراءة مما يعبدون ؛ لأن الأولى أهم من الثانية ؛ وذلك لأن كثيراً من الناس قد يتبرأ من الأصنام ، والطواغيت ، أو الدساتير والقوانين ، والأديان الباطلة ، ولا يتبرأ من عبيدها ،

(١) البخاري : الصحيح (١٧/١) حديث رقم (٢٥) مسلم : الصحيح (٥٢/١) حديث رقم (٢١)

(٢) أحمد : المسند (٢٠٥/٢) ، وصححه الألباني في الإرواء (١٠٩/٥)

وأَنْصَارَهَا، وَأَشْيَاعَهَا . فلا يكون آتياً بالواجب . لكن إذا تبرأ من عبيدها المشركين ؛ فهذا يستلزم البراءة من معبوداتهم ، وأديانهم الباطلة .

إِنَّ اجْتِنَابَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ لِلطَّوَاغِيتِ ، واعتزَّالهم ، وبُغْضِهِمْ ، وجهادهم ، والكُفْرَ بهم . يترتَّبُ عليه من الله ﷻ نعمٌ عظيمةٌ . منها :

أولاً : قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أَولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ الزمر: ١٧ - ١٨

فهذه البشرى خاصة بمن كفر بالطاغوت ، ومن لا بشرى له على الإطلاق لا يكون إلا كافراً ، فهو الذي يخلد في النار أبداً ، ولا تحصل له بشرى مطلقاً^(١) .

والبشرى هي التي لا يقدر قدرها ولا يعلم وصفها إلا من أكرمهم بها . وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن ، والرؤيا الصالحة ، والعناية الربانية من الله ، التي يَرَوْنَ من خلالها أنه مُريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة ، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت ، وفي القبر ، وفي القيامة . وخاتمة البشرى : ما يبشرهم به الرب الكريم من دوام رضوانه وإحسانه ، وحلول أمانه في الجنة .

ولما أخبر أن لهم البشرى ، أمره الله ببشارتهم ، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ الزمر: ١٨ وهو كلام الله ، وكلام رسوله ﷺ . وهداهم الله لأحسن الأخلاق والأعمال ، وأثنى على عقولهم الزاكية^(٢) .

(١) العلياني ، علي بن نفيح ، حقيقة الكفر بالطاغوت وعلاقته بالإيمان بالله (ص ١٧) (مكة المكرمة ، دار التربية والعمران ، ١٤١٦هـ)

(٢) السعدي ، عبد الرحمن ، تيسير الكريم المنان ، ص (٧٢٢) .

ثانياً : قال تعالى أيضاً مبيناً بركة ونعمة الكفر بالطواغيت ، واعتزالهم . وضرب لذلك مثلاً بحال إبراهيم عليه السلام ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾ مريم: ٤٩ ، فما وهبه الله من النبيين والصالحين كان ببركة اعتزاله الطواغيت ومن يعبدونهم من دون الله .

وما أرى للعقيم دواءً إن أراد الذرية الصالحة ، والتقرب إلى الله إلا باعتزال الطواغيت ، والكفر بهم ، وبغضهم ، وجهادهم . وبالمقابل : مَنْ عبد الطواغيت ، ولم يكفرهم ، ولم يقاتلهم ، ولم يعتزلهم ويعتزل من يعبدونهم ؛ فستحل عليه العواقب الوخيمة والباهظة ، والخسران في الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٧

فهي ليست ظلمة واحدة ؛ بل هي ظلمات بعضها فوق بعض : ظلمات الشرك ، والنفاق ، والذلل ، والعبودية لغير الله .

وفي سياق بيان هذه العواقب الوخيمة لعبدة الطواغيت ، يقول ﷺ : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ المائدة: ٦٠

فهؤلاء استحقوا اللعن ، وهو البعد عن رحمة الله ، والغضب عليهم من الله في الدنيا والآخرة ؛ جزاء لعبادتهم الطواغيت ، وأولئك شرُّ مكاناً (أي المذكورين بهذه الخصال القبيحة) من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم ، ورضي الله عنهم ، وأثابهم في الدنيا والآخرة ، وبشرهم النبي ﷺ ؛ جزاءً لكفرهم بالطواغيت .

وخلاصة القول في الطواغيت :

أولاً : إنَّ الطَّاعُوتِ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُيِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بِرِضَاهُ ، وَإِنَّ لِلطَّوَاعِيتِ رُؤُوسًا ؛ شَرُّهُمُ عَظِيمٌ ، وَخَطَرُهُمْ جَسِيمٌ .

ثانياً : إنَّ الكُفْرَ بِالطَّوَاعِيتِ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ .

ثالثاً : إنَّ هَذَا الكُفْرَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِالْقَلْبِ ، وَاللِّسَانِ ، وَالْجَوَارِحِ .

رابعاً : إنَّ الكُفْرَ بِالطَّوَاعِيتِ يَعْنِي : الْبِرَاءَةَ مِنْهُمْ ، وَبُغْضَهُمْ ، وَعَدَاوَتَهُمْ ، وَإِنْكَارَ عِبَادَتِهِمْ ، وَعَدَمَ طَاعَتِهِمْ ، وَجِهَادَهُمْ .

خامساً : إنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانَ بِالطَّاعُوتِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ أَبَدًا ، بَلْ إِذَا حُلَّ هَذَا رَحَلَ هَذَا .

سادساً : إنَّ الْأَنْبِيَاءَ جَمِيعًا ﷺ قَدْ بَيَّنُّوا كَيْفِيَةَ الكُفْرِ بِالطَّاعُوتِ ، وَأَمَرُوا بِاجْتِنَابِ عِبَادَةِ الطَّوَاعِيتِ .

سابعاً : إنَّ الكُفْرَ بِالطَّاعُوتِ ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ ؛ مِنْ أَعْظَمِ شُرُوطِ قَبُولِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

ثامناً : إنَّ تَشْرِيْعَ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمَنَافِقِينَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَبِينُ مَعْنَى الكُفْرِ بِالطَّاعُوتِ .

تاسعاً : كَثْرَةُ الْأَسَالِبِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الْمَبِينَةِ لِعِلَاقَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْكَفْرِ بِالطَّوَاعِيتِ ، وَلَكِنْ لَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ .

عاشراً : إنَّ اجْتِنَابَ الطَّوَاعِيتِ ، وَاعْتِزَالَهِنَّ ، وَعَدَاوَتَهُمْ ، وَبُغْضَهُمْ ، وَقِتَالَهُمْ ؛ تَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ نَعْمٌ عَظِيمَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَبِالْمُقَابِلِ ؛ مَنْ رَضِيَ بِعِبَادَةِ الطَّوَاعِيتِ ، أَوْ لَمْ يَعْتِزِلْهُمْ ، أَوْ لَمْ يَتَبَرَّأْ مِنْهُمْ ، وَيَقَاتِلْهُمْ : تَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْعَوَاقِبُ الْوُخِيمَةُ وَالْبَاهِظَةُ ، وَالْخُسْرَانُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

حادي عشر : إن الحكم والتشريع من خصائص الألوهية . ومن نازع الله في الحكم والتشريع ، فقد تجاوز حد العبودية ، ورام الألوهية . فهو طاغوت . وإن كل من تحاكم إلى غير شرع الله فهو تحاكم إلى الطاغوت .

ثاني عشر : إن الطاعة في التشريع عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله ، ولو صرفها المرء لغير الله ، ولو في حكم واحد ؛ كان بذلك مشركاً .

ثالث عشر : من دعا إلى تحكيم القوانين البشرية ، فقد جعل لله شريكاً في الطاعة والتشريع ؛ لأن تحكيم القوانين تحكيم للطاغوت ، والله قد أمر بالكفر بالطاغوت ، وجعل الكفر بالطاغوت ركن التوحيد ، فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ البقرة: ٢٥٦ فمن حكم القوانين لم يكن موحداً ؛ لأنه اتخذ لله شريكاً في التشريع والطاعة ، ولم يكفر بالطاغوت الذي أمر أن يكفر به ، وأطاع الشيطان . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠

رابع عشر : أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم حين يُدْعُونَ إلى التحاكم إلى شرع الله يأتون ، ويُعرضون . قال ﷺ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ ﴿٦١﴾ النساء: ٦١ كما أخبر تعالى أنهم يرون الفساد صلاحاً ؛ لانتكاس فطرتهم ، وفساد قلوبهم . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ البقرة: ١١ - ١٢ فالتحاكم إلى غير الله تعالى من أعمال المنافقين ، وهو من أعظم الفساد في الأرض .

الخامس عشر : إن التحاكم إلى الطواغيت كان وما يزال منهجاً ثابتاً للمنافقين .

الموقف الثاني : موقف المنافقين في الإعراض عن حكم الله ورسوله ﷺ :

أورد البخاري ومسلم^(١) قصة الزبير بن العوام ؓ مع رجل من الأنصار . فقد روى عن عروة ابن الزبير : أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في شراج الحرة ليسقي به النخل ، فقال رسول الله ﷺ : (اسق يا زبير - فأمره بالمعروف - ثم أرسل إلى جارك) فقال الأنصاري : أن كان ابن عمّتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ، ثم قال : (اسق) ، ثم احبس حتى يرجع الماء إلى الجدر ، واستوعب له حقه) ، فقال الزبير : والله إن هذه الآية نزلت في ذلك : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ﴿٦٥﴾ النساء: ٦٥

قال ابن حجر^(٢) : "كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة ، فدعا اليهودي المنافق إلى النبي ﷺ - لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة- ، ودعا المنافق اليهودي إلى حكامهم ؛ لأنه علن أنهم يأخذونها . فأنزل الله هذه الآيات : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدُ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۗ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَبَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوَفِّيْنَا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا

(١) الصحيح : (٨٣٢/٢) حديث رقم (٢٢٣١) مسلم : الصحيح (١٨٢٩/٤) حديث رقم (٢٣٥٧)

(٢) فتح الباري (٣٧/٥)

﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ

حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ النساء: ٦٥ - ٦٥

فأيهما يصلح أن يكون السبب لنزول الآية ؟

ما حكم من صدّ عن التحاكم إلى الكتاب والسنة ؟

يُستفاد مما سبق :

- أن الذي قاله صاحب الزبير رضي الله عنه أمرٌ عظيمٌ في الطعن برسول الله ﷺ ، لذلك قال ابن حجر : " إن هذا الرجل كان منافقاً " . وقد ناقش هذه المسألة في الفتح .

﴿ وقال النووي ^(١) رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم عن صاحب الزبير رضي الله عنه : " قال العلماء : لو صدر مثل هذا الكلام الذي تكلم به الأنصاريُّ اليوم من إنسانٍ من نسبه ﷺ إلى الهوى كان كافراً ، وجرت على قائله أحكام المرتدين ، فيجب قتله بشرطه . قالوا : وإنما تركه النبي ﷺ ؛ لأنه كان أول الإسلام يتألف الناس ، ويدفع بالتي هي أحسن ، ويصبر على أذى المنافقين ومن في قلبه مرض ، ويقول : (يسرّوا ولا تعسروا ، وبشّروا ولا تنفروا) ويقول : (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المائدة: ١٣

فما دلّت عليه الآيات واضحٌ جداً ؛ حيث نفى الله الإيمان عمّن صدر منه شيءٌ من ذلك . فهي عامّةٌ في كلّ من أبى أن يتحاكم إلى الكتاب والسنة ، وأن الإيمان لا يتم إلا بالتحاكم إلى الرسول ﷺ ، والتسليم له .

^(١) شرح مسلم (٣٥/٥-٣٦)

- في هذه الآيات دلالة على أن من ردّ شيئاً من أوامر الله أو أوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام ؛ سواء ردّه من جهة الشك ، أم من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم . وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة ﷺ في حكمهم بارتداد من امتنع عن أداء الزكاة ، وقتلهم ، وسبي ذراريهم ؛ لأن الله حكم أن من لم يُسلم للنبي ﷺ قضاءً وحكمه ؛ فليس من أهل الإيمان^(١) .

✽ يقول ابن كثير^(٢) في تفسير الآية السابقة : "يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحدٌ حتى يُحكّم الرسول ﷺ في جميع أموره . فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً . ولهذا قال تعالى : ﴿ تَمَّ لَا يَجِدُوا فِيْ أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ أي : إذا حكّموك يطيعوك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به ، وينقادون له في الظاهر والباطن ؛ فيسلمون لذلك تسليماً كلياً ، من غير مُمانعة ، ولا مُدافعة ، ولا مُنازعة ، كما ورد في الحديث : "والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"^(٣)

✽ وقد علّق الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله على كلام الحافظ ابن كثير بكلام مطوّل ، نختار منه : "إنّ هذه الآيات واضحة الدلالة صريحة اللفظ ، لا تحتاج إلى طول شرح ، ولا تحتمل التلاعب والتأويل ، وأن طاعة الله ورسوله ﷺ شرط الإيمان

(١) الجصاص ، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٣٧٠هـ) ، أحكام القرآن (١/٢١٣-٢١٤) (مصورة عن طبعة تركيا ١٣٢٥هـ ، بيروت ، دار الكتاب العربي)

(٢) التفسير (١/٥٢٠)

(٣) الحديث رواه : ابن أبي عاصم ، محمد بن أبي عاصم الضحاك (ت ٢٨٧هـ) ، السنة ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني (ص ١٢) (ط١ ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠هـ) وفي إسناده ضعف .

، وأن من صد عنهما وتحاكم إلى غيرهما فهو النفاق . والنفاق شر أنواع الكفر . ثم قال : ثم يقسم ربنا تبارك وتعالى بنفسه الكريمة المقدسة : أن الناس لا يكونوا مؤمنين حتى يحتكموا في شأنهم كله إلى الرسول محمد ﷺ وحتى يرضوا بحكمه طائعين خاضعين ، لا يجدون في حكمه حرجاً في أنفسهم ، وحتى يُسَلِّموا في دخيلة قلوبهم إلى حكم الله ورسوله تسليماً كاملاً ، لا ينافقون به المؤمنين ، ولا يخضعون في قبوله لقوة حاكم أو غيره ، بل يرضون به ، مهما يلقوا في ذلك من مشقة أو مُؤنة ، وإنهم إن لم يفعلوا ذلك لم يكونوا مؤمنين قط ؛ بل دخلوا في عداد الكافرين والمنافقين" (١) .

✽ يذكر ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة كلاماً نفيساً . حيث قال : " وفرض تحكيمه لم يسقط بموته ، بل ثابت بعد موته ، كما كان ثابتاً في حياته . وليس تحكيمه مختصاً بالعمليات دون العلميات ، كما يقول أهل الزيغ والإلحاد . وقد افتتح سبحانه هذا الخبر بالقسم المؤكّد بالنفي قبله ، وأقسم على انتفاء الإيمان منهم ، حتى يحكموا رسول الله ﷺ في جميع ما تنازعوا فيه من دقيق الدين وجليله ، وفروعه وأصوله . ثم لم يكتف بهذا التحكيم حتى ينتفي الحرج ، وهو الضيق مما حَكَمَ به ، فتشرح صدورهم لقبول حكمه انشراحاً لا يبقى معه حرج ، ويسلموا تسليماً ؛ أي : ينقادون لحكمه" (٢) .

✽ وقد ذكر البخاري عن الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله أنه قال في تفسير هذه الآية : " من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم" (٣) .

✽ يقول الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ في كتابه القيم "تحكيم القوانين" عن الآية : " وقد نفى الله ﷻ الإيمان عن من لم يحكم النبي ﷺ فيما شجر بينهم نفياً مؤكداً ،

(١) شاكر : عمدة التفسير في التعليق على ابن كثير (٣/٢١٤) (القاهرة، دار المعارف ، ١٣٧٣هـ)

(٢) مختصر الصواعق (٢/٣٥٢)

(٣) البخاري : الصحيح (٦/٢٧٣٨)

يتكرّر بتكرار أداة النفي ، وبالقسم . ولم يكتف -تعالى وتقدس- منهم بمجرد التحكيم للرسول ﷺ حتى يضيفوا إلى ذلك عدم وجود شيء من الحرج في نفوسهم لقوله جل شأنه : ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ والحرج : الضيق . بل لا بد من اتساع صدورهم لذلك ، وسلامتها من القلق والاضطراب . ولم يكتف تعالى بهذين الأمرين حتى يضمنوا إليه التسليم ، وهو : الانقياد لحكمه ﷺ " (١) .

ومن تأمل تفسير هذه الآية العظيمة المعاني ، وما ورد في أسباب نزولها ، وكلام العلماء في بيان معناها ، تبين له أن الأمر لا يقتصر على مجرد الاعتقاد ، ولا أن الوعيد خاص بمن كان في قلبه شك أو كراهية لما جاء به الرسول ﷺ ، بل لو ردّ حكم الرسول ﷺ ولم يسلم له فهو واقع في الوعيد الشديد الذي دلت عليه الآية ، وهو : نفي الإيمان عنه ، ووقوعه في الكفر ، والردّة .

✽ وأكد هذا الحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فقال : "ومن لم يعتقد وجوب حكم ما أنزل الله على رسوله ، فهو كافر" (٢) .

✽ ويقول تلميذة ابن القيم رحمه الله تعالى : " ومن نصب طاغوتاً دون الله ورسوله يدعو ويتحاكم إليه ففيه شبهة من أتباع مسيلمة " .

✽ وأضاف الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله مؤكداً كُفر من تحاكم إلى غير كتاب الله ، فقال " وخضوع الناس ورضوخهم لحكم ربهم ، خضوع ورضوخ لحكم من خلقهم تعالى ليعبدوه ، فكما لا يسجد الخلق إلا لله ، ولا يعبدوا إلا إياه ، ولا يعبدون المخلوق ؛ فكذلك يجب إلا يرضخوا ولا يخضعوا أو ينقادوا إلا لحكم

(١) تحكيم القوانين (ص ٢٠١) (ط ٣، الرياض ، دار العاصمة ، ١٤٢١هـ) وينظر : الشنقيطي ، محمد الأمين (ت ١٣٩٣هـ) ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/٢٩٤) (ط ١، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ١٩٩٦م)

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢٢/٧)

الحكيم العليم الحميد ، الرؤوف الرحيم ، دون حكم المخلوق الظلوم الجهول ، الذي أهلكته الشكوك والشهوات والشبهات ، واستولت على قلوبهم الغفلة ، والقسوة والظلمات" (١) .

✽ يقول الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله : " فمن حكم بغير ما أنزل الله ، يرى ذلك أحسن من شرع الله ، فهو كافر عند جميع المسلمين . وهكذا من يحكم القوانين الوضعية بدلاً من شرع الله ، ويرى أن ذلك جائز . ولو قال : إن تحكيم الشريعة أفضل فهو كافر ؛ لكونه استحل ما حرم الله" (٢) .

✽ ذكر الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله تعالى الأشياء التي يصير بها المسلم مرتدًا، ومنها : الشرك بالله ، وإظهار الطاعة والموافقة للمشركين على دينهم ، وموالاتة المشركين ، والجلوس عند المشركين في مجالس شركهم من غير إنكار ، والاستهزاء بالله أو بكتابه أو برسوله ، وظهور الكراهة والغضب عند الدعوة إلى الله ، وتلاوة آياته ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكراهة ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة ، وعدم الإقرار بما دلت عليه آيات القرآن والأحاديث ، والمجادلة في ذلك . ثم قال : الأمر الرابع عشر : التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فعَدَّ رحمه الله هذه الأمور رِدَّةً عن الإسلام (٣) .

✽ قال الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله : " من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال ، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فهو بلا شك كافر مرتد ؛ إذا أصرَّ عليها ، ولم يرجع إلى الحكم بما

(١) تحكيم القوانين ، ص (٢١)

(٢) مجموع الفتاوى (٤١٦/٤)

(٣) سبيل النجاة والفكاك (ص ٨٣.٧٤) وتنظر هذه الأمور مفصلة بأدلتها في هذا الكتاب .

أُنزِل . ولا ينفعه بأي اسم تسمى به ، ولا أي عمل من ظواهر الأعمال ؛ كالصلاة ، والصيام ، والحج ، وغيرها ^(١) .

❁ ولهذا قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : "فمن ترك الشرع المُحكَم المنزَّل على محمد ﷺ خاتم الأنبياء إلى غيره من الشرائع المنسوخة ؛ كَفَرَ . فكيف بمن تحاكم إلى الياسا ^(٢) وقدمها عليه؟! فمن فعل ذلك فقد كفر بإجماع المسلمين" ^(٣) .

فتأمل كيف حكم على من تحاكم إلى الشرائع المنسوخة بالكفر . أما الياسق والقوانين الوضعية ، فأمرها أشد وأخطر !

ومن اعتقد أن فتوى ابن كثير رحمه الله خاصة بالتتار ، أو أن كفرهم إنما هو لغير تحاكمهم إلى الياسق ؛ فقد أبعد النَّجعة .

❁ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "ومعلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام ، وباتفاق جميع المسلمين : أنَّ مَنْ سَوَّغَ غيرَ دين الإسلام ، أو اتباعَ شريعةٍ غير شريعة محمد ﷺ فهو كافر ، وهو ككُفْر من آمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعضه" ^(٤) .

^(١) فتح المجيد ، حاشية ص (٤٠٦)

^(٢) أو "الياسق" : كلمة مغولية تركية ، تعني : قانون التتار الذي وضعه زعيمهم جنكيزخان . وهو عبارة عن مجموع من الأحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية ، والنصرانية ، والملة الإسلامية . وفيها الكثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعاً متبَعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . ومن فعل ذلك منهم فهو كافر ، يجب قتاله حتى يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فلا حكم سواه في قليل ولا كثير . ينظر : ابن كثير : التفسير (١٢٣/٣)

^(٣) البداية والنهاية (١١٩/١٣)

^(٤) مجموع الفتاوى (٢٨٨/٤)

وقال رحمه الله : "والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه ، وحرّم الحلال المجمع عليه ، أو بدّل الشرع المجمع عليه = كان مرتدّاً باتفاق الفقهاء"^(١) .

✽ وقد فضّل ابن تيمية رحمه الله الحكم الشرعيّ ، والإجراء العمليّ عن هؤلاء التتار ، الذين يُعلنون إسلامهم وإقرارهم بالشهادتين ؛ لكنهم يتحاكمون إلى شريعة جنكيزخان (الياسق) ويقتلون المسلمين ، ويُسبون ذراريهم ، ويهتكون حرّامات الدين ؛ من إذلال المسلمين ، وإهانة المساجد . فسئل ابن تيمية عن حكم مقاتلة التتار مع ادعائهم الإسلام ، فقال رحمه الله (في إحدى الأجوبة المبنية على قاعدة أصولية في الفتوى عزيزة ، لازمة لكل من تصدى للفتوى ، خاصة في المسائل المستجدة) : "نعم ، يجب قتال هؤلاء بكتاب الله وسنة رسوله ، واتفاق المسلمين . وهذا مبني على أصليين : أحدهما : المعرفة بحالهم"^(٢) . والثاني : معرفة حكم الله في أمثالهم " . ثم فصل في هذين

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٦٧)

(٢) قلتُ : المعرفة بأحوال الناس شرط أساس للمفتي بفقهِ الواقع ، وللعالم قبل تطبيق حكم الله فيهم . وهذه المعرفة تسمى بـ (فقهِ الواقع) أو (فهم الواقع) كما سماها ابن القيم رحمه الله ، وقد اشترط ابن القيم رحمه الله المعرفة بأحوال التتار قبل إصدار فتواه فيهم ، وأكد رحمه الله على هذا العلم في كتابه (إعلام الموقعين) فقال : "لا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم :

أحدهما : فهم الواقع ، والفقهِ فيه ، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات ، حتى يحيط به علماً .

الثاني : فهم الواجب في الواقع ، وهو فهم حكم الله الذي يحكم به في كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع ، ثم يطبق أحدهما على الآخر . ومن تأمل الشريعة وقضايا الصحابة وجردها طافحةً بهذا ، ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم ، ونسبَهُ إلى الشريعة التي بعث الله بها رسوله " . وهذا إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يؤكد على أهمية هذا الشرط للمفتي بقوله : "لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا ؛ حتى يكون فيه خمس خصال = :

=أولها : أن تكون له نية . فإن لم يكن له نية ، لم يكن عليه نور ، ولا على كلامه نور (أي : إخلاص)

الثانية : أن يكون له علم ، وحلم ، ووقار ، وسكينة .

الثالثة : أن يكون قوياً على ما هو فيه ، وعلى معرفته (أي : متمكناً من العلم)

الرابعة : الكفاية ، وإلا مضغه الناس (أي : الاستغناء عن الناس)

الخامسة : معرفة الناس (أي : علم الواقع)

ويشترط ابن تيمية رحمه الله للإفتاء بأمور الجهاد شرطين اثنين ، فيقول : " الواجب أن يُعتبر في أمور الجهاد أهل الدين الصحيح في الباطن ، الذين لهم خبرة بما هم عليه أهل الدنيا ، دون أهل الدنيا الذين يغلب عليهم النظر إلى ظاهر الدين ، فلا يؤخذ برأيه ، ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا" .

وذكر الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسيره ، أن فقه المسلم لواقعه من لوازم معرفة لا إله إلا الله على معناها الصحيح . و بفقهِ الواقع يكتمل تحقيق مبدأ الولاء والبراء ، وهذا المبدأ أصل من أصول عقيدة التوحيد التي جاءت بها لا إله إلا الله . وهذا العلم بفقهِ الواقع أصله من الكتاب والسنة ، وفقه سلف الأمة . ومن أقوى الأدلة على عناية الكتاب والسنة بفقهِ الواقع : قصة فارس والروم ، وفيها يبرز اهتمام الصحابة ﷺ بهذا العلم ، على الرغم من أن القضية كانت بين كافرين ، ومع ذلك خلّدها القرآن الكريم ؛ لأثرها المباشر على حياة المسلمين . وكيف عايش أبو بكر ﷺ هذه الأحداث ، والمراهنة على انتصار الروم ، وإقرار الرسول ﷺ لأبي بكر ﷺ ؛ بل طلبه أن يمدّ في الأجل (الدفع) إلى عشر سنوات . أما السُّنة فقد حفلت بكثير من الوقائع والشواهد . ومن أهمها :

١- إرسال النبي ﷺ المستضعفين من الصحابة ﷺ إلى الحبشة بقوله : (إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد) وهذا يعني أن النبي ﷺ كان يعرف نظم الحكم والبيئات السائدة في عصره ، والتي هي قريبة من مكة . فأمرهم ﷺ بالهجرة إلى هذا الملك الذي لا يُظلم عنده أحد .

٢- عندما أرسل ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له : (إنك تأتي قوماً أهل كتاب) وهذا من إدراكه ﷺ واقع كل بلد ، وما يحتاج إليه ؛ لذلك قال له : (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ...) أخرجاه في الصحيحين .

الأصلين ، وذكر الأدلة من الكتاب والسنة ، وفعل الصحابة ﷺ مع المرتدين والخوارج ، وكان يقول للناس : "إذا رأيتُموني من ذلك الجانب ، وعلى رأسي مصحفٌ فاقتلوني" فتشجع الناس في قتال التتار ، وقويت قلوبهم ونيأتهم . والله الحمد ^(١) .

وعلى مرّ التاريخ وُجد من الطوائف من حَكَمَ بعض بلاد المسلمين ، وفرض عليهم عقائد ، وسنَّ شرائع مخالفة للإسلام ، وفرضها عليهم . فهؤلاء خارجون عن الإسلام ؛ كالدولة العبيدية في مصر التي قال عنها ابن تيمية رحمه الله : "إن القاهرة بقي ولاية أمورها نحو مائتي سنة على غير شريعة الإسلام ، وكانوا يُظهرون أنهم رافضة ، وهم في الباطن إسماعيلية ، ونصيرية ، وقرامطة باطنية" . كما قال فيهم الغزالي في كتابه

٣ . في صلح الحديبية ظهر لنا بوضوح : كيف كان ﷺ على معرفة عالية بأحوال الناس النفسية ، وظروفهم الاجتماعية ، ودراسة البيئة التي تحيط بالمسلمين . وكانت معرفته تنال الأفراد = ففي هذا الصلح يأتي أحد المشركين للتفاوض مع النبي ﷺ ، فيقول ﷺ : (هذا رجل فاجر) فكان كما قال ﷺ . ويأتي آخر فيقول ﷺ : (هذا رجل متأله ، ابعثوا الهدى في وجهه) فبعثوا الهدى في وجهه ، فرجع وهو يقول : "ما كان لمثل هؤلاء أن يُصدّوا عن البيت" . ويأتي سهيل بن عمرو ، فيقول ﷺ : (سهل أمركم) فكان الصلح .

٤ . بروز علم الواقع في غزواته ﷺ ورسائله إلى الأمم والملوك والقبائل ، وكذلك ظهر علم الواقع جلياً في استقباله ﷺ للوفود ، وتعامله معهم ، وإنزاله للناس منازلهم . =

٥ . وأخيراً : يقتضي الواجب الشرعي تبصير المسلمين جميعاً بواقعهم ، ومعرفتهم ما يدور من حولهم ، وأن يكونوا على اطلاع واسع ومعرفة أخبار وأحوال المسلمين ، والكافرين من حولهم في كل أنحاء العالم، حتى يتمكن المسلم من التفاعل مع إخوانه المسلمين ، ويعايش الأحداث ساعةً بساعة ، ويعيش قضايا المسلمين وهمومهم .

ينظر : ابن القيم : إعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق طه عبد الرؤوف (٤/ ١٥٣) (بيروت ، دار الجيل ، د.ت) ، (١/ ٩٤) العمر : د. ناصر بن سليمان ، فقه الواقع مقوماته وآثاره ومصادره (ص ١٤ - ١٥) (ط١ ، الرياض ، دار الوطن للنشر ، ١٤١٢هـ)

^(١) ابن كثير : البداية والنهاية (١٤/ ٢٤٠٣)

الذي صنفه في الرد عليهم (فضائح الباطنية وفضائل المستظهيرية) : "ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المخض"^(١).

واتفتت طوائف المسلمين ، وعلمائهم ، وملوكهم ، وعامتهم من الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، وغيرهم : أنهم كانوا خارجين عن شريعة الإسلام ، وأن قتالهم كان جائزاً .

بل نصّوا على أن نسبهم كان باطلاً ... والذين يوجدون في بلاد المسلمين من الإسماعيلية والنصيرية والدرزية وأمثالهم ؛ هم من اتباعهم ، وهم الذين أعانوا التتار على قتال المسلمين^(٢) . وكان وزير هولاءكو النصير الطوسي من أئمتهم^(٣)

ومن خلال عرض ما سبق يُلاحظ ما يلي :

• إن هذه الآيات نزلت تفضح المنافقين الذين يُعرضون عن حكم الله وحكم رسوله ﷺ .

• وضحت العلاقة بين المنافقين واليهود ، ودور الجميع في ضرب الإسلام ، والاحتيال على شريعة الإسلام . ومن يستقرئ التاريخ يرى ذلك ديدنهم على مختلف الأزمان والأوطان . وسنوضح ذلك في الفصل القادم إن شاء الله .

^(١) فضائح الباطنية وفضائل المستظهيرية ، عبد الرحمن بدوي (ص ٣٧) (الكويت ، مؤسسة دار الكتب الثقافية ، د.ت)

^(٢) ومن العجيب ، وابن تيمية يشير إلى لقائه مع التتر : أنّ من نصوص قانون التتار الياسق (وذكر بعضه المقريري في خطه أيضاً) : الأمر بتميز ولد علي بن أبي طالب ﷺ ، وأن لا يكون عليهم كلفة ولا مؤنة . يقول : "وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب ﷺ مؤنة ولا كلفة" . ينظر : المقريري : الخطط ، بولاق ، (٢٢٠/٢)

^(٣) مجموع الفتاوى (٦٣٦.٦٣٥/٢٨)

• يدخل في حكم الكفر والخروج عن ملة الإسلام ؛ كُلُّ مَنْ :

- من حكم بغير ما أنزل الله ، ويرى أن ذلك أحسن من شرع الله ، فهو كافر عند جميع المسلمين .

- وكذلك من يحكم القوانين الوضعية بدلاً من شرع الله ، ويرى أن ذلك جائزاً . وإن قال : إن تحكيم الشريعة أفضل ؛ فهو كافر . لكونه استحل ما حرم الله . وقد سبق تفصيله . وهذا يسمى "كُفر التشريع" من دون الله . وهو من نواقض الإسلام ، قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس ، فهي كفرٌ بواح ، لا خفاء فيه ، ولا مُدارة^(١) .

✽ وقال الشيخ سفر بن عبد الرحمن الحوالي حفظه الله مؤكداً هذه الحقيقة : "هذا الحشد من الآيات وأمثالها في القرآن كثير ؛ بل إن موضوعها لهو موضوع القرآن الرئيس ، مع ذكر ما ذكره العلماء في فهمها من الأقوال ؛ ليدلُّ دلالة قاطعة على نفي الإيمان عمن ابتغى غير الله حكماً في أية قضية من قضايا الحياة ، والحكم عليه بالكفر ، والشرك ، والنفاق ، والجاهلية"^(٢)

✽ قال الشيخ محمد بن إبراهيم^(٣) رحمه الله : "إن من الكفر الأكبر المستبين : تنزيل القوانين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ؛ ليكون من المُنذرين ، بلسانٍ عربي مبين ، في الحكم به بين العالمين ، والرد إليه عند تنازع المتنازعين ؛ في

(١) شاكر : عمدة التفسير (١٧٣/٤)

(٢) العلمانية (الكويت ، الدار السلفية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٨هـ) ص (٦٨٦)

(٣) رسالة تحكيم الوانين ، ص (٧٠٣-١)

مناقضة ومعاندة لقوله ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوَلِ الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا

النساء: ٥٩

فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي ﷺ مع الإيمان في قلب عبد أصلاً؛ بل أحدهما ينافي الآخر^(١).

^(١) قلت : ينبغي التأكيد هنا على مسألة في غاية الأهمية ، وتمس العقيدة في الصميم ، وهي : أن أكثر الجماعات الإسلامية والدعاة يؤكدون على مسألة الحكم بما أنزل الله تعالى ، وما يترتب عليها من عبادة الطاغوت ، أو الزعماء المشرعين من دون الله . وهذا النوع من التوحيد بلا شك في غاية الأهمية ؛ لكن الخلل يكمن في إهمال جوانب التوحيد الأخرى التي تخص توحيد الألوهية أيضاً ؛ كالذبح لغير الله ، أو دعاء الأموات والنذر لهم ، والحلف بغير الله . وكذلك يكمن الخلل في إهمال توحيد الأسماء والصفات . فإذا قلنا : لا حُكْمَ إلا لله ، ولا مشرّع إلا الله (وهذا هو من صلب التوحيد) فيجب أن نقول أيضاً : لا يُستغاث إلا بالله ، ولا يُستعان إلا بالله ، ولا يُذبح إلا لله ، ولا يُتوَكَّل إلا على الله ، ولا يُخلف إلا بالله . هذه الأمور هي أيضاً من صلب توحيد الألوهية . فلا بد من فهم التوحيد فهماً شاملاً ، والتأكيد على أنواع التوحيد الثلاثة ومستلزماته ، وهي :

١ - توحيد الألوهية .

٢ - توحيد الربوبية .

٣ - توحيد الأسماء والصفات .

لهذا كان سلفنا الصالح يفهمون هذا الفهم الشامل المتكامل ، وصنّفوا في كل الأقسام . فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتب عن الفرق الضالة والمُنحرفة عن منهج الصحابة والسلف ، وأكد على وجوب التزام منهج السلف في الأسماء والصفات ، وفي الوقت نفسه أكد على الشرك وأنواعه ، وأكد على وجوب تحكيم شريعة الله ، والكفر بما سواهما ، فكفر العاملين بشريعة التتار (الياسا) وقانون جنكيزخان ، ولم يترك أي نوع من أنواع = التوحيد إلا وأكد عليه ، ولم يترك أي نوع من أنواع الشرك إلا وحذر منه . وكتبه ومصنفاته خير دليل على ما نقول .

ويدخل في ذلك أيضاً :

- من اعتقد أن الإسلام سببٌ في تخلف المسلمين .

وهذا الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عقد أبواباً في كتابه الفريد (التوحيد) شملت جميع أنواع التوحيد بلا استثناء . ومن ذلك :

١ . باب تفسير التوحيد وشهادة الا إله إلا الله .

٢ . باب ما جاء في الذبح لغير الله .

٣ . باب ما جاء في الغلو في قبور الصالحين ، وصيرها أوثاناً .

٤ = . باب ما جاء في السحر .

٥ . باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات .

٦ . باب من أطاع العلماء والأمرء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله .

٧ . باب قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ

يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠

٨ . باب ما جاء في منكر القدر .

وكذلك كتب الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ المفتي الأسبق ، والشيخ حمد بن عتيق ، والشيخ أحمد محمد شاكر ، والشيخ عبد العزيز بن باز ، والشيخ محمد بن صالح بن عثمان ، والشيخ ابن جبرين . رحمهم الله جميعاً .

وخلاصة القول : إنه يجب فهم التوحيد فهماً شاملاً متكاملأ ، والتأكيد على جميع أنواعه وأقسامه ، وعدم قَصره على بعض أنواعه . ويستلزم هذا أيضاً : تطبيقه ، وتعليمه ، والدعوة إليه ؛ لأن تقديم التوحيد شاملاً هو منهج القرآن الكريم ، ومنهج السنة النبوية المطهرة . وتبعيض التوحيد خللٌ في دائرة التوحيد ، والعقيدة .

- أو : أن الإسلام ينحصر في علاقة المرء بربه ، دون أن يتدخل في شؤون الحياة الأخرى .
- أو : لا يرى أن إنفاذ حكم الله يقطع يد السارق ، أو رجم الزاني المحصن لا يناسب العصر الحاضر .
- من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه . كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه ؛ فهو كافر^(١) .

❁ عقيدة أهل السنة والجماعة بتكفير من تحاكم إلى غير شرع الله ، والرد على شبّه المرجئة^(٢) والمنافقين :

^(١) ابن باز : مجمع الفتاوى (١٣٧/١) وينظر : التميمي : نواقض الإسلام (ضمن مجمع المؤلفات) (٢١٢/٥)

^(٢) عقيدة ضالة تريد فصل العمل وإخراجه عن حقيقة الإيمان بحيث يصبح الإنسان مؤمناً بدون عمل ، فلا يؤثر تركه في الإيمان انتفاءً ولا انتقاضاً ، وعقيدة الإرجاء عقيدة باطلة قد أنكرها لعلماء وبينوا بطلانها وآثارها السيئة ومضاعفاتها الباطلة ، وأصحاب هذا المذهب يُشنعون ويلمزون الذين لا يوافقونهم في رأيهم هذا من أهل السنة والجماعة بالخوارج والتكفيريين ، وهذا من جهلهم بعقيدة أهل السنة والجماعة .

لابد هنا من التأكيد على أنّ من تحاكم إلى غير شرع الله كفر ، فلا يُشترط أن ينطق ويقول بالاستحلال (كما هي أصول عقيدة المرجئة المبتدعة) الذين يحصرون الكفر بالتكذيب والاستحلال . فيردّ على هؤلاء وأمثالهم بأمرين اثنين :

أولاً : إن الكفر لا يختص بالتكذيب فقط ، بل يكون بالتكذيب ، ويكون بغيره من المكفرات ؛ من أقوال اللسان ، وعمل الجوارح .

وهذه بعض الأمثلة التي ذكرها العلماء :

١. من استهزأ بالله ، أو بدينه ، أو برسوله كفر . قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ سَتَهْرَءُونَ ﴾ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ التوبة: ٦٥ - ٦٦

ومرجئة العصر أضافوا إلى انحرافاتهم طامة من الطامات وهي موالاتهم للكفار الحربيين المحتلين على المسلمين المجاهدين ، كما فعلوا في العراق من مظاهرة ومناصرة الأمريكان والرافضة الصفويين على المجاهدين من أهل السنة والجماعة ، وانخرطوا في أخس وأقذر وأحقر ناس هم الصحوات المرتدين الذين باعوا دينهم بديناهم وصدق السلف عندما سموا المرجئين بـ (يهود القبلة) .

قال النضر بن شميل : الإرجاء دين يوافق الملوك ، يصيبون من دنياهم ، وينقصون من دينهم .

ينظر : البداية والنهاية (٢٦٧/١٠) .

ينظر : الشيخ سفر الحوالي ، ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ، القاهرة ، مكتبة طيبة ، ١٤١٧ هـ ، ص (٣٢)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم ، مع قولهم : إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ؛ بل كنا نخوض ونلعب . وبين أن الاستهزاء بآيات الله كُفْرٌ" (١) .

ويقول أيضاً : " قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ فاعترفوا واعتذروا ، ولهذا قيل : ﴿ لَا تَعْنَدِرُوا فَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ فدل على أنهم لم يكونوا قد أتوا كفراً ؛ بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر .

فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسله ورسله كُفْرٌ ، يكفر به صاحبه بعد إيمانه . فدل أنه كان عندهم إيمان ضعيفٌ ، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرمٌ ، ولكنهم لم يظنوه كُفْرًا ، وكان كفراً كفروا به ؛ فإنهم لم يعتقدوا جوازَه .

وهكذا قال غير واحد من السلف في صفة المنافقين الذين ضرب لهم مثل في سورة البقرة : أنهم أبصروا ، ثم عموا . وعرفوا ، ثم أنكروا ، وآمنوا ، ثم كفروا" (٢) . فهؤلاء كفروا بهذا الاستهزاء ، دون النظر إلى اعتقادهم . بل ظاهر الآيات أنهم لم يعتقدوه . وسنوضح موضوع الاستهزاء بالتفصيل في الفصل الثالث .

٢- إبليس كفر لامتناعه عن السجود لآدم ، مع أنه عارف بالله ، وقد حلف بعزته ، وطلب منه الإنظار إلى يوم يبعثون . فهو مصدقٌ بالله ، عارفٌ به ، مصدقٌ باليوم الآخر . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٤) البقرة: ٣٤ فكُفْرُه كُفْرُ إِبَاءِ وَاسْتِكْبَارِ ، وَسَبِيهِ الْاِمْتِنَاعِ عَنِ السَّجُودِ . فَهُوَ كَفَرٌ بِمَجْرَدِ هَذَا الْفِعْلِ ، وَلَمْ يَنْفَعَهُ تَصَدِيقُهُ ، وَعَدَمُ جَحْدِهِ .

(١) الإيمان ، ص (٢٠٨)

(٢) الإيمان ، ص (٢٦٠)

٣. قد كفر الله أقواماً لأقوال قالوها ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ المائدة: ١٧ وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ المائدة: ٧٣ فهذه أقوال مكفرة بذاتها الكفر الأكبر ، ولن ينفع قائلها تصديق
قلبه ؛ لو كان مصدقاً أن الله وحده لا شريك له ^(١) .

٤. عبادة القبور الذين يدعونها من دون الله ، ويذبحون لها ، ويستغيثون بها . هم
كفار بمجرد فعلهم هذا ، ولو زعموا أنهم موحدون ، وأنهم يعتقدون في قلوبهم أن
النفع والضرب بيد الله وحده ، وقالوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فكل ذلك لن
ينفعهم .

وتقرير هذا معلوم ، وكلام الأئمة فيه كثير جداً قديماً ، وحديثاً . حيث ردوا
شبهات القبوريين الذين احتجوا بحجج المرجئة على أن دعاء القبور والذبح والنذر لها
ليس شركاً ، ولا كفراً ؛ إلا إذا كان الداعي والذابح والناذر مصدقاً بقلبه . والشاهد هنا :
أن مجرد الفعل كفر أكبر ؛ استحلّه أو لم يستحلّه . وبهذا تُنقض دعوى من زعم أن أي
ذنب لا يكفر صاحبه إلا إذا استحلّه ^(٢) .

٥ . سبُّ الله تعالى ، أو سبُّ رسوله ﷺ كفر أكبر ؛ سواء استحلّه أو لم يستحلّه .
وقد حكى الإجماع على هذا غير واحدٍ . وسنوضح هذا الناقض الكفري في الفصل
الثالث بالتفصيل .

٦ . أجمع الصحابة رضي الله عنهم على كفر مانعي الزكاة الذين قاتلوا عليها . والشاهد : أن
المانعين للزكاة كفروا بمجرد المنع ؛ سواء كانوا جاحدين لوجوبها ، أو غير جاحدين .

^(١) المحمود ، عبد الرحمن بن صالح ، الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه (ص ٣٠٩) (ط ٢) ،
الرياض ، دار طيبة للنشر ، ١٤٢٠هـ

^(٢) المحمود : الحكم بغير ما أنزل الله (ص ٣١٠)

ولذلك لما أرادوا التوبة قال أبو بكر ﷺ : "لا تُقبل توبتكم حتى تشهدوا أن قتلنا في الجنة ، وقتلاكم في النار" . وقال أبو بكر لعمر ﷺ "لو منعوني عنّا كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها" . فجعل المييح للقتال مجرد المنع ، لا جحد وجوبها . وقال عمر ﷺ : "والذي نفسي بيده لو أطاعنا أبو بكر كفّرنا في صبيحة واحدة، إذ سألوا التخفيف عن الزكاة ، فأبى عليهم ، وقال : لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه"^(١) .

٧. من زعم أنّ أحداً من الخلق ؛ من وليّ ، أو غيره ؛ يسعُهُ الخروج على شريعة محمد ﷺ فهو كافرٌ ، بصرف النظر عن كونه معتقداً ذلك ، بقلبه ، أو لا .

٨ . الإجماع على كُفر من استخفّ بالقرآن ، أو أهانه ؛ سواءً اعتقد الإهانة في قلبه ، أو لا .

٩ . تارك الصلاة . والمقصود هنا : غير الجاحد لوجوبها ؛ إذ الجاحد لا خلاف فيه . وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على كفر تارك الصلاة .

وخلاصة القول :

يمكن الرد على شبه المرجئة في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله بما يأتي :

١ . يحتج المرجئة بأن الكفر في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤ هو في حق المستحل .

وهذه الشبهة يردّها إجماع الصحابة على أن الذنوب المكفّرة بذاتها يكفر فاعلها بمجرد فعلها ، دون النظر في الجحد ، أو الاستحلال . ومنها : ترك الصلاة ، والحكم

^(١) ابن أبي شيبة : المصنف (٥٦٩/٧)

بغير ما أنزل الله ، وسبُّ الله ﷻ ورسوله ﷺ أمَّا الذنوب غير المكفِّرة بذاتها ؛ كسرب الخمر ، فلا يكفر فاعلها إلا إذا استحلها .

٢. يحتجّ غلاة المرجئة أيضاً : بأن الكفر في هذه الآية كُفْرٌ أصغرٌ غيرٌ مُخرجٍ من الملة . أو : هو كفر دون كفر ، والصحيح أن التحكيم بغير ما أنزل الله يكون كفراً أكبر إن كان التشريع والتحاكم في جميع القضايا بغير ما أنزل الله . أما إن كان التحاكم بغير ما أنزل الله في قضية خاصة فهو كفر دون كفر . أو إنه في حق من استحل .

ويُردّ على هذه الشبهة بما يلي :

أ : أن ما يُنسب إلى ابن عباس ؓ من ذلك ؛ إنما هو أثرٌ ضعيفٌ ؛ كونه انفراد به هشام بن مجي . ولو صح ذلك عن ابن عباس لكان مردوداً . فقد عارضه غيره من الصحابة ؛ كابن مسعود ؓ الذي قال : "ذاك الكفر" . وقول الصحابي لا يُخصِّصُ النصَّ العام . كما أن قول الصحابي لا يحتج به إذا عارضه قول صحابي آخر ؛ بل يجب الترجيح بينهما .

ب : الكفر في الآية جاء معرفاً ب (ال) (الكافرون) فهو الكفر الأكبر ، المستغرق للكفر . وكل هذه قواعد أصولية متفق عليها .

ثانياً : حَضْرُ الكُفْرِ في الاستحلال . وهذا فهمٌ ناقص ، ومخالفٌ لأصول أهل السنة والجماعة من عدة أوجه ، منها :

١. أن الكفر يكون بالاعتقاد في القلب ؛ كمن اعتقد أن الله نداً أو شريكاً ، أو مثيلاً ، أو أنه لا يعلم كل شيء ، أو لا يقدر على كل شيء ، أو أن الساعة غير آتية وأن الله لا يبعث من في القبور ، أو اعتقاد أن القرآن اشتمل على باطل ، أو أن شيئاً مما جاء به النبي ﷺ غير حق ، أو أن شريعة الإسلام لا تصلح لهذا العصر ، أو أن الأولياء

يتصرفون في الكون ، أو يستجيبون لمن دعاهم واستغاث بهم . ومن ذلك : النفاق الأكبر بكل ألوانه ، وصوره . وهو باب واسع .

٢ . ويكون الكفر بالقول باللسان ؛ كمن سب الله ورسوله ، ومدح الأصنام ، وهجا الأنبياء ، واستهزأ بالدين ، ودعا إلى الكفر والردة ، وسخر من بعض أحكام الشرع ، وصنّف في ذلك ، أو قاله بأي وسيلة .

٣ . ويكون الكفر أيضاً بالعمل الظاهر ؛ كمن قاتل الأنبياء ، وعذب أتباعهم ، وهدم المساجد ، وحرّق المصاحف ، وذبح لغير الله ، وسجد للأصنام ، وتعلّم السحر أو علمه ، وقاتل المؤمنين مع الكافرين ، أو نصرهم بالمال والسلاح على المؤمنين ، أو يكرّم المرتدين ويعظّمهم ، ويهين المؤمنين ويحتقرهم ، ويتحاكم إلى الطاغوت ، ويذهب إلى الكهنة ويصدّقهم ، ونحو ذلك .

وعلى هذا تدل نصوص الكتاب والسنة قطعية الدلالة ، وعليه إجماع المسلمين ، قبل ظهور البدع ، وتبعهم كبار فقهاء الملة في أبواب حكم المرتدين من كتبهم^(١) . مما يطول نقله . ولا يجادل في هذا إلا من دخلت عليه شبهة الإرجاء ، أو تناقض فاتبع كلام إمامه في تصانيفه الفقهية ، وتبع المتكلمين في تصانيفهم أو آرائهم العقديّة . فحضر الكفر في قول القلب وحده ضلالاً عظيماً ، وخطأً جسيماً ؛ إن لم يكن كفراً صريحاً . كما هو حال من صرّح به ، أو التزم لوازمه . ولهذا ونحوه كفر بعض السلف الجهميّة ، ولم يعدّوهم من فرق أهل القبلة . ونصّ شيخ الإسلام على أنّ من جوّز أن يكون من تكلم بالكذب والجحد ، وسائر أنواع الكفر من غير إكراه = مؤمناً في الباطن "فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه" .

(١) الدرر السنية (٨٨/٨) ، وينظر : تعليق الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله على قول صاحب الأعناق "المرتد الذي يكفر بعد إسلامه ، نطقاً ، أو شكاً ، أو اعتقاداً ، أو عملاً" .

٤- إن الاستحلال كُفْر برأسه^(١) ؛ سواءً فعل صاحبه ما أحلَّ من المحرمات أم لم يفعل . ولهذا قال شيخ الإسلام في مَنْ سب النبي ﷺ : "إن اعتقاد حلِّ السبِّ كُفْر ؛ سواءً اقترن به السب ، أم لم يقترن" . ولذلك فمن شرَّع الزنا ، أو الربا ، أو شرب الخمر، وأصدر لها المراسيم والقوانين التي ترخص بها ، وتحدد لها الأنظمة في عملها، وتعين المحاكم التي تختص بفض النزاعات فيها ، ورتب حراستها ، وألزم بمقتضى ذلك ؛ فقد كُفْر ؛ وإن لم يَزِنِ مرَّةً واحدةً ، أو يشرب من الخمر قطرةً ، أو يأكل من الربا درهماً واحداً .

٥- إنَّ الكُفْر أعظم المعاصي بإطلاق . والاستحلال ينقل المعصية التي هي دون الكفر إلى مرتبة الكفر بإجماع أهل السنة والمرجئة سواء . فإذا ثبت ذلك ؛ فالى أي مرتبة ينقل الاستحلال الكُفْر ، وليس وراءه مرتبةً أخرى ؛ بل هو بذاته كُفْر . فدلَّ ذلك على أن موضوعه المعاصي التي هي دون الكفر ؛ لا الكفر . فإن اقترن بالكفر كان زيادةً فيه ؛ كمن يكفر بالبعث ، ثم يكفر بالله .

٦- إنه لا يجوز أن يقال : لا بد أن يكون المستحلُّ مكذباً بالدين حتى يكفر ، كما لا يجوز أن يقال في المكذب بالدين أن يكون مستحلاً للتكذيب . فكذلك المعاند ، والمستكبر ، والشاك ، وغيره . فتبين أنه لا يصح جعل أحد أنواع الكفر شرطاً في الأنواع الأخرى ، أو قيداً فيها .

٧- إن الاستحلال نفسه يكون بالاعتقاد ، والقول ، والعمل . فالاعتقاد واضح ، والقول ، كمن يقول : إن الزنا ، أو الربا ، أو شرب الخمر حلال . ومن ذلك قصة قدامة بن مظعون ومن معه في شرب الخمر . والعمل كقصة الرجل الذي تزوج امرأة أبيه ، فأمر النبي ﷺ بقتله ، وتخمس ماله . ولم يأمر بسؤاله : أنت مستحلٌّ أو مُقَرَّرٌ ؟ . روى البراء بن عازب رضي الله عنه قال : "لقيت خالي أبا بردة ومعه راية ، فقال : أرسلني رسول الله ﷺ

(١) الحوالي : ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي (٧١٢/٢)

إلى رجل تزوج بامرأة أبيه أن أقتله وأخذ ماله^(١). وحديث معاوية بن قرة عن أبيه عن جده ﷺ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى رجل عرس بامرأة أبيه فضرب عنقه وخمس ماله^(٢).

٨. إن حضر الكفر في الاستحلال يقتضي أن لا يكفر أحدٌ يقول : أنا غير مستحل، وأنا اعتقد أن هذا حرام ؛ مهما عمل من المكفرات ، حتى لو سب الله ورسوله، وأهان المصحف ، ونجس المسجد ، ونصر الكفار على المؤمنين ، وشرع الكفر بأنواعه ؛ ما دام لم يصرح بالاستحلال ، أو صرح باعتقاد أن ذلك محرّم في الشرع^(٣).

بل على هذا لا يكاد يكفر من الناس إلا القليل ، فإنّ أبا طالب مات على دينه ، وهو يعتقد أنه على باطل ، وأنّ دين محمد ﷺ هو الحقّ . وهرقل أقام على دينه ، مع اعتقاده أن ذلك حرام عليه ، ولكن شهوة الملك غلبت داعي الحق . وكذلك أحبار اليهود الذين اعتقدوا بقلوبهم وجوب اتباع النبي ﷺ ولكن لم يتبعوه . بل كثير من كفار قريش لم يكونوا يعتقدون صحة عبادة الأصنام ، وأنها خير من التوحيد ، وأن الله لم يحرم عبادتها . وهكذا فأكثر كُفر الخلق هو من جهة الإباء ، والاستكبار ، وترك الانقياد والاتباع ، لا من جهة اعتقاد أن الكفر حلال^(٤).

لذلك جعل العلماء من الكفر الأكبر بعض الحالات لمسألة الحكم بغير ما أنزل الله .

وأهمها :

^(١) ابن أبي شيبة : المصنف (٥٤٩/٥) حديث رقم (٢٨٨٦٧) النسائي : السنن الكبرى (٣٠٧/٣) حديث رقم (٥٤٨٨) ابن حبان : الصحيح (٤٢٣/٩) حديث رقم (٤١١٢)

^(٢) الدارقطني : السنن (٢٠٠/٣) حديث رقم (٣٥٠)

^(٣) الحوالي : ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي (٧١٥/٢)

^(٤) الحوالي : ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي (٧١٦/٢)

١. أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقيّة حُكم الله ورسوله . وهذا ما لا نزاع فيه بين أهل العلم ، فإن الأصول المتقرّرة المتفق عليها بينهم : أن مَنْ جحد أصلاً من أصول الدين ، أو فرعاً مجمعاً عليه ، أو أنكر حرفاً مما جاء به النبي ﷺ قطعياً ؛ فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة ^(١) .

٢. أن لا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كونَ حكم الله ورسوله حقّاً ، لكن اعتقد أن حكم غير رسول الله ﷺ أحسن من حكمه ، وأتمّ ، وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع . وهذا أيضاً لا ريب أنه كُفر ، لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان ، وتقديم حثالة الأفكار على حكم الحكيم الحميد ^(٢) .

٣. أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله ، لكنه اعتقد أنه مثله ، فهذا كالنوعين اللذين قبله ، في كونه كافرأ الكفر الناقل عن الملة ؛ لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق ، والمناقضة والمعاندة لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى: ١١ وكونها من الآيات الدالّة على تفرد الربّ بالكمال ، وتنزيهه عن مُماثلة المخلوقين في الذات ، والصفات ، والأفعال ، والحكم بين الناس فيما يتنازعون فيه ^(٣) .

٤. أن لا يعتقد كونَ حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله ، فضلاً عن أن يعتقد كونه أحسن منه ، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ، فهذا كالذي قبله ، يصدق عليه ما يصدق عليه ؛ لاعتقاده جواز ما عُلم بالنصوص الصريحة الصحيحة القاطعة بتحريمه ^(٤) .

^(١) تحكيم القوانين (ص ٥)

^(٢) المرجع ذاته (ص ٥-٦)

^(٣) تحكيم القوانين (ص ٦)

^(٤) تحكيم القوانين (٦)

- وتأمل ؛ كيف ربط هذه الحالة بمسألة الاستحلال ؛ إذ إنهما في التكذيب سواء .
- ٥ . من اعتقد أن نظام الإسلام لا يصلح تطبيقه في هذا القرن .
- ٦ . أو اعتقد أن الإسلام سبب في تخلف المسلمين .
- ٧ . أو أن الإسلام ينحصر في علاقة المرء بربه ، دون أن يتدخل في شؤون الحياة الأخرى .
- ٨ . أو يرى أن إنفاذ حكم الله بقطع يد السارق ، أو رجم الزاني المحصن لا يناسب العصر الحاضر .

وهذه الأحوال وغيرها ذكرها العلماء عند الكلام على نواقض الإسلام ، وعقدوا لها أبواباً مستقلة ، وذكروا حكم المرتدين من أهل القبلة ، وقرروا من المكفرات أشياء كثيرة ، ونواقض الإسلام ، أو تسمى نواقض لا إله إلا الله . فهي تعد في مجموعها نقضاً لتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، وقد بينها السلف الصالح وعددوها ، وحذروا منها ومن الوقوع فيها . وذكر الفقهاء حكم المرتد ، وما تحصل به الردة .

وقد لخصها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في عشرة نواقض ؛ هي :

❖ نواقض الإسلام ^(١) :

- ١ . الشرك في عبادة الله . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (٤٨) النساء : ٤٨ ، وقال : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ المائدة : ٧٢ ومنه : الذبح لغير الله ؛ كمن ذبح للجن ، أو للغير .

(١) محمد بن عبد الوهاب ، الواجبات المحتمات (ص ١٠ - ١٢)

✽ يقول الشيخ سليمان بن ناصر العلوان : " ابتداءً الشيخ -رحمه الله تعالى- هذه النواقض العشرة بالشرك بالله، لأنه أعظم ذنب عُصي الله به، وهو هضم للربوبية، وتنقص للألوهية، وهو "تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله"^(١).

وكيف لا يكون أعظم ذنب عُصي الله به وقد جعلَ الله شريكاً في عبادته، وقد أوجده من العدم، وغذاه بالنعيم؟!

٢ . من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ، ويسألهم الشفاعة ، ويتوكل عليهم ؛ فقد كفر إجماعاً .

إنّ هذا الناقض من أكثر النواقض وقوعاً وأعظمها خطراً على المرء، لأن كثيراً ممن يتسمى باسم الإسلام وهو لا يعرف الإسلام ولا حقيقته جعل بينه وبين الرب - جل وعلا - وسائط يدعوهم لكشف الملمات وإغاثة اللهفان ، وتفريج الكربات ، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين؛ لأن الله -جل وعلا- ما أنزل الكتب وأرسل الرسل؛ إلا ليعبدوه وحده لا شريك له، ولكن أبى ذلك عباد القبور، وجعلوا وسائط يسألونهم جلب المنافع ودفع المضار، وجعلوا ذلك هو العبادة التي أمر الله بها، ومن أنكر عليهم شيئاً من ذلك؛ رموه بعدم تعظيم الأولياء والصالحين.

وهم بزعمهم الفاسد لا يسألون الله مباشرة تعظيماً منهم لله ويقولون: إن الله لا بد له من واسطة، كما أن الملك لا يُسأل إلا بواسطة الحجاب والله أولى بذلك من الملك.

فهم -والعياذ بالله- شبهوا الله بالمخلوق العاجز، ومن هذا الباب دخلوا، حتى خرجوا من الإسلام، وفي الكتاب والسنة مما يبطل قولهم ويقطع دابرهم كثير.

^(١) التبيان (ص ٥)

ومن تدبر القرآن طالباً للهدى ومؤثراً للحق، تبين له ذلك وتبينت له غربة الدين، وجهل كثير من الناس بدين رب العالمين .

٣- من لم يكفر المشركين ، أو يشك في كفرهم ، أو صحح مذهبهم ؛ كفر .

ولا يُحَكَّم بإسلام المرء حتى يُكفِّر المشركين، فإن توقّف في ذلك مع ظهور الأمر فيهم ، أو شك في كفرهم مع تبيّنه ؛ فهو مثلهم .

أمّا من صحّح مذهبهم، واستحسن ما هم عليه من الكفر والطغيان ؛ فهذا كافر بإجماع المسلمين ؛ لأنه لم يعرف الإسلام على حقيقته ، وهو: "الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله" وهذا والى أهل الشرك ، فضلاً عن أن يكفّرهم .

وبهذا يتبيّن لك ما عليه كثير من حكام البلاد التي تنتسب إلى الإسلام ؛ لأنهم وَالُوا أهل الإشراك ، وقربوهم ، وعظّموهم ، وجعلوا بينهم علاقات تدلّ على أنّهم إخوان لهم . إضافة إلى ذلك أنّهم عادوا أهل الدين ، وآذوهم ، وأودعوهم في السجون . فهل يبقى إسلام بعد هذا؟!!

✽ وللشيخ سليمان العلوان وقفة لطيفة هنا ؛ حيث قال : " قول الشيخ رحمه الله: "أوصح مذهبهم": يدخل فيه ما يدعو إليه كثير من أهل هذا الزمان ، ممن يدعون إلى الاشتراكية ، أو يدعو إلى العلمانية ، أو إلى البعثية ؛ فهذه كلّها فرق ضالّة كافرة ، وإن تسمى أصحابها باسم الإسلام ؛ لأن الأسماء لا تغير الحقائق .

ونشكوا إلى الله ما حلّ بنا في هذا العصر الغريب ، فقد انقلبت الموازين فأصبح الكثير يتعاملون مع الأسماء دون المسميات ، ومع الدعاوي دون البيّنات . فعَدُوّ الله الذي يحارب الدين ليلاً ونهاراً سرّاً وجهاراً قد صار مؤمناً موحداً ، عند الجهال المغفلين وأهل الشهوات ؛ بدعوى أنه يتلفظ بالشهادتين . وما يغني عنه تلفظه

بالشهادتين وقد صار جندياً من جنود إبليس ، وحرماً على هذا الدين بالنفس والمال؟!
فاله المستعان" (١) .

٤ . من اعتقد أنّ غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن
من حكمه ، كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه ؛ فهو كافر .

ومن هؤلاء الكفار : الذين يفضلون أحكام الطواغيت الوضعية على حكم رسول
الله ﷺ . فهؤلاء كفار ؛ لتفضيلهم أحكام أناس مثلهم -بل قد يكونون دونهم- على
حُكم رسول رب العالمين، الذي بعثه الله هدى للعالمين، وليُخرج الناس من الظلمات
إلى النور .

وانظروا ماذا حلّ بكثيرٍ من الدول لما خرجوا عن حكم الله ورسوله، ورَضُوا
بأحكام المخلوقين؟! الظلمُ دَيْدُنُهُم ، والباطلُ والفجور جارٍ بينهم ؛ من غير مُنكِرٍ ولا
نكير ، نشأ على هذا الصغير ، وهَرِمَ عليه الكبير ، حتّى تَغَيَّرَتْ فِطْرُهُمْ . فهم يعيشون
معيشةً بهيمية . وهكذا يعيش كلُّ مَنْ خرج عن حُكمِ الله ، ورسوله ﷺ .

هـ . من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ، ولو عمل به ؛ كَفَرَ .

وهذا كُفْرٌ باتِّفاق العلماء .

فمن ذلك : ما يتفوّه به كثيرٌ من الكُتّابِ الملحدين ، الذين تغدّوا بألبان الإفرنج ،
وخلعوا رِبقةَ الإسلام من رقابهم ؛ من كراهيتهم لتعدد الزوجات؛ ومحاربتة بشتى
الوسائل . وكذلك : كُزُّهُم أن تكون دية المرأة نصفَ دية الرجل ، وأنّ شهادة امرأتين
بشهادة رجلٍ واحد، وغير ذلك .

(١) التبيان (ص ٢٧)

فلذلك تجدهم يمدّون ألسنتهم نحو الأحاديث الواردة في هذا الشأن ؛ إمّا بصرفها عن ظاهرها ، وإمّا بتضعيفها ، بحجة أنّ العقل يخالفها ، وإمّا بمخالفتها للواقع .. وغير ذلك مما هو دالٌّ ومؤكّد لبغضهم لما جاء به الرسول . فهؤلاء كُفَّارٌ ، وإنّ عملوا بمدلول النص ، فهم لم يستكملوا شروط (لا إله إلا الله) لأن من شروطها : المحبة لما دلّت عليه ، والسرور بذلك ، وانسراح الصدر .

أما يعلم هؤلاء أنهم يحاربون الله ورسوله ، وأنهم يردّون على الله أمره ؟!

٦ . من استهزأ بشيءٍ من دين رسول الله ﷺ ، أو ثوابه ، أو عقابه ؛ كفر .

والدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿التوبة: ٦٥ - ٦٦﴾

فمن استهزأ بشيءٍ ممّا جاء به الرسول ﷺ ؛ كالاستهزاء بالعلم الشرعي وأهله ، وكالاستهزاء بثواب الله وعقابه ، والاستهزاء بالأميرين بالمعروف والناهيين عن المنكر ؛ من أجل أمرهم به أو نهيمهم عنه ، وكالاستهزاء بالصلاة ؛ سواءً كانت نافلة أو فريضة ، وكذلك الاستهزاء بالمصلين لأجل صلاتهم ، وكذلك الاستهزاء بمن أعفى لحيته لأجل إعفائها ، أو بتأرك الربا لأجل تزكته ؛ فهو كافرٌ .

٧ . السّحرُ . ومنه صرفُ الرجل عن محبة زوجته إلى بُغضِها . فمن فعله ، أو

رضي به ؛ كفر . لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ

فَلَا تَكْفُرْ ﴾ البقرة: ١٠٢

٨ . مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين ، لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ المائدة: ٥١

ومظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين فتنة عظيمة قد عمّت فأعمّت ،
ورزية رمت فأصمت ، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون بحب المشركين ،
ولا سيما في هذا الزمن ، الذي كثر فيه الجهل ، وقل فيه العلم ، وتوفرت فيه أسباب
الفتن ، وغلب الهوى واستحكم ، وانطمست أعلام السنن والآثار .

٩ . من اعتقد أن بعض الناس يسعّ الخرج عن شريعة محمد ﷺ ، كما وسع
الخضر عليه السلام الخرج عن شريعة موسى عليه السلام ؛ فهو كافر .

فمن رغب الخروج عن شريعة محمد ﷺ ، أو ظن الاستغناء عنها ؛ فقد خلع ربقة
الإسلام من عنقه .

١٠ . الإعراض عن دين الله تعالى ، لا يتعلمه ، ولا يعمل به . والدليل قوله
تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقَمُونَ ﴾
السجدة: ٢٢

والمراد بالإعراض الذي هو ناقض من نواقض الإسلام : هو الإعراض عن تعلّم
أصل الدين الذي به يكون المرء مسلماً ، ولو كان جاهلاً بتفاصيل الدين ؛ لأن هذا قد
لا يقوم به إلا العلماء وطلبة العلم .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : ولا فرق في جميع هذه المواقف بين
الهازل ، والجاد ، والخائف . إلا المكره .

و مما سبق في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله تعالى ، ومن إجماع العلماء ،
واتفاق أقوالهم ؛ تتضح عدة أمور . أهمها :

١ . أن الكفر لا يختص بالتكذيب ، ولا يُشترط له الاستحلال .

٢ . أن الكفر يقع بالقول والفعل .

٣ - أن المخالف في ذلك هم المرجئة ؛ لأن مقولتهم : لا يكفر إلا الجاحدُ . سببها : أنّهم لما عرّفوا الإيمان بأنه : التصديقُ فقط ؛ جعلوا الكُفْرَ محصوراً بما يضادُّه ، وهو : التكذيب ، والإنكار . وبذلك خالفوا أهل السنة والجماعة .

حالات الحكم بغير ما أنزل الله :

الحالة الأولى : المستحلّ ، أو الجاحد للحكم بما أنزل الله . فهذا لا خلاف في كفره الكفر الأكبر ، وإجماع السلف على ذلك . وكفره على كل حال ؛ سواءً حكم بغير ما أنزل الله ، أو لم يحكم ، ما دام جاحداً .

الحالة الثانية : الحاكم بغير ما أنزل ، غير المستحل ؛ لكنه وضع تشريعاً عاماً أو قانوناً عاماً مُلزماً ، مخالفاً للشريعة . فهذا كما وضحنا في الأدلة القطعية على كفره الكفر الأكبر أيضاً .

الحالة الثالثة : أن يحكم الحاكم في واقعة معينة في الحالات الجزئية والحوادث الواقعة بغير ما أنزل الله ؛ لهوىً ، مع التزامه بالحكم بما أنزل الله ، وإقراره به ، والاعتراف بشريعة الله . فهذا فاعل لكبيرة ، وكفره كفرٌ أصغر ، غير مُخرجٍ عن الملة .

فهذه ثلاث حالات :

١. الاستحلال ، والجحد .

٢. التشريع العام ، وتحكيم القوانين العامة من غير استحلال .

٣. الحكم في واقعة معينة ؛ لهوىً من غير استحلال .

- فأما لحالة الأولى : فلا خلاف عليها ، وكفر صاحبها مجمع عليه .

-وأما الحالة الثانية : فقد ذكرنا الأدلة المتنوعة من الكتاب والسنة ، وأقوال الأئمة المعبرين قديماً وحديثاً على أنّ الحكم في هذه الحالة بكُفْرِهِ الكُفْرِ الأكبر . لكن بعض المتأخرين خالفوا أهل السنة والجماعة في هذا الحكم ؛ خصوصاً المرجئة منهم .

- وأما الحالة الثالثة : فإن صاحبها لا يكفر الكفر الأكبر ، وإنما هو كفر دون كفر . وهكذا فلم نحكم بكفر جميع من يحكم بغير ما أنزل الله ؛ بل وضحنا القول في ذلك الحكم .

وخلص القول في ترك الحكم بما أنزل الله :

أولاً :

إن رفض المنافقين لحاكمية الله ، هو رفض الإيمان بالكلية . كما قال تعالى :
 ﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ
 ٤٧ ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿ ٤٨ ﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَى اللَّهِ
 مُذْعِنِينَ ﴿ ٤٩ ﴾ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ
 ﴿ ٥٠ ﴾ النور: ٤٧ - ٥٠

وقد وضع الله ﷻ ميزاناً دقيقاً بين المؤمن والمنافق . فأما المؤمن الصادق ، فإنه
 منقاد إلى حكم الله ، ويرضى به ، ويقول : سمعت وأطعت : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا
 دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ ٥١ ﴾ النور: ٥١ وأما
 المنافق فصفته الإعراض ، والاستكبار عن حكم الله . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ
 وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿ ٤٨ ﴾ النور: ٤٨

ثانياً :

التحاكم إلى شرع الله ليس لطلب العدل فقط ، وإنما هو في الدرجة الأولى تعبدٌ
 لله ، وحقٌّ لله وحده ، وعقيدةٌ . فمن تحاكم إلى غير شرع الله من سائر الأنظمة والقوانين
 البشرية ، فقد اتخذ واضعي تلك القوانين والحاكمين شركاء لله في تشريعه .

قال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى:

٢١

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ
 لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءِهِمْ لِيُجْنِدُوا لَكُمْ وَإِنَّ أَطْعَمْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿ ١٢١ ﴾ الانعام: ١٢١

وذلك لأن الطاعة في التحليل والتحرير من أخص خصائص العبادة ؛ ومن ثم كان كل من قبلها من أي عبد ، فقد اتخذه رباً ، وإن لم يصل له ، ويتقرب إليه .

ثالثاً :

من أنواع الشرك الأكبر : من يجعل لله نداً في التشريع ، بأن يتخذه مشرعاً سوى الله ، أو شريكاً لله في التشريع ، يرتضي حكمه ، ويدين به في التحليل والتحرير ، عبادةً وتقرباً ، وقضاءً ، وفصلاً في الخصومات . أو يستحله ، وإن لم يره ديناً .

وفي هذا يقول تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ التوبة: ٣١ وأمثال هذا كثيرٌ من الآيات والأحاديث التي جاءت في الرضا بحكم سوى حكم الله ، والإعراض عن التحاكم إلى حكم الله .

وهذا النوع من الشرك (شرك الطاعة ، أو شرك التشريع) يرتد به فاعله ، أو معتقده عن ملة الإسلام . فلا يصلّى عليه إذا مات ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، ولا يُورث عنه ماله ؛ بل يكون لبيت مال المسلمين ، ولا تؤكل ذبيحته ، ويُحكّم بوجوب قتله .

ويتولّى ذلك ولي أمر المسلمين ؛ إلا أنه يستتاب قبل قتله ، فإن تاب قبلت توبته ، ولم يقتل ، وغُومل معاملة المسلمين .

رابعاً :

أمر الله المؤمنين برّد كلّ ما تنازعوا فيه من أصول دينهم وفروعه إلى الله ورسوله ، ومن لم يفعل دلّ ذلك على كفره برب العالمين ، ومُروقه من دين المرسلين . فحكم الله وحده شقيق عبادة الله وحده . وهما مضمونا الشهادتين . وعلى القيام بهذا المضمون فعلاً وتركاً ؛ جُرّدت سيوف الموحدين للجهاد .

خامساً :

قسمة الحكم ثنائية : إما حُكم الله ، وإما حكم الجاهلية ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠ . دلت الآية على أن قسمة الحكم ثنائية ، وأنه ليس بعد حكم الله تعالى إلا حكم الجاهلية . وهكذا فإن القوانين والدساتير ، والبرلمانات الديمقراطية في زمرة أهل الجاهلية ؛ شاؤوا أم أبوا . بل هم أسوأ حالاً ، وأكذبُ منهم فعلاً . ذلك أن أهل الجاهلية لا تناقض لديهم في هذا الصدد .

فمن خرج عن حُكم الله وعدل إلى حكم ما سواه من الأحكام الجاهلية ، وجعل ذلك شريعة مقدّمة ، أو مزاحمةً لشريعة الله ؛ فهو كافرٌ ؛ يجب قتاله حتى يعود إلى حكم الله ورسوله ، فلا يُحكّم في قليل ولا كثير سواه . وأي دولة تنتهج هذا النهج تصبح دولة جاهليةً ، كافرةً ، ظالمةً ، فاسقةً ؛ يجب بُغضها ، ومعاداتها ، وتخزيم مولاتها .

سادساً :

وأخيراً : يجب أن يُعلم أن من أعظم الفساد في الأرض التحاكم إلى غير الله ورسوله . ومن ثمّ كان إباء التحاكم إلى الكتاب والستة دليلاً قاطعاً على الكفر ، والنفاق ، والزندقة .

الآثار السيئة المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله :

إن الله ﷻ لم يشرّع لنا إلا ما فيه مصلحة لنا في دنيانا وآخرتنا ، وإنّ شرع الله والتحاكم إلى كتاب الله رحمةً للعالمين ، وفيه صلاح البشرية ، وهُدَى البرية ، وتقويم النفس البشرية ، وإصلاح النفوس السوية ، وشرح للصدر ، وجلاء للهموم ؛ وذلك لأن منزل هذا الكتاب ، ومشرّع هذا الشرع هو الله رب العالمين ، الذي خلق الخلق ، ويعلم ما يصلحهم ، فأمرهم به ، ويعلم ما يفسدهم ، فنهاهم عنه . فما يَأتمر بأمره إلا

كلُّ عاقلٍ رابحٍ ، ناجٍ من النار . وما يُعرض عنه إلا كلُّ غبيٍّ شقيٍّ فاجرٍ ، محرومٍ من الجنة ، هاوٍ في النار -والعياذ بالله- .

وهاهي بعض الآثار المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله في واقع الناس :

١ . فساد عقيدة التوحيد بين المسلمين ، وانتشار مظاهر الشرك في بلاد الإسلام ؛ حيث يُذبح لغير الله ، ويُندَر ، ويُطلَب جُلب النفع ودفع الضر من الأولياء والصالحين والأموات ، ويتحاكم الناس إلى غير شرع الله ، وأصبح الحكم بالقانون الفرنسي والإنجليزي والأمريكي ، وقوانين البرلمانات والديمقراطية شرعاً يتحاكمون إليه .

٢ . انتشار المذاهب العلمانية ، والباطنية الكفرية بين المسلمين ، والانتساب لها ، والعمل في صفوفها .

٣ . السُّخْرِيَّة والاستهزاء بشريعة الإسلام ، وبحقِّ من يدعوا إليها ويطبقتها في واقع الحياة ؛ بل ويصل الحال في بعض الأحيان إلى السخرية من الله تعالى ، ومن رسوله ﷺ ، ومن القرآن وصحابة رسول الله ﷺ . تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً .

٤ . ومن أعظم مصائب تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم : انتكاس راية الجهاد في سبيل الله ، فأصاب المسلمين الذلُّ والصَّغار ، وتسلَّط الكافرون على العباد والبلاد . وقد ذكرنا ذلك في الفصل الأول مفصلاً ، ووضَّحنا ثمرات رفع راية الجهاد في حياة المسلمين .

٥ . تعطيل تطبيق الحدود الشرعية ، كعقوبة ربانية لبعض الذنوب المعاصي ؛ مما أدى إلى الكثير من العواقب الوخيمة منها :

أ . اجترأ الناس على محارم الله ومواقعتهم لحمى الله . والله يغار أن تُنتهك محارمُه ، أو يُعتدى على حماه . فنرى الحوادث والجرائم

تكثر بشكل مذهل ، وبنسبة عظيمة متزايدة ؛ وهذا ما يُلمَس واضحاً من خلال الأرقام والإحصائيات الرسمية للجرائم والجنايات ، في الأقطار والبلدان المبتلاة بتلك الأنظمة والقوانين ؛ سواءً في البلاد غير الإسلامية ، أو بلاد المسلمين التي تطبق القوانين الوضعية .

ب . انتشار الخوف ، وظاهرة القلق والاكتئاب ؛ مما ترتب عليه انتشار العيادات النفسية ، وارتفاع معدلات الانتحار ، والإفراط في تعاطي المسكرات والخمور ، والمخدرات ، والتدخين .

ج . انعدام المحبة والألفة والروح الجماعية في الأسرة والمجتمع ، وانتشار العداوة والبغضاء ، والأنانية .

د . انقسام المجتمع إلى طبقات اجتماعية متفاوتة بدرجة كبيرة جداً في نظام المعيشة ، وارتفاع معدلات الفقر ، والبطالة بين الناس .

٦ . إهمال الشعائر الإسلامية ، وعدم الحرص على إقامتها بين الناس ، كالصلاة عمود الدين . فترى أعداداً لا حصر لها من المسلمين لا يدخلون المساجد ؛ بل لا علاقة لهم بالصلاة أصلاً ، ولا يؤخذ على أيديهم . وكذلك الزكاة ؛ فقد عُطِّلت ، ولم تُقَم الحكومات على جمعها وتوزيعها على مصارفها الشرعية ؛ حتى تعنّف تاركها ومانعها ، فضلاً عن قتاله ، كما فعل الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ﷺ مع مانعي الزكاة . وكذلك بالنسبة إلى فريضة الصيام في شهر رمضان ، فما أكثر الذين يجهرون بالإفطار نهاراً ! ولا من أن يؤخذ على أيديهم . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

٧ . عدم الاستقرار ، والتفرّق والاختلاف ، والتنازع . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "وإذا خرج وُلاة الأمور عن الحكم بغير ما أنزل الله ، وقع بأسهم بينهم . وقال النبي ﷺ : (ما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم) وهذا من أعظم أسباب تغير الدول ؛ كما جرى مثل هذا مرّة بعد مرّة في زماننا ، وغير زماننا .

ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره ، فيسلك مسلك من أيده الله ونصره ، ويجتنب من خذله وأهانته ؛ فإن الله يقول في كتابه : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَتْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ۝٤١﴾ (الحج: ٤٠ - ٤١) فقد وعد الله بنصر من ينصره . ونصره هو نصر كتابه ، ودينه، ورسوله ؛ لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ، ويتكلم بما لا يعلم" (١) .

(١) مجموع الفتاوى (٣٥ / ٣٨٨)

حكم البرلمانات ، وحكم الذين دخلوا فيها :

حكم البرلمانات :

إن هدف البرلمانيين والديمقراطيين والعلمانيين هو :

استبدال الإسلام المُنزل بالإسلام المُبدل ، ما يسمونه بـ« الإسلام المدني الديمقراطي » .

البرلمانات هي وسيلة تطبيق الديمقراطية الشركية ، التي تمنح البشر الحق المُطلق في التشريع ، فتجعلهم أرباباً مشرّعين من دون الله تعالى . قال تعالى :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١

وكما هو معلوم ؛ فإنّ الوسائل لها حكم المقاصد . فإذا كانت الديمقراطية كُفراً أكبر ، فوسائلها لها الحكم نفسه . ومن وسائلها : دُخُولُ البرلمانات ، والمشاركة في انتخاب أعضائها . فلا يحلُّ لمسلم المشاركة في شيءٍ من هذا ، ولا يحلُّ له أن يتسبب لحزب قائم بموجب الدساتير العلمانية .

فحكم البرلمانات : أنها غير جائزة ، وهي أماكن شركٍ وكُفْرٍ ؛ لأنّها أماكن لتشريع ، وسنّ القوانين ، والحكم بغير ما أنزل الله . فإن أصل البرلمانات والديمقراطية هي حكم الشعب للشعب ، وأنّ الشعب هو الذي يشرّع عن طريق نوابه الذين يُسمّون بالبرلمانيين . وهذا ضد إفراد الله بالحكم والتشريع ، والأمر ، والنهي . قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ الانعام: ٥٧ وليس للشعب . وقال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠ وقال تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦

الديمقراطيون يقولون : إذا اختلفنا فنحتكم للبرلمان ودستوره ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الشورى: ١٠ ، والله تعالى يقول : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١ .

أما قول من يقول : إن أصل الديمقراطية والبرلمانات قائم على الشورى ، فهذا كَذِبٌ ، وتلبيسٌ . فليس قائماً على الشورى الشرعية ، وإنما هو قائم على التشريع . فهم يتشاورون بينهم ليس في الأمور العاجزة ، بل يتشاورون ليشرعوا حكماً يخالف الشريعة . فالشورى نظام ومنهج رباني ، والديمقراطية من وضع البشر الذين تتخللهم الأهواء ، والتزوات . والشورى من شرع الله تعالى ، والديمقراطية كفرٌ بشرع الله ودينه ، ومناقضةٌ لحكمه . والشورى تكون فيما لا نص فيه ، أما عند ورود النص فلا شورى . قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٣٦

أما الديمقراطية فلا اعتبار فيها لنصوص الشرع ، وأحكام الله ، ولكن الاعتبار كل الاعتبار فيها هو لحكم الشعب ، وتشريع الشعب في كل المجالات ؛ لذا عرفوها في دساتيرهم بقولهم : " الأمة مصدر السلطات جميعاً " أو " الشعب مصدر السلطات " .

فالديمقراطية تُعتبر الشعب أعلى سلطة في الوجود ، وهي تمثل حكم أكثرية الشعب ، وتشريع الأكثرية . فالأكثرية تحلل ، والأكثرية تُحرّم . أما في الشورى ، فالشعب أو الأكثرية هي الملتزمة بالمأمورة بالسمع والطاعة لله ولرسوله .

بل قد حَكَمَ الله على الأكثرية بحكم واضح في كتابه ، فقال : ﴿ وَإِنْ تَطَعَا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ الانعام: ١١٦

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يوسف: ١٠٣

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴾ الروم: ٨

وقال ﷺ : (الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة)^(١)

هذا شرع الله ، ودينُ الله ، يبين ضلال الأثرية ، وانحرافهم .

أما حكم الذين دخلوا في البرلمانات ففيه تفصيل :

(أولاً) : إن دخل فيها ؛ لكنه شرع قانوناً يخالف الشريعة ، أو وافق ورضي عن قانونٍ يخالف الشريعة ، أو صوت له . فهذا مشرك كافر ، ولا يُعذر بالجهل ، أو التأويل ، أو المصلحة . قال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١

(ثانياً) : إن دخل فأقسم على احترام الدستور الكفري ، عالمياً بما في الدستور من مخالفة للشرع . فهذا كفر وردة ؛ سواءً أكان جاداً ، أم غير ذلك ، مستصلاً ، أم غيره . فقد فعل الكفر مختاراً ، عالمياً ، عامداً . ومثله مثل مَنْ أقسم على احترام اللات والعزى .

(ثالثاً) : أن لا يقسم على احترام الدستور ، ولا يشترع ، ولا يشارك في تشريع يخالف الشريعة ؛ بل يرفض ذلك ، ويصوت ضده . فهذا مخطئ ضال ، مخالفٌ لهدي الرسول ﷺ في التغيير والإصلاح ، وإقامة الدولة الإسلامية ، ولكنه ليس بكافر ؛ إذا اتخذ طريق الضلال والشرك طريقاً للدعوة والتغيير والإصلاح . قال تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ يونس: ٣٢

(١) البخاري : الصحيح (٥/٢٣٨٣) ، ح (٦١٣٣) مسلم : الصحيح (٤/١٩٧٣) حديث رقم (٢٥٤٧)

من حديث عبد الله بن عمرو ؓ

ومثله : مَنْ يسوّغ الدخول في البرلمانات الشركية من أجل الدعوة إلى الله ، ومن أجل مصلحة الدعوة ؛ كالدخول في الحكومات الشركية لهذا الغرض ، والتحالف مع العلمانيين ؛ وما أكثرهم في بلاد المسلمين .

والشاهد لهذه القاعدة : قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨)

أي : يدعو الله ، منزهاً الله أن يدعو إليه بشرك أو كفر . وهذه قضية معاصرة كبيرة ، وهي ما يسمى باستغلال أي وسيلة من أجل مصلحة الدعوة . وأصحاب هذه الطريقة دخلوا من أجل ذلك في المجالس الشركية والبرلمانات ، وغيرها من التسميات الجاهلية ، نقول إن الله تعالى أغنى من أن يُنصر دينه بالشرك .

ومما يدل على خطورة من ارتكب شيئاً من هذه الشركيات أو الكفريات بحجة مصلحة الدعوة : الأمور التالية :

١ . قوله تعالى : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُمُومُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤)

وهذا يشمل حتى مساومتهم في المكاسب السياسية . بل الآية في سياق الصدع بالحق ؛ حتى لو عرضوا عليه مكاسب تخالف الشرع . قال تعالى : ﴿ أَنْبِئْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٠٦) ولفظ الإعراض عام .

٢ . قوله تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ٢١٧)

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : "قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس : الشُّركُ أشدُّ من القتل" .

❁ وقال الشيخ ابن سحمان : "الفتنة هي الكفر . فلو اقتتلت البادية والحاضرة حتى ذهبوا لكان أهون من أن ينصبوا في الأرض طاغوتاً يحكم بخلاف شريعة الإسلام"

❁ وقال الشيخ ابن عتيق ردّاً على من قاس الاضطرار على الإكراه في الكفر في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَضْطُرَّ عَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ البقرة: ١٧٣ : "فشرط بعد حصول الضرر أن لا يكون المتناول باغياً ، ولا عادياً . والفرق بين الحالتين لا يخفى" . وقال : "وهل في إباحة الميتة للمضطر ما يدل على جواز الردة اختياراً ؟ وهل هذا إلا كقياس تزوج الأخت والبنت ؛ بإباحة تزوج الحرّ المملوكة عند خوف العنت ، وعدم الطول؟! فقد زاد هذا المشبه على قياس الذين قالوا : (إنما البيع مثل الربا) ونحن نقول : وهل في إباحة الميتة للمضطر ما يدلّ على جواز الدخول في المجالس الشركية اختياراً ، وتولّي العلمانيين والحكومات الطاغوتية ؛ بحجّة مصلحة الدعوة؟! (قل أنتم أعلم أم الله)

قال تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦) النحل: ١٠٦ فلم يُجْزَ إلا في حالة الإكراه . فأين الدليل على جواز قول الكفر أو المعصية أو فعله في غير إكراه ؛ كمصلحة الدعوة؟! .

٣ . ما ثبت في عرّض عتبة بن ربيعة بتكليف من زعماء قريش للرسول ﷺ ، وقوله : "فرقت جماعتنا ، وعبت ديننا ، وشتمت الآباء ، وشتمت الآلهة ، وفضحتنا في العرب . أيها الرجل ، إن كنت إنما بك الرياسة عقدنا لك ، فكنت رأسنا (أي رئيس الحكومة ، أو الوزراء) وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا (أي رئيس البرلمان) وإن كنت تريد ملكاً ، ملكناك علينا (أي تكون ملكاً أو رئيس جمهورية) فلم يقبل النبي ﷺ ، وتلا عليه فواتح سورة فصلت . لأنه عرّض مقابل جوهر هذا الدين ، وهو القيام بالتوحيد ، والكفر بالطاغوت ، ومحاربة الأنظمة الطاغوتية الشركية ، وتسفيهاها ، ونقدها ، والبراءة منها .

ولو عُرضَ هذا العرض على من يرون الدخول في البرلمانات الشركية لسارعوا يهرولون ؛ حيث المُلْك والسلطان والحكومة لهم ، مع التنازل عن قضية التوحيد ، والكفر بالطاغوت ، وما يتبعهما من ولاء وبراءٍ .

٤ . قصة وفد بني عامر بن صعصعة ، لما عرض النبي ﷺ عليهم نفسه ، وقبول هذا الدين ، فقالوا : أرأيتَ إن نحن تابعنك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أكون لنا الأمر من بعدك ؟ فقال رسول الله ﷺ : (الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء) فأبوا عليه ^(١) .

فهم طلبوا المُلْك منه ، أو تناول السلطة ، أو التحالف مع العلمانية ؛ فأبى .

٥ . طَلَبُ وفد ثقيف من النبي ﷺ لما جاءوا مسلمين أن يُبقي أصنامهم حتى يدخل الإسلام في قلوب العامة ، فرفض إبقائها ولو للحظة ، مع أن في إبقائها شيءٌ من مصلحة للدعوة ؛ من تكثيرٍ للسواد ، ودخول الكثير في الإسلام ، والأمن من الردّة .

٦ . ما ثبت في قصته مع بني شيبان بن ثعلبة ، لما عرض عليهم الدين ، قالوا له : نحملك مما يلي العرب ، لا مما يلي كسرى . فقال رسول الله ﷺ : (إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه) ^(٢)

٧ . حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ونحن نفرّ ستة ، فقال المشركون : أطرد هؤلاء عنك ، فلا يجترئون علينا ، فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله ، وحدث به نفسه ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

^(١) ابن هشام : السيرة النبوية (٢/٢٧٢)

^(٢) الطبري ، أحمد بن عبد الله (ت ٦٩٤هـ) ، الرياض النضرة ، تحقيق عيسى عبد الله ، (ط١) ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٦م) ، (٢/٥٦) ، وإسناده جيد .

وَجَهَّهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ الأنعام: ٥٢ (١) .

فهل طلبوا مجلساً ، أو اجتماعاً دورياً مع رسول الله ﷺ ، مقابل طرد نفر من أهل التوحيد؟! مع أن عقد الاجتماعات مع أهل الشرك فيه مصلحة ، ولكن كان بئس محرم ، فنهاه الله عنه .

وهذا الذي ذكرناه ينطبق على قصة ابن أم مكتوم عندما أتى النبي ﷺ ، فجعل يقول : أرشدني . وعند رسول الله ﷺ رجلٌ أو رجال من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يُعرض عنه ، ويُقبل على الآخر . فنزلت : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَا مِنْ أَسْتَعْتَبَ ﴿٥﴾ فَاَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴿٧﴾ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَاَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ ﴾ عبس: ١ - ١٠

٨ . قصّة الهجرة إلى الحبشة . فما هاجر المسلمون إلا بسبب التوحيد ، ولو كان النبي ﷺ يجد مندوحة في التنازل والمساومة من أجلهم لَمَا تركه .

٩ . قول النبي ﷺ : (إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً) (٢) . الشاهد فيه : لا يقبل من الطرق إلا ما كان طيباً ، ليس فيه شرك ، ولا كفر ، ولا معصية .

١٠ . مما يدل على المنع من دخول البرلمانات : قاعدة التفريق بين الإكراه والضرورة . فالضرورة إجازة من الله فيها فعل المحرم غير المتعدّي ؛ كأكل الميتة ، الخنزير ، وشرب الخمر ؛ لدفع غُصّةٍ ، ونحوها . وهي تُقدَّر بِقَدْرِهَا ، ولكن لم يُبيح الكفر والشرك من أجل الضرورة ؛ بل لا يبيح الشرك والكفر إلا الإكراه : ﴿ إِلَّا مَنْ

(١) والحديث أخرجه مسلم : الصحيح (٤/١٨٧٨) حديث رقم (٢٤١٣)

(٢) مسلم : الصحيح (٢/٧٠٣) حديث رقم (١٠١٥)

أَكْرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴿ النحل: ١٠٦ ولم يقل : إلا من اضطر . وهذا الكلام مُجمَع عليه ؛ في التفريق بينهما .

١١ - من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الباب قوله : "إن الشرك والقول على الله بغير علم ، والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والظلم لا يكون فيها شيء من المصلحة"^(١) ، والبرلمانيون لا يزالون يتحججون على حساب تعطيل شرع الله .

وقال أيضاً: "وما هو محرّم على كل أحدٍ في كل حالٍ ، لا يباح منه شيء ، وهو : الفواحش ، والظلم ، والشرك ، والقول على الله بغير علم"^(٢) .

وقال : "إن المحرمات منها ما يَقْطَعُ بأن الشرع لم يُبَحِّ منها شيئاً ؛ لا لضرورة ، ولا لغير ضرورة ؛ كالشرك ، والفواحش ، والقول على الله بغير علم ، والظلم المحض . وهي الأربع المذكورة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ الاعراف: ٣٣ فهذه الأشياء محرمة في جميع الشرائع ، وبتحريمها بعث الله جميع الرسل ، ولم يُبَحِّ منها شيئاً ، ولا في حال من الأحوال . لهذا نُزِلَتْ في هذه السورة المكية" .

وقال : " أما الإنسان في نفسه ، فلا يحلّ له أن يفعل الذي يعلم أنه محرّم ؛ لظنه أنه يعينه على طاعة الله " .

١٢ - ومن الأدلة : رسالة ابن تيمية رحمه الله المسمّاة (السماع) ، وفيها سُئِلَ عن شيخ من المشايخ كان يقيم سماعاً بدُفٍّ ، وبشعرٍ مباحٍ لأصحاب الكبائر ، فيتوب منهم جماعة . فهل يُباح إذا فعل ذلك ؛ لما يترتب عليه من المصالح ؟

(١) مجموع الفتاوى (١٤/٤٧٦)

(٢) المرجع ذاته (١٤/٤٧٧)

فأجاب : "إنَّ ما يهدي الله به الضالين ، ويُرشِد به الغاوين ، ويتوب به على العصيين ؛ لا بد أن يكون فيما بعث الله به الرسول ﷺ . والشيخ المذكور قصداً أن يتوب المجتمعون على الكبائر ، فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكر من الطريق البدعي ، على أن الشيخ جاهل بالطرق الشرعية التي بها يتوب العصاة ، أو عاجز عنها ؛ فإن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ، كانوا يدعون مَنْ هو شرٌّ من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية ، التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية .

وقد عُلم بالاضطرار والنقل المتواتر : أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان مَنْ لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية ، التي ليس فيها ذكر الاجتماع البدعي .

وقال : إنه لا يجوز لهذا الشيخ أن يجعل الأمور التي هي إمّا محرمة ، أو مكروهة ، أو مباحة = قُزْبَةً ، وطاعةً . وقال : إنَّ فاعل هذا ضالٌّ ، مُفْتَرٍ ، باتفاق علماء المسلمين ، مخالف لإجماع المسلمين " . أي : الذي جعل هذا العمل طريقاً إلى الدعوة إلى الله ، وديناً .

فإذا كان هذا السماع الذي هو من باب البدع أو المحرمات ، فما بالك بالشرك والكفر يُفعل ، ويُجعل طُرقاً إلى الدعوة ، وإقامة حكم الله !؟

١٣ . إن اشتراك الإسلاميين في البرلمانات فيه إقرار بشرعية النظام ، وشرعية الإجراءات الديمقراطية المتبعة في النظام المعمول به في الدولة ؛ مما يترتب على هذا الأمر من مفسد عظيمة بسبب إضفاء الشرعية على هذه المجالس ، وإعطائها صيغة مقبولة .

ويترتب على هذه الشرعية : الموافقة على دستور الدولة . وهذه من أعظم المفسد التي لا يقف أمامها ما يسمى بمصلحة الدعوة .

وما أروع ما قاله سيد قطب رحمه الله تعالى في هذا المقام موضحاً فساد قول من يحتج " بمصلحة الدعوة " وهو يمرق من الإسلام فيقول : كل من جبن عن قول كلمة الحق تحجج بالمصلحة والمفسدة حتى أصبحت المصلحة والمفسدة طاغوتاً يُعبد من دون الله .

١٤ - ويجب أن يُعلم أن من شروط قيام الديمقراطية : طَلَبُ تَبَيُّنِ العلمانية التي تعني الاعتراف بحرية العقائد ، والأيدلوجيات ، والسماح لها بالدعوة إلى ما تؤمن به ؛ من منطلق حقها المطلق في الوجود ، وفي الإيمان ، والدعوة إلى ما تؤمن به . كما إن قيام الديمقراطية يقتضي عِلْمَنة العقول ، والمؤسسات السياسية في الدولة . وأكد أحد أشهر دعاة الديمقراطية في الدول العربية ، أن هناك مؤسسات وأجهزة يؤدي وجودها واستمرارها إلى إعاقة قيام الديمقراطية ؛ مثل : هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحسبة التي تقوم بمراقبة الشارع الإسلامي ، والتأكد من التزام الأفراد بأداء الصلاة ، وعدم الجهر بالإفطار في رمضان ، والالتزام بالحجاب الإسلامي ، والسلوك الإسلامي .

✽ فالديمقراطية ثمرة العلمانية . والعلمانية مذهبٌ كُفري يرمي إلى عزل الدين عن الحياة ، أو فصل الدين عن الدولة والحكم .

المعنى الحرفي للديمقراطية - كما قلنا - (حكم الشعب) أو (سلطة الشعب) أو (تشريع الشعب) وهذا من أعظم حقائق الديمقراطية ، وفي الوقت نفسه ، هو من أخصّ خصائص الكُفر ، والشرك ، والباطل الذي يناقض دين الإسلام .

✽ فالديمقراطية تشريع الجماهير ، وليست حكم الله تعالى ؛ فالله تعالى يأمر نبيه ﷺ بالحكم بما أنزل الله عليه ، وينهاه عن اتباع أهواء الأمة ، والجماهير ، أو الشعب . ويحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله عليه ، فيقول تعالى : ﴿ وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ

اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴿المائدة: ٤٩﴾ أما في دين الديمقراطية : (وأن احكم بينهم بما ارتضى الشعب ، واتبع أهواءهم)

﴿ فالديمقراطية دين كفري ؛ لأنها حكم الجماهير وفقاً للدستور ، وليس وفقاً لشرع الله . الدستور الذي ينص على أن : (الامة مصدر السلطات جميعاً) و (السلطة التشريعية يتولاها الأمير أو الرئيس ، ومجلس النواب أو مجلس الأمة ، وفقاً للدستور)

﴿ والجماهير في دين الديمقراطية لا يُقبل حكمها وتشريعها إلا إذا كان منطلقاً من نصوص الدستور ؛ لأنه أبو القوانين . ولا اعتبار في دين الديمقراطية لآيات القرآن الكريم ، أو أحاديث الرسول ﷺ . والله تعالى يقول : ﴿ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ ﴿النساء: ٥٩﴾ ودين الديمقراطية يقول : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الشعب ، ومجلسه ، ومليكه أو رئيسه ، وفقاً للدستور الوضعي والقانون الأرضي الكفري)

﴿ الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿٨٥﴾ آل عمران: ٨٥ فإياك (في دين الديمقراطية) أن تحجر لفظة الدين على اليهودية، أو النصرانية فقط ؛ فهي تشمل كل ملة . وهي منهج ، أو نظام حكم ، أو قانون من القوانين ، أو دستور من الدساتير التي يتبعها الخلق ويدينون لها . فيدخل في ذلك : الشيوعية ، والاشتراكية ، والبعثية ، والعلمانية ، والباطنية ، والمناهج المبتدعة التي اخترعها الناس بأفكارهم المتهاففة ، وارتضوها أرباباً لهم من دون الله . ومن ذلك : الديمقراطية ؛ فإنها دينٌ غيرُ دين الله تعالى ، يتدين بها خلقٌ كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ويجب أن يُعلم أن من أهم الدعوات الهدامة التي يدندن حولها أولئك المنافقون هو معول الديمقراطية والهدف منه هو هدم سياج التوحيد والجهاد والولاء والبراء التي هي أصول الدين الإسلامي وسياجه المتين .

بعض ثمرات تطبيق الشريعة الإسلامية :

الأصل : أننا لسنا بحاجة لبيان الثمرات المباركة الزكية لتطبيق الشريعة الإسلامية؛ لأنها (ربانية) من عند الله القائل : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩) والقائل : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨) وذلك لأن منزل الكتاب هو الله رب العالمين ، والذي جعله شريعة ومنهاجاً هو خالق العالمين ، ورب المخلوقين ، الذي يعلم ما يُصلح الخلق أجمعين ، وما يسوؤهم . وهو أرحم بهم من أنفسهم ، ومن الأم برضيعها ، فأنزل هذا الكتاب ، وأوجب عليهم الحكم به ، وحذر من الزيغ عنه والإعراض عنه ؛ فالخروجُ عنه إعراضٌ عن العبودية الحقّة لله تعالى، ووقوعٌ في الكفر : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة: ٤٤)

وهذه بعض الثمرات المباركة لتطبيق الشريعة الإسلامية :

١ - إذا استعرضنا ثمرة واحدة من ثمرات تطبيق الشريعة الإسلامية ؛ وهي : إقامة الحدود الشرعية ، التي هي في الحقيقة حلقة من حلقات هذا المنهج الرباني لتطهير المجتمع من الشرك والفساد والانحلال ، ومن الظلم والغي والضلال ، ومن انتهاك حقوق الإنسان . فإننا سنلحظ التالي :

- إن تطبيق الحدود ليس قسوة ، كما يزعم أعداء الله ؛ بل هي رحمةٌ كُلهَا . وما أروع ما قاله ابن القيم رحمه الله وهو يبين عظمة الشريعة الإسلامية ، فيقول : "إن الشريعة مبناهَا وأساسها على الحكَم ،

ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدلٌ كُلُّها ، ورحمةٌ كُلُّها ، ومصالحٌ كُلُّها ، وحِكْمَةٌ كُلُّها . فكلُّ مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة ، وإن أُدخِلت فيها بالتأويل . فالشريعةُ : عدلٌ الله بين عباده ، ورحمتهُ بين خلقه " (١) .

- هذا فضلاً عن أنّ إقامة الحدود تُعدُّ نوعاً من العبادة لله تعالى ، بامتثال أمره ، والاحتكام إلى شرعه . هذه العبادة هي الغاية السامية ، التي من أجلها خلق الله الإنس والجن . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) الذاريات: ٥٦

ومن المقرر الذي لا منازعة فيه : أن في إقامة الحدود :

- ا - حمايةً للأنفس ، وحمايةً للأموال وممتلكات المسلمين . فيتحقق الاحترام لحق الحياة ، وحق الدماء .
- ب - صيانةً وحفظاً للأنساب ، وطهارةً للأعراض .
- ج - وقايةً للعقل من الخلل ، وللأخلاق من الفساد .
- د - تقديساً للدين ، ولما أمر الله أن يُقدَّس ، ويُصان .
- هـ - أمناً وأماناً للمجتمع المسلم قاطبةً ؛ فيصبح المجتمع مستقراً هادئاً ، لا قلقاً فيه ، ولا اضطراباً .

(١) أعلام الموقعين (٣/١٤)

و . هذا علاوة على أن تطبيق الحدود على المجرمين رحمة لهم ؛ لأنها كفارة لهم من هذه الجريمة ، وردعاً لمن وقعت منه الجريمة .

ومن الثمرات المباركة لتطبيق الشريعة الإسلامية :

٢ . القضاء على الجريمة والإجرام . ومتى قُضي على الجريمة ، أو اختفت ؛ فإن الأمر يستقر ، وتتوفر في البلاد روح السكينة والطمأنينة . وحينما يقل الإجرام والجرائم تتوفر أيدٍ عاملةٌ ، تتوجه إلى الإنتاج ، بدل أن كانت تنجر إلى الإفساد والعدوان . وبذلك يعتم الرخاء ، وتتسع أرزاق البلاد . وفي هذا تصديق واقعي لما يفهم من أن إقامة الحدود خير للبلاد والعباد من أن يُمطروا أربعين صباحاً^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾ الاعراف: ٩٦

وقال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدُوا اسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴾ ﴿١٦﴾ الجن: ١٦

٣ . تسعد الأمة حكاماً ومحكومين باستجابتها لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ ، وبحياة طيبة لها . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ﴿الأنفال: ٢٤﴾

^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (حدٌ يعمل به في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يُمطروا أربعين صباحاً) رواه أحمد : المسند (٣٦٢/٢) حديث رقم (٨٧٢٣) ابن ماجه : السنن (٨٤٨/٢) ح (٢٥٣٨)

الفصل الثالثة
موقف المنافقين التخريبي
ضد النبي ﷺ وجيشه
في غزوة تبوك

تمهيد

وقعت هذه الغزوة في رجب من السنة التاسعة للهجرة^(١).

واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك نسبةً إلى مكان ؛ هو : عين تبوك^(٢) ، التي انتهى إليها جيش المسلمين .

وأصل هذه التسمية جاء في كتب الحديث النبوي الشريف ، قال رسول الله ﷺ (ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها إلا ضحى)^(٣)

وللغزوة اسم آخر هو (غزوة العسرة) وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم ، في معرض حديثه عن هذه الغزوة . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾^(٤) التوبة: ١١٧ وهذان الاسمان : هما المشهوران في كتب الحديث^(٤).

وسُميت هذه الغزوة بهذا الاسم لِشِدَّةِ ما لاقى فيها المسلمون من الضَّنْكِ . فقد كان الجُوُّ شديد الحرارة ، والمسافةُ بعيدةً ، والسَّفْرُ شاقاً لقلَّةِ المؤونة ، وقلَّةِ الدَّواب

^(١) ابن هشام : السيرة النبوية (١٩٥/٥) الطبري : التاريخ : (١٨١/٢)

^(٢) تقع تبوك شمال الحجاز ، وتبعد عن المدينة نحواً من (٧٧٨) ميلاً . وكانت من ديار قبيلة قضاة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك . الحموي : معجم البلدان (١٤/٢) العمري : أكرم ضياء ، المجتمع الإسلامي (ص ٢٢٩) (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٥هـ)

^(٣) مسلم : الصحيح (١٧٨٤/٤) ابن خزيمة ، أبو بكر محمد بن إسحاق النيسابوري (ت ٣١١هـ) الصحيح ، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي (٨٢/٢) (بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٧٠م)

^(٤) البخاري : الصحيح (١٦٠٢/٤) ابن حبان : الصحيح (٣٢١/٨) البيهقي : السنن الكبرى (٣٣٦/٨)

التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة ، مع شح في المياه ، وقلة المال الذي يُجهز به الجيش ، وينفق عليه^(١).

وللغزوة اسم ثالث ، هو الفاضحة^(٢). وسميت بهذا الاسم لان هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين ، وهتكت أستارهم ، وفضحت أساليبهم العداوية الماكرة ، وأحقادهم الدفينة ، ونفوسهم الخبيثة ، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله ﷺ والمسلمين.

لقد استعلن النفاق في هذه الغزوة ، وقام المنافقون بحملة دعائية عند إعلان النفي ، فمضوا يثبّطون الناس . وفي هذا الفصل سنعرض لأهم مكائدهم ضد النبي ﷺ ، والجيش الإسلامي ، الذي فيه خيرة أصحاب النبي ﷺ . وسوف نتحدث عن مواقفهم قبل الغزوة ، وفي أثناءها ، وبعدها . إن شاء الله تعالى .

(١) ابن هشام : السيرة النبوية (١٩٦/٥)

(٢) الزرقاني ، محمد بن عبد العظيم ، شرح المواهب اللدنية (٦٢/٣) (بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت)

المبحث الأول

تحالف المنافقين مع اليهود وتخلفهم عن غزوة تبوك

المطلب الأول : تحالف المنافقين مع اليهود لتثبيط المسلمين عن الجهاد
في غزوة تبوك :

سبق الحديث في الفصل الثاني عن : أنه من أراد أن يقتفي أثر إفساد وتآمر المنافقين خلال عهد الرسالة (بل وحتى في عصرنا هذا) فعليه أن يبحث عن آثارهم في مظان الحديث عن اليهود ، فأينما وُجد اليهود ، وُجد المنافقون . وهذه حقيقة ثابتة ؛ بل وتكرر علينا في أيامنا هذه . والواقع يشهد بذلك .

وفي غزوة تبوك نجد هذا التحالف ظاهراً للعيان ، يؤيد ما ذكرنا آنفاً .

كان هذا التحالف قبيل خروج جيش النبي ﷺ إلى غزوة تبوك لقتال الروم .

لم يكن خافياً على رسول الله ﷺ ولا على أحدٍ من أصحابه ﷺ ما يُضمِرُهُ المنافقون من بُغْضٍ وحقْدٍ على المسلمين ، ورغبةٍ في إلحاق الضرر بهم ، ومحاولات مبطنّة لتدمير الأمة الإسلامية ، مع تظاهر هؤلاء المنافقين بأنهم مسلمون ، وحريصون على مصلحة المسلمين . فكان زعماءهم (مثل عبد الله بن أبي بن سلول ، والجد بن قيس) يحضرون كثيراً من الاجتماعات التي يعقدها النبي ﷺ مع كبار أصحابه ، باعتبار أن زعماء المنافقين هؤلاء (في الظاهر) جزءٌ من الأمة الإسلامية .

وقد كان النبي ﷺ يتسامح معهم ، مع علمه عنهم أنهم منافقون ؛ بل ويتجاوز عن كثيرٍ من تصرفاتهم ما دام هذا التصرف لا يتجاوز التنفيس عما تُكِنُّه صدورهم المريضة من بُغْضٍ للنبي ﷺ وأصحابه ﷺ . ما دام أنها لا تصل إلى درجة الإضرار الفعلي بأمن الأمة الإسلامية وسلامتها . أما حين يصلُ المنافقون في تصرفاتهم إلى هذه الدرجة ، فإن الرسول الحكيم ﷺ يتخذ ضدهم من الإجراءات ما يحفظ لأمة الإسلام أمنها وسلامتها .

لذلك كانت عيون المسلمين (وهو ما يسمى اليوم بأجهزة الأمن والاستخبارات) تراقب هؤلاء المنافقين . ونتيجة مراقبة أجهزة الأمن هذه للمنافقين ، تم اكتشاف نشاطاتٍ مشبوهةً ، واجتماعاتٍ سرّيةٍ يعقدها هؤلاء المنافقون للتآمر على سلامة الجيش وأمن الأمة الإسلامية ، فنقل حُرّاس الأمن في المدينة إلى رسول الله ﷺ أن هناك وكراً تلتقي فيه سرّاً عناصر النفاق ، وتُحِيك فيه الدسائس والمؤامرات ، التي تُعرّض سلامة الجيش وأمن الأمة للخطر ، وأن هذا الوكر على وجه التحديد هو بيت أحد اليهود ، ممّن هو في ذمة المسلمين وحمائتهم ، وعلى الرغم من ذلك قَبِلَ أن يكون بيته ملتقى لعناصر التخريب والتآمر على الإسلام والمسلمين . هذا اليهودي اسمه "سويلم" .

وعندما بلغ رسول الله ﷺ خبر هذا الوكر ، وما يجري فيه من دَسِّ وتآمر من المنافقين ، بمساندة بقايا اليهود = أَمَرَ ﷺ قُوى الأمن في المدينة بأن تنسف ، وتدمّر وكر التآمر هذا . أي : بيت سويلم اليهودي . فسارعت قُوى الأمن إلى محاصرة بيت سويلم الذي كان فيه المتآمرون يعقدون معه اجتماعاً من اجتماعاتهم المشبوهة ، ثم أضرمت قُوى الأمن الإسلامية النَّارَ في ذلك الوكر على من فيه من المتآمرين ، والتهمت النار البيت ، وكادت النار أن تلتهم المتآمرين المجتمعين فيه ، لولا أنهم قفزوا من النوافذ فنجّوا من الموت . وكان الذي تولى عملية إحراق البيت الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله ؓ .

روى ابن هشام^(١) ، قال : "بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، وكان بيته عند جاسوم^(٢) ، يثبّطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله ﷺ في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم . ففعل طلحة بن عبيد الله ﷺ ، فاقتحم الضحّاك بن خليفة^(٣) من ظهر البيت ، فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه ، فأفلتوا . فقال الضحّاك :

كادت وبيت الله نار محمد يشيطن بها الضحّاك وابن أيرق
وظلت وقد طبقت كيس سويلم أنوء على رجلي كسيراً ومرفقي
سلام عليكم لا أعود لمثلها أخاف ومن تشمل به النار تحرق

ومع ما حدث مع هؤلاء المتآمرين ، فإن رسول الله ﷺ اكتفى فقط في تأديب هؤلاء المتآمرين بحرق الوكر الذي يلتقون فيه ، وهو بيت سويلم اليهودي ، فلم يأمر باعتقال أحد ممن كان في البيت ساعة مدهامته وإحراقه . وحتى سويلم اليهودي لم يتخذ الرسول ﷺ أي إجراءٍ ضده ، سوى حرق بيته .

ويدل هذا الإجراء على مراقبة المسلمين الدقيقة ، ومعرفتهم بأحوال المنافقين ، واليهود ، فقد كانت أعين المسلمين يقظةً ، تُراقب تحركات اليهود والمنافقين ،

(١) السيرة النبوية (١٩٦/٥)

(٢) بئر في المدينة . ابن شبة ، أبو زيد عمر بن شبة النمري البصري (ت ٢٦٢هـ) تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق فهد محمد شلتوت (٦٩/١) (ط ١ ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٠هـ)

(٣) الأشهلي الأنصاري . شهد غزوة بني النضير ، وله ذِكْرٌ ، وليست له رواية عن النبي ﷺ ، وقد فرّ من البيت الذي كانوا فيه مجتمعين ، ثم تاب بعد ذلك ، وحسن حاله ﷺ . ابن حجر : الإصابة (٢٠٣/٢)

واجتماعاتهم وأوكارهم ؛ بل كانوا يطلعون فيها على أدق أسرارهم واجتماعاتهم ، وما يدور فيها من حيك المؤامرات ، وابتكار أساليب الشيطان ، واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال .

✽ وقد كان علاج النبي ﷺ لدعاة الفتنة وأوكارها حازماً حاسماً ؛ إذ أمر بحرق البيت على من فيه من المنافقين ، وأرسل من أصحابه من ينفذه ، ونفذ بحزم . وهذا منهج نبوي كريم يتعلم منه كل مسؤول في كل زمان ومكان كيف يقف من دعاة الفتنة ، ومراكز الإشاعات المضللة ، التي تُلحِقُ الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول ؛ لأن التردد في مثل هذه الأمور يُعَرِّضُ الأمن والأمان إلى خطر ، ويُنذر بزوالها^(١).

(١) أحمد ، مهدي رزق الله ، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٢١٨) (ط١، الرياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٩٩٢م)

المطلب الثاني : تخلف المنافقين عن غزوة تبوك ، واعتذارهم بأعذار شتى هي أشد قبحاً من التخلف نفسه :

على الرغم من انحسار نفوذ زعماء المنافقين شيئاً فشيئاً في المدينة ، فقد بقي بعض النفوذ بين العناصر المغرّرة بها . فكان عبد الله بن أبي ابن سلول ، والجدّ بن قيس (وهما رأسا النفاق) لا يزالان على قيد الحياة عندما اعتزم الرسول ﷺ أن يتحرك بالجيش إلى الحدود الشمالية ؛ لإرهاب الروم . وقد بذل زعيما النفاق هذان كلّ جهد لتمزيق وحدة المسلمين ؛ ونشر الشائعات المغرضة ، بهدف إحداث الفوضى والبلبلة داخل صفوف الجيش ، الذي تقرر أن يتحرك من المدينة إلى تبوك بقيادة رسول الله ﷺ .

أما الجد بن قيس بصفته زعيم من زعماء المسلمين (في الظاهر) فقد حاول رسول الله ﷺ أن يتألفه ، لعل سريرته تنقي ، ويشترك بإخلاص في هذه الحملة العسكرية التاريخية . فالرسول ﷺ (دائماً) لا يبأس من إصلاح النفوس التي اعتادها الخراب ، فهو رسول رحمة ومحبة ، وإصلاح للنفوس . لذلك قال للجد بن قيس هذا - بأدب رفيع - : (هل لك العام تخرج معنا؟) وبلهجة فيها شيء من المداعبة ، قال له : (لعلك تحتقب من بنات بني الأصفر!) وكان الإسلام يبيح سب نساء الأعداء ، وتسريهن كعمل حربي (مقابل لا بد منه) لأن الأعداء إذا ما سبوا نساء المسلمين استرقّوهن وتسروهن . فقال الجد بن قيس للنبي ﷺ ، بلغة منافقة خبيثة ماكرة : أو تأذن لي ، ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما أحدّ أشدّ عجباً بالنساء مني ، وإنني لأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهنّ .

ولقد استاء الرسول ﷺ لهذا الجواب الخبيث ، غير أن الرسول ﷺ بما جُبل عليه من أدب رفيع جم ، لم يعبر عن استيائه من هذه الإجابة التي تحمل أكثر من معنى من معاني الخبث والنفاق ، ولم يعبر عن استيائه بأكثر من أنه (فقط) أعرض عن الجد بن

قيس ، وذهب في الحلم عن هذا المنافق إلى أن أذن له في التخلف عن الجيش ، قائلاً له : (قد أذنتُ لك!)^(١)

✽ ومن عجائب المفارقات التي تصنعها العقيدة : أن لهذا المنافق الجدّ بن قيس ، ابنٌ صالحٌ شديدُ الإيمان ، كان قد شهد بدرًا مع المسلمين ، هو : عبد الله^(٢) . هذا الشابُ الثابتُ العقيدة ، الصالحُ المؤمن ، لما بلغتهُ مقالةُ أبيه النابية لرسول الله ﷺ ذهبَ إليه ليقدم له النصيحَ ؛ كي يتوب إلى الله تعالى مما فاه به من مُنكر القول أمام رسول الله ﷺ ، ولينفِرَ ضمن الجيش مع رسول الله ﷺ إلى حيث يريد ، لاسيما وأنه غني من أغنياء المدينة ، وسيد من سادات الخزرج المرموقين . والمفروض فيهم أن يكونوا في مقدمة الجيش النبوي الغازي .

فقد قال هذا الشاب المؤمن الطيب عبد الله لأبيه الباطني المنافق الجد بن قيس ، متسائلاً في استنكار : لِمَ تَرُدُّ على رسول الله ﷺ مقالته ؟ فو الله ما في بني سلمة أكثر مالاً منك ، ولا تخرُجُ ، ولا تحملُ أحداً (أي : لا تساعد أحداً من المجاهدين المعوزين) بخيلٍ ، ولا ركابٍ يركبها في هذه الغزوة ؟ فقال الجد المنافق لابنه المؤمن الصادق : يا بني ، ما وللخزرج في الرّيح ، والحرّ ، والعسرة إلى بني الأصفر؟ ثم اندفع يتحدثُ بلُغة الإرجاف ، والتخوّف من قوة الرومان ؛ لعلّه يؤثر في معنويات ابنه المؤمن ، ومن يسمع قوله الخبيث ، فيخافون ، فيقعدون مثله مع الخوالف . فقال ، وهو يحاور ابنه : والله ما آمنُ من بني الأصفر وأنا في منزلي بخزربي ، فأذهب إليهم فأغزوهم؟! وإني والله يا بني عالمٌ بالدوائر .

(١) القرطبي : التفسير (١٥٨/٨)

(٢) السلمي الأنصاري ، شهد بدرًا وأحداً ، ، وكان من سادات بني سلمة . ابن سعد : الطبقات الكبرى (٥٧١/٣) ابن حجر : الإصابة (٢٨٦/٢)

وهنا تفاعلت عوامل الغضب لله ورسوله في نفس الشاب المؤمن الصادق ، فوضع اعتبار العقيدة فوق كل اعتبار ، فداس في سبيل نصر عقيدته على عاطفة الأبوة ، فخطب أباه كما يخاطب المنحرفين الضالين الخبيثاء ؛ حيث صارحه بأنه منافق ، وأنّ باعث تخلّفه عن رسول الله ﷺ ، لم يكن الخوف من بني الأصفر (كما زعم) ولكنه الرغبة في الكيد للإسلام ، وتثبيط المسلمين عن الغزو . حيث قال له : ولكنّه النفاق ، والله لينزلنّ على رسول الله ﷺ فيك قرآن يقرؤونه . فغضب المنافق الكبير لمقالة ابنه ، فضربه بالنعل على وجهه ، وكان ابنه به برّاً ، فصبر الابن المؤمن الصادق ، وانصرف من مجلس أبيه ، ولم يتكلم .

وازداد المنافق الكبير عناداً وكفراً ، فاستمرّ بإرجافه برسول الله ﷺ ، وتشكيكه الناس في دين الله ، وتجسيمه ما سيقاونه في غزوتهم الطويلة الشاقة من مشاق الحر الشديد . وذلك عن سبق إصرارٍ دنيءٍ ، ورغبة خبيثة في التأثير على المسلمين ؛ لعلهم يتأثرون بإرجافه ، فيعدلون عن لمشاركة في الجهاد ، فيصيب التصدّع والتفكك الجيش النبوي ، الذي بدأ استكمال له لشده ، وتجهيزه ؛ استعداداً للتحرك إلى تبوك .

وقد ذكر أصحاب السّير والحديث أن الجد بن قيس المنافق هذا وجّه نداءً إلى قومه بني سلمة ، وفي مقدمهم جبار بن صخر^(١) ؛ يحثّهم فيه على التخلّف عن رسول الله ﷺ ، لأن الفصل فصل حرّ شديد . فقال لجبار بن صخر ﷺ ونفر من بني سلمة : يا بني سلمة ، لا تنفروا في الحر . قال الواقدي : "لا تخرجوا في الحرّ ؛ زهادة في الجهاد، وشكاً في الحق ، وإرجافاً برسول الله ﷺ"^(٢) .

^(١) الأنصاري الخزرجي ، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، شهد بيعة العقبة وبدراً وما بعدها من المشاهد ، ومات سنة (٣٠هـ) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٣/٥٧٦) ابن عبد البر : الاستيعاب (١/٢٢٨) ابن حجر : الإصابة (١/٢٢٠)

^(٢) المغازي (٣/٩٩٤)

لكن مسعى الخبيث فشَل ، وأنزل الله فيه قرآناً فضحه فيه (كما توقع ابنه المؤمن) قال تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فليضحكوا قليلاً وليبكون كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ﴿٨٢﴾ التوبة: ٨١ - ٨٢ وفي مقالة المنافق الجد بن قيس لرسول الله ﷺ بشأن بنات الروم : أو تأذن لي ولا تفتني . أنزل الله قرآناً أكد فيه أن هذا المنافق وأضرابه واقعون في فتنة أعظم ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ التوبة: ٤٩

فلما نزلت هذه الآية الكريمة التي تفضح الجد بن قيس وأمثاله ، وتُشهرُ نفاقهم ، ذهب إليه ابنه عبد الله ، فقال له مكرراً لومه له على موقفه السيئ من رسول الله ﷺ : ألم أقل لك إنه سينزل فيك قرآن يقرؤه المسلمون ؟ لكن الأب المنافق تمادى في غيه ، وازداد النفاق في نفسه الخبيثة ، فأظهر شديد غضبه على ابنه المؤمن لتكراره النصيح له ، وأعلن أنه سيقطع عنه كل صلة ؛ حيث قال له : اسكت يالْكَعِ^(١) ! والله لا أنفعك بِنَافِعَةٍ أبداً ، والله لأنت أشدُّ عليَّ من محمد!!^(٢).

(١) اللّكع عند العرب ، العبد ، ثم استعمل في الحمق والذم ، وأكثر ما يقع في النداء ، واللّكع اللّيم ، وقيل الوسخ ، وقد يطلق على الصغير ، فإن أطلق على الكبير ، أريد به صغير العلم والعقل ، ابن الأثير : النهاية (٢٦٨/٤) ابن منظور : لسان العرب (٣٢٢/٨)

(٢) الواقدي : المغازي (٦٩٣/٣)

المبحث الثاني

التخريب داخل الجيش الإسلامي وإيجاد الخلاف

المطلب الأول : أولاً : الإرجاف والتخريب داخل الجيش الإسلامي :

أمّا رأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول ، الذي هو سيد من سادات الخزرج ، فقد أدّى أكبر الأدوار في محاولة الإرجاف والتخريب داخل صفوف الجيش ، الذي تقرّر أن يتحرّك من المدينة إلى تبوك لمواجهة الروم .

فإذا كان دور المنافق الكبير الثاني الجد بن قيس ينحصر في تشييط وتوهين عزائم المسلمين ، بتخويفهم من العسكرية الرومانية ، وما هي عليه من قوة وبأس ، وتوجيه النداء إلى قومه بأن لا ينفروا مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة ، لأن الحر شديد؛ فإن دور عبد الله بن أبي ابن سلول في مجال التخريب ، وتمزيق الكلمة أخطر وأعظم .

ذلك أن عبد الله بن أبي ابن سلول ، لم يكتفِ بالتشويش وأعمال التشييط والتوهين القولي فحسب ؛ بل قاد عملية تمرد داخل الجيش النبوي ، بعد أن انتظم عقده، وتمّ حشدّه ، وتجهيزه .

فقد كان عبد الله بن أبي بن سلول وجماعته الباطنيين (باعتبارهم يحملون الهوية الإسلامية في الظاهر) قد انخرطوا في سلك الجيش الإسلامي بأعداد كبيرة حين أعلن الاستنفار العام ؛ لا لإسناد هذا الجيش وتقويته ، وإنما بقصد إحداث الفرقة والتشويش والبلبلة داخل صفوفه ، وذلك بالانفصال عن هذا الجيش ، والرجوع إلى المدينة عندما يبدأ الجيش بالتحرك نحو وجهته .

وقد أعادَ عبد الله بن أبي ابن سلول (مع الجيش النبوي المتحرّك إلى الشمال) تمثيلَ دوره يوم أُحدٍ حين واجه المسلمون مشركي قريش ؛ حيث رجع إلى المدينة من

منتصف الطريق برتله ، وكانوا حينئذٍ يمثلون نحواً من ثلث الجيش ، الأمر الذي كان له أسوأ الأثر في نفوس المؤمنين ؛ بل كاد أن يؤدي إلى تمردٍ آخر في الجيش النبوي أخطر وأعظم ؛ إذ كادت قبيلتان من الأنصار تحذوان حذو عبد الله بن أبي ورتله ، فترجع إلى المدينة ، وتترك الاشتراك مع النبي ﷺ في القتال . ولولا أن الله تعالى ثبت رجال هاتين القبيلتين ، فثبتوا على إيمانهم ، واستمروا في مساندة الرسول ﷺ حتى نهاية المعركة .

ففي غزوة تبوك خرج عبد الله بن أبي ابن سلول في جيش كبير من أصحابه المنافقين ؛ على أنه جزء من الجيش النبوي . غير أن رأس النفاق لما بدأ الجيش النبوي في التحرك من ثِيَّةِ الْوَدَاعِ^(١) ، حيث كان يعسكر ، قام بما يمكن تسميته بالتمرد ؛ حيث رجع إلى المدينة مع مجموعة كبيرة من المحاربين ، الذين كانوا قد انتظموا في صفوف الجيش النبوي . وكان الذين رجعوا مع رأس النفاق هم بالتأكيد ممن كان على النفاق مثله .

كان الهدف واضحاً من تصرّف رأس النفاق هذا ، وهو محاولة تمزيق وحدة الجيش النبوي ، بإغراء وحداته الأخرى بأن تصنع صنيعه . وكان عبد الله بن أبي بن سلول عندما تمرد برتله ، تفوّه بكلمات فيها تخويّف لمن بقي ثابتاً حول النبي ﷺ من الجيش ، وتحريضاً لوحدات الجيش الأخرى على التمرد والرجوع إلى المدينة ، وتزك النبي ﷺ وشأنه . ولكن محاولات المنافق الكبير هذه باءت بالفشل ، فلم يتبعه في الانسلاخ من الجيش والرجوع إلى المدينة سوى رتله الخاص ، الذي كل أفراد منافقون مثله . ومع ذلك فقد بقي الجيش النبوي متماسكاً ، كأقوى وكأعظم ما يكون ؛

(١) الثنية : العقبة ، أو طريقها ، أو الجبل ، أو الطريق فيه ، أو إليه . وسُمّيت بذلك ؛ لأن النبي ﷺ ودّع بها المقيمين في المدينة . وقيل : هي اسم جاهلي . وتقع إلى الشمال من المدينة . البكري ، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ) ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع ، تحقيق مصطفى السقا (٤/١٣٧٢) (ط٣ ، بيروت عالم الكتب ، ١٤٠٣هـ)

إذ بقي تحت قيادة الرسول ﷺ ثلاثون ألف مقاتلٍ ، تحرك بهم إلى الشمال ، وتحققت بهم الأهداف التي من أجلها تحرك بهم . ولم يجن عبد الله بن أبي بن سلول وبقية عصابة المنافقين سوى الخيبة والخسران .

وعلى الرغم من أن عبد الله بن أبي بن سلول قد انسلخ عن الجيش بوحداته التابعة له ، بقصد الإضرار بوحدة هذا الجيش ، وبقصد تحريض المسلمين على الانفضاض من حول الرسول القائد ﷺ ، كي يفشل خطة النبي ﷺ في غزوته التاريخية تلك = فإن الرسول الحكيم الحليم ﷺ لم يتخذ أي إجراء تاديبي ضد عبد الله بن أبي بن سلول ورثله المتمرد . وتلك دائماً عادة النبي ﷺ الحكيمة إزاء مثل هذه التصرفات الشائنة ، التي يلجأ إليها كل المنافقين ؛ بقصد تمزيق وحدة المسلمين ، والنكير على الرسول العظيم ﷺ .

قال الواقدي يصف تآمر عبد الله بن أبي بن سلول وأتباعه المنافقين يوم تحرك الجيش النبوي إلى تبوك : "وأقبل عبد الله بن أبي بعسكره فضربه على ثنية الوداع بحذاء ذباب^(١) ، معه حلفاؤه من اليهود والمنافقين ممن اجتمع إليه ، فكان يقال له : ليس عسكر ابن أبي بأقل العسكرين . وأقام ما أقام رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يستخلف على العسكر أبا بكر الصديق ﷺ يصلي بالناس ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أبي عن رسول الله ﷺ فيمن تخلف من المنافقين ، وقال مستهزئاً : يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال ، والحر ، والبلد البعيد ، إلى ما لا قبل له به ، يحسب محمداً أن قتال بني الأصفر اللعب ؟ وناق معه من هو مثل رأيه .

(١) جبل بالمدينة المنورة ، الحموي : معجم البلدان (٣/٣)

ثم قال الخبيث متمنياً الهزيمة والانكسار للنبي ﷺ وجيشه : والله لكأني أنظرُ إلى أصحابه غداً مقرنين في الجبال . إرجافاً برسول الله ﷺ ، وأصحابه" (١) .

ولا شك أن العناصر الطيبة المخلصة في الجيش النبوي قد تألمت للتصرف المشين الذي تصرفه عبد الله بن أبي بن سلول ، فسأها أن ينخذل عن رسول الله ﷺ ، فيرجع بوحداته العسكرية الخاصة ، قاصداً إحداث الفرقة وإشاعة البلبلة داخل الجيش النبوي . ومن المحتمل أن بعض القادة المخلصين قد رغبوا أن يقوم الرسول ﷺ بتصفية عبد الله ابن أبي وعصابته المتمردة تصفية جسدية ؛ بحيث يقتلهم ويقضي عليهم قبل أن يتحرك لمواجهة الرومان ، ويترك المدينة وفيها هذا الوباء المتمثل بهؤلاء المنافقين المسلحين ، الذين دفعتهم الرغبة المجنونة في إلحاق الضرر بالقوات النبوية المسلحة ، إلى الانسلاخ عن هذا الجيش ، والرجوع برتلهم إلى المدينة ، معلنين أن النبي ﷺ حين يتحرك لمواجهة الروم في الشمال ، إنما يقدم أصحابه ليوثقهم بنو الأصفر في الجبال ، لأن النبي ﷺ (في زعم رأس النفاق) لم يقدر قوة الرومان حق قدرها "يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب ؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرنين في الجبال".

ثانياً : حكمة وحلم النبي ﷺ في التعامل مع رأس النفاق يوم تبوك :

إن النبي ﷺ ، وهو البعيد النظر ، والحليم الذي لا يبلغ أحد مداه في الحلم والأناة ، والمجرب الذي يقدر النتائج قبل الإقدام على العمل ، والذي هو فوق ذلك كله يتلقى الوحي من السماء ، فلا يصدُرُ إلا عن أمر ربه = لم يشأ أن يتخذ أي إجراء ، (مهما كان) ضد عبد الله بن أبي بن سلول ، ومن لف لفه من المنافقين ، الذين لم يتركوا وسيلةً لتخذيل المسلمين وتمزيق وحدة الجيش المسلم إلا واتبعوها ، في وقت يمكن

(١) المغازي : ٣/٩٩٦) الصالح ، محمد بن يوسف الشامي (ت ٩٤٢هـ) ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ﷺ ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤هـ) (٥/٤٤٣)

تسميته بلغة العصر الحاضر : وقت طوارئ وظروف استثنائية . والنظم العصرية (حتى في البلاد التي تدعي الديمقراطية) تُنزل أقسى العقوبات التي تصل أحياناً إلى عقوبة الإعدام في من تثبت إدانته بعمل تخريبي ، يُقصد به الإضرار بالقوات المسلحة ؛ خاصةً إذا كانت في حالة استنفارٍ واستعدادٍ لمواجهة العدو . وهو ما فعله تماماً عبد الله بن أبي ابن سلول ورثله الذي تمرد به وانسلخ من الجيش ، بعد أن كان جزءاً منه ؛ بقصد إلحاق الضرر بذلك الجيش .

لكن الرسول ﷺ الحكيم ، وهو في ذلك الظرف البالغ الخطورة ، لم يُقدم على أي عمل يؤدّب به القوات المتمردة وزعيمها الخبيث ؛ بل حتى لم يُسمع منه آنذاك مجرد كلمة لومٍ وجهها إلى عبد الله بن أبي بن سلول وعصابته على ما فعلوا ، فقد تجاهلهم النبي ﷺ وتجاهل تصرّفاتهم . ومضى بالجيش لوجهه حتى وصل إلى تبوك ، وحقق أهدافه ، وعاد ظافراً منتصراً ، لم تؤثر فيه تصرّفات رأس النفاق ، وحزبه .

✽ لقد أثبتت الأحداث وأكّدت أن سكوت النبي ﷺ على تصرفات المنافقين ، ورجوع العسكريين منهم ، وانسلاخهم عن الجيش النبوي بعد انخراطهم فيه كجنود وقادة = هو عين الحكمة ؛ حيث كان خروج هؤلاء المنافقين من الجيش النبوي بمثابة تطهير له من جرائم خبيثة كانت ستلحق به أفدح الأضرار لو بقيت مُنخرطةً داخل صفوفه ؛ لأنها ستكون دائماً مبعث فتنة وإرجاف ، وتشويش . وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة ، فقال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعُوهَا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ التوبة: ٤٧

✽ وكانت هناك عناصر من المنافقين أقلّ مُجاهرةً بالنفاق من عبد الله بن أبي بن سلول ، والجد بن قيس ، وحزبيهما . هذه العناصر القادرة من الناحية الجسدية والمادية على الاشتراك في الجهاد ، تطلب من رسول الله ﷺ إعفاءها من الاشتراك في الحملة ، معتردةً بمختلف الأعذار الكاذبة ، فلم يناقشها الرسول ﷺ ، فقبل اعتذارها ، ولم يُجبرها

على الاشتراك في الغزو . وهذه العناصر المنافقة الأشدُّ تكثُّماً تبلغُ بضعاً وثمانين رجلاً^(١) . وهؤلاء من غير العناصر التي رجع بها عبد الله بن أبي بن سلول .

المطلب الثاني : محاولة المنافقين إيجاد الخلاف بين النبي ﷺ وأهل بيته الكرام :

استخلف الرسول ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري^(٢) ، وخلف علي بن أبي طالب ﷺ على أهله ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلفه إلا استثقلاً وتخفُّفاً منه . فأخذ علي ﷺ سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا نبي الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقتني ، وتخففت مني . فقال ﷺ : كذبوا ، ولكني خلفتك لِمَا تركت ورائي ، فارجع فاحلُفني في أهلي وأهلك . أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدي^(٣) . فرجع عليٌّ إلى المدينة^(٤) .

^(١) المغازي (٣/٩٩٥)

^(٢) الأوسي ، الصحابي الجليل . شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ ، كان عند أمير المؤمنين عمر ﷺ معدًّا للكشف عن الأمور المتعلقة بالبلاد ، وكان ممن اعتزل الفتنة ، وسكن الربذة بعد مقتل عثمان ﷺ ، ومات بالمدينة سنة (٤٦هـ) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٣/٤٤٣) ابن خياط : الطبقات (ص ٨٠) ابن قانع : معجم الصحابة (٣/١٥)

^(٣) البخاري : الصحيح (٤/١٦٠٢) حديث رقم (٤١٥٤) مسلم : الصحيح (٤/١٨٧٠) حديث رقم (٢٤٠٤) ابن حبان : الصحيح (١٥/١٥) حديث رقم (٦٦٤٣)

^(٤) ابن القيم : زاد المعاد (٣/٥٢٩)

وكان استخلافُ عليٍّ ﷺ في أهله باعتبار قرابته ومصاهرته ، فكان استخلافه في أمرٍ خاصٍّ ، هو القيام بشأن أهله . وكان استخلاف محمد بن مسلمة ﷺ في الغزوة نفسها استخلافاً عاماً^(١) .

من هم أهل بيت النبي ﷺ؟ وما هو الواجب نحوهم؟

أهل بيت النبي ﷺ : هم الذين حُرِّمَتْ عليهم الصدقة . وهم : كلُّ مسلمٍ من آل عليٍّ ، وآل عقیلٍ ، وآل العباس ، وآل جعفر ، وبني الحارث بن عبد المطلب . وكذلك أزواجه ﷺ من أهل بيته . كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ﴿٣٣﴾ الأحزاب: ٣٣

وأفضلهم ، وعلى رأسهم : الحَبْرُ ، البَحْرُ ، التَّقِيَّ ، النَّقِيَّ ، ابن عمِّ رسول الله ﷺ ، وزوج البتول سيدة نساء العالمين : عليٌّ بن أبي طالب ﷺ ، الذي قال في حقه ﷺ يوم خيبر : (لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله عليه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله) فبات الناس يذكرون أيهم يُعطاها . فلما أصبح الناس غدواً على رسول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يُعطاها ، فقال : (أين علي بن أبي طالب ؟) فقبل : يا رسول الله ، يشتكي عينه . قال : (فأرسلوا إليه) فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ في عينه ، ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع . فأعطاها الراية ، فقال عليٌّ ﷺ : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير

(١) فيض الله ، محمد فوزي ، صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة (٤٤٦) (دمشق ، دار القلم ،

لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَمِ^(١) . وقد ذكرنا إخوان النبي ﷺ لعلي ﷺ يوم خيبر .
وفضائله كثيرة ﷺ .

ومن أهل بيته ﷺ : ابنته فاطمة رضي الله عنها التي كانت لها مكانة في قلب النبي ﷺ لا تساويها مكانة ، وحبُّ لا يعدُّه حُبُّ . يكفيها من شرف أن رسول الله ﷺ كان يقوم لاستقبالها ، ويُجلِّسها في مكانه . عن عائشة رضي الله عنها قالت : "ما رأيت أحداً من الناس أشبه بالنبي ﷺ كلاماً ، ولا حديثاً ولا جلسةً من فاطمة رضي الله عنها . وكان النبي ﷺ إذا رآها أقبلت رَحَبَ بها ، ثم قام إليها فقبلها ، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى أجلسها في مكانه . وكان إذا أتاها النبي ﷺ رَحَبَتْ به ، ثم قامت إليه فقبلته"^(٢) .

وعن المسور بن مخرمة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول :
(فاطمة بضعة مني ، يؤذيني ما آذاها ، ويريني ما رابها)^(٣) وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (نزل ملك من السماء ، فاستأذن أن يسلم علي ، لم ينزل قبلها ، فبشّرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة)^(٤)

وكذلك : ابنيهما ، السيدان ، الجليلان : الحسن والحسين ﷺ . قال ﷺ في

^(١) أحمد : المسند (٣٣٣/٥) البخاري : الصحيح (١٠٧٧/٣) حديث رقم (٢٧٨٣) مسلم : الصحيح (١٨٧٢/٤) حديث رقم (٢٤٠٦) النسائي : السنن الكبرى (٤٦/٥) حديث رقم (٨١٤٩) من حديث سهل بن سعد الأنصاري ﷺ .

^(٢) النسائي : السنن الكبرى (٣٩١/٥) حديث رقم (٩٢٣٦) ، وأصله في الصحيح .

^(٣) البخاري : الصحيح (١٣٧٤/٣) حديث رقم (٣٥٥٦) مسلم : الصحيح (١٣٠٩/٤) حديث رقم (٢٤٤٩) الترمذي : السنن (٦٩٨/٥) حديث رقم (٣٨٦٩) النسائي : السنن الكبرى (٩٧/٥) حديث رقم (٨٣٧٠)

^(٤) الحاكم : المستدرک (١٦٤/٣) حديث رقم (٤٧٢٢)

حقهما : (الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة)^(١) . وقال ﷺ مبيّناً مدى حبّه لهما :
(هما ريحانتي من الدنيا)^(٢)

وقال : (هذان ابناي ، وابنا ابنتي . اللهم إني أحبهما فأحبهما ، وأحب من
يُحِبُّهُمَا)^(٣)

وتروي أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جلّ الحسن والحسين وعلياً
وفاطمة ﷺ كساءً ، ثم قال : (اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ، أذهب عنهم الرجس ،
وطهرهم تطهيراً) قلت : يا رسول الله ألسْتُ من أهل بيتك ؟ ، قال : بلى ، فدخلت في
الكساء ، قالت : فدخلت في الكساء بعد ما قضى دعاءه لابن عمه وابنيه وابنته
فاطمة ﷺ .^(٤)

وكذلك : ابن عم رسول الله ﷺ البحرُ الزخار ، ترجمان القرآن : عبد الله بن
عباس رضي الله عنهما ، الذي دعا له رسول الله ﷺ فقال : (اللهم فقّههُ في الدين ،
وعلمهُ التأويل)^(٥)

وكذلك : ابن عم رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب ﷺ ، الذي قال بحقه ﷺ :

^(١) الترمذي : السنن (٦٥٦/٥) حديث رقم (٣٧٦٨) ابن ماجة : السنن (٤٤/١) حديث رقم (١١٨)
النسائي : السنن الكبرى (١٤٩/٥) حديث رقم (٨٥٢٥) الحاكم : المستدرک (١٨٢/٣) حديث
رقم (٤٧٧٨)

^(٢) البخاري : الصحيح (١٣٧١/٣) حديث رقم (٣٥٤٣) الترمذي : السنن (٦٥٧/٥) حديث رقم
(٣٧٧٠)

^(٣) الترمذي : السنن (٦٥٦/٥) حديث رقم (٣٧٦٩)

^(٤) أحمد : المسند (٢٩٨/٦)

^(٥) البخاري : الصحيح (٦٦/١) حديث رقم (١٤٣) ابن حبان : الصحيح (٥٣١/١٥) حديث رقم
(٧٠٥٥) الحاكم : المستدرک (٦١٥/٣) حديث رقم (٦٢٨٠)

(أشبهت خلقي وخلقي)^(١)

وجاء من بعدهم خيرُ خلفٍ لخير سلفٍ من أهل البيت ﷺ ؛ كالإمام السَّجَّاد علي بن الحسين ﷺ ، والإمام محمد بن علي الباقر ، الذي بقر العلوم ، وحصل الفهوم ﷺ ، وأخيه زيد بن علي ﷺ ، الذي كان قويَّ الفهم ، وصافي الذهن .

وكذلك : الإمام المقدمُ الحسنُ المثنى ابن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ ، والإمام الصادقُ أبو عبد الله جعفرُ بن محمد ﷺ ، الذي سارت بذكر محاسنه الرُّكبان . وغيرهم كثيرٌ ، كانوا على خطِّ جدِّهم رسولِ الله ﷺ سائرين .

وصية النبي ﷺ في أهل بيته :

قال ﷺ لعمة العباس ﷺ وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفؤ بني هاشم : (والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرايتي)^(٢) . وقال ﷺ : (إن الله اصطفى بني إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم)^(٣)

فهذا الحديث يتضمن احترام أهل البيت ، وتوقيرهم ، والإحسان إليهم . فحُبُّ أهل بيت النبي ﷺ الأطهار وأصحابه الكرام دينٌ ، وإيمانٌ ، وإحسانٌ . وبُغْضُهم كفرٌ ، ونفاقٌ ، وطُغيانٌ .

(١) البخاري : الصحيح (٩٦٠/٢) حديث رقم (٢٥٥٢) ابن أبي شيبة : المصنف (٣٨١/٦) ح (٣٢٣٠٢) النسائي : السنن الكبرى (١٢٧/٥) حديث رقم (٨٤٥٦) ابن حبان : الصحيح (١١/٢٢٩) حديث رقم (٤٨٧٣) الحاكم : المستدرک (١٣٠/٣) حديث رقم (٤٦١٤)

(٢) ابن أبي شيبة : المصنف (٣٨٢/٦) حديث رقم (٣٢٢١٣) الطبراني : المعجم الكبير (١١/٣٤٣) حديث رقم (١٢٢٢٨)

(٣) مسلم : الصحيح (١٧٨٢٩/٤) حديث رقم (٢٢٧٦) الترمذي : السنن (٥٨٣/٥) حديث رقم (٣٦٠٥)

فمذهب أهل السنة وسطٌ بين غُلُوِّ الرافضة^(١) ، وجفاء الخوارج وتقصيرهم .

فضائل وأحكام تخص أهل البيت ﷺ :

١. تحريم الزكاة عليهم . لحديث عبد المطلب بن ربيعة ﷺ أن النبي ﷺ قال :
(إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس)^(١)

^(١) فالرافضة غُلُوًّا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وأهل البيت ، ونصبوا العداوة لجمهور الصحابة ، وكفروهم ، ومن والاهم ، وقالوا : لا ولاء إلا براءة . أي : لا يتولى أحدٌ أمير المؤمنين علياً ﷺ حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر ﷺ . وكفروا من قاتل علياً ، وقالوا : إن علياً إمام معصوم .

وسببُ تسمية الشيعة بالرافضة : أنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين ﷺ ورفضوا عنه ؛ حينما قالوا له : تبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر ﷺ ، فقال : معاذ الله ! وزيراً جدِّي . فتركوه ، ورفضوه ، فسُمُّوا بالرافضة . أما الزيدية ، فقالوا : نتولاهما ، ونتبرأ ممن تبرأ منهما . فخرجوا مع زيد ، فسُمُّوا بالزيدية . وأما الخوارج ، فهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي ﷺ وفارقوه بسبب التحكيم ، وكانوا اثني عشر ألفاً . فأرسل إليهم ابن عباس ﷺ فجادلهم ، ووعظهم ، فرجع بعضهم ، وأصرَّ على المخالفة آخرون ، وقالت طائفة : ما يصدر من أمر التحكيم ؛ فإن أنفذه قُمنَّا على المخالفة له . ثم إنهم أعلنوا الفرقة ، وأخذوا في نهب من لم ير رأيهم . وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : (تمزق مارقة على حين فرقة من المسلمين ، يقتلها أولى الطائفتين بالحق) فقتلهم على ﷺ ، وطائفته .

فالخوارج والرافضة على طرفي نقيض ؛ لأن الرافضة غُلُوًّا في علي وأهل البيت ﷺ ، والخوارج ضدَّهم كفروا علياً وعثمان ومن والاهما . وأما أهل السنة والجماعة فكانوا وسطاً عدلاً ، كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بين غُلُوِّ الرافضة ، وجفاء الخوارج . فهُدُّوا لموالات الجميع ومحبتهم ، وعرفوا لكلِّ حقَّه وفضلَه . وبذلك يظهر توسُّطهم وعدلُّهم . وأهل السنة كذلك يتبرَّون من طريقة النواصب ، الذين نصبوا العداوة لأهل البيت ، وتبرَّوا منهم ، وكفروهم ، فسقوهم . فأهل السنة يعرفون قدر الصحابة وفضلهم ، ويرعون حقوق أهل البيت ، ولا يرضون بما فعله المختار وغيره من الكذابين ، ولا ما فعله الحجاج وغيره من الظالمين . يُنظر: ابن تيمية ، العقيدة الواسطية (ص ١٠٧ - ١٠٨) (الرياض ، دار العاصمة ، ١٤٢٢هـ)

٢ - لا يرثون النبي ﷺ . لحديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
(لا نورث ، ما تركنا صدقة) ^(١) وقد روى هذا الحديث : أبو بكر ، وعمر ،
وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، والعباس
بن عبد المطلب ، وأبو هريرة ، وأزواج النبي ﷺ . كما نص على ذلك ابن تيمية .
وهذه الأحاديث ثابتة عنهم في الصحاح والمسانيد .

٣ - لهم خمس الخمس من الغنيمة ^(٢) ، والفية ^(٤) .

أما خمس المغنم فلقوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا
أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْأَجْمَعُونَ وَاللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾
الأنفال: ٤١ ، وأما الفية فلقوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا
ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾
الحشر: ٧

^(١) مسلم : الصحيح (٧٥٢/٢) حديث رقم (١٠٧٢) ابن حبان : الصحيح (٣٨٥/١٠) حديث رقم (٤٥٢٦)

^(٢) البخاري : الصحيح (١١٢٦/٣) حديث رقم (٢٩٢٦) مسلم : الصحيح (١٣٨٠/٣) حديث رقم (١٧٥٩)

^(٣) ما أخذ من مال الكفار قهراً بالقتال ، معجم الفقه الحنبلي (٧٤٥/٢)

^(٤) هو الراجع إلى المسلمين من مال الكفار من غير أن يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، كالذي تركوه فزعاً من المسلمين وهربوا ، والحزبية وعشر أموال أهل دار الحرب إذا دخلوا علينا تجاراً ، ونصف عشر تجارات أهل الذمة ، وخراج الأرض ، ومال من مات من المشركين ولا وارث له ، معجم الفقه الحنبلي (٧٥٦/٢)

٤ . الصلاة عليهم مع النبي ﷺ . عن كعب بن عجرة ؓ قال : سألتنا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ فإن الله قد علمنا كيف نسلم عليكم . قال : (قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)^(١)

٥ . لهم مودة خاصة . ويتمثل هذا فيما رواه زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال : (أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي)^(٢)

قال القرطبي : "وهذه الوصية ، وهذا التأكيد العظيم ، يقتضي وجوب احترام أهله ، وتوقيرهم ومحبتهم ، وجوب الفروض المؤكدة التي لا عذر لأحد في التخلف عنها ، فينبغي علينا مناصرتهم ، والبذل لهم ، والذب عنهم ، وذكر مناقبهم".

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أشد تعظيماً ومحبةً لأهل البيت ؛ لاستشعارهم مكانة أولئك من النبي ﷺ ، وامثالاً لوصايا النبي ﷺ .

وقد فهم الصحابة كلهم وصية النبي ﷺ في أهل بيته حق الفهم ، وطبّقوا ذلك قولاً ، وعملاً ؛ أولهم أبو بكر الصديق ؓ ، فهذا أبو بكر الصديق ؓ ، أحبهم وأكرمهم ودعا الناس إلى إكرامهم ومحبتهم ، فقد روى البخاري بسند صحيح إلى أبي بكر الصديق ؓ أنه قال : "ارقبوا محمداً في أهل بيته"^(٣) .

^(١) البخاري : الصحيح (١٢٣٣/٣) حديث رقم (٣١٩٠) مسلم : الصحيح (٣٠٥/١) ح (٤٠٦٠)

^(٢) مسلم : الصحيح (١٨٧٣/٤) حديث رقم (٢٤٠٨) الدارمي : السنن (٥٢٤/٢) حديث رقم (٣٣١٦)

^(٣) الصحيح (١٣٦١/٣) حديث رقم (٣٥٠٩)

فهذا خطابٌ من الصديق ﷺ ، ووصيته للناس في حفظ حقوق أهل بيت النبي ﷺ .
فالمراقبة للشيء المحافظة عليه ، ومعنى قول الصديق : (احفظوه فيهم) : لا تؤذوهم
ولا تسيئوا إليهم .

قال النووي : "ومعنى : ارقبوا : راعوه ، واحترموه ، وأكرموه".

وقد أكد ﷺ تلك الحقوق بما قاله لعلي ﷺ : (والذي نفسي بيده لقرابة رسول
الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي)"^(١).

وعن عقبة بن الحارث ﷺ قال : صلى أبو بكر ﷺ العصر ، ثم خرج يمشي ،
فرأى الحسن يلعب مع الصبيان ، فحمله على عاتقه وقال :

بأبي شبيه بالنبي لا شبيه بعلي

وعليّ يضحك^(٢) . قال الحافظ ابن حجر : "فيه حذف تقديره ، أفديه بأبي .
وقال أيضاً : في الحديث فضل أبي بكر ومحبه لقرابة النبي ﷺ"^(٣) .

وقد تأثر الحسن بن علي ﷺ بسيرة الصديق و حتى أنه سمي أحد أبنائه باسم
أبي بكر ، ولا يسمي أحد من الناس أسماء على شخص معين إلا نتيجة حُبِّ ، ومعرفةٍ
مفضّلة بسيرته .

أما عمر ﷺ ، وعثمان فمحبتهما لأهل بيت النبي ﷺ ظاهرة ، تجلّيها الآثار
التالية المروية عنهما :

^(١) البخاري : الصحيح (١٣٦٠/٣) ح ٣٥٠٨٠

^(٢) البخاري : الصحيح (١٣٠٢/٣) ح ٣٣٤٩٠

^(٣) فتح الباري (٥٦٧/٦)

١. قال عمر ﷺ للعباس بن عبد المطلب ﷺ عم النبي ﷺ : "والله لإسلامك يوم أسلمت ، كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ لأن إسلامك كان أحبّ إلي رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب" (١) .

٢ . عن أنس ﷺ : "أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا فُحطوا ، استسقى بالعباس بن عبد المطلب ﷺ فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا ﷺ ففسقنا ، وإنا نتوسل بعم نبيك فاسقنا . قال : فيسقون" (٢) . والمراد بتوسل عمر ﷺ بالعباس ﷺ التوسل بدعائه ، كما جاء مبيناً في بعض الروايات ، وقد ذكرها الحافظ ابن حجر في شرح الحديث في كتاب الاستسقاء من فتح الباري (٣) . واختيار عمر ﷺ للعباس للتوسل بدعائه ، إنما هو لقربته من رسول الله ﷺ . لهذا قال ﷺ في توسله : "وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا" . ولم يقل بالعباس . ومن المعلوم أن علياً ﷺ أفضل من العباس ، وهو من قرابة رسول الله ، لكن العباس أقرب . ولئن كان النبي ﷺ يورث ، لكان العباس هو المقدم في ذلك ؛ لقوله ﷺ : "ألحِقُوا الفرائض بأهلها ، فما أبقت الفرائض فلاؤلى رجلٍ ذكر" . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ : قول النبي ﷺ لعمر ﷺ عن عمه العباس : (أما علمت أن عمّ الرّجلِ صنؤ أبيه) (٤)

٣ . وجاء في الحديث الصحيح الذي أورده الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة ، وعزاه إلى ابن عباس وابن عمر والمسور بن مخرمة ﷺ قوله ﷺ : (كُلُّ سَبَبٍ

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٤/ ٢٢ - ٣٠)

(٢) البخاري : الصحيح (١/ ٣٤٢) حديث رقم (٩٦٣)

(٣) (٢/ ٦٣٢)

(٤) صحيح البخاري ، (٢/ ١٥١) ، صحيح مسلم ، (٣/ ٤٥٥)

ونسبٍ منقطع يوم القيامة ، إلا سببي ونسبي^(١) وهذا الحديث هو الذي دفع عمر ﷺ لطلب الزّواج من أم كلثوم بنت علي ﷺ .

٤ - ولما وضع عمر ﷺ الديوان ، قالوا له : يبدأ أمير المؤمنين بنفسه ، فقال : لا ، ولكن ضَعُوا عمرَ حيث وضعه الله . فبدأ بأهل بيت رسول الله ﷺ ، ثم من يليهم ، حتى جاءت نوبته في بني عدي . وهم متأخرون عن أكثر بطون قريش .

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) : أن عمر بن الخطاب ﷺ لما وضع ديوانَ العطاء كتبَ النَّاسَ على قدر أنسابهم ، فبدأ بأقربهم نسباً إلى رسول الله ﷺ ، فلما انقضت العرب ، ذكر العجم . هكذا كان الديوان على عهد الخلفاء الراشدين ، وسائر خلفاء بني أمية ، وولد العباس ، إلى أن تغير الأمر بعد ذلك^(٢) .

٥ - كان العباس ﷺ إذا مرّ بعمر ، أو عثمان ﷺ وهما راكبان ، نزلا حتى يُجاوزهما ؛ إجلالاً لعم رسول الله ﷺ^(٣) .

٦ - كان عثمان بن عفان ﷺ ، يُكرم الحسن والحسين ﷺ ، ويحبهما . وقد كان الحسن بن علي يوم الدار ، وعثمان بن عفان ﷺ محصور عنده ، ومعه السيف متقلداً به ، يُجاحف عن عثمان ، فخشي عثمان عليه ، فأقسم عليه ليرجعنَّ إلى منزلهم ، تطيباً لقلب علي ، وخوفاً عليه ﷺ^(٤) .

(١) مسند الامام احمد ، (٣٢٣/٤) ، السلسلة الصحيحة ، (٤ / ٤٩٠)

(٢) ص (٤٤٦/١)

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء (٩٣/٢)

(٤) المرجع ذاته (٢٤٥/٣)

٧ . من المعلوم أن الخلفاء الأربعة الراشدين ﷺ ، أصهار رسول الله ﷺ ، فأبو بكر وعمر ﷺ حصل لهما زيادة الشرف بزواج النبي ﷺ من ابنتيهما ، عائشة ، وحفصة .
وعثمان وعلي ﷺ حصل لهما زيادة شرف لزواجهما من بنات النبي ﷺ ، فتزوج عثمان ﷺ من رقية ، وبعد موتها تزوج من أختها أم كلثوم . ولهذا يقال له (ذو النورين) وتزوج علي ﷺ من فاطمة رضي الله عنها .

الاستدلال من الكتاب والسنة على كون زوجات النبي ﷺ من أهل البيت :

أما دخول أزواجه رضي الله عنهن في (أهله) ﷺ ، فيدلُّ على ذلك قوله تعالى :
﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٣٣)
وَأذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
الأحزاب: ٣٣ - ٣٤ فهذه الآية تدل على دخولهن قطعاً ؛ لأن سياق الآيات قبلها وبعدها خطاب لهن .

وزوجاته ﷺ داخلات تحت لفظ (الآل) لقوله ﷺ : (إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد) وكذلك لهن الحق في خمس الخمس . ومن الأدلة الواضحة على تحريم الصدقة عليهن : ما رواه ابن أبي شيبه في مصنفه بإسناد صحيح عن ابن أبي مليكة : "أن خالد بن سعيد بعث إلى عائشة ببقرة من الصدقة ، فردتها ، وقالت : إنا آل محمد ﷺ لا تحل لنا الصدقة" (١) .

(١) المصنف (٤٢٩/٢) حديث رقم (١٠٧٠٨)

وقد استدل ابن القيم رحمه الله بأدلة كثيرة وواضحة في دخول الأزواج في الآل في كتابه ﴿جلاء الأفهام﴾^(١) فقال: "وإنما دخل الأزواج في الآل ، وخصوصاً أزواج النبي تشبيهاً لذلك بالنسب ؛ لأن اتصالهن بالنبي ﷺ غير مرتفع ، وهن محرّمات على غيره في حياته وبعد مماته ، وهنّ زوجاته في الدنيا والآخرة . فالسبب الذي لهن بالنبي ﷺ قائم مقام النسب .

وقد نص النبي ﷺ على الصلاة عليهن ، وأن الصدقة تحرم عليهنّ ؛ لأنها أوساخ الناس ، وقد صان الله ﷻ ذلك الجناب الرفيع وآله من كل أوساخ بني آدم .

ويا للعجب ! كيف يدخل أزواجه في ﷺ : (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً) وقوله في الأضحية : (اللهم هذا عن محمد وآل محمد) وفي قول عائشة رضي الله عنها: "ما شبع آل رسول الله ﷺ" . وفي قول المصليّ : (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد) ولا يدخلهنّ في قوله : (إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد) !!؟ مع كونها أوساخ الناس ، فأزواج رسول الله ﷺ أولى بالصيانة عنها ، والبعد منها . وقد قال تعالى ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠) ﴿الاحزاب: ٣٠﴾ وساق الآيات إلى قوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرْتَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٣٤) ﴿الاحزاب: ٣٤﴾ ثم قال (ابن القيم) : فدخلن في أهل البيت لأن الخطاب كله في سياق ذكرهن ، فلا يجوز إخراجهن من شيء منه . والله أعلم .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٢٨) ﴿النساء: ٢٨﴾ وَلَئِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ

(١) (٢١٧/١-٢١٩) تحقيق شعيب الأرنؤوط (دار العروبة ، الكويت ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ-

الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَنْسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَنْسَاءُ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْتَنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا

﴿٣٤﴾ الأحزاب: ٢٨ - ٣٤

والآيات دالة على فضائل أخرى لزوجات الرسول ﷺ ، وهي :

١. كونهن خَيْرَنَ بين إرادة الدنيا وزينتها ، وبين إرادة الله ورسوله والدار الآخرة ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة . رضي الله عنهن وأرضاهن .

٢ . ويدل على فضلهن أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَجهنَّ أُمَّهَاتِهِنَّ ﴾ الأحزاب: ٦ فقد وصفهن بأنهن أمهات المؤمنين . وأما قوله تعالى ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ الشورى: ٢٣ ، فالصحيح في معناها أن المراد بذلك : بطون قريش ، كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ".... لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له ﷺ فيهم قرابةً ، فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة" (١) .

٣ . وأما ذِكرُ الصلاة على الأزواج والذرية ، فهو ثابت في الصحيح . فعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه ، قالوا : يا رسول الله ، كيف الصلاة عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ :

(١) الصحيح (٤/١٨١٩) حديث رقم (٤٥٤١)

(قولوا : اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد)^(١)

لكن ذلك لا يدل على اختصاص آل البيت بالأزواج والذرية ، وإنما يدل على تأكّد دخولهم ، وعدم خروجهم . وعطف الأزواج والذرية على أهل بيته في هذا الحديث من عطف الخاص على العام .

وأما دخول بني أعمام النبي ﷺ في أهل بيته ، وأن الصدقة لا تحل لهم ، فدلّيه : ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب : أنه ذهب هو والفضل بن العباس إلى رسول الله ﷺ يطلبان منه أن يُؤيّهما على الصدقة ، ليُصيبا من المال ما يتزوجان به ، فقال لهما النبي ﷺ : (إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد ، وإنما هي أوساخ الناس) ثم أمر بتزويجهما ، وإصداقهما من الخمس^(٢) .

❖ فضائل زوجات النبي ﷺ :

❖ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها :

أم المؤمنين ، وسيدة نساء العالمين في زمانها ، وأم أولاد رسول الله ﷺ سوى إبراهيم ، وأول من آمن به وصدقه قبل كل أحد ، وثبتت جأشه . ومناقبها جمّة ، وهي ممّن كُمل من النساء . كانت عاقلةً ، جليلةً ، دينةً ، مصونةً ، كريمةً . من أهل الجنة . وكان النبي ﷺ يُثني عليها ، ويفضّلها على سائر أمهات المؤمنين ، ويبالغ في تعظيمها . ومن كرامتها عليه ﷺ : أنها لم يتزوج امرأةً قبلها ، وجاءه منها عدة أولاد ، ولم يتزوج

^(١) البخاري : الصحيح (١٢٣٢/٣) ح (٣١٨٩٠) مسلم : الصحيح (٣٠٦/١) ح (٤٠٧٠)

^(٢) مسلم : الصحيح (٧٥٣/٢) حديث رقم (١٠٧٢)

عليها قط ، ولا تسرى ، إلى أن قضت نحبها ، فوجدَ لِفَقْدِهَا ؛ فإنها كانت نعم القرين ...
وقد أمره الله أن يبشّرها ببيت في الجنة من قصبٍ ، لا صخبَ فيه ولا نصبٍ^(١) .

ومن خصائصها : أن الله بعث إليها السلام مع جبريل ﷺ . وهذه -لعمركم-
منقبةٌ لم تكن لسواها .

ومن خصائصها : أنّها خيرُ نساء الأمة . واختلفَ في تفضيلها على عائشة رضي
الله عنهما على ثلاثة أقوال . ثالثها : التوقُّف . يقول ابن القيم^(٢) : "سألتُ شيخنا ابنَ
تيمية رحمه الله ، فقال : اختص كل واحدةٍ منهما بخاصةٍ . فخديجة كان تأثيرها في أول
الإسلام ، وكانت تُسَلِّي رسول الله ﷺ ، وتثبته ، وتسكّنه ، وتبذلُ دونهَ مالها . فأدرکت
غرةَ الإسلام ، واحتملتُ الأذى في الله تعالى ، وفي رسول الله ﷺ . وكانت نصرتها
لرسول ﷺ في أعظم أوقات الحاجة ؛ فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها . وعائشة
رضي الله عنها ، تأثيرها في آخر الإسلام ، فلها من التفقه في الدين ، وتبليغه إلى الأمة ،
وانتفاع بنبيها بما أدّت إليهم من العلم ما ليس لغيرها . هذا معنى كلامه .

✽ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :

قال الذهبي : "... ولم يتزوج النبي ﷺ بغيرها ، ولا أحبّ امرأةً حبّها ، ولا
أعلمُ في أمة محمد ﷺ ، بل ولا في النساء -مطلقاً- امرأةً أعلمُ منها"^(٣) .

وكان مسروق إذا حدّث عن عائشة قال : حدثني الصديقة بنت الصديق ، حبية
حبيب الله ، المبرّأة من فوق سبع سموات ، فلم أكذبها^(٤) .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء (٢/١٠٩ - ١١٠)

(٢) جلاء الأفهام (١/٢٣٤)

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/١٤٠)

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء (٢/١٨١)

وذكر ابن القيم في "جلاء الأفهام" ^(١) من خصائصها أيضاً : أنها كانت أحب الناس إلى رسول الله ﷺ وأنه لم يتزوج بكرة غيرها ، وأن الوحي كان ينزل عليه في لحافها ، وأنه لما نزلت عليه آية التخيير ، بدأ بها ، فخيرها ، فاختارت الله ورسوله ، واستن بها بقية أزواجه ، وأن الله برأها مما رماها به أهل الإفك ، وأنزل في عُذرها وبراءتها وحيّاً يُتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة ، وشهد لها بأنها من الطيبات ، ووعدّها المغفرة والرزق الكريم . ومع هذه المنزلة العلية تتواضع لله وتقول : "ولشأني في نفسي أهون من أن يُنزل الله فيّ قرآناً يُتلى" . وأن أكابر الصحابة ﷺ إذا أشكل عليهم الأمر من الدين ، استفتوها ، فيجدون علمه عندها ، وأن رسول الله ﷺ تُوفي في بيتها ، وفي يومها ، وبين سحرها ونحرها ، ودُفن في بيتها ، وأن المَلَك أرى صورتها للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها في سَرَقَةٍ من حرير ، فقال ﷺ : (إن يكن هذا من عند الله يُمضه) وإنّ الناس كانوا يتحرّون بهداياهم يومها من رسول الله ﷺ ، فيتحمّون به بما يحبُّ في منزل أحبّ نسائه . رضي الله عنهم أجمعين ^(٢) .

❖ أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها :

وهي أول من تزوج بها النبي ﷺ بعد خديجة ، وانفردت به نحواً من ثلاث سنين أو أكثر ، حتى دخل بعائشة . وكانت سيّدة ، جليّة ، نبيلة ، ضخمة ... وهي التي وهبت يومها لعائشة ، رعاية لقلب رسول الله ﷺ ^(٣) .

قال ابن القيم في جلاء الأفهام ^(٤) : "كَبُرَتْ عنده ، وأراد طلاقها ، فوهبت يومها لعائشة رضي الله عنها . وهذا من خواصها : أنها آثرت بيومها حبّ النبي ﷺ تقرباً إلى

^(١) (٢٣٧/١-٢٣٨)

^(٢) يُنظر : فضائل السيدة عائشة رضي الله عنها من هذا الكتاب الفصل الثاني ، المطلب الأول .

^(٣) أحمد ، مهدي رزق الله : السيرة النبوية (٢/٢٦٥-٢٦٦)

^(٤) (٢٣٧/١)

رسول الله ﷺ ، وحباً له ، وإيثاراً لمقامها معه ، فكان سول الله ﷺ يُقسم لنسائه ، ولا يُقسم لها ، وهي راضيةٌ بذلك ، مؤثرة لرضى رسول الله ﷺ . رضي الله عنها .

✽ أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها :

قال الذهبي في السير^(١) : "السُّرُّ الرفيع ، بنت أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ، تزوجها النبي ﷺ ، بعد انقضاء عدتها من خنيس بن حذافة السهمي ، أحد المهاجرين ، سنة ثلاث من الهجرة . قالت عائشة : "وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ" .

✽ أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية رضي الله عنها :

قال الذهبي في السير^(٢) : "السيدة المحجبة ، الطاهرة .. من المهاجرات الأول ... وكانت تعدّ من فقهاء الصحابييات" . وكانت فاضلة جليلة ، وهي التي أشارت على النبي ﷺ يوم الحديبية (أي : بحلق رأسه ، ونحر هديه) ورأت جبريل ﷺ في صورة دحية الكلبي^(٣) .

✽ أم المؤمنين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها :

ذكر الذهبي في السير^(٤) : "أنها تُدعى أم المساكين ؛ لكثرة معروفها" . وقال ابن القيم في جلاء الأفهام^(٥) : "وكانت تُسمى أم المساكين ، لكثرة إطعامها المساكين . ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً ، شهرين أو ثلاثة ، وتوفيت رضي الله عنها" .

(١) (٢٢٧/٢)

(٢) (٢٠١/٢ - ٢٠٣)

(٣) النووي : شرح صحيح مسلم (٨/١٦)

(٤) (٢١٨/٢)

(٥) (٢٥٦/١)

✽ أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها :

هي : أم المؤمنين ، وحليمة سيد المرسلين ﷺ . ويكفيها ذلك فضلاً وشرفاً أن "أعتق المسلمون بسببها مائة من أهل بيت من الرقيق ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ ، وكان ذلك من بركتها على قومها ، رضي الله عنها"^(١).

✽ أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها :

"وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حيي من ولد هارون بن عمران ، أخي موسى عليهما السلام .

ومن خصائصها : أن رسول الله ﷺ أعتقها ، وجعل عتقها صداقها . قال أنس رضي الله عنه : "أمهرها نفسها" . وصار ذلك سنةً للأمة إلى يوم القيامة ، يجوز للرجل أن يجعل عتق جاريته صداقها ، وتصير زوجته ، على منصوص الإمام أحمد رحمه الله"^(٢).

ومن خصائصها أيضاً : أن النبي ﷺ قال لها في حديث أنس رضي الله عنه : (إنك لابنة نبي ، وإن عمك لنبي ، وإنك لتحت نبي)^(٣) . وكانت شريفة عاقلة ، ذات حسب ، وجمال ، ودين ، وحلم ، ووقار . رضي الله عنها"^(٤).

✽ أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها :

^(١) ابن القيم : جلاء الأفهام (٢٥٦/١)

^(٢) ابن القيم : جلاء الأفهام (٢٥٧/١)

^(٣) الترمذي : السنن (٧٠٩ / ٥) حديث رقم (٣٨٩٤) النسائي : السنن الكبرى (٢٩١/٥) ح ٨٩١٩٠

^(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء (٢٣٥/٢)

كانت من سيدات أمهات المؤمنين ، ومن العابدات الورعات ، رضي الله عنها .
وقد كان لأم حبيبة حُرمة وجمالة ، ولا سيما في دولة أخيها معاوية رضي الله عنه ^(١) . ولمكانه منها
قيل له : (خال المؤمنين) ^(٢)

✽ أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها :

عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : "أما إنها من أتقانا لله ، وأوصلنا للرحم" ^(٣) .
وكانت من سادات النساء ^(٤) .

✽ أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : "وهي التي كانت تُساميني منهن في المنزلة عند
رسول الله ﷺ ، ولم أر امرأة قطُّ خيراً في الدين من زينب ، وأتقى لله ، وأصدق حديثاً ،
وأوصل للرحم ، وأعظم صدقةً ، وأشدَّ ابتداءً لنفسها في العمل الذي تصدَّقُ به ،
وتقرَّبُ به إلى الله تعالى ، ما عدا سورةً من حدِّ كانت فيها ، تُسرِّعُ منها الفَيْئَةُ" ^(٥) .

ومن خصائصها : أن الله تعالى زوّجها نبيّه ﷺ من فوق سبع سموات ؛ بنصّ
كتابه ، بلا ولي ولا شاهد ، فكانت تفخرُ على أمهات المؤمنين ، وتقول : "زوّجكن
أهاليكن ، وزوّجني الله من فوق عرشه" ^(٦) .

قال الذهبي : "وكانت من سادات النساء ديناً ، وورعاً ، وجوداً ، ومعروفاً .
رضي الله عنها . وكانت صالحَةً ، صَوَامَةً ، قَوَامَةً . ويقال لها : أم المساكين" ^(١) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية (١١/١٦٦)

(٢) الذهبي : سير اعلام النبلاء (٢/٢٣٩)

(٣) الذهبي : سير اعلام النبلاء (٢/٢٤٤)

(٤) المرجع ذاته (٢/٢٣٩)

(٥) مسلم : الصحيح (٤/١٨٩١) حديث رقم (٣٤٤٠)

(٦) البخاري : الصحيح (٦/٢٦٩٩) حديث رقم (٦٩٨٤)

أهل بيت النبي ﷺ وعلو مكانتهم عند علماء أهل السنة :

✽ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ صاحب الفضائل العلية ،
والمناقب السنية :

هو أفضلهم ، وعلى رأسهم ، الحبر ، التقي ، التقى ، ابن عم رسول الله ﷺ ،
وزوج البتول سيدة نساء العالمين . وشهرته أكبر وأظهر من أن نُتبه عليها ، ويكفيه فخراً
قول النبي ﷺ : (إنه لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق)^(١) وهو الذي قال ﷺ في
حقه يوم خيبر : (لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله عليه ، يحب الله ورسوله ،
ويحبه الله ورسوله) فبات الناس يدوكون أيهم يُعطاها ، فلما أصبح الناس غدواً على
رسول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يُعطاها ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ ، فقيل : يا رسول
الله يشتكي عينه ، قال : فأرسلوا إليه ، فأُتي به ، فبصق رسول الله ﷺ في عينه ، ودعا له
فبرأ ، حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاها الراية ، فقال علي ﷺ : يا رسول الله ، أقاتلهم
حتى يكونوا مثلنا؟ فقال : (أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى
الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً
واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمُرُ النعم)^(٢)

وذكرنا قول النبي ﷺ لعلي يوم تبوك : (أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون

من موسى ؟)

^(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢١٧)

^(٢) الترمذي : السنن (٥/٦٤٣) حديث رقم (٣٧٣٦) النسائي : السنن الكبرى (٥/١٣٧) حديث
رقم (٨٤٨٧)

^(٣) البخاري : الصحيح (٤/١٥٤٢) حديث رقم (٣٩٧٣) مسلم : الصحيح (٢/١٨٧٢) حديث رقم
(٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد ﷺ .

وروى البخاري بسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: "أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة". قال قيس بن عباد ، فيهم نزلت : ﴿ هَذَا خِصْمًا أَخْصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ الحج: ١٩ قال : هم الذين تبارزوا يوم بدر : حمزة ، وعلي ، وأبو عبيدة بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة" (١) .

وعلي بن أبي طالب ﷺ أحد الذين نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (٦١) آل عمران: ٦١ وذلك في وفد نجران حينما جادلهم النبي ﷺ في عيسى بن مريم عليه السلام ، وأنه عبد الله ورسوله ، وكلته ألقاها إلى أمه الطاهرة ، وكذبهم في أنه الله ، وابن الله ، أو ثالث ثلاثة . ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، فدعاهم إلى المباهلة ، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال : لما نزلت ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ آل عمران: ٦١ دعا رسول الله ﷺ علياً ، وفاطمة ، وحسناً ، وحسيناً ﷺ ، فقال : (اللهم هؤلاء أهلي) (٢)

وعن شريح بن هانئ ، قال : "أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفين ، فقالت : عليك بعلي بن أبي طالب فسأله ؛ فإنه كان يسافر مع رسول الله ﷺ . فسألناه ، فقال : جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ، ويوماً وليلة للمقيم" . وفي رواية له : قالت : "إئت علياً فإنه أعلم بذلك مني ، فأتيت علياً ، فذكر عن النبي ﷺ بمثله" (٣) .

(١) الصحيح (٤/١٤٥٨) حديث رقم (٣٧٤٧)

(٢) مسلم : الصحيح (٤/١٨٧١) حديث رقم (٢٤٠٤) ، من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ .

(٣) مسلم : الصحيح (١/٢٣٢) (٢٧٦)

علو مكانة علي بن أبي طالب ﷺ عند علماء أهل السنة:

❖ قال ابن عبد البر: "سئل الحسن بن أبي الحسن البصري عن علي بن أبي طالب ﷺ فقال: "كان عليّ -والله- سهماً صائباً من مرامي الله على عدوه ، وربّاني هذه الأمة ، وذا فضلها ، وذا سابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله ﷺ . لم يكن بالنومة عن أمر الله ، ولا بالملومة في دين الله ، ولا بالسرقه لمال الله . أعطى القرآن عزائمّه ، ففاز منه برياض مؤنقة . ذلك علي بن أبي طالب" (١) .

❖ وقال يحيى بن معين: "خير هذه الأمة بعد نبينا أبو بكر ، وعمر ، ثم عثمان ، ثم علي . هذا مذهبنا ، وقول أئمتنا" (٢) .

❖ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وعليّ ﷺ ما زالا (أي : أبو بكر وعمر) مكرّمين له غاية الإكرام ، بكل طريق ، مقدّمين له (بل ولسائر بني هاشم على غيرهم) في العطاء ، مقدّمين له في المرتبة ، والحرمة ، والمحبة ، والموالاتة ، والثناء ، والتعظيم ، كما يفعالان بنظرائه . ويفضلانه بما فضله الله ﷻ به على من ليس مثله . ولم يُعرف عنهما كلمة سوء في علي قطّ ؛ بل ولا في أحدٍ من بني هاشم وكذلك عليّ ﷺ قد تواتر عنه من محبتهم ، وموالاتهم ، وتعظيمهم ، وتقديمهم على سائر الأمة ما يُعلم به حاله في ذلك . ولم يُعرف عنه قطّ كلمة سوءٍ في حقهما ، ولا أنّه كان أحقّ بالأمر منهما . وهذا معروف عند من عرف الأخبار الثابتة المتواترة عند الخاصة والعامة ، والمنقولة بأخبار الثقات" (٣) .

(١) الاستيعاب (٥١/٣)

(٢) المرجع ذاته (٥٢/٣)

(٣) منهاج السنة النبوية (١٧٨/٦)

❁ وقال أيضاً: "وأما علي ﷺ ، فأهل السنة يحبونه ، ويتولّونه ، ويشهدون بأنه من الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين" (١) .

❁ وقال ابن جحر: "علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي ، حيدرة ، أبو تراب ، وأبو الحسين ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وزوج ابنته ، من السابقين الأولين . ورجح جمع أنه أول من أسلم ، فهو سابق العرب ، وهو أحد العشرة . مات في رمضان سنة أربعين ، وهو يومئذ أفضل الأحياء من بني آدم بالأرض ، بإجماع أهل السنة . وله ثلاث وستون سنة - على الأرجح" (٢) .

❁ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وكان سبُّ عليٍّ ولعْنُهُ من البغي الذي استحكمت به طائفةٌ أن يُقال لها (الطائفة الباغية) كما رواه البخاري في صحيحه" (٣) عن خالد الحذاء عن عكرمة قال : قال لي ابن عباس ولابنه علي : انطلقا إلى أبي سعيد ، واسمعا من حديثه ، فانطلقنا ، فإذا هو في حائط يُصلحه ، فأخذ رداءه ، فاحتبى به ، ثم أنشأ يحدثنا ، حتى إذا أتى على ذكرِ بناء المسجد ، فقال : كنا نحمل لَبِنَةً لَبِنَةً ، وعمّارٌ يحمل لَبَتَيْنِ لَبَتَيْنِ ، فرآه النبي ﷺ فجعل ينفُضُ التراب عنه ، ويقول : (ويح عمّار ! تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ، ويدعوته إلى النار) . قال : يقول عمار : أعود بالله من الفتن .

ورواه مسلم عن أبي سعيد أيضاً قال : أخبرني من هو خيرٌ مني : أبو قتادة . أن رسول الله ﷺ قال لعمّار حين جعل يحفر الخندق ، جعل يمسح رأسه ، ويقول : (بؤس ابن سُمَيَّة ، تقتله فئةٌ باغيةٌ) . ورواه مسلم أيضاً عن أم سلمة عن النبي ﷺ ، أنه قال : (تقتل عمار الفئة الباغية)

(١) المرجع ذاته (٦ / ١١٨)

(٢) تقريب التهذيب ، ص (٤٠٢)

(٣) حديث رقم ١٧٢/١ (٤٣٦)

✽ قال شيخ الإسلام كلاماً نفيساً يوضح فيه عقيدة أهل السنة أشد الوضوح ، ويرد على أولئك الموتورين الذين يلمزون أهل السنة بالنواصب فيقول : "وهذا أيضاً يدل على صحة إمامة علي ، ووجوب طاعته ، وأنّ الداعي إلى طاعته داعٍ إلى الجنة ، والداعي إلى مقاتلته داعٍ إلى النار ، وإن كان متأولاً . وهو دليل على أنه لم يكن يجوز قتال عليّ . وعلى هذا ؛ فمقاتلته مخطئٌ ، وإن كان متأولاً . أو باغٍ بلا تأويل . وهو أصحّ القولين لأصحابنا ، وهو الحكم بتخطئة مَنْ قاتل علياً . وهو مذهب الأئمة الفقهاء ، الذين فرّعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين" (١) .

❖ ابنة رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها :

ومن أهل بيته ﷺ : ابنته فاطمة رضي الله عنها ، التي كانت لها مكانةٌ في قلب النبي ﷺ لا تساويها مكانة ، وحبٌّ لا يعدلُه حبٌّ . يكفيها من شرف رسول الله ﷺ أنه كان يقوم لاستقبالها ، ويُجلسها في مكانة . روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، قالت : "ما رأيتُ أحداً من الناس أشبه بالنبي ﷺ كلاماً ، ولا حديثاً ، ولا جلسةً من فاطمة رضي الله عنها ، وكان النبي ﷺ إذا رآها أقبلت رَحَبَ بها ، ثم قام إليها فقبلها ، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى أجلسها في مكانه . وكان إذا أتاها النبي ﷺ رَحَبَتْ به ، ثم قامت إليه فقبلته" (٢) .

وعن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ على المنبر ، يقول :
(فاطمة بضعة مني ، ويربيني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها) (٣)

(١) مجموع الفتاوى (٤/٤٣٧)

(٢) النسائي : السنن الكبرى (٥/٣٩١) حديث رقم (٩٢٣٦) ، وأصله في الصحيح .

(٣) البخاري : الصحيح (٥/٢٠٠٥) حديث رقم (٤٩٣٢) مسلم : الصحيح (٤/١٩٠٢) حديث رقم (٢٤٤٩)

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (نزل ملك من السماء فاستأذن أن يسلم عليّ -لم ينزل قبلها- ، فبشّرني أنّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنة)^(١) وفي رواية للبخاري^(٢) : (أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء أهل الجنة ؟ أو سيّدة نساء العالمين؟) فضحكت لذلك .

وحديث الكساء الذي ترويّه السيّدة عائشة رضي الله عنها^(٣) ، قالت : خرج رسول الله ﷺ غداً وعليه مرطٌ مرحلٌ -وهو الكساء- فأدخل عليّاً ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ﷺ ، ثم قال : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٤) الأحزاب: ٣٣ وهذا يبين لنا كذب مَنْ زعم أنّ الصحابة ﷺ يكتُمون فضائل عليّ . فهذه السيّدة عائشة رضي الله عنها التي يدعون أنها تُبغض عليّاً ؛ هي التي تروي هذا الفضل لعليّ وفاطمة ﷺ .

علو مكانة السيّدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها عند علماء أهل السنة :

قال الذهبي رحمه الله في السّير : "سيّدة نساء العالمين في زمانها ، البصّة النبوية ، والجهة المصطفوية ، أم أبيها ، بنت سيد الخلق رسول الله ﷺ أبي القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عبد مناف ، القرشية ، الهاشمية ، وأمّ الحسينين" .

وقال أيضاً : "وقد كان النبي ﷺ يحبّها ، ويكرّمها ، ويُسّر إليها ، ومناقبها غزيرة ، وكانت صابرةً دنيّةً ، خيِّرةً ، صبيّةً ، قانعةً ، شاكراً لله"^(٥) .

^(١) الترمذي : السنن (٦٦٠/٥) حديث رقم (٣٧٨١) الحاكم : المستدرک (١٦٤/٣) حديث رقم (٤٧٢١)

^(٢) الصحيح (١٣٢٦/٣) حديث رقم (٣٤٢٦)

^(٣) الصحيح (١٨٨٣/٤) حديث رقم (٢٤٢٤)

^(٤) سير أعلام النبلاء (١١٨ /٢) (١١٩ . ١١٨)

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وتُكْنَى بأم أبيها". وقال أيضاً: "وكانت أصغر بنات النبي ﷺ -على المشهور- ، ولم يبق بعده سواها . فلهذا عظم أجرها ؛ لأنها أُصِيبَتْ بِهِ ﷺ" (١) .

وأُمُّهَا خديجة بنت خويلد . وُلِدَتْ فاطمة رضي الله عنها قبل البعثة ، سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله ﷺ . وزوجها النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة اثنتين من الهجرة ، بعد وقعة بدر ، وولدت له الحسن ، والحسين ، وأم كلثوم . وكانت وفاتها بعد وفاة النبي ﷺ بستة أشهر . فرضي الله عنها وأرضاها .

الخصائص الجليلة والفضائل الباهرة والمناقب الزاهرة لفاطمة الزهراء رضي الله عنها سيدة نساء العالمين وبضعة سيد المرسلين ﷺ .

التي ترويه لنا :

✽ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الصديقة الصادقة المصدقة ابنة الصديق رضي الله عنه وزوجة الصادق المصدق سيد المرسلين ﷺ .

١- أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها سيدة نساء أهل الجنة .

٢- أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها سيدة نساء المؤمنين .

٣- أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها سيدة نساء هذه الأمة .

١- أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها سيدة نساء العالمين .

أخرج البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أنها قالت : " أن النبي ﷺ قال لها : " أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة ، أو نساء المؤمنين : فضحكت لذلك " (١) .

(١) البداية والنهاية (٩/٤٨٥)

وفي البخاري عن مسروق عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال وهو في مرضه الذي توفي فيه : " يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين وسيدة نساء هذه الأمة وسيدة نساء المؤمنين " (٢) .

٥- فاطمة الزهراء رضي الله عنها أشبه الناس خَلقة برسول الله ﷺ .

٦- فاطمة الزهراء رضي الله عنها أشبه الناس في مشيتها برسول الله ﷺ .

٧- فاطمة الزهراء رضي الله عنها أشبه الناس في كريم الشمائل وحسن الهدي والسمت برسول الله ﷺ .

٨- فاطمة الزهراء رضي الله عنها أشبه الناس في صدق لهجتها برسول الله ﷺ .

٩- فاطمة الزهراء رضي الله عنها أشبه الناس في حسن الكلام وبلاغته وروعته برسول الله ﷺ .

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : " ما رأيتُ أحداً أشبه سمتاً وهدياً ودلاً برسول الله ﷺ بقيامها وعودها من فاطمة إذا دخلت قام إليها ... " (٣) .

وأخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : " أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : " مرحباً بابنتي " (٤) .

(١) صحيح البخاري (٣٦٢٣) .

(٢) صحيح البخاري (٤٤٣٣) ، الحاكم (١٥٦/٣) .

(٣) سنن أبي داود (٥٢١٧) ، سنن الترمذي (٣٨٧٢) .

(٤) صحيح البخاري (٣٢٢٣) .

وأخرج الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت : " ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذي ولدها " (١).

وفي لفظ للحاكم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : " ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله ﷺ من فاطمة " (٢).

١٠- شدة محبة النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها .

١١- شدة تعظيم النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها .

١٢- شدة إكرام النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها .

١٣- قيامه ﷺ من مكانه وإجلالها فيه .

١٤- تقبيله ﷺ فاطمة رضي الله عنها لما بين عينها كلما أتت إليه .

وهذه أيضاً المناقب والفضائل العظيمة والإكرام والإجلال النبوي الكريم للبضعة النبوية والجهة المصطفوية وزوجة أبا الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين ، ترويتها لنا أم المؤمنين الصديقة الصديقة المصدقة بنت الصديق وحبيبة حبيب الله ﷺ .

أخرج البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : أقبلت فاطمة كأن مشيتها مشي رسول الله ﷺ ، فقال النبي ﷺ : مرحباً بابنتي ... ثم أجلسها عن يمينه أو شماله " (٣) .

(١) الحاكم (١٦٠/٣) ، صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي . .

(٢) الحاكم (١٦٠/٣) .

(٣) صحيح البخاري (٣٢٢٣) .

وعن عائشة رضي الله عنها أيضاً قالت : " كانت فاطمة إذا دخلت على رسول الله ﷺ قام إليها وقبلها وأجلسها في مجلسه ، وكان إذا دخل هو عليها فعلت ذلك به " (١)

١٥- أن فاطمة رضي الله عنها أول الناس علماً بوفاة رسول الله ﷺ .

١٦- إسراره ﷺ لفاطمة بذلك دون غيرها .

١٧- أن فاطمة رضي الله عنها أول أهله لحوقاً به بعد وفاته ﷺ .

• أخرج البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : دعا النبي ﷺ فاطمة ابنته في شكواه الذي قبض فيها ، فسارها بشيء فبكت ، ثم دعاها فسارها فضحكت ، قالت عائشة : فسألته عن ذلك فقالت : سارني النبي ﷺ فأخبرني أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه ، فبكيت ، ثم سارني فأخبرني أنني أول أهل بيته أتبعه ، فضحكت " (٢) .

١٨- فاطمة رضي الله عنها بضعة من رسول الله ﷺ وجزء منه فهي البضعة النبوية والجهة المصطفوية ، وهذا شرف عظيم ومقام كريم لفاطمة الزهراء البتول رضي الله عنها .

أخرج البخاري عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : " فاطمة بضعة مني ، فمن أغضبها أغضبني " (٣) .

١٩- فاطمة رضي الله عنها أعظم الناس ذرية ، فليس لأحد إلى رسول الله ﷺ نسب إلا من جهة ولد فاطمة رضي الله عنها .

(١) سنن أبي داود (٥٢١٧) ، سنن الترمذي (٣٨٧٢) ، والحاكم (١٦٠/٣) .

(٢) صحيح البخاري (٣٦٢٥) .

(٣) صحيح البخاري سبق تخريجه .

• قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى : وعند الطبري من وجه آخر عن عائشة رضي الله عنها : أنه ﷺ قال لفاطمة : " إن جبريل أخبرني أنه ليس امرأة من نساء المسلمين أعظم ذرية منك ، فلا تكوني أدنى امرأة منهن صبراً " (١).

وأخرج الإمام أحمد والنسائي والبخاري والطبراني عن عبدالله بن بريده عن ابيه رضي الله عنه : " فدعا النبي ﷺ بماء فتوضأ منه ، ثم أفرغه على عليّ فقال : " اللهم بارك فيهما ، وبارك عليها ، وبارك لهما في شبلهما " (٢) " (٣).

وقد أجيبت دعوته ﷺ وبارك في نسل فاطمة ، الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين .

يظهر لنا من مرويات عائشة رضي الله عنها في فضل فاطمة رضي الله عنها الآتي :

أولاً : إن معظم فضائل الزهراء الباهرة وخصائصها العظيمة التي لا يشركها غيرها فيها تنتهي إلى رواية الصديقة الصادقة المؤمنة الطاهرة المبرأة من فوق سبع سموات حبيبة حبيب الرحمن ﷺ ، وبنت الصديق الأكبر والصاحب الأشهر أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ثانياً : هذه المرويات عن أم المؤمنين في فضل سيدة نساء العالمين ترغم أنوف المنافقين الزنادقة من الباطنيين والصفويين أصحاب العقائد الفارسية المجوسية الشركية وتلجم أفواه الشعوبيين التتنة الحاقدة على العرب وعلى صحابة رسول الله ﷺ خير خلق

(١) فتح الباري (٦٨/١٦) .

(٢) شبلهما : أي ذريتهما .

(٣) أحمد : المسند (٢٣٠٣٥) ، السنن الكبرى (١٠٦/٩ ، ١٠٠١٦) ، البخاري (١٤٠٧) ، الطبري في الكبير (١١٥٣) .

الله بعد النبيين والمرسلين ، كما تفضح هذه المرويات الدعوات الباطلة لأفراخ ابن سلول وأحفاد ابن العلقمي بحبهم لفاطمة الزهراء ولأهل بيت النبي ﷺ .

ثالثاً : كذلك تبين مرويات أم المؤمنين زوج سيد المرسلين ﷺ بحق فاطمة الزهراء بنت سيد المرسلين ﷺ ، عظمة دين عائشة وتقواها وأمانتها وطهارة قلبها وزكاة نفسها وحبها العظيم لرسول الله ﷺ وبنته فاطمة رضي الله عنها وآل بيته الطاهرين ، فلولا حبها الصادق لفاطمة وفرحها وسرورها بفضائلها ، ولولا صدق لهجتها وسلامة طويتها وكريم سجيتها ، لما وصلتنا هذه الفضائل العظيمة والخصائص الجليلة وأشاع أمرها ، وأظهرها للأمة جمعاء .

رابعاً : تظهر لنا كذلك قوة حفظ السيدة الجليلة المباركة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وحسن فهمها ، وعمق فقهها ، وكان علم عائشة رضي الله عنها بعد وفاة النبي ﷺ قد بلغ ذروة الإحاطة والنضج في كل ما اتصل بالدين من قرآن وحديث وتفسير وفقه^(١) .

١- قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : " ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديثاً قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً"^(٢) .

٢- وكان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يُحيل إليها كل ما تعلق بأحكام النساء أو بأحوال النبي ﷺ البيتية^(٣) .

^(١) ينظر : البراء بن عازب رضي الله عنه سيرته ومروياته التاريخية في الكتب الستة مروية رقم (٢٣) ،

(٢٤) د. عبدالستار الجنابي .

^(٢) سنن الترمذي (٧٥/٥ ، ٣٨٨٣) .

^(٣) أحمد ، المسند (٩/٦) .

٣- ورجع إلى قولها كبار الصحابة ، كأبيها أبي بكر وعمر وابنه ، وأبي هريرة وابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم أجمعين ، ولا غرو فقد كانت عائشة الملجأ الأخير الذي تُرفع إليه مسائل الخلاف أو الفقهاء فيها بالقول الفصل .

٤- وصار معاوية رضي الله عنه في خلافته يكتب إليها سائلاً عن حكم أو حديث ، أو شيء من فعل النبي ﷺ ، ولا يطمئن إلى يقين مما سمع من غيرها حتى يرد عليه جوابها فيبرد صدره^(١) .

٥- وصف هشام بن عروة بن الزبير عن ابيه وصدق عندما قال : " ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال ولا بحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا بنسب من عائشة رضي الله عنها وأرضاها " ^(٢) .

٦- وقال الزهري رحمه الله تعالى : " لو جُمع علم عائشة رضي الله عنها وأرضاها على جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل " ^(٣) .

خامساً : أن أهل السنة كانوا وما زالوا محبين ، معظمين لآل بيت رسول الله ﷺ ويتقربون إلى الله تعالى بنشر فضائلهم ومناقبتهم وبحبهم ، فإن محبتهم من محبة رسول الله ﷺ ، وعقيدة أهل السنة والجماعة في أهل بيت رسول الله ﷺ هي : حبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وعصيان .

وسنذكر في نهاية هذا المبحث عقيدة أهل السنة في أهل بيت رسول الله ﷺ .

^(١) أحمد ، المسند (٧٨/٦) .

^(٢) حلية الأولياء (٤٩١٢) .

^(٣) ابن حجر ، الاصابة .

الحسن والحسين رضي الله عنهما :

أولاً : سبط رسول الله الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي :

سبطُ رسول الله ﷺ وريحانته في الدنيا ، وأحدُ سيدي شباب أهل الجنة . أمه فاطمة الزهراء . وُلد للنصف من رمضان سنة (٣هـ) وقيل في شعبان سنة (٤هـ) أو (٥هـ) وتوفي عام (٥٠هـ) ، وقد سماه رسول الله ﷺ حسناً ، قال علي رضي الله عنه : لما وُلد الحسن سمَّيْتُهُ حَزْباً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : (أروني ابني ، ما سميتموه ؟) قلتُ : حرباً . قال رسول الله ﷺ : (بل هو حسناً)^(١) .

وهكذا غيّر النبي ﷺ ذلك الاسم الحادّ باسم جميل ، يُدخِل السرور والبهجة على النفوس ، فحمل ﷺ المولود الجديد بين يديه ، وقبله .

هذا وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل الحسن بن علي رضي الله عنهما ، منها :

١. عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : رأيت الحسن بن علي علي عاتق النبي ﷺ وهو يقول : (اللهم إني أحبه فأحبه)^(٢)

٢. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال للحسن : (اللهم إني أحبه فأحبه ، وأحب من يحبه)^(٣) . قال أبو هريرة : "فما رأيته إلا دمعت عيناى" .

٣. عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : "سمعت النبي ﷺ على المنبر ، والحسن إلى جنبه ، ينظر إلى الناس مرّة ، وإليه مرّة ، ويقول : (ابني هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين)^(٤)

^(١) ابن حبان : الصحيح (٤٠٩/١٥) حديث رقم (٦٩٥٨)

^(٢) البخاري : الصحيح (١٣٧٠/٣) حديث رقم (٣٥٣٩)

^(٣) مسلم : الصحيح (١٨٨٢/٤) حديث رقم (٢٤٢١)

فإخبار النبي ﷺ بأن الحسن سيّد ، مفخرة عظيمة وميزة شريفة له ﷺ ، فقد تحققت نبوءة جدّه ﷺ ، فأصلح على يديه بين المسلمين ، وحقن دماءهم ؛ حيث نزل عن حقه في الخلافة لمعاوية ﷺ أجمعين . وكان ذلك سنة (٤١ هـ) ، وكانت خلافة الحسن ﷺ ستة أشهر . وسوّي هذا العام عام الجماعة . وهذا ما أخبر به النبي ﷺ يقول : (لعل الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين) ذكر ابن حجر رحمه الله أن في ذلك "عَلَمٌ من أعلام النبوة ، وَمَنْقَبَةٌ للحسن بن علي ؛ فإنه ترك الملك لا لقلّة ، ولا لذلّة ، ولا لعلّة ؛ لما رآه من حقن دماء المسلمين ، فراعى أمر الدين ، ومصلحة الأمة" (٢) .

٤. عن سعيد المقبري (٣) ، قال : كنا مع أبي هريرة ﷺ فجاء الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ ، فسلم فردّنا عليه السلام ، ولم يعلم به أبو هريرة ، فقلنا : يا أبا هريرة ، هذا الحسن بن علي ، قد سلم علينا . فلحقه ، وقال : وعليك السلام يا سيدي . ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيّد (٤) .

٥. ومنها مشابته ﷺ للنبي ﷺ في الخلق ، فقد روى البخاري بإسناده عن أنس بن مالك ﷺ قال : لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي ﷺ" (٥) .

٦. عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال : "كان النبي ﷺ يمض لسان الحسن ، أو شفته ، وإنه لن يُعذّب لسان أو شفتان مضمّهما رسول الله ﷺ" (١) .

(١) البخاري : الصحيح (٩٦٢/٢) حديث رقم (٢٥٥٧)

(٢) فتح الباري (١٣ / ٦٦)

(٣) هو كيسان المدني ، مولى أم شريك ، ثقة ثبت ، مات سنة (١٠٠ هـ) ، ابن حجر : تقريب التهذيب ، ص (٤٦٣)

(٤) الحاكم : المستدرک (١٨٥/٣) حديث رقم (٤٧٩٢) ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٥) حديث رقم ١٣٧٠/٣ (٣٥٤٢)

ورواية معاوية ﷺ للحديث دلالة على محبته للحسن ﷺ .

ومر بنا حديث عقبه بن الحارث ، وقوله : رأيت أبا بكر ﷺ وقد حمل الحسن وهو يقول :

بأبي شبيه بالنبي لا شبيه بعلي

وعلي يضحك . وكونه ﷺ يُشبهه جدّه المصطفى ﷺ في الخلق ، منقبة عظيمة له ، وفضيلة ظاهرة .

علو مكانة الحسن بن علي ﷺ عند علماء أهل السنة :

١. قال فيه الذهبي : "الإمام ، السيد ، ريحانة رسول الله ﷺ ، وسبطه ، وسيد شباب أهل الجنة ، أبو محمد ، القرشي ، الهاشمي ، المدني ، الشهيد" .

وقال أيضاً : "وقد كان هذا الإمام سيّداً ، وسيماً ، جميلاً ، عاقلاً ، رزيناً ، جواداً ، مُمدّحاً ، خيراً ، دَيِّناً ، مُحْتَشِماً ، كبير الشأن" (٢) .

٢ . وقال ابن كثير : "وقد كان الصّديق يُجْله ، ويعظّمه ، ويكرّمه ، ويتفداه . وكذلك عمر بن الخطاب .. إلى أن قال : وكذلك عثمان بن عفان ، يُكرّم الحسن والحسين ، ويحبّهما . وقد كان الحسن بن علي يوم الدار ، وعثمان بن عفان محصوراً عنده ، ومعه السيف متقلداً به ، يجاحف عن عثمان ، فخشي عثمان عليه ، فأقسم عليه ليرجعن إلى منزلهم ؛ تطيباً لقلب علي ، وخوفاً عليه ﷺ" (٣) .

(١) أحمد : المسند (٩٣ / ٤)

(٢) سير أعلام النبلاء (٣ / ٢٤٥ - ٢٤٦)

(٣) البداية النهاية (١١ / ١٩٢)

٣ . وقال ابن عبد البر : "وتواترت الآثار الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال في الحسن بن علي : (إنّ ابني هذا سيد ، وعسى الله يُبقيه ، حتى يصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين ... وإنّه ريحانتي من الدنيا) ، ولا أسودَ ممّن سمّاه رسول الله ﷺ سيّداً . وكان رحمة الله عليه حليماً ، ورِعاً ، فاضلاً . دعاه ورعُه وفضلُه إلى ترك المُلك والدنيا ، رغبةً فيما عند الله . وقال : والله ما أحببت منذ علمتُ ما ينفعني ويضرني أن أليّ أمر أمة محمد ﷺ على أن يُهراق في ذلك مِحْجَمَةٌ دَمٍ . وكان من المبادرين إلى نصرته عثمان رحمه الله ، والذّابّين عنه" (١) .

ثانياً : سبط رسول الله ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي :

• هو : أبو عبد الله ، الحسين بن علي بن أبي طالب ، سبطُ رسول الله ﷺ ، وريحانته ، ومحبوبه ، ابنُ بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء ، البتول ، رضي الله عنها وأرضاها . كان مولده سنة (٤ هـ) وقيل غير ذلك . ومات ﷺ قتيلًا يوم عاشوراء ، من شهر المحرم سنة (٦١ هـ) بكربلاء من أرض العراق . فرضي الله عنه وأرضاه .

وقد وردت في مناقبه وفضائله أحاديث كثيرة منها :

١ . عن يعلى العامري ﷺ قال : خرجت مع رسول الله ﷺ (يعني : إلى طعامٍ دُعوا له) فقال : فاستمثل رسول الله ﷺ أمامَ القوم ، وحسينٌ مع غلمان يلعب ، فأرادَ رسول الله ﷺ أن يأخذه ، فطفق الصبي يفرُّ هنا مرّةً ، وهنا مرّةً ، فجعل النبي ﷺ يضاحكه حتى أخذه ، قال : فوضع إحدى يديه تحت قفاه ، والأخرى تحت ذقنه ، ووضع فاه وقبّله ، وقال : (حسينٌ مني ، وأنا من حسينٍ . اللهم أَحَبِّ من أَحَبِّ حسيناً . حسينٌ سبطٌ من الأَسباط) (٢) .

(١) الاستيعاب (٣٦٩/١)

(٢) الترمذي : السنن (١٢٠/٢) ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، (٤٣٣/٢)

• وفي هذا الحديث منقبة ظاهرة للحسين ﷺ ؛ إذ حثّ على محبته ، وكأنه ﷺ علم بنور الوحي ما سيحدث بينه وبين القوم ، فخصّه بالذكر ، وأكد على وجوب المحبة ، وحرمة التعرّض والمحاربة ، وأكد ذلك بقوله : (أحبّ الله من أحبّ حسيناً) فإن المحبة تؤدي لمحبة رسول الله ﷺ . ومحبة الرسول محبة الله (١) .

٢ . ومن فضائله ﷺ : ما رواه البخاري (٢) بإسناده إلى أنس بن مالك ﷺ ، قال : "أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين ﷺ فجعل في طست ، فجعل يُنكث ، وقال في حسنه شيئاً ، فقال أنس : كان أشبههم برسول الله ﷺ . وكان مخضوباً بالوسمة .

وفي رواية أخرى عن أنس أيضاً ، قال : لما أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين ، جعل ينكث بالقضيب ثناياه ، يقول : لقد كان أحسبه ، قال جميلاً . فقلت : والله لأسوءئك ، إني رأيت رسول الله ﷺ يلثم حيث يقع قضيبك ، قال : فانقبض (٣) .

فالحديثان يدلان على فضل الحسين ﷺ ، وأنه كان أشبه أهل البيت بالنبي ﷺ . ولكن قد يرد إشكال ، فقد تقدم في فضائل الحسن ، أنه لم يكن أحدًا أشبه برسول الله ﷺ من الحسن بن علي ، فيحدث التعارض . وقد أزال الإشكال والتعارض الحافظ ابن حجر رحمه الله ؛ حيث جمع بينهما ، فقال : ويمكن الجمع بأن يكون أنس قال ما وقع في رواية الزهري في حياة الحسن ؛ لأنه يومئذ كان أشدّ شبيهاً بالنبي ﷺ من أخيه الحسين . وأمّا ما وقع في رواية ابن سيرين ، فكان بعد ذلك ، كما هو ظاهر من سياقه . أو المراد بمن فضّل الحسين عليه في الشبه ما عدا الحسن . ويحتمل أن يكون كل منهما أشدّ شبيهاً في بعض أعضائه . فقد روى هانئ بن هانئ عن علي قال : "الحسن أشبه

(١) تحفة الأحوذى (١٠ / ٢٧٩)

(٢) (١٨٣/٥) حديث رقم (٣٥٣٨)

(٣) الهيثمي ، مجمع الزوائد (١٩٥/٩)

بالنبي ﷺ ما بين الرأس إلى الصدر . والحسين أشبه بالنبي ﷺ ما كان أسفل من ذلك" (١)

ما ورد من الأحاديث في فضائل مشتركة بين الحسن والحسين رضي الله عنهما :

١ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (الحسن والحسين سيديا شباب أهل الجنة) (٢) .

٢ - عن ابن عمر رضي الله عنهما وقد سأله رجل من أهل العراق عن المُحْرِمِ يقتل الذباب ، فقال ﷺ : أهل العراق يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ . وقال النبي ﷺ : (هما ريحانتي من الدنيا) (٣) .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "قال رسول الله ﷺ : (من أحبهما فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني) يعني : حسن ، وحسين" (٤) .

٤ - عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أبصر حسناً وحسيناً ، فقال : (اللهم إنِّي أحبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا) (٥) .

٥ - عن عبد الله بن بريدة قال : سمعت أبي بريدة يقول : كان رسول الله ﷺ يخطبنا ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل

(١) الترمذي : السنن (٥ / ٦٦٠) حديث رقم (٣٧٧٩) ابن حبان : الصحيح (١٥ / ٤٣٠) حديث رقم (٦٩٧٤)

(٢) الترمذي : السنن (٥ / ٦٥٦) حديث رقم (٣٧٨٦) النسائي : السنن الكبرى (٥ / ٥٠) حديث رقم (٨١٦٩) الألباني : السلسلة الصحيحة (٢ / ٤٤٨)

(٣) البخاري : الصحيح (٣ / ١٣٧١) حديث رقم (٣٥٤٣)

(٤) النسائي : السنن الكبرى (٥ / ٤٩) حديث رقم (٨١٦٨)

(٥) الترمذي : السنن (٥ / ٦٥٦) حديث رقم (٣٧٨٢)

رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ، فوضعهما بين يديه ، ثم قال : (صدق الله ورسوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ التغابن: ١٥ نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ، ورفعتهما) (١) .

٦. عن ابن عباس ؓ ، أن رسول الله ﷺ كان يعوذ الحسن والحسين : (أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة . هكذا كان إبراهيم يعوذ ابنه إسماعيل ، وإسحاق) (٢) .

٧. عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ جلل الحسن والحسين وعلياً وفاطمة ؓ كساءً ، ثم قال : (اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً) قلت : يا رسول الله ، ألسْتُ من أهل بيتك ، قال : بلى . فأدخلني في الكساء . قالت : فدخلتُ في الكساء بعدما قضى دعاءه لابن عمه ، وابنته ، وابنته فاطمة (٣) .

علو مكانة الحسين عند علماء أهل السنة :

❦ ١. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "وأما من قتل الحسين ، أو أعان على قتله ، أو رضي بذلك ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وقال أيضاً : "والحسين ؓ أكرمَه الله تعالى بالشهادة في هذا اليوم (أي يوم عاشوراء) وأهان بذلك من قتله ، أو أعان على قتله ، أو رضي بقتله . وله أسوة حسنة بمن سبقه من الشهداء ؛ فإنه هو وأخوه سيدي شباب أهل الجنة ، وكانا قد تربيا في عز

(١) الترمذي : السنن (٥ / ٦٨٥) حديث رقم (٣٧٧٤) النسائي : السنن الكبرى (١ / ٥٥١) حديث رقم (١٧٩٠)

(٢) البخاري : الصحيح (٣ / ١٢٣٣) حديث رقم (٣١٩١)

(٣) أحمد : المسند (٦ / ٢٩٨)

الإسلام ، لم ينالا من الهجرة والجهاد والصبر على الأذى في الله ما نال أهل بيته ، فأكرمهما الله تعالى بالشهادة تكميلاً لكرامتهما ، ورفعاً لدرجتهما . وقتله مصيبة عظيمة ، والله ﷻ قد شرع الاسترجاع عند المصيبة قوله : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ البقرة: ١٥٥ - ١٥٧ (١) .

قلت : فهذا كلام إمام من أئمة السلف ، واضحٌ أشد الوضوح . فهل يمكن بعد هذا الكلام أن يطعنَ مَنْ يطعنُ من المنافقين في أهل السنة ، ويقول : إنهم نواصب !؟

❖ ٢ - وقال فيه الذهبي رحمه الله : "الإمام ، الشريف ، الكامل ، سبط رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا ، ومحبوبه : أبو عبد الله ، الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، القرشي ، الهاشمي" (٢) .

❖ ٣ - وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله : "والمقصود : أن الحسين عاصِرَ رسول الله ﷺ وَصَحْبِهِ إِلَى أَنْ تُوفِي ، وهو عنه راضٍ ، ولكنه كان صغيراً ، ثم كان الصديق يُكرمه ويُعظّمه ، وكذلك عمر ، وعثمان . وَصَحِبَ أَبَاهُ ، وروى عنه ، وكان معه في مغازيه كلها ، في الجمل ، وصفين . وكان مُعظِّماً مُوقراً" (٣) .

❖ ابن عم رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب ﷺ :

ومن أهل بيت النبي ﷺ : ابن عمه جعفر بن أبي طالب ، صاحبُ الهجرتين ، وهو قائدُ أهل السفينة الذين هاجروا الهجرة الأولى إلى الحبشة ، ووصلوا خيرَ بعد الفتح ، وأعطاه النبي ﷺ من الغنائم . وهم الذين فرح النبي ﷺ بقدمهم ، وقبّل جعفر

(١) مجموع الفتاوى (٤/٤٨٧)

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٢٨٠)

(٣) البداية والنهاية (١١/٤٧٦)

بين عينيه والتزمه ، وقال : (ما أدري ، بأيهما أنا أفرح ، بقُدُومِ جعفرَ ، أو بفتح خبير)^(١) استشهد جعفر في معركة مؤتة (٥٨هـ) ولما أصيب جعفر دخل رسول الله ﷺ على أسماء بنت عميس ، فقال : (اتنيني ببني جعفر) ، فأتت بهم ، فشمهم ، وقبلهم ، وذرفت عيناه . فقالت أسماء : أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ ، قال : (نعم ، أصيبوا اليوم) فجعلت تصيح ، وتولول ، فقال النبي ﷺ : (اصنعوا لآل جعفر طعاماً ، فقد أتاهم أمرٌ يشغلهم) أو : (أتاهم ما يشغلهم)^(٢)

وفي رواية أخرى (.... أدعوا لي بني أخي) فجيء بهم كأنهم أفرح ، فدعا بالحلاق فحلق رؤوسهم ، ثم قال : (أما محمدٌ فشيبه عمنا أبي طالب ، وأما عبدُ الله فشيبه خلقي وخلقي) ثم أخذ بيمين عبد الله ، وقال : (اللهم أخلف جعفراً في أهله ، وبارك لعبد الله في صفة يمينه) قالها ثلاثاً . ولما ذكرت أمهم يُتمهم وضعفهم ، قال لها : (ألعيلة تخافين عليهم ، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟!)^(٣)

علو مكانة جعفر بن أبي طالب عن علماء أهل السنة :

✽ في صحيح البخاري ، من حديث أبي هريرة ، وفيه : "وكان أخيراً الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب ، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته ، حتى إن كان ليخرج إلينا العُكَّة التي ليس فيها شيء ، فيشقها ، فنلق ما فيها"^(٤) . قال ابن حجر في شرحه ^(٥) : "وهذا التقييد يُحمّل على المطلق الذي جاء عن عكرمة عن أبي هريرة ،

^(١) ابن أبي شيبة : المصنف (٣٨١/٦) حديث رقم (٣٢٢٠٦)

^(٢) أحمد : المسند (٢٠٥/١) حديث رقم (١٧٥١)

^(٣) أحمد : المسند (٢٠٤/١) حديث رقم (١٧٥٠)

^(٤) (١٣٥٩/٣) حديث رقم (٣٥٠٥)

^(٥) فتح الباري (٧٦/٧)

وقال: ما احتذى النعال ، ولا ركب المطايا بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب . أخرجه الترمذي والحاكم بإسناد صحيح ^(١) .

✽ وقال فيه الذهبي : "السَّيِّدُ ، الشَّهِيدُ ، كبير الشأن ، عَلِمُ المجاهدين ، أبو عبد الله ، ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي الهاشمي . أخو علي بن أبي طالب . وهو أسنُّ من علي بعشر سنين . هاجر الهجرتين ، وهاجر من الحبشة إلى المدينة ، فوافى المسلمين وهم على خير ؛ إثر أخذها ، فأقام بناحية المدينة أشهراً ، ثم أمره رسول الله ﷺ على جيش غزوة مؤتة بناحية الكرك ، فاستشهد . وقد سُر رسول الله ﷺ كثيراً لقدمه ، وحزن والله لوفاته" ^(٢) .

✽ وقال ابن حجر : "جعفر بن أبي طالب الهاشمي ، أبو المساكين ، ذو الجناحين ، الصحابي الجليل ، ابن عم رسول الله ﷺ ، استشهد في غزوة مؤتة سنة (٨هـ) ورد ذكره في الصحيحين دون رواية له" ^(٣) .

✽ ويُقال له ذو الجناحين ؛ لأنه عَوَّض عن يديه لما قُطعتا في غزوة مؤتة جناحَيْن يطير بهما . ففي صحيح البخاري ^(٤) بإسناده إلى الشعبي ، أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا سلّم على ابن جعفر ، قال : "السلام عليك يا ابن ذي الجناحين" . قال الحافظ في شرحه : "كأنه يشير إلى حديث عبد الله بن جعفر ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : (هنيئاً لك ، أبوك يطير مع الملائكة في السماء) أخرجه الطبراني بإسناد حسن ، ثم ذكر طرُقاً أخرى عن أبي هريرة ، وعلي ، وابن عباس . وقال في طريق عن ابن عباس : (إن جعفرأ)

^(١) الترمذي : السنن (٥ / ٦٥٤) حديث رقم (٣٧٦٤) الحاكم : المستدرک (٣ / ٤٣) حديث رقم (٤٣٥٠) ، وقال : صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرجاه .

^(٢) سير أعلام النبلاء (١ / ٢٠٦)

^(٣) تقريب التهذيب ، ص (١٤٠)

^(٤) (٣ / ١٣٦٠) حديث رقم (٣٥٠٦)

يطير مع جبريل وميكائيل ، له جناحان ، عَوْضَهُ اللهُ مِنْ يَدَيْهِ) وقال : وإسناد هذه جيد (١).

✽ ابن عم رسول الله ﷺ عبد الله بن عباس ؓ :

وكذلك من أهل بيت النبي ﷺ : عبد الله بن عباس . ابن عم رسول الله ﷺ ،
والبحر الزّخار ، تزجّمان القرآن ، الذي دعا له رسول الله ﷺ فقال : (اللهم فقّههُ في
الدين ، وعلمهُ التأويل)"(٢) .

وعن سعد بن أبي وقاص ؓ قال : "ما رأيتُ أَحْضَرَ فهِمًا ، ولا أَلْبَّ لُبًّا ، ولا
أَكْثَرَ عِلْمًا ، ولا أَوْسَعَ حِلْمًا من ابن عباس . ولقد رأيتُ عمرَ بن الخطاب يدعوه
لمعضلات"(٣) .

وقال طلحة بن عبيد الله ؓ : "لقد أُعْطِيَ ابن عباس فهماً ، ولقناً ، وعلمًا . ما
كنت أرى عمر بن الخطاب يقَدِّم عليه أحداً"(٤) .

عن جابر بن عبد الله ؓ حين بلغه موت ابن عباس ، صفق بإحدى يديه على
الأخرى ، وقال : "مات أعلم الناس ، وأحلم الناس ، وأصيّبت به هذه الأمة مصيبةً لا
تُرْتَق"(٥) .

(١) فتح الباري (٧/٧٦)

(٢) أحمد : المسند (١/٢٦٦) حديث رقم (٢٣٩٧) الحاكم : المستدرک (٣/٦١٥) حديث رقم
(٦٢٨٠) ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢/٣٦٩)

(٤) المرجع ذاته (٢/٣٧٠)

(٥) المرجع ذاته (٢/٣٧٠)

عن مجاهد قال : " ما سمعت فُتيا أحسن من فتيا ابن عباس ، إلا أن يقول قائل : قال رسول الله ﷺ . ورؤي مثل هذا عن القاسم بن محمد ^(١) .

عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، قال : "لما مات ابن عباس ، قال رافع بن خديج : "مات اليوم من كان يحتاج إليه من بين المشرق والمغرب في العلم" ^(٢) .

✽ روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس ، قال : كان عمر يُدخِلني مع أشياخ بدرٍ ، فكأن بعضهم وجد في نفسه ، فقال : لِمَ يُدخِلُ هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟ ، فقال عمر : إنه من حيث علمتم . فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني إلا ليُرِيهم . قال : ما تقولون في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ^(١) النصر: ؟ فقال بعضهم : أمرنا نحمد الله ونستغفره ، إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم ، فلم يقل شيئاً . فقال لي : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ ، فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلتُ : أجل رسول الله ﷺ ، أعلمه له . قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ^(١) النصر: ١ وذلك علامةُ أُجْلِكَ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ^(٢) النصر: ٣ ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول ^(٣) .

وعن عامر الشعبي ، قال : صلّى زيد بن ثابت على جنازة أمّه ، ثم قُرِبَتْ له بغلةٌ ليركبها ، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه ، فقال زيد : خلّ عنه يا ابن عم رسول الله ، فقال : هكذا نفعل بالعلماء . فقبل زيدٌ يدَ ابن عباس ، قال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ ^(٤) .

^(١) ابن عبد البر : الاستيعاب (٢/٣٤٤ - ٣٤٥)

^(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢/٣٧٠)

^(٣) (٤/١٩٠١) حديث رقم (٤٦٨٦)

^(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء (١١/٣١٥)

﴿ عم رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب ﷺ :

قال رسول الله ﷺ : (يا عمر ، أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه؟) ^(١)

وقال النبي ﷺ لعمه العباس ، وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفون بني هاشم ، فقال ﷺ : (والذي نفسي بيده ، لا يؤمنون حتى يحبوكم لقرايتي) ^(٢)

وقد ذكرنا قول عمر بن الخطاب للعباس ﷺ ، مُبيناً فيه حبَّ النبي ﷺ لعمه العباس ؛ إذ قال له : (والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطاب ؛ لو أسلم . لأن إسلامك كان أحبَّ إلي رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب" .

ومر بنا حديث اختيار عمر للعباس ﷺ للتوسل بدعائه ، لقرايته من رسول الله ﷺ

علو مكانة العباس بن عبد المطلب ﷺ عند أهل السنة :

قال الذهبي : "كان من أطول الرجال ، وأحسنهم صورةً ، وأبهاهم ، وأجهرهم صوتاً ؛ مع الحلم الوافر ، والسؤدد" ^(٣) .

قال الزبير بن بكار : "كان للعباس ثوبٌ لعاري بني هاشم ، وجفنةٌ لجائعهم ، ومنظرةٌ لجاهلهم . وكان يمنع الجار ، ويُعطي في النوائب" ^(٤) .

وقوله (منظرة) ، عند ابن عساكر ^(١) (مَقْطَرَةٌ . وهي : الفلق ؛ عبارةٌ عن خشبة بها خروقٌ على قدر سعة الساق ، يُدخَلُ فيها أرْجُلُ المحبوسين ^(٢) .

^(١) مسلم : الصحيح (٦٧٦/٢) حديث رقم (٩٨٣) ابن حبان : الصحيح (٦٧/٨) حديث رقم (٣٢٧٣)

^(٢) ابن أبي شيبة : المصنف (٣٨٢/٦) الطبراني : المعجم الكبير (٣٤٣/١١)

^(٣) سير أعلام النبلاء (٧٩/٢ - ٨٠)

^(٤) المرجع ذاته (٨٠/٢)

✽ عم رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب ﷺ :

عن جابر بن عبد الله ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : (سيّد الشهداء حمزة) ^(٣) وفي رواية : (أفضل الشهداء حمزة) ^(٤) .

علو مكانة حمزة بن عبد المطلب ﷺ عند علماء أهل السنة :

قال ابن عبد البر : "حمزة بن عبد المطلب بن هاشم ، عم النبي ﷺ . وكان يقال له : أسد الله وأسود رسوله . يُكنى أبا عمارة ، و أبا يعلى أيضاً" ^(٥) .

وقال الذهبي : "الإمام ، البطل ، الضّرغام ، أسد الله ، أبو عمارة ، وأبو يعلى ، القرشي ، الهاشمي ، ثم المدني الشهيد ، عم رسول الله ﷺ ، وأخوه من الرضاعة" ^(٦) .

التابعون من أهل البيت وعلو مكانتهم عند علماء أهل السنة :

✽ محمد بن علي بن أبي طالب ، المشهور بـ (ابن الحنفية) رحمه الله

قال ابن حبان في ثقات التابعين : "كان من أفضل أهل بيته" ^(٧) .

^(١) تاريخ دمشق (٢٦/٢٨٥)

^(٢) الزبيدي : تاج العروس (٧/٥٠)

^(٣) الحاكم : المستدرک (٣/٢١٥) حديث رقم (٤٨٨٤) الديلمي : الفردوس (٢/٣٢٤) حديث رقم (٣٤٧٢) الطبراني : المعجم الكبير ، من حديث علي ﷺ

^(٤) الحاكم : المستدرک (٣/٢١٢) حديث رقم (٤٨٧٦)

^(٥) الاستيعاب (١/٢٧٠)

^(٦) سير أعلام النبلاء (١/١٧٢)

^(٧) الثقات (٥/٣٤٧)

وقال الذهبي في السير عن ابن عامر: "محمد بن الحنفية ، كان يكنى أبا القاسم ، وكان ورعاً كثير العلم"^(١) . وقال فيه أيضاً : "السيد ، الإمام ، أبو القاسم ، وأبو عبدالله"^(٢) .

وفي ترجمته في تهذيب الكمال للمزي : "قال أحمد بن عبد العجلي : تابعي ، ثقة . كان رجلاً صالحاً ... وقال إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد : لا نعلم أحداً أسند عن علي عن النبي ﷺ أكثر ، ولا أصلح ممّا أسند محمد بن الحنفية"^(٣) .

✪ علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ (زين العابدين)

قال ابن تيمية : "وأما علي بن الحسين ، فمن كبار التابعين ، وساداتهم ؛ علماً وديناً"^(٤) .

وقال الذهبي : "السيد الإمام ، زين العابدين ، الهاشمي ، العلوي ، المدني"^(٥) .

وقال ابن حجر : "ثقة ، ثبت ، عابد ، فقيه ، فاضل ، مشهور"^(٦) .

وقال المزي : "قال سفيان بن عيينة عن الزهري : ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين . ونقل معناه عن أبي حازم ، وزيد بن أسلم ، ومالك ، ويحيى بن سعيد الأنصاري رحمهم الله .

(١) (١١٥/٤) .

(٢) م . ن (١١٠/٤)

(٣) (١٤٩/٢٦) .

(٤) منهاج السنة (٤٨/٤)

(٥) سير أعلام النبلاء (٣٨٦/٤)

(٦) تقريب التهذيب ، ص (٤٠٠)

وقال العُجَلِيُّ : علي بن الحسين ، مدني ، تابعي ، ثقة .

وقال الزُّهْرِيُّ : كان علي بن الحسين من أفضل أهل بيته ، وأحسنهم طاعة ، وأحبهم إلى مروان بن الحكم ، وعبد الملك بن مروان^(١) .

✻ محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، المشهور بـ (محمد الباقر) :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "وكذلك أبو جعفر محمد بن علي ، من خيار أهل العلم والدين . وقيل : إنما سُمي الباقر ؛ لأنه بَقَرَ العِلْمَ ، لا لأجل بَقْرِ السجودِ جبهته"^(٢) .

ومن محبة الصحابة وإجلالهم وإكرامهم لأهل بيت النبي ﷺ :

✻ ما جاء في صحيح مسلم^(٣) عن جابر بن عبد الله الأنصاري ؓ في حديثه الطويل في صفة الحج ، من حديث جعفر بن محمد ، (وهو ابن علي بن الحسين) عن أبيه قال : "دخلنا على جابر بن عبد الله ، فسأل عن القوم حتى انتهى إلي ، فقلت : أنا محمد بن علي بن حسين . فأهوى بيده إلى رأسي فنزع زري الأعلى ، ثم نزع زري الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديي ، وأنا يومئذ غلام شاب ، فقال : مرحباً بك يا ابن أخي ، سل عما شئت ... فقلت : أخبرني عن حجة رسول الله ﷺ ، فحدثه بحديثه الطويل في صفة حجة النبي ﷺ .

✻ وقال الذهبي : "هو السيد ، الإمام ، أبو جعفر ، محمد بن علي بن الحسين بن علي العلوي الفاطمي المدني ، وَلَدَ زَيْنَ العابدين ... وكان أحد مَنْ جَمَعَ بين العلم ،

(١) تهذيب الكمال (٣٨٦/٢٠)

(٢) منهاج السنة (٥٠/٤)

(٣) الصحيح (٨٨٦/٢) حديث رقم (١٢١٨)

والعمل ، والشؤدد ، والشرف ، والثقة ، والرزانة . وكان أهلاً للخلافة . وهو أحد الأئمة الاثني عشر ، الذين تُبجلهم الشيعة الإمامية ، وتقول بعصمتهم ، وبمعرفتهم بجميع الدين . فلا عصمة إلا للملائكة ، والنبين ، وكل أحدٍ يُصيب ويخطئ ، ويُؤخذ من قوله ويُترك سوى النبي ﷺ ، فإنه معصوم بالوحي . وشهر أبو جعفر (الباقر) من بقر العلم ، أي : شقّه . فعرف أصله وخفيّه . ولقد كان أبو جعفر إماماً ، مجتهداً ، تالياً لكتاب الله ، كبير الشأن" (١) .

✽ وقال الذهبي أيضاً : "وقد عدّه النسائي وغيره في فقهاء التابعين بالمدينة ، واتفق الحفاظ على الاحتجاج بأبي جعفر" (٢) .

✽ جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمه الله :

✽ قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : "وجعفر الصادق ﷺ من خيار أهل العلم والدين ... وقال عمرو بن أبي المقدام : كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين" (٣) .

ووصفه في رسالته في فضل أهل البيت ، وحقوقهم ، فقال : "شيخ علماء الأمة" (٤) .

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٤٠١ - ٤٠٢) .

(٢) المرجع ذاته (٤/٤٠٣) .

(٣) منهاج السنة النبوية (٤/٥٢ - ٥٣) .

(٤) ص (٣٥) .

✽ وقال الذهبي: "الإمام ، الصادقُ ، شيخ بني هاشم ، أبو عبد الله ، القرشي الهاشمي ، العلوي ، النبوي ، المدني . أحد الأئمة الأعلام" . وقال عنه وعن أبيه : "وكانا من جِلَّة علماء المدينة"^(١) .

✽ وقال في تذكرة الحفاظ : "وثقه الإمام الشافعي ، ويحيى بن معين . وعن أبي حنيفة ، قال : ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد . وقال أبو حاتم : ثقةٌ ، لا يُسأل عن مثله"^(٢) .

✽ علي بن عبد الله بن عباس رحمه الله :

قال ابن سعد : "وكان عليُّ بن عبد الله بن عباس أصغر ولد أبيه سنًا ، وكان أجمل قرشيٍّ على وجه الأرض ، وأوسمُهُ ، وأكثره صلاةً . وكان يُقال له السَّجَّاد ؛ لعبادته ، وفُضِّلِه"^(٣) . وقال أيضاً : "وكان ثقةً ، قليل الحديث"^(٤) .

وقال المُزَيُّ : "قال العجلي وأبو زرعة : ثقة . وقال عمرو بن علي : كان من خيار الناس . وذكره ابن حبان في الثقات"^(٥) .

✽ ابنُ ابنِ عم رسول الله ﷺ عبد الله بن جعفر ﷺ :

في صحيح مسلم ، عن عبد الله بن جعفر ﷺ قال : "كان رسول الله ﷺ إذا قَدِم من سفر تُلقِي بصبيان أهل بيته . قال : وإنه قَدِم من سفر ، فسُبق بي إليه ، فحملني بين يديه ، ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه . قال : فأدخِلنا المدينة ثلاثةً على دابة"^(١) .

^(١) سير أعلام النبلاء (٢٥٥/٦)

^(٢) (١٥٠/١) .

^(٣) الطبقات الكبرى (٣١٣/٥)

^(٤) المرجع ذاته (٣١٤/٥)

^(٥) تهذيب الكمال (٣٩/٢١)

وقال الذهبي: "السيد، العالم، أبو جعفر، القرشي، الهاشمي، الحبشي المولد، المدني الدار، الجواد، ابن الجواد ذي الجناحين. له صحبة، ورواية. عداؤه في صغار الصحابة. أستشهد أبوه يوم مؤتة، فكفله النبي ﷺ، ونشأ في حجره... وكان كبير الشأن، كريماً جواداً، يصلح للإمامة"^(٢).

وفي الرياض المستطابة، للعامري: "وصلّى عليه أبان بن عثمان، وكان يومئذ والي المدينة، وحمل أبان سريره ودموعه تنحدر، وهو يقول: كنت -والله- خيراً لا شرّ فيك، وكنت -والله- شريفاً، فاضلاً، برّاً"^(٣).

ومن أصحاب رسول الله ﷺ الذين هم من أهل بيته:

- أبو سفيان، ونوفل، وربيعه، وعبيدة: بنو الحارث بن عبد المطلب.
- وعبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.
- والحارث، والمغيرة: ابنا نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.
- وجعفر، وعبد الله: ابنا أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.
- ومعتب، وعتبة: ابنا أبي لهب عبد العزى بن عبد المطلب.
- والفضل، وعبيد الله: ابنا العباس بن عبد المطلب.

^(١) (١٨٨٥/٤) حديث رقم (٢٤٢٧)

^(٢) سير أعلام النبلاء (٤٥٦/٣)

^(٣) ص (٢٠٥) ابن الأثير: أسد الغابة (٣ / ١٣٥)

وهذا دعبل الخزاعي يمدح أهل البيت فيقول :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
وقد كان منهم بالحجاز وأهلها مغاوير نحّارون في السنوات
إذا فخرُوا يوماً أتوا بمحمد وجبريل والقرآن ذي السورات
ملامك في أهل النبي فإنهم أحبائي ما عاشوا وأهل ثقات
أحبّ قصيَّ الرحم من أجل حبهم وأهجر فيكم أسرتي وبناتي
تخيرتهم رشداً لأمري إنهم على كل حال خيرة الخيرات
فيا رب زدني في يقيني بصيرة وزد حبهم يا رب في حسناتي^(١)

عقيدة أهل السنة في أهل بيت رسول الله ﷺ :

لا تكاد تجد كتاباً من كتب أهل العقيدة عند أهل السنة والجماعة ، إلا وتجد فيه الثناء والمواودة ، والمحبة والنصرة لأهل البيت العليّين ، بل وحتى في كتب السير والتراجم (كما مرّ بنا) وجدنا هذا التأصيل الشرعي في محبة أهل البيت ؛ فإن محبتهم عند أهل السنة دينٌ ، وإيمانٌ ، وإحسانٌ . وبغضهم كفرٌ ، ونفاقٌ ، وطغيانٌ .

وخلاصة الكلام في عقيدة أهل السنة ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية ، فقال رحمه الله تعالى : "ويحبّون) أهل بيت رسول الله ﷺ ، ويتولّونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ ، حيث قال يوم غدیر خم : (أُذِكْرُكُمْ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أُذِكْرُكُمْ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أُذِكْرُكُمْ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي) ^(٢) . وقال رسول الله ﷺ أيضاً

^(١) الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ) ، معجم الأدباء (١١/١٠٣) (بيروت ، دار صادر ، د.ت)

^(٢) صحيح البخاري (٣/١٣٦١ ، ٣٥٠٩) .

للعباس عمه ، وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفون بني هاشم ، فقال ﷺ : (والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرايتي) ^(١) . وقال : (إن الله اصطفى بني إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم) ^(٢)

هذا بعض من كلام ابن تيمية ، ومع ذلك يرى كثير من الشيعة أنه من أشد الناس عداوةً لهم .

فأهل السنة والجماعة هم أسعد الناس بتنفيذ وصية النبي ﷺ التي جاءت في هذه الأحاديث ؛ لأنهم يحبونهم جميعاً ويتولونهم ، ويُزِلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف . وأما غيرهم من الرافضة فهم أبعد الناس عن هذه الوصية ؛ فإنهم يعادون العباس وذريته ، بل يعادون جمهور أهل البيت ، ويُعينون الكفار عليهم .

ويضيف شيخ الإسلام ابن تيمية في الوصية الكبرى : "وكذلك آل بيت رسول الله ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها ، فإن الله جعل لهم حقاً في الخمس والفيء ، وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ ، فقال لنا : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد" ^(٣) .

وتأمل قول ابن كثير رحمه الله في تفسيره : "ولا تُنكر الوصاة بأهل البيت ؛ بالإحسان إليهم ، واحترامهم ، وإكرامهم ؛ فإنهم من ذرية طاهرة ، من أشرف بيت ووجد

^(١) لم أجد هذا اللفظ في المسند ، وأخرجه أحمد بلفظ : (والله لا يدخل قلب امرئٍ إيماناً ، حتى يحبكم لله ، ولقرايتي) أحمد : المسند (٢٠٧/١) حديث رقم (١٧٧٧)

^(٢) مسلم : الصحيح (١٧٨٢/٤) حديث رقم (٢٢٧٦) الترمذي : السنن (٥٨٣/٥) حديث رقم (٣٦٠٥) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه .

^(٣) مجموع الفتاوى (٤٠٧/٣ - ٤٠٨)

على وجه الأرض ، فخرأ ، وحسباً ، ونسباً . ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة ، الواضحة الجليلة ، كما كان سلفهم كالعباس وبنوه ، وعلي وأهل بيته ، وذريته ﷺ أجمعين" (١) .

موقف أهل السنة والجماعة من النواصب :

النواصب ، والناصبية ، وأهل النصب : المتديّنون بْبُغْضِ علي ﷺ ؛ لأنهم نصبوا له ، أي : عادوه . وهذا أصل التسمية . فأهل السنة والجماعة (كما قال ابن تيمية) : "يتبرّؤون من طريقة الروافض الذين يُبغضون الصحابة ، ويسبونهم ، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت ؛ بقول ، أو عمل" (٢) .

فبراءة أهل السنة من النواصب واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، وعقيدتهم (كما ذكرنا) في أهل البيت : الثناء عليهم ؛ خصوصاً علي ﷺ وبنوه . وعقيدتنا تشهد بأن علياً والحسن والحسين ﷺ في جنات النعيم ، كما أكدنا على هذه الحقيقة من أقوال علماء أهل السنة الذين تعاديهم الشيعة ، فلا تجد كتاباً في الحديث إلا وفيه فضائل علي ﷺ ومناقبه .

وكلام أهل السنة في النواصب واضح ، وأكتفي في هذا المقام بنقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى الذي يعتبره الشيعة من النواصب ، وأنه أشد علماء السنة عداوة لهم . يقول رحمه الله : "وكان سب علي ولعنه من البغي الذي استحقت به الطائفة أنه يُقال لها : الطائفة الباغية ، كما روى البخاري في صحيحه ، عن خالد الحذاء، عن عكرمة ، قال : قال لي ابن عباس ، ولابنه علي : انطلقا إلى أبي سعيد واسمعا من حديثه ، فانطلقنا ، فإذا هو في حائط يصلحه ، فأخذ رداءه ، فاحتبى به ، ثم أنشأ يحدثنا ، حتى إذا أتى على ذكر بناء المسجد فقال : كنا نحمل لبنةً لبنةً ، وعمّاراً

(١) (١٤٥/٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٤٠٧ - ٤٠٨)

لَبْتَيْنِ لَبْتَيْنِ ، فرآه النبي ﷺ ، فجعل ينفُضُ التراب عنه ، ويقول : (ويح عمار ! تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النار) ، قال عمار : أعوذ بالله من الفتن" (١) .

وروى مسلم عن أبي سعيد أيضاً ، قال : "أخبرني من هو خيرٌ مني (أبو قتادة) : أن رسول الله ﷺ قال لعمارٍ ، حين جعل يحفر الخندق ، جعل ﷺ يمسح رأسه ، ويقول : (بؤس ابن سُميَّة !! تقتله فئة باغية)" (٢)

ويضيف ابن تيمية مستدلاً بهذه الأحاديث ، فيقول : "وهذا يدل على صحة إمامة علي ، ووجوب طاعته ، وأن الداعي إلى طاعته داعٍ إلى الجنة ، والداعي إلى مقاتلته داعٍ إلى النار - وإن كان متأولاً- . وهو دليلٌ على أنه لم يكن يجوزُ قتال علي . وعلى هذا فمُقاتلته مخطئٌ ، وإن كان متأولاً ، أو باغٍ بلا تأويلٍ . وهو أصح القولين لأصحابنا ؛ وهو الحكم بتخطئة مَنْ قاتل علياً ، وهو مذهب الأئمة الفقهاء ، الذين فرَّغوا على ذلك قتال البُغاة المتأولين" (٣) .

✽ وتأمل في قول ابن تيمية الآتي :

✽ قال رحمه الله ، بعد أن وضح قول أهل السنة في يزيد ، وحرر المسألة تحريراً علمياً منصفاً ، مبيّناً اختلاف الناس في يزيد ، فقال ما نصه : "وأما مَنْ قَتَلَ الحسين ، أو أعان على قتله ، أو رضي بذلك ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين" .

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريج هذه الأحاديث .

(٣) مجموع الفتاوى (٤/٤٣٧)

فهل يوجد أوضح من هذا الكلام ؟ ومع هذا يُرمى ابنُ تيمية ، وأهل السنة بأنهم نواصب !؟

✽ وأما كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في الثناء على أهل البيت عليهم السلام ، وخصوصاً في علي والحسن والحسين عليهم السلام ، فهو أكبر وأظهر من أن ننبّه عليه . فهو رحمه الله له ستّة بنين ، وبنّت واحدة . وهم : عبد الله ، وعليّ ، وحسن ، وحسين ، وإبراهيم ، وعبد العزيز ، وفاطمة . وكلّهم بأسماء أهل البيت ، ما عدا عبد العزيز . فعبد الله وإبراهيم ، أولاد النبي ﷺ ، والباقون : علي ، وحسن ، وحسين ، وفاطمة : بأسماء صهر النبي ﷺ ، وبنته ، وسبطاه . واختياره تسمية أولاده بأسماء هؤلاء يدلّ على محبته لأهل بيت النبي ﷺ ، وتقديره لهم .

✽ وقد تكررت هذه الأسماء في أحفاده . فالأب يسمي أبناءه بأسماء محبوبة عنده، وعند أمه وأهله . وليست هذه التسمية عابرة ، لكن المنافقين من الباطنيين ، أرادوا الانتماء إلى أهل البيت ، وأهل البيت براء منهم ؛ وذلك لتمرير باطلهم ، وتشويه العقيدة الإسلامية السليمة ، ومحاربة أهل السنة والجماعة ، بتقويلهم على أهل البيت ما لم يقولوه . وقد مرّ بنا الحديث عن علوّ مكانة أهل البيت عند الصحابة وأهل السنة . وكما قال ابن القيم رحمه الله : "أن يعزّو المتأول إلى جليل القدر ، نبيل الذّكر من العقلاء ، أو من أهل بيت النبي ﷺ ، أو من حصل له في الأمة ثناء جميل ، ولسان صدق ليحلّيه بذلك في قلوب الجهّال ؛ فإنّه من شأن الناس تعظيم كلام من يعظم قدره في نفوسهم ، حتى إنّهم ليقدمون كلامه على كلام الله ورسوله ، ويقولون : هم أعلم بالله منا ! وبهذا الطريق توصل الرافضة ، والباطنية ، والنصيرية إلى تنفيق باطلهم وتأويلاتهم ؛ حين أضافوها إلى أهل بيت النبي ﷺ ، لما علموا أن المسلمين متفقون على محبتهم وتعظيمهم ، فانتّموا إليهم ، وأظهروا من محبتهم وإجلالهم ، وذكر مناقبهم ؛ ما خيّل

إلى السامع أنهم أولياؤهم . ثم نفقوا باطلهم بنسبته إليهم . فلا إله إلا الله ، كم من زندقة، وإلحادٍ وبدعةٍ قد نفقت في الوجود بسبب ذلك ، وهم براء منها؟^(١) .

❖ فائدة :

يجب أن يُعلم ، أن شرف النسب ، تابع لشرف الإيمان ، ومن جمع الله له بينهما ، فقد جمع بين الحُسنين ، ومن لم يُوفق للإيمان ، فإن شرف النسب لا يفيد شيئاً ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ ﴾ الحجرات: ١٣ ، ويؤكد هذا المعنى العظيم ، قوله ﷺ : (مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)^(٢) .

ومعناه : أن العمل هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظَامُونَ ﴾ (١٩) الأحقاف: ١٩ فَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَنْ يَبْلُغَ تِلْكَ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ ، فَيَبْلُغُهُ تِلْكَ الدَّرَجَاتِ . فَإِنَّ اللَّهَ رَتَّبَ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ لَا عَلَى الْأَنْسَابِ . كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١٠١) المؤمنون: ١٠١

وقد أمر الله بالمسارعة إلى مغفرته ورحمته بالأعمال ، فقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَنُظُمِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣٤) آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤

إن ولاية رسول الله ﷺ إنما تُنال بالتقوى والعمل الصالح . فعن عمرو بن العاص ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء ، إنما وليي الله وصالح

(١) مختصر الصواعق المرسله (١/٩٠)

(٢) مسلم : الصحيح (٤/ ٢٠٧٤) حديث رقم (٢٦٩٩) ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

المؤمنين^(١) . أي : إنّ ولايته لا تُنال بالنسب ، وإنّ قُرْب ، وإنّما تنال بالإيمان والعمل الصالح ، فمن كان أكمل إيماناً وعملاً ، فهو أعظم ولايةً له ؛ سواءً أكان له منه نسب قريب ، أم لم يكن . وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

لَعْمُرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا بِدِينِهِ فَلَا تَتْرِكُ التَّقْوَى اتِّكَالاً عَلَى النَّسَبِ
لَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامَ سَلْمَانَ فَارِسَ وَقَدْ وَضَعَ الشَّرْكَ النَّسِيبَ أَبَا لَهَبٍ
وكان ﷺ يحذّر من الاعتماد على الأنساب ، وتزكّ الأعمال الصالحة ، كما فعل في مكة في القصة المشهورة ، لما قال : (يا معشر قريش ! اشتروا أنفسكم من الله ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ! لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمّة رسول الله ﷺ ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمدٍ سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئاً)^(٢)

ومعلوم ما نزل في القرآن الكريم بحقّ أبي لهب النسيب . نعوذ بالله من النار .

قال المتوكّل الليثي :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَكَلَّمُ
بَنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَنْبِي ، وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

^(١) مسلم : الصحيح (١٩٧/١) حديث رقم (٢١٥)

^(٢) البخاري : الصحيح (١٠١٢/٣) حديث رقم (٢٦٠٢) مسلم : الصحيح (١٩٢/١) حديث رقم (٢٠٦)

المبحث الثالث

سخرية المنافقين وحكم عقوبتهم

المطلب الأول : سخرية المنافقين واستهزاؤهم بالرسول ﷺ :

السخرية والاستهزاء : كلمتان مترادفتان لمعنى واحد ، من باب : سخرت منه ، إذا هزئت به . والمراد بالسخرية : الهُزء به ، والضحك منه ، والاسم : السخرية ^(١) .

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ وَيَضَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ ﴾

أما في الاصطلاح ، فيمكن القول : إنّ السخرية أسلوب عدائي مَصُوغٌ بروح الفكاهة ^(٢) .

وتؤدّي السخرية بألفاظ ؛ منها : اللَّمَزُ . وهو : العَيْبُ . وأصله : الإشارة بالعين ، ونحوها . ورجل لَمَّازٌ ؛ أي : عَيَابٌ ^(٣) .

وقد استخدم جميع أعداء الإسلام (اليهود-المشركون-المنافقون) أسلوب السخرية والاستهزاء . إلا أن سخرية المنافقين واستهزاءهم تختلف عن غيرهم من الكافرين ؛ لأن سخرية الكافرين تصدر من أفراد مخصوصين ، فهي لا تُنسب إلى الكافرين عامة ، وإنما إلى نفرٍ ، أو جماعاتٍ منهم . على النقيض من المنافقين ، فإن

^(١) ابن منظور : لسان العرب (١/١٨٣)

^(٢) حنفي ، عبد الحلیم ، أسلوب السخرية في القرآن الكريم (ص ١٥) (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م)

^(٣) ابن منظور : لسان العرب (٥/٤٠٧)

السخرية جزءاً من طبيعتهم جميعاً ، وصفة من صفاتهم ؛ علاوةً على أن السخرية عند الكافرين سلاحٌ عدائي يراد به الإضرار بالإسلام والمسلمين ، بينما المنافقون سخريتهم نابعة من فقدانهم العقيدة ؛ فهم لا يرون في أي دينٍ أو عقيدة شيئاً يستحق الاهتمام . لهذا جعل الرازي المنافق يضم إلى كفره الاستهزاء ؛ بخلاف الكافر . ولأجله غُلِّظَ بكفره^(١).

وكان المنافقون يسخرون من النبي ﷺ ؛ ظناً منهم أن ذلك كفيلاً بالقضاء على الدعوة والدولة الإسلامية الناشئة في المدينة .

وقد استخدم المنافقون أسلوب السخرية والاستهزاء بالنبي ﷺ وبالمؤمنين في غزوة تبوك ؛ بكل ما يملكون من أساليب خبيثة ؛ هدفهم هو : الاحتقار والتهوين من شأن هذا الدين ، ورسوله ﷺ . وهم في ذلك يعبرون عما تنطوي عليه نفوسهم من الكفر بالحق ، الذي يُظهرون الإيمان به اضطراراً ومكراً . فالسخرية تعبر عن حقيقة ما يُبطنون في أنفسهم ، وترجم قولهم فيما حكى سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴾^(١٤) البقرة: ١٤

السخرية والاستهزاء بالنبي ﷺ يوم تبوك :

بيّن سبحانه وتعالى لنا أن المنافقين لم يكتفوا بالقعود عن الجهاد والتخذيل عنه، ولا بإمساك أموالهم وقبض أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله ؛ وإنما تجاوزوا ذلك إلى الاستهزاء بالرسول ﷺ وبالمؤمنين ، فاتهموا النبي ﷺ بالبلاهة . يقول الله تعالى عن هذا في غزوة تبوك : ﴿ وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ

^(١) الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر الشافعي (ت ٦٠٦هـ) ، التفسير الكبير (١/٦٦) (ط ٣، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت)

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ

الِيم ﴿٦١﴾ التوبة: ٦١

قال الألويسي: "نزلت في جماعة من المنافقين ؛ منهم : الجلاس بن سويد بن الصامت ، ورفاعة بن عبد المنذر ، ووديعة بن ثابت ، وغيرهم . قالوا ما لا ينبغي في حقه ﷺ ، فقال رجل منهم : لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغ محمداً ﷺ ما نقول ، فيقع بنا . فقال الجلاس : بل نقول ما نشاء ، ثم نأتيه ، فيصدّقنا بما نقول ، فإن محمداً ﷺ أذن^(١) .

وفي رواية : أذن سامعة"^(٢) . قال ابن اسحاق^(٣) في هذه الآية : "وكان الذي يقول تلك المقالة - فيما بلغني - نبتل بن الحارث . وفيه نزلت هذه الآية ؛ وذلك أنه كان يقول : إنما محمد أذن ، فمن حدّثه شيئاً صدّقه . قال ابن اسحاق : وكان نبتل رجلاً جسيماً ، نائر الرأس واللحية ، آدم ، أحمر العينين ، أسفع الخدين ، مشوّه الخلقة . وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ : (من أراد أن ينظر إلى شيطان ، فلينظر إلى نبتل بن الحارث)^(٤)

(١) الأذن : في الأصل هي الجارحة . وتستعار لمن كثر سماعه وقبوله لما يسمع ، من غير أن يتدبّر فيه . سمي بالجارحة التي هي آلة السماع ، كأنه في جملته أذن سامعة . الزمخشري : الكشاف (١٩٩/٢)

(٢) الألويسي : أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني (ت ١٢٧٠هـ) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٢٥/١) (بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت)

(٣) العلامة الحافظ الإخباري ، أبو بكر القرشي ، المطّليبي ، صاحب السيرة النبوية . سمع خلقاً كثيراً . وهو أول من دوّن العلم بالمدينة . مات سنة (١٥٢هـ) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي (٣٠٣/٧) (ط ٩ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ)

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية (٥٥/٣)

كان بعض المنافقين في المدينة إذا دخل بعضهم على بعض ، أخذوا يتحدثون في النبي ﷺ بما يؤذيه ، فيعيون ويسخرون منه ، ويتقصون من قدره . وكان ﷺ يطلع على كثير مما يدور بينهم ، أحياناً عن طريق الوحي (كما في هذه القصة) وأحياناً عن طريق بعض المؤمنين الذين يُؤلمهم ما يسمعون من الكلام الجارح ، فينزل الوحي بصدقهم (كما سيأتينا) ولكن بعضهم لكثرة ما كان يعاملهم به النبي ﷺ من الحلم والعفو، قد ظنوا أن أمرهم قد خفي عليه ، وأنه يصدقهم في كل ما يقولونه له ، ويقبل جميع أعدارهم . فلجؤا في غوايتهم ، حتى بلغ من لؤمهم وخُبث نفوسهم أن اعتبروا ما كان يعاملهم به النبي ﷺ من العفو والسماحة نوعاً من الغفلة والبله . فنزل القرآن يكشف حقيقتهم ، ويبيّن لهم خطأ ما توهموه في النبي ﷺ من أنه يقبل أعدارهم الكاذبة قبول اقتناع ، وتسليم .

فالمنافقون قصدوا بقولهم - هو أذن - يعني : يصدق كل ما يسمع ، من غير وزن ولا تقدير ، فإذا اطلع علينا ، ذهبنا إليه فاعتذرنا منه ، فصدقنا بما نقول ، فلا يهم اطلاعهم على ما يجري منا .

فأجابهم الله تعالى مبيّناً حقيقة مقامه ، وقيمة وجوده ، وعظمة بُرّته بينهم ، فقال:

﴿ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦١) التوبة: ٦١

أي : هو أذنٌ في الخير والحق ، فيما يُشرعُ سماعه وقبوله ، وليس بأذنٍ في غير ذلك ، ولن يأمرهم إلا بما فيه خيرهم ، ولن يُحذرهم إلا عما فيه شرٌّ لهم . وليس رسول الله ﷺ كما يتصور المنافقون من أنه يصدق كل ما يسمع ؛ بل هو لا يصدق إلا ما يأتيه عن الله ؛ لأن هذا هو اليقين القطعي الذي لا يتطرق إليه الشك . ويصدق المؤمنين الصادقين في إيمانهم ؛ لأنهم لن يحدثوه كذباً ؛ لأن الكذب يتناقض مع الإيمان الحق . أما أنتم أيها المنافقون ، فإنه لا يصدقكم ، وإن حلفتكم له بالله ، لأنكم بكفركم قد فقدتم

الوازع الذي يمنعكم من الكذب . وإذا كنتم تتهمونه بأنه أُذُنٌ سامعة ، فهو كذلك ، ولكن فيما فيه خيركم وخير البشرية لو كنتم تعقلون ؛ لأنه يسمع ما يُلقى إليه من الوحي ، فيبلغكم إياه ، وفي هذا خيركم وصلاحكم في الدنيا والآخرة .

وهو رحمة للمؤمنين به ؛ لأنهم هم الذين استجابوا لدعوته ، فأنقذهم الله به من الضلالة إلى الهدى ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور . أما الذين كفروا من المنافقين ، فهو نقمة عليهم ؛ لأنهم لم يستجيبوا لدعوته ، فقامت الحجة به عليهم ، وباؤوا بالعذاب الأليم يوم القيامة .

ومن هنا تزول الدهشة . ولا تستغرب عندما نسمع من يقول من منافقي هذا الزمان ، ويلمز الدعاة ، والمجاهدين ، والملتزمين بأنهم متطرّفون ، وسُدَّجٌ ، وبُلَّةٌ ، ومغفلون ، ومتطرّفون ، وتكفيريّون ، وإرهابيّون ، ووهابيّون ، وخوارج . وغيرها من كلمات السخرية ، والاستهزاء ، والاحتقار . وهذه الصفة في الحقيقة تسليّة للدعاة والمخلصين من المؤمنين مما يلمزونهم به ، فقد لَمَزَ بها خير البشرية ﷺ .

وما أروع ما قاله ابن حزم رحمه الله تعالى : " من تصدر لخدمة العامة ، فلا بد أن يتصدق من عرضه على النار ، لأنه لا مُحَالٌ مشتوم حتى وإن واصل الليل بالنهار " .

ويُستفاد من هذه الحادثة حكمٌ شرعيّ ثابتٌ لا يتغير ، وهو : أنه من شتم النبي ﷺ ، أو استخفّ به : يَجِبُ قَتْلُهُ . هذا مذهب عامة أهل العلم .

وسياّتي تفصيل ذلك في مبحث حكم الاستهزاء بالله ، وآياته ورسوله ، في ضوء الشريعة الإسلامية .

المطلب الثاني : سخرية المنافقين بالجيش الإسلامي :

وطوال تحرُّك الجيش النبوي إلى تبوك ، استمرّ المنافقون في محاولاتهم الخبيثة لزعزعة ثقة المسلمين في صدق نبيهم ﷺ ، فلا تأتي مناسبةً يرون أنها ملائمة

لاستخدامها لتحقيق أهدافهم التشكيكية ، إلا واغتنموها ، غير مباليين بمحاربة الله ورسوله ﷺ ، مستغلين سعة حلم الرسول ﷺ وصبره عليهم . هذه العناصر المشبوهة المدسوسة بين مختلف فصائل الجيش ، كانت والجيش في طريقه إلى تبوك ، تقوم بالسخرية من قادة المسلمين ، وفضلاء المهاجرين والأنصار .

قال ابن إسحاق : "كان رهطاً من المنافقين يسيرون مع النبي ﷺ في تبوك ، ومنهم : وديعه بن ثابت . ومنهم رجلٌ من أشجع^(١) حليف لبني سلمة ، يقال له مخشن بن حمير ، يشيرون إلى النبي ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جِلاَدَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض؟ والله لكأني بكم غداً مقرنين في الحبال . إرجافاً وترهيباً للمؤمنين . فقال وديعه بن ثابت مستهزئاً بخبرة أصحاب رسول الله ﷺ : " ما رأيتُ مثْلَ قَرائِننا هؤِلاءِ أرغُبُ بطوناً ، ولا أكذبُ ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء ! . فقال رجل في المجلس^(٢) : كذبتَ ، ولكنك منافق . لأخبرنَّ رسول الله ﷺ . فوجد القرآن قد سبقه . فجاء وديعه بن ثابت إلى رسول الله ﷺ ، وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ، إنما كنا نلعب ونتحدث حديث الراكب ، نقطع به الطريق . قال ابن عمر رضي الله عنهما : كأني أنظر إليه متعلقاً بحَقَبِ^(٣) ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة لتنكبُّ على رجله ، وهو يقول : "إنما كنا نخوض ونلعب" . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ٦٥ لا تَعْدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿ التوبة: ٦٥ - ٦٦

(١) قبيلة من غطفان من قيس عيلان العدنانية ، كانت منازلهم في ضواحي المدينة ، وكانوا حلفاء الخزرج . كحالة : معجم قبائل العرب (٢٩/١)

(٢) هو عوف بن مالك الأشجعي ، كما عينته رواية أخرى أخرجها الطبري في التفسير (١٧٢/١٠)

(٣) جبل يُشَدُّ به رِجْلُ البعير إلى بطنه ، كي لا يتقدم إلى كاهله . ابن الأثير : النهاية (٤١١/١) ابن منظور لسان العرب (٣٢٤/١)

ففي هذه الحادثة دليل على أن المنافقين ليسوا ممن يُنكر الوحي الإلهي ، بل هم ممن يعترف بنزوله على رسول الله ﷺ ؛ حيث حذر بعضهم البعض من نزول ما يكشف أمرهم ، ولكنهم يكفرون به ؛ إما حسداً ، أو اتباعاً للشهوات ، أو استجابةً للفتن .

إن معركة المنافقين ليست مع المؤمنين وحدهم حتى يستطيعوا كتمان ما يجري في مجالسهم الخاصة ، وإخفاء مخططاتهم السرية ، وهم يحسبون أنهم بمنجاة من سمع المؤمنين وبصرهم . فإن معركتهم (حقيقة) هي مع الله ﷻ ، وهو مطلع على مكنونات ضمائرهم . فليقوموا بجميع ما يريدون القيام به من المخططات الهدامة والأعمال السرية ، ولينطقوا بما شأؤوا من كلمات السخرية والاستهزاء ؛ فإن الله ﷻ مطلع على ذلك كله ، وسيطلع رسوله ﷺ على جميع ما يكتمه المنافقون ، ويخشون من ظهوره : ﴿ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ أي : مُبْرِزٌ للمؤمنين من أسراركم ما تخافون من ظهوره لهم .

فإذا انكشف أمرهم ووقعوا في المأزق جاءوا يعتذرون بأعذارٍ سخيفة ، تنم عن كذبهم وخداعهم ؛ حيث يزعمون أنهم ما قالوا ذلك الكلام إلا لمجرد التسلية ، وقطع عناء الطريق . ولأ كلامهم ليس له أي تأويل مقبول يرجعون إليه ، فإنهم لا يجدون إلا هذا العذر الكاذب ؛ ليتخلصوا من الموقف الحرج الذي وقعوا فيه ، وكأنهم لم يجدوا ما يتسلون به إلا السخرية بالله ، وآياته ، ورسوله . هذا ؛ على فرض أنهم صادقون في أعذارهم .

إنهم (في واقع حالهم) كانوا جادين في كلامهم ، مستهزئين بالله وآياته ورسوله؛ لذلك أمر الله نبيه ﷺ أن يبين حقيقة نواياهم السيئة بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ النوبة: ٦٥ واستهزأؤهم برسول الله ﷺ واضح من الآيات السابقة ، أما استهزأؤهم بالله وآياته ، فلأن

استهزاءهم برسول الله ﷺ يعد استهزاء بالله وآياته ، فهم لم يستهزئوا به إلا من أجل الدين الذي يدعوههم إليه . فهذا يكونون قد استهزئوا بالله تعالى الذي أرسله ، وبالقرآن الذي اشتمل على بيان هذا .

وكذلك الحكم في من استهزأ بالمؤمنين من أجل إيمانهم بالإسلام ، والتزامهم بأحكامه ؛ فإنه يكون مستهزئاً بالإسلام ، ومن استهزأ به فقد استهزأ بالله تعالى الذي شرعه للناس . وقد وقعوا في الكفر بسبب هذه المقالة ؛ فلا جدوى من الاعتذار .

وهذا حكم ثابت لكل من يستهزئ بالله ورسوله ، وآياته ، وبالمؤمنين . فهو كافرٌ ، جاء بناقض من نواقض الإسلام . وهذا ما لا خلاف فيه . وسيأتي تفصيل هذا لاحقاً .

المطلب الثالث : سخرية المنافقين من المتصدقين على الجيش الإسلامي عام تبوك :

حث النبي ﷺ الصحابة ﷺ على الإنفاق في غزوة تبوك ؛ لِيُعَدِّهَا ، وَكَثْرَةَ المشركين . ووعدَّ المنفقين بالأجر العظيم من الله . فَأَنْفَقُ كُلٌّ وَفَقِ قَدْرَتَهُ ، وَكَانَ عَثْمَانُ بن عفان ﷺ صاحبَ القَدْحِ المُعَلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة . فهذا عبد الرحمن بن خَبَّابٍ^(١) يحدثنا عن نفقة عثمان . قال : "شهدت النبي ﷺ وهو يحثُّ على جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفان ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، عليّ مائةٌ بغيرِ بأحلاسها^(٢) ، وأقتابها^(١)

^(١) السلمي الأنصاري . له صحبة ، ونزل البصرة . ابن سعد : الطبقات الكبرى (٧٨/٧) ابن قانع :

معجم الصحابة (١٤٤/٢) ابن حجر : الإصابة (٣٩٦/٢)

^(٢) كساء يلي ظهر البعير ، يكون تحت القَتَبِ . ابن الأثير : النهاية (٤٢٣/١) ابن منظور : لسان العرب (٥٤/٦)

في سبيل الله . ثم حض على الجيش ، فقام عثمان ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، عليّ مائتا بغير بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله . ثم حض على الجيش ، فقام عثمان ﷺ فقال : يا رسول الله ، عليّ ثلاثمائة بغير بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله . فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر ، وهو يقول : (ما على عثمان ما عمل بعد هذا ، ما على عثمان ما عمل بعد هذا) " (٢) .

✽ وعن عبد الرحمن بن سُمرة (٣) ﷺ قال : جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة ، قال : فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول : (ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم) يردّها مرراً" (٤) .

✽ وأما عمر بن الخطاب ﷺ فقد تصدّق بنصف ماله ، وظنّ أنه سبق أبا بكر الصديق ﷺ بذلك ، فقال ﷺ وأمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدّق ، فوافق ذلك مالاً عندي ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر ، إن سبقته يوماً . فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : (ما أبقيت لأهلك ؟) قلت : مثله . قال : وأتى أبو بكر ﷺ بكلّ ما عنده . فقال

(١) رَحْلٌ صغير على قدر السّنام . ابن الأثير : النهاية (١١/٤) ابن منظور : لسان العرب (١١/٤)

(٢) الترمذي : السنن (٦٢٥/٥) وينظر : مسند أحمد (٧٥/٤)

(٣) العبشمي ، القرشي ، أبو سعيد . أسلم عام الفتح ، وشهد غزوة تبوك مع النبي ﷺ ، ثم شهد فتوح العراق . وهو الذي فتح سجستان وغيرها في خلافة أمير المؤمنين عثمان ﷺ ، ثم رجع إلى البصرة ، فمات بها سنة (٥٥٠هـ) ابن خياط : الطبقات ، ص (١١) ابن سعد : الطبقات الكبرى (١٥/٧) ابن قانع : معجم الصحابة (١٦٧/٢) ابن حجر : الإصابة (٤٠٠/٢)

(٤) الترمذي : السنن (٦٢٦/٥) حديث رقم (٣٧٠١) الحاكم النيسابوري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبي (ت ٤٤٠٥هـ) ، المستدرک على الصحيحين ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (١١٠/٣) حديث رقم (٤٥٥٣) (ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٠م) قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

رسول الله ﷺ : (ما أبقيت لأهلك ؟) قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبقك إلى شيء أبداً^(١) .

❁ وكان لبعض الصحابة ؓ نفقات عظيمة ، كعبد الرحمن بن عوف^(٢) ، والعبّاس ابن عبد المطلب^(٣) ، وطلحة بن عبيد الله^(٤) ، ومحمد بن مسلمة ، وعاصم بن عدي^(٥) ، ؓ^(٦) .

^(١) الدارمي : السنن (٤٨٠/١) حديث رقم (١٦٦٠) أبو داود : السنن (١٢٩/٢) حديث رقم (١٦٧٨) الترمذي : السنن (٦١٤/٥) حديث رقم (٣٦٧٥) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

^(٢) الزهري . كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، هاجر الهجرتين ، وشهد بدرًا وما بعدها من المشاهد . مناقبه جمّة . مات سنة (٣٢هـ) ، ابن خياط : الطبقات ص (١٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى (١٢٤/٣) ابن حجر : الإصابة (٤١٦/٢)

^(٣) الهاشمي ، القرشي . عم رسول الله ﷺ . كانت إليه السقاية والعمارة في الجاهلية ، وحضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم ، وشهد بدرًا مع المشركين مُكرهاً ، فأيسر ، ثم عاد إلى مكة ، فكتّم إسلامه ، وهاجر قبل الفتح بقليل ، ثم شهد فتح مكة ، وثبت يوم حنين . مات بالمدينة سنة (٣٢هـ) خياط : الطبقات ، ص (١٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٧/٤) ابن قانع : معجم الصحابة (٢٧٥/٢) ابن حجر : الإصابة (٢٧١/٢)

^(٤) التيمي ، القرشي ، أحد العشرة المبشرين بالجنة . كان أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وهو أحد الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب ؓ للشورى . مناقبه جمّة . قُتل يوم الجمل سنة (٣٦هـ) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢١٤/٣) ابن عبد البر : الاستيعاب (٧٦٤/٢) ابن حجر : الإصابة (٢٣٠/٢)

^(٥) البلوي ، العجلاني . حليف الأنصار ، كان سيد بني العجلان ، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد ، ومات سنة (٤٥هـ) وهو ابن مائة وخمس عشرة سنة . ابن خياط : الطبقات ، ص (٨٧) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٤٦٦/٣) ابن حجر : الإصابة (٢٤٦/٢)

^(٦) المغازي (٣٩١/٣)

✽ إن مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليل على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين إلى فعل الخير ، ومقاومة أهواء النفس وغرائزها ؛ مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها . وخير ما يفعله المعلمون وزعماء النهضات ، هو : غرس الإيمان في نفوس الناس غرساً كريماً^(١) .

وقدم فقراء المسلمين جُهدهم من النفقة على استحياء ؛ لذلك تعرّضوا لسخرية المنافقين وغمزهم ، ولمزهم . فقد جاء أبو خيثمة الأنصاري^(٢) ، بصاع تمرٍ ، فلمزه المنافقون . وجاء أبو عقيل^(٣) بنصف صاع ، فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة هذا ، وما فعله هذا الآخر إلا رياءً . فنزلت الآية : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٤) وقالوا : ما أعطى ابنُ عوف هذا إلا رياءً^(٤) . فكانوا يتهمون الأغنياء بالرياء ، ويسخرون من صدقة الفقراء .

✽ هذا هو موقف المنافقين من الباذلين أموالهم في سبيل الله ، وطلب مرضاته ، بحسب طاقتهم . فمن أعطى الكثير ، قالوا عنه : مرائي ! ومن أعطى الشيء اليسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا ! وهذا ممّا يؤثر في النفوس ، فيرجع ضرره على أمر الجهاد في سبيل الله .

(١) السباعي ، مصطفى ، السيرة النبوية دروس وعبر (ص ١٦٦) (ط ١) ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، (١٩٨٦م)

(٢) مالك بن قيس ، ابن حجر : الإصابة (٤/٥٤)

(٣) الأنصاري . مختلف في اسمه ، فقيل : عبد الرحمن بن بيحان . وقيل : عبد الله بن عبد الرحمن . وقيل : الحنثا . واشتهر بصاحب الصاع . ابن حجر : الإصابة (٤/١٣٦)

(٤) الطبري : التفسير (١٠/١٩٦)

❖ تلك هي النظرة النفاقية المنحرفة للإنفاق في سبيل الله ، وبواعثه في النفوس . وهذا هو قول المنافقين عن المؤمنين الذين انبعثوا إلى الصدقة عن طوعية نفس ، ورضا قلب ، واطمئنان ضمير ، كُلُّ على قدر طاقته ، وكلُّ بذل غاية جهده . بينما هم قاعدون متخلفون ، شحيحوا الأنفس ، منقبضوا الأيدي ، لا يُدركون من بواعث النفوس إلا مثل هذا الباعث الحقير الصغير^(١) .

وهم بذلك يكشفون عن علاقة من علاقاتهم . فعلى المؤمنين والدعاة خاصة أن يَرْضُدُوا من يتَّصف بها ؛ حتى ينال جزاءه ، فَيُبْعَدَ ولا يُقَرَّبَ^(٢) .

لقد رأينا موقف المؤمنين الصادقين يوم العسرة ، يوم تبوك ، إذ أخذوا يتسابقون في الإنفاق ، أغنياء وفقراء . ورأينا موقفاً آخرَ مُخزياً للمنافقين ، فلم يكتفوا بعدم الإنفاق ، بل تجاوزوا على المنفقين باللمز ، أغنياء وفقراء . وهذا هو ديدنهم ؛ لأنهم أصحابُ مرضٍ في القلوب ، يحولُ بينهم وبين الاهتداء بهدي القرآن ؛ بدليل : أن المؤمنين استفادوا من القرآن لسلامة قلوبهم من المرض ، واستفادوا من هدي النبي ﷺ ، فأخذوا يتسابقون في العطاء والنفقة . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾^(١١٤) التوبة: ١٢٤ أي : على إيمانهم السابق ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾^(١٢٥) التوبة: ١٢٥ أي : كُفِرُوا ونفاقاً ، إلى كفرهم ونفاقهم السابق .

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبةً للتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وَضَحَّتْ فيها الحواجز بين الطرفين ، ولم يَعُدْ هناك أيّ مجال للتستر على

(١) قطب ، في ظلال القرآن ، (٦٨١/٣)

(٢) زيدان ، عبد الكريم ، المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٥٠٠/٢) (ط١ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٧م)

المنافقين ، أو مجاملتهم على حساب الإسلام ، بعد أن عملوا كل ما في وسعهم لمحاربة الرسول ﷺ والدعوة ، وتثييط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه الله ﷻ ورسوله ﷺ ، والذي نزل به القرآن الكريم . بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين وإيقافهم عند حدهم واجباً شرعياً^(١).

^(١) المراغي ، أحمد مصطفى ، التفسير (١٢٧/٤) (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)

المطلب الرابع : حكم وعقوبة المستهزين بالله وآياته ورسوله ﷺ والمؤمنين :

إنّ علماء الأمة المحمدية -رحمهم الله- قد انعقد إجماعهم في الماضي والحاضر على أن الاستهزاء بالله وبدينه وآياته ورسوله ، كفر بُواخٍ ، يُخرِجُ صاحبه من المِلَّة بالكلّيّة .

ومن أجل خطورة الاستهزاء ، فقد أبرزه العلماء رحمهم الله في مباحث الكلام عن الردة من كتب الفقه الإسلامي . ولا شك أن الرّدّة أعظم كفراً من الكفر الأصلي ، كما هو معلوم عند أهل العلم .

وفيما يلي أقوال بعض العلماء في هذا الخصوص :

- يقول ابن قدامة رحمه الله : "من سب الله تعالى كَفَرَ ؛ سواءً أكان مازحاً ، أو جاداً . وكذلك من استهزأ بالله تعالى ، أو آياته ، أو رسله ، أو كتبه"^(١) .
- يقول النووي رحمه الله : "والأفعال الموجبة للكفر هي التي تصدر عن عمدٍ ، واستهزاءً بالدين صريح"^(٢) .
- نقل القرطبي رحمه الله عن القاضي أبي بكر بن العربي ، قوله عن موقف المستهزين في غزوة تبوك : "لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جِدّاً أو

^(١) ابن قدامة ، محمد بن عبد اله بن أحمد المقدسي (ت ٦٢٠هـ) ، المغني (٢٩٨/١٢-٢٩٩) (بيروت، دار الكتب العلمية ، د.ت)

^(٢) محيي الدين أبو زكريا يحيى (ت ٦٧٦هـ) ، روضة الطالبين ، (بيروت ، المكتب الإسلامي ، د.ت) (٦٤/١٠)

هزلاً، وهو كيفما كان ، كُفِّرَ . فإنَّ الهزل بالكفر كفر ، لا خلاف فيه بين الأمة؛ فإنَّ التحقيق أخو العلم ، والحقُّ . والهزل أخو الباطل ، والجهل" (١) .

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "إن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كُفْرٌ يَكْفُرُ به صاحبه بعد الإيمان" (٢) .

• أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، فقد عقد باباً في كتابه القيم "كتاب التوحيد" عُنُونُهُ بقوله : "بابٌ مَنْ هزل بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ، فقد كفر" (٣) . فقد جعل الشيخ الاستهزاء ناقضاً صريحاً من نواقض الإسلام . فإنه حين عدّد نواقض الإسلام العشرة ، ذكر أن الناقض السادس هو : الاستهزاء بشيءٍ من دين الرسول ﷺ ، أو ثوابه ، أو عقابه (٤) .

• هذا وممن قال بكفر المستهزئ بالدين : الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، والشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمهم الله جميعاً (٥) . فقد اتفقت فتاواهم على أنه كافر خارج عن الملة . وهذه فتوى الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى ، وفيها شيء من التفصيل :

(١) التفسير (٣٩٧/٨)

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧٣/٧)

(٣) كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد (طه، الرياض ، دار العاصمة ، ١٤٢٠هـ) ، ص(٥٢٠)

(٤) الجامع الفريد ، (الرياض ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٧هـ) ، ص (٢٨٣)

(٥) ابن باز ، عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ت ١٤١٩هـ) ، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ، جمع وترتيب وإشراف محمد بن سعد الشويعر (١٦٥/٣) (الرياض ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٦هـ)

• قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله تعالى : "هذا العمل ، وهو الاستهزاء بالله أو رسوله ﷺ ، أو كتابه ، أو دينه ، ولو كان على سبيل المزاح ، ولو كان على سبيل إضحاك القوم = كُفْرٌ ، ونِفَاقٌ . وهو نفس الذي وقع في عهد النبي ﷺ في الذين قالوا : ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء ، أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عند اللقاء . يعني : الرسول ﷺ ، وأصحابه القراء . فنزلت : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٦٥) التوبة: ٦٥ لأنهم جاءوا إلى النبي ﷺ يقولون : إنما كنا نتحدث حديث الركب ، نقطع به عناء الطريق . فكان رسول الله ﷺ يقول لهم ما أمره الله به : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (١)

فجانب الربوبية والرسالة والوحي والدين جانب محترم ، لا يجوز لأحد أن يعبت به ؛ لا باستهزاء ، ولا بإضحاك ، ولا بسخرية . فإن فعل ، فإنه كافر . لأنه يدل على استهانتته بالله ﷻ ورسله ، وكتبه ، وشرعه .

وعلى من فعل هذا أن يتوب إلى الله ويستغفره ، ويصليح عمله ، ويجعل في قلبه خشية الله ﷻ وتعظيمه ، وخوفه ، ومحبتته . فليحذر الذين يسخرون من أهل الحق لكونهم من أهل الدين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ

(١) ابن عثيمين ، محمد بن صالح (ت ١٤٢٠هـ) ، مجموع الفتاوى ، جمع وترتيب ناصر بن إبراهيم السليمان (١٥٦/٢) (الرياض ، دار الثريا للنشر ، ٢٠٠١م)

يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُوِبَ الْكُفَارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴿المطففين: ٢٩ - ٣٦﴾
 فهؤلاء المستهزئون فيهم نفاق ؛ لأن الله تعالى قال عن المنافقين : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ
 الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ
 سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

عقوبة المستهزا بالله وآياته ورسوله والمؤمنين في الشريعة الإسلامية :

أ - في الدنيا :

إن الاستهزاء بالله ورسوله ردة عن الإسلام ، وكُفْرٌ بالله ﷻ وبدينه . فالاستهزاء
 بدين الله ، أو سب دين الله ، أو سب الله ورسوله ، أو الاستهزاء بهما كُفْرٌ مُخْرِجٌ عن
 الملة . ومن فعل ذلك من سب الله ، أو سب رسوله ، يُقتلُ كافراً ، ولا يُصلى عليه ، ولا
 يُدعى له بالرحمة ، ويُدفن في محلٍ بعيدٍ عن مقابر المسلمين .

ومن الكفار من يسب الله ، ومع ذلك تُقبل توبته ؛ إلا أن سب الرسول ﷺ لا
 تُقبل توبته ، ويجب قتله . بخلاف من سب الله ؛ فإنها تقبل توبته ولا يقتل ؛ لأن الله
 تعالى أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد ، بأنه يغفر الذنوب جميعاً . أما سب الرسول
 ﷺ فإنه يتعلق به أمران : الأول : أمرٌ شرعي . لكونه رسول الله ﷺ ، وهذا يُقبل إذا تاب .
 الثاني : أمرٌ شخصي ، وهذا لا تقبل التوبة فيه . لكونه حق آدمي ، لم يُعلم عفوه عنه .
 وعلى هذا يُقتل ، ولكن إذا قُتل غسّلناه ، وكفّنناه وصلّينا عليه ، ودفنناه مع المسلمين .

﴿ وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد ألف كتاباً قيماً في ذلك
 أسماه "الصارم المسلول في تحتم قتل سب الرسول" ذلك لأنه استهانة بحق الرسول ﷺ
 فإن قيل : أليس قد ثبت أن من الناس من سب الرسول ﷺ في حياته ، وقبل النبي
 ﷺ توبته ؟

❁ قال ابن عثيمين : هذا صحيح ، لكن كان هذا في حياته ﷺ ، والحق الذي له قد أسقطه . وأما بعد موته فإنه لا يملك أحد إسقاط حقه ﷺ . فيجب علينا تنفيذ ما يقتضيه سبه ﷺ : مِنْ قَتْلِ سَابِّهِ ، وقبولِ توبة السابِّ فيما بينه وبين الله تعالى .

فإن قيل : إذا كان يحتمل أن يعفو عنه لو كان في حياته ، أفلا يوجب ذلك أن نتوقف في حكمه ؟

قال ابن عثيمين أيضاً : بأن ذلك لا يوجب التوقف ؛ لأن المفسدة حصلت بالسب ، وارتفاع أثر ذلك غير معلوم ، والأصل بقاؤه .

فإن قيل : أليس الغالب أن رسول الله ﷺ يعفو عن سبه ؟

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى : بلى ، وربما كان العفو في حياة الرسول ﷺ متضمناً مصلحة ، وهي التأليف ، كما كان ﷺ يعلم أعيان المنافقين ، ولم يقتلهم "لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه" . لكن الآن لو علم أحد بعينه من المنافقين لقتلناه .

❁ قال ابن القيم رحمه الله : "إن عدم قتل المنافق المعلوم ، إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط" ^(١) .

وهناك أدلة من السنة استدلت بها القائلون بوجوب قتل ساب النبي ﷺ ، استدلت بها ابن تيمية في كتابه ، منها حديث الأعمى الذي قتل أم ولده ، لأنها كانت تقع في النبي ﷺ ،

فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما : أن أعمى كانت له أمٌ ولدٍ تشتم النبي ﷺ ، وتقع فيه ، فينهاها ولا تنتهي ، ويزجرها فلا تنزجر . فلما كانت ذات ليلة ، جعلت تقع

^(١) زاد المعاد (١١/٣)

في النبي ﷺ وتشتمه ، فأخذ المغُول^(١) فوضعه في بطنها ، واتكأ عليها فقتلها . فلما أصبح ذُكر ذلك للنبي ﷺ ، فجمع الناس ، فقال : (أُنشد الله رجلاً فعل ما فعل ، لي عليه حقٌ ، إلا قام) قال : فقام الأعمى يتخطى الناس ، وهو يتزلزل ، حتى قعد بين يدي رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أنا صاحبها ، كانت تشتمك ، وتقع فيك ، فأنهاها فلا تنتهي ، وأزجرها فلا تنزجر ، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين ، وكانت بي رفيقة ، فلما كان البارحة ، جعلت تشتمك وتقع فيك ، فأخذت المغُول فوضعت في بطنها ، واتكأت عليه حتى قتلتها . فقال النبي ﷺ : (ألا اشهدوا أن دمها هدرٌ)^(٢)

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية جُملةً من الأحاديث الصحيحة يَبين فيها أن مَنْ سبَّ النبي ﷺ يستحقُّ القتل . قال رحمه الله : "كان أصحابُ النبي ﷺ يقتلون من سبَّ ، ولو كان قريباً لهم ، فيقتلهم على ذلك . وربما سُمي من يفعل ذلك : ناصرَ الله ورسوله"^(٣) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رجلاً من المشركين شتم النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : (مَنْ يكفيني عدوي؟) فقام الزبير بن العوام^(٤) ، فقال : أنا . فبارزه ، فأعطاه رسول الله ﷺ سَلْبَهُ . ولا أحسبه إلا في خير^(١) .

^(١) حديدة تجعل في السوط فيكون لها غلافاً ، وقيل : هو سيف دقيق له قفاً يكون عنده كالسوط ، ابن الأثير : النهاية (٣٩٧/٣) ابن منظور : لسان العرب (٥١٠/١١)

^(٢) أبو داود : السنن (١٢٩/٤) حديث رقم (٤٣٦١) النسائي ، أحمد بن شعيب النيسابوري (ت ٣٠٣هـ) ، السنن الكبرى ، تحقيق عبد الغفار البنداري وسيد كسروي (٣٠٤/٢) ، حديث رقم (٣٥٣٣) (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩١م) الطبراني : المعجم الكبير (١١ / ٣٥١) حديث رقم (١١٩٨٤)؛ الحاكم : المستدرک (٣٩٤/٤) حديث رقم (٨٠٤٤)

^(٣) الصارم المسلول (ص ١٤٨)

^(٤) الأسدي . حوارِيّ رسول الله ﷺ ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ، وأحد الستة أصحاب الشورى . شهد بدرًا والمشاهد مع رسول الله ﷺ ، مناقبه جَمَّةٌ . قُتل غدرًا سنة (٣٦هـ) ابن خياط

وروى : أن رجلاً كان يسب النبي ﷺ فقال : (من يكفيني عدوي؟) قال خالد^(٢) ﷺ : أنا . فبعثه النبي ﷺ إليه ، فقتله^(٣) .

هكذا كانت غيرة أصحاب النبي ﷺ على مكانة نبيهم ﷺ ، وهكذا كانت عقوبة من يتجرأ على مقام النبوة والوحي ، ومقام الرسالة . لأن المدح والثناء على النبي ﷺ إقامة لدين الله ، وضياغ هذا تضييع لدين الله .

وقد مر بنا حديث عمير بن عدي لما قال حين بلغه أذى ابنة مروان للنبي ﷺ : "اللهم عليّ نذرٌ : لئن رددت رسول الله ﷺ إلى المدينة لأقتلنها . فقتلها بدون إذن من النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : (إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجلٍ نصر الله ورسوله بالغيب ، فانظروا إلى عمير بن سعد)

✽ قال الشيخ ابن باز رحمه الله في هذا الباب : "لرسول ﷺ منزلة عظيمة في نفوس أهل الإيمان ، فقد بلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده . ونحن نحب الرسول ﷺ كما أمر ، محبة لا تخرجه إلى الإطراء ، أو إقامة البدع التي نهى عنها الرسول ﷺ وحذر منها ؛ بل له المكانة السامية ، والمنزلة الرفيعة ؛ نطيعه

: الطبقات (ص ١٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٣/١٠٠) ابن قانع : معجم الصحابة (١/٢٢٣)
ابن حجر : الإصابة (١/٥٤٥)

(١) الصارم المسلول ، ص (١٤٨) وينظر : الصنعاني : المصنف (٥/٣٠٧) حديث رقم (٩٧٠٤)

(٢) ابن الوليد بن المغيرة المخزومي ، القرشي ، سيف الله ، أحد أشرف قريش في الجاهلية ، وشهد معهم الحروب إلى عمرة الحديبية ، ثم أسلم بعدها . شارك في حروب الردة ، وأبلى فيها بلاءاً حسناً ، ثم شهد فتوح العراق والشام . مناقبه جمّة . مات بحمص سنة (٢١هـ) على الصحيح .
ابن خليفة ، الطبقات (ص ٢٩٩) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٤/٢٥٢) ابن عبد البر : الاستيعاب (٢/٤٢٣) ابن حجر : الإصابة (١/٤١٣)

(٣) الصارم المسلول (ص ١٤٨)

فيما أمر ، ونتجنب ما نهى عنه وزجر . ونحذر من سب الرسول ﷺ ، فإن ذلك من نواقض الإيمان ، التي توجب الكفر ظاهراً وباطناً ؛ سواءً استحل ذلك فاعله ، أو لم يستحلّه" (١) .

✽ يقول ابن تيمية : "إن سب الله أو سب الرسول ﷺ كفر ظاهراً وباطناً ؛ سواءً أكان الساب يعتقد أن ذلك محرّم ، أم كان مستحلاً له ، أم كان ذاهلاً عن اعتقاده" (٢) .

والأمر يصل في ذلك حتى مجرد لَمَزِ النبي ﷺ في حكمٍ أو غيره ، كما قال رحمه الله : "فثبت أن كل من لَمَزَ النبي ﷺ في حكمه ، أو قسمته ؛ فإنه يجب قتله ؛ كما أمر النبي ﷺ في حياته ، أو بعد موته" (٣) .

ب - في الآخرة :

إن عقوبة المستهزئين بالله وبرسوله وبالمؤمنين في الآخرة وخيمةٌ . والآيات العظيمة التي وردت في كتاب الله التي ذكر فيها عقوبة المستهزئين ، وعقاب الله الأليم المحيط بهم ؛ أمرٌ عظيمٌ ، تنفطر منه القلوب ، وتنخلع لهوله الأفتدة . خزي في الدنيا ، وعذاب في الآخرة . هلاكٌ ودمارٌ في العاجلة ، وعذابٌ مقيمٌ في الآخرة .

ومما ذكره الله تعالى من عقاب المستهزئين يوم القيامة : ﴿ قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿ ١٠٩ ﴾ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿ ١١٠ ﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا

(١) مجموع الفتاوى لابن باز (٢/٢١٥) وينظر : ابن باز : العقيدة الصحيحة (ص ٥)

(٢) الصارم المسلول ، ص (١٥٠)

(٣) المرجع ذاته ، ص (١٥٠)

صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ المؤمنون: ١٠٨ - ١١١ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَتُومًا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥٧﴾﴾ الأنعام: ٥٧

إن الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين والمؤمنات من أشد أنواع الأذى ، ولهذا توعد الله ﷻ من يؤذي المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقال ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بِهَتْنًا وَإِنَّمَا مِيبَتَنَا ﴿٥٨﴾﴾ الأحزاب: ٥٧ - ٥٨

إن المستهزئين بالمؤمنين ، وبدين الله وشرائعه لن يضرّوا إلا أنفسهم ، وحين تُكشف السرائر ، وتُشر الصحف ، يندم أولئك الهازلون ، ولات حين مندم . قال ﷻ : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ الزمر: ٤٨ . ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمُ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَّتْكُمْ آلِئِوهُ الدُّنْيَا فَآلِئِوهُ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَدُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الجاثية: ٣٣ - ٣٥

إن أعداء رسول الله ﷺ استهزؤوا به ، وسخروا منه ، وكذبوه ، وأذوه ؛ فكانت العاقبة للمتقين ، والخزي ، والعار ، والنار ، والهلاك للمنافقين ، الهازلين ، المفسدين المكذبين . قُتلوا في الدنيا ، وعند ربك عذاب ، ونارٌ شررها كالقصر .

✽ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هؤلاء المستهزئين برسول الله ﷺ ، ومَن معه من المؤمنين : "والقصة في إهلاك الله واحداً واحداً من هؤلاء المستهزئين معروفة ، فقد ذكرها أهل السيرة والتفاسير ، وهم - على ما قيل - نفرٌ من رؤوس قريش ؛ مثل : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل . وكسرى مرق كتاب رسول الله ﷺ ،

واستهزأ به ، فقتله الله بعد قليل ، ومزق ملكه كلُّ مُمزقٍ ، ولم يبق من الأكاسرة ملكٌ .
والله أعلم . وتحقق لقوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (٣) الكوثر: ٣

فكلُّ من شأه ، وأبغضه ، وعاداه ؛ فإن الله يقطع دابره ، ويمحق عقبه ، وأثره .
ومن الكلام السائر "لحوم العلماء مسمومة" (١) . فكيف بلحوم الأنبياء ﷺ ؟ ، وقد قال
ﷺ : (قال الله تبارك وتعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة) (٢) فكيف بمن
عادى الأنبياء ؟ من حارب الله تعالى حُرِبَ" (٣) .

موقف المسلم الشرعي من الساخرين والمستهزئين :

حَرِيٌّ بكلِّ مسلمٍ أن يكون له منهجٌ شرعيٌّ ثابتٌ في التعامل مع هؤلاء الهازلين
المنافقين ، الساخرين بالإسلام وأهله . وأعظم هذه المناهج ، هو منهج القرآن الذي
سار عليه رسول الله ﷺ في معاملة هؤلاء المنافقين .

وهذه أهم الخطوات العملية الشرعية من المنافقين الساخرين بالإسلام والمسلمين :

١- الإعراض عنهم وعدم مجالستهم :

هدد الله تعالى من يجالس هؤلاء الهازلين الساخرين ، إذا لم يتعد ويقم عنهم
فسيكون منهم ، ويُعدَّب بعدابهم . قال تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِنْبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ
آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ مِثْلَهُمْ إِنْ
اللَّهُ جَامِعُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (١٤٠) النساء: ١٤٠

(١) ابن عساکر : تبیین کذب المفتری فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص ٢٩) (ط ٣ ،

بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٤هـ)

(٢) البخاري : الصحيح (٥/٢٣٨٤) حديث رقم (٦١٣٧)

(٣) الصارم المسلول ، ص (١٦٤-١٦٥)

ويقول ﷺ كذلك موضحاً المنهج السليم نحو الهازلين الساخرين بالإسلام والمسلمين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آءِآئِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَعَابٍ وَلَهُوًّا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَن تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدَلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ الأنعام: ٦٨ - ٧٠

لقد كثر التساهل في هذا الأمر ، فرأينا من يتخذ الهازلين الساخرين أولياء ، وجلساء ، وأصفياء ن وأخلاء ، وكأنه نسي قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ النساء: ١٠٧

إن على أهل الحق واليقين أن يزبؤوا بأنفسهم عن مجالسة الهازلين المنافقين ، حتى يفوزوا برضا رب العالمين ، ويحشروا تحت لواء سيد المرسلين .

٢- عدم موالاتة الهازلين الساخرين المستهزئين :

لا يصح الإيمان بالله إلا بالبراءة من هؤلاء الأعداء المنافقين . قال ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَأَنْتَقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ المائدة: ٥٧

إن من أكبر الرزايا التي بُليت بها هذه الأمة : اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، وهم يعيبون ديننا ، وينتقصون نبينا ﷺ ، ويهزؤون بنا . ومن لا خلاق له من المنافقين يتخذهم أولياء وأصدقاء . وهذا أمرٌ لا يستقيم في منهج الله الحق ، الذي قَدِّمَتْ فيه البراءة من الكفر وأهله على الإيمان بالله وحده ، فقال ﷺ : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ

الرُّشْدُ مِنَ الْعِيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ البقرة: ٢٥٦

❁ وفي عصرنا هذا ما ترك المنافقون ، واليهود ، والنصارى الصليبيون والصفويون والباطنيون والعلمانيون وسيلةً من وسائل الاستهزاء بالله وبدينه وعباده المؤمنين إلا سلكوها . وهذا واضح في أقوالهم ، وإعلامهم ، وخطبهم ؛ بل وحتى في منتجاتهم . فحتى الأحذية يكتبون عليها اسم الله -تعالى وتقدس عن ذلك- ، وعلى الملابس الداخلية للرجال والنساء . بل وصل بهم الحال إلى امتهان الآيات القرآنية . ومع هذا نجد المغفلين يوالونهم ، ولو بطريق غير مباشر ؛ بالشراء من هذه المصانع ، وتلك الشركات التي تطعن في دينهم ، وتهزأ من نبيهم ، وتستبيح حُرمة دينهم . فإذا قام فينا غيور وذكر بهذا الواجب الإيماني هُزئ به ، ولمز ، ووصف بالتطرف ، والرجعية ، والسلفية ، والوهابية ، والتكفيرية ، والجهادية ، وعداوة الإنسانية ، والتعسفية ، وغير ذلك من قاموس الشتائم الذي يصبه من سَمَاهم الله بالمجرمين على المؤمنين الموحدين . فإلى الله المشتكى ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٣- الصدع بالحق إقتداءً برسولنا ﷺ :

فإنه لما كثر عليه الاستهزاء والسخرية ، قال الله تعالى له : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ

وَأَعْرِضْ عَنِ الْمَشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الحجر: ٩٤ - ٩٥

أليست قريش هي القائلة لرسول الله ﷺ ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ

لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ الحجر: ٦ - ٧ ﴾ !؟

أليست نظراتهم الملتهبة الناقمة الهازلة الساخرة تلاحق رسول الله ﷺ في كل

مكان ؟! قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ القلم: ٥١ - ٥٢

كُلُّ ذَلِكَ حَصَلَ ؛ فَمَا زَادَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا مُضِيئاً فِي طَرِيقِ الْحَقِّ . وَالَّذِينَ يَتَصَدَّرُونَ لِلدَّعْوَةِ ، ثُمَّ تَهْدُهُمْ كَلِمَةٌ سَاحِرَةٌ ، أَوْ هَمْزَةٌ سَاقِطَةٌ ؛ لَيْسُوا أَهْلًا لِتَحْمُلِ أَعْبَاءِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ . فَإِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ كَلِمَةً تَقَالُ بِاللِّسَانِ وَكَفَى ، إِنَّمَا هُوَ حَقِيقَةٌ كَبْرَى ، لَهَا تَكَالِيفُهَا ، وَأَمَانَتُهَا ، وَأَعْبَاؤُهَا ، وَجِهَادُهَا .

فَمَنْ رَدَّتْهُ السَّخْرِيَّةُ ، وَشَتَّتْ عَزْمَهُ وَسَائِلَ السَّخْرِيَّةِ ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ التَّنَحِّيُّ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَلِيُنْزَلَ عَنِ الْأَمْرِ لِمَنْ هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَكُفَاءٌ . فَإِنَّ مَنَهِجَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جِهَادِ هَؤُلَاءِ الْمَنَافِقِينَ السَّاخِرِينَ كَانَ مُسْتَمِرًّا ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ جَمِيعِ الْعُقَبَاتِ الَّتِي وُضِعَتْ فِي طَرِيقِهِ ﷺ . وَإِنَّ هَذَا الْأَذَى ، وَهَذِهِ الْعُقَبَاتِ الَّتِي وَاجَهَتْ النَّبِيُّ ﷺ مَا زَادَتْهُ إِلَّا إِصْرَارًا عَلَى تَبْلِيغِ الْحَقِّ ، وَصَدْعًا بِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَإِعْلَانِ الْبِرَاءَةِ مِنَ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ ، مَهْمَا كَانَتِ التَّكَالِيفُ ، مَا دَامَ ذَلِكَ كَانَ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ ﷻ .

فَالْمُؤْمِنُ الصَّابِرُ الْمُحْتَسِبُ ، الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ عَلَى مَنَهِجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي جِهَادِ هَؤُلَاءِ الْمَنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ وَالصَّلِيبِيِّينَ وَالصَّفَوِيِّينَ وَالْعِلْمَانِيِّينَ ؛ هُوَ الْأَعْلَى قَدْرًا وَشَرَفًا ، وَمَنَهِجًا وَمَكَانَةً ، وَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشُّرَى ، وَعِنْدَ الْمَمَاتِ يَحْرَدُ الْقَوْمُ التُّقَى ، وَيَوْمَ التَّغَابِنِ يُخْزِي اللَّهُ أَهْلَ السَّخْرِيَّةِ وَالرَّدَى .

فَالْمُؤْمِنُ لَا يَهِنُ ، وَلَا يَحْزَنُ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ بِتَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ ، وَتَثْبِيتهِ . كَيْفَ؟! وَقَدْ قَالَ رَبُّنَا: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ١٣٩

فَأَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ ، أَوْ لِبَعْضِ مَنْ خَلَقَهُ . وَمَنَهِجُكُمْ أَعْلَى ؛ فَأَنْتُمْ تَسِيرُونَ عَلَى مَنَهِجِ مَنْ وَضَعَ اللَّهُ ، وَهُمْ يَسِيرُونَ عَلَى مَنَهِجِ مَنْ صَنَعَ خَلْقَ اللَّهِ . وَدَوْرُكُمْ أَعْلَى ؛ فَأَنْتُمْ الْأَوْصِيَاءُ عَلَى هَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا ، الْهُدَاةُ لِلْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا ، وَهُمْ شَارِدُونَ عَنِ الْمَنَهِجِ ، ضَالُّونَ عَنِ الطَّرِيقِ . وَمَكَانُكُمْ فِي الْأَرْضِ أَعْلَى ؛

فلکم وراثۃ الأرض التي وعدکم الله بها ، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون ... فإن کتم مؤمنون حقاً فأنتم الأعلون ، وإن کتم مؤمنون حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا^(١) .

٤- أخذ العبرة ممن هم خيرٌ منا :

إن خيرَ أنبياء الله ﷺ الذين سخرَ منهم أقوامهم ؛ لكن هذه السخرية لم تثنهم عن المبدأ الذي قاموا من أجله ، والدين الذي أرسلوا به .

لقد كان قوم نوح ﷺ يسخرون منه وهو يصنع السفينة ، ويؤذونه بالهمز واللمز ، والضحك والاستهزاء ، فما زاده في ذلك إلا مُضياً في طريقه ، وبقيناً بوعد ربّه له .

وقوم لوط ﷺ يسخرون منه ومن طهارته ، هو ومن آمن معه ، ويتندرون بذلك قائلين : ﴿ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴾ (٥٦) النمل: ٥٦ فما زاده ذلك إلا ثباتاً على الحق ، وبقيناً بأمر الله ﷻ : ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١) هود: ٨١ ورسولُ الله ﷺ لما سخر منه من سخر ، واشتد عليه أذى هؤلاء السفهاء ؛ خاطبه ربّه تعالى بقوله : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (٣٢) الرعد: ٣٢

(١) قطب ، في ظلال القرآن (١/٤٨٠)

المطلب الخامس : صور من استهزاء المنافقين بالدين في عصرنا الحاضر :

أولاً : صور من استهزاء المنافقين بالله ﷻ في عصرنا الحاضر :

١- ما أثبتت به الأمة الإسلامية بفتنة ما يسمى بـ(الحدائث)^(١) والحدائثيين . فقد وصل بهم الحال إلى حدّ السخرية برّب العالمين صراحةً . فهذا الشاعر العراقي الماركسي "عبد الوهاب البياتي" يقول في ديوانه عن رب العزة ﷻ :

الله في مدينتي تبعه اليهود
الله في مدينتي مشرد طريد
أراده الغزاة أن يكون
لهم أجيراً شاعراً قوَاد
يخدع في قيثاره المذهب العباد
لكنه أصيب بالجنون^(٢)

هذا هو الكفر البواح بعينه . فهذا الكافر الزنديق يتجرأ على الباري ﷻ الذي قال عن نفسه المقدسة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١١) الشورى: ١١ فقد وصف الله ﷻ وضمناً مبتدلاً . إنّ هذا الملحد قد تجاوز ملاحظة الصوفية مُدَّعي وحدة الوجود القائلين بأنّ الخالق عينُ المخلوق . فقد فاق الشاعرُ الملحدُ الزنديقُ في إلحاده كُفْر ابن عربي^(٣) ، وابن الفارض^(١) ، وابن سبعين^(٢) ، والحلاج^(٣) ، وغيرهم . فإنّ هؤلاء

^(١) الحدائث : منهج فكري متستر بالأدب ، يسعى لتغيير الحياة الإسلامية وقيمها ، وصبغها بصبغة الحياة الغربية .

^(٢) الحدائث في ميزان الإسلام (ص ٩٣)

^(٣) محيي الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن علي ، الطائي ، الحارثي ، الأندلسي (ت ٦٣٨هـ) ، من غلاة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود . يقول عنه الصوفية : الإمام الأكبر ، والكبريت الأحمر . له

ادَّعُوا أَنْ كُلَّ مَا فِي الوجود هو الله . وهذا الملحد الكافرُ شَبَّهَ الله تعالى بالجمادات التي تباع وتُشترى . تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً .

٢- ومن صور الاستهزاء بالله تبارك وتعالى : السخرية بالقرآن الكريم ، الذي هو كلامُ الله حقيقةً ، منه بدأ ، وإليه يعود . فمن ذلك : ما نجده عند عميد الأدب العربي (!!) الدكتور طه حسين في كتابه "الشعر الجاهلي" ؛ حيث طَعَنَ هذا الملحد الزنديق بالقرآن الكريم ، وسَخَرَ به ، وبثَّ في هذا الكتاب من الكُفر والزندقة ما لا يختلف عليه أحد .

كتب كثيرة في التصوف ، منها : "الفتوحات المكية" ، و"فصوص الحكم" ، وغيرها . المنوفي :
جمهرة الأولياء (٣/٣٠١)

(^١) أبو حفص ، عمر بن أبي الحسين . حمَّصي الأصل ، مصري المولد (ت ٦٣٢هـ) من أشهر مؤلفاته : ديوانه المعروف بديوان ابن الفارض ، الذي يتغزل فيه بالحب الإلهي -حسب زعمه- .
مقدمة ابن الفارض والحب الإلهي (ص ٣٨)

(^٢) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين ، الإشبيلي ، المرسي . من القائلين بوحدة الوجود . له كتب كثيرة في التصوف والفلسفة ، وقد كَفَّره كثير من الناس . له مريدون وأتباع يُعرفون بالسبعينية . قال عنه الذهبي : "أشهد عن ابن سبعين أنه قال : لقد تحجَّر ابن آمنة واسعاً بقوله (لا نبيَّ بعدي) وكان يعتقد في الله ﷻ أنه حقيقة الموجودات . فُصِدَ فترك الدم يجري حتى مات نزفاً . ابن حجر : لسان الميزان (٣/٣٩٢) دائرة المعارف الإسلامية (١/١٨١) الزركلي : الأعلام (٤/٥١)

(^٣) هو الحسين بن منصور ، كنيته أبو الغيث . من أهل بيقاء بفارس ، نشأ بواسط في العراق ، نادى بمذهب الحلول . وبظهور الحلاج بلغ التصوف غايته وذروته في الانحراف من حيث العقيدة ؛ لأنه استطاع أن يُظهِر معتقده في الحلول على الملأ ، فأفتى علماء عصره بكفره . قتل في سنة (٣٠٩هـ) دائرة المعارف الإسلامية (١/٢٥١) إدريس ، إدريس محمود ، مظاهر الانحراف العقدي عند الصوفية وأثرها السيئ على الأمة ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ١٤١٩هـ .

فمن كفرياتة : "أنه يرى أن نسخة من ألفية ابن مالك تعدل عنده خمسين نسخة من القرآن الكريم" (١) .

ويزعمُ هذا الملحد أن قصة بناء الكعبة أسطورة مخترعة فيقول : "إذا فليس يمنع قريشاً أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام".

هذا جانب يسير من إلحاد وافتراء وزندقة طه حسين .

قلت : هذا الزنديق كان ينبغي أن يطبق عليه شرعُ الله وقصاصه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ المائدة: ٣٣ فلو قُتِلَ طه حسين بسيف الشرع ، وضربت عنقه حداً ما ظهر من ظهر بعده من الكفرة ، والزنادقة ، والمنافقين .

٣- الاستهزاء بالدين وتعاليمه السامية العادلة وأحكامه : من صور الاستهزاء بالدين وتنقيصه ، هو : الاستهزاء بالحجاب الشرعي للمرأة ، الذي فرضه الله تعالى في كتابه الكريم والنبي ﷺ في سنته المطهرة .

ومن المنافقين المستهزئين بالحجاب الشرعي : ما تبجح به العلماني "حسين أحمد أمين" ، وهو فرخُ أبيه ، حيث يقول : "... وكذلك الحجابُ كان مناسباً للمدينة المنورة ، ولم يعد مناسباً للقاهرة في القرن العشرين" (٢) .

(١) في الأدب الجاهلي ، ص (٢١٩)

(٢) الحلبي ، علي حسن عبد الحميد ، العقلانية (ص٦٦)

ففي كلام هذا المنافق الزنديق استهزاء ظاهر وطعن في الدين ، فهو يصف الحجاب بأنه مناسب لمجتمع المدينة دون مجتمع القاهرة في عصر التقدم !! ، وهذا يعني أن مجتمع المدينة كان مجتمعاً بدائياً . ويعني أيضاً (وهو الأهم) أن الذي جاء به محمد ﷺ ، وطُبِّقت تعاليمه وقيمه وآدابه في المدينة المنورة ، وبقية الأمصار الإسلامية في العصور الأولى ؛ لا يصلح للقرن العشرين .

وهذا الكلام هو ناقض ظاهر من نواقض الإسلام .

ومن صور الاستهزاء بالدين وشرائعه : ما يتعلّق باللّحى ، وبأصحاب اللحي . ومثله : الاستهزاء بالحدود الشرعية التي شرعها الله رحمةً لعباده ، وراعدةً لهم عن تجاوز حدوده . فمن المنافقين المستهزئين مَنْ يَصِفُ شريعةَ القصاص في حد السرقة بأنها شريعة بدوية ! فهذا استهزاء بالدين ، وناقض من نواقض الإسلام ، ومُخْرِجٌ من الملة .

٤- استهزاء المنافقين المعاصرين بالرسول ﷺ : ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ : ما صورّه نجيب محفوظ في روايته "أولاد حارتنا" ، التي حصل لأجلها على جائزة نوبل في الآداب في العام ١٩٨٨ م ؛ إذ تعرّض في هذه الرواية للسخرية بالنبي ﷺ فيقول : "وبينما يعيش قوم جبل (اليهود) في الحي الخاص بهم ، وكذلك أتباع رفاعه ، يعني به عيسى عليه السلام (النصارى) في حيهم ؛ ينشأ قاسم في أكثر الأحياء فقراً وبؤساً (حي الجرابيع) يعني قبيلة قريش ، وقاسم غلامٌ يتيم يكفله عمه (زكريا) يعني (أبا طالب) بائع البطاطا الفقير ، ويشب قاسمٌ على حكايات (الجبلأوي) يعني به الله ﷻ ، و (أدهم) يعني به (آدم) عليه السلام و(جبل) يعني به (موسى) عليه السلام . ويعمل بالتجارة مع عمه ، ثم يتفرّغ لرعي الغنم ، ويكثر من زيارة العجوز (يحيى) إشارةً إلى (ورقة بن نوفل)^(١)

(١) أبوزيد ، أحمد ، الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية ، (كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي ، العدد ١٤٥ ، السنة الثالثة عشرة ، المحرم ١٤١٥ هـ) ، ص (٨٧)

فالمؤلف الزنديق المفتري ، يجعل الأستاذ والمعلم للنبي ﷺ هو ورقة بن نوفل ، وهذا كذب وافتراء ، وكُفّر بواح . فالنبي ﷺ لم يأت ورقة بن نوفل إلا بعد نزول الوحي عليه في الغار . وفي زعم هذا المفتري : أن النبي ﷺ شب على حكايات الجبلابي ، وأدهم ، وجبل ، ورفاعة . وفيه من الكذب ما هو معلوم لأصحاب العقول السليمة والفرط النبوية . ولكن موجة الإلحاد وعاصفته تبنت هذا الزنديق ، فجعلته سيفاً في وجه الإسلام .

ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ وتنقيصه : ما ذكره الروائي الهندي الأصل البريطاني الجنسية (سلمان رشدي) عام ١٩٨٩هـ بعنوان (الآيات الشيطانية) سخر فيها من النبي ﷺ (سهاوند) وهي كلمة تعني الدجال والكاذب ، وزاد هذا الكافر أن (سهاوند) كان يُملي القرآن على الكاتب الفارسي ، حين كان الشيطان يوحيه إليه !!

٥ - صور من استهزاء المنافقين المعاصرين بالصحابة ﷺ : فمن صور الاستهزاء بالصحابة ﷺ : ما ورد في سؤالٍ موجه لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله ، قال : "... فقد وصل كتابك المؤرخ ، الذي ذكرت فيه ما أجراه بعض الروافض^(١) عندكم : أنهم صوروا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ صورة مجسمة

^(١) قلت : يتهم الروافض أهل السنة والجماعة بأن هذه التسمية (أي الروافض) هي لقب ألقبه أهل السنة بالشيعة على وفق زعمهم ليشينوهم به ، ويحتقرونهم ، وحقيقة الأمر على الضد من ذلك ، فقد روى ثقة الإسلام (على زعمهم) محمد بن يعقوب الكليني في كتابه (الكافي) ، والذي يعد عند الرافضة أصح كتاب في الحديث ، وهو عندهم كصحيح البخاري عند أهل السنة والجماعة ، والذي قال عنه مؤلفه : عرضت الكافي على الحجة الغائب ، يعني به (المهدي المنتظر) ، والعرض تم في زمن الغيبة) ، فقال : هو كافٍ لشيعتنا ! ؛ قلت : روى هذا الثقة ! ، عن سليمان بن خالد ، وهو أحد أصحاب جعفر الصادق ، قال دخل أبو بصير ، وهو أحد أصحاب محمد الباقر ، فقال لأبي عبد الله جعفر الصادق : جعلت فداك ، فإننا نبزنا نبزاً انكسرت له ظهورنا ، وماتت له أفئدتنا ، واستحلت الولاية دماءنا ، في حديث رواه لهم فقهاؤهم ، قال : فقال أبو عبد الله : الرافضة ؟ قال : قلت : نعم ، قال : لا والله ما هم سموكم به ، ولكن الله سماكم به ، في

تجسيماً كاملاً ، وزيتوه بلباس فاخر ، بلحيته وعمامته ، وجعلوا له ذيلاً يستهزئون به في مجالسهم ، ويرقصون حواليه ويلعنونه ، ثم أتوا بولدٍ (عشرين سنة) وأتوا بمطوَّعهم ليعقدوا على عمر ، ويجعلونه مثل الذي تعرفون ، يعني النساء ، ... وتساءل عمّا يجب في حقهم شرعاً ؟

ثم قال سماحته : "والجواب عن ما ذكرتم من هذا الأمر العظيم من فعل هؤلاء الروافض ، وتهجمهم على أصحاب النبي ﷺ الذين اختارهم الله ﷻ لصحبة رسوله ﷺ ، فقاموا خير قيام ، وآمنوا به ، وهاجروا وجاهدوا معه ونصروه ، وبذلوا في سبيل ذلك مهجهم ، وأولادهم ، وأوطانهم وأموالهم ، وفدوه ﷻ بجميع ذلك :

❁ وما أحسن ما قاله الإمام الحافظ الجليل أبو زرعة رحمه الله : "إذا رأيت الرجل ينتقض أحداً من الصحابة ، فاعلم أنه زنديق . وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق ، والقرآن حق ، وإنما أدّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ ، وإنما أرادوا أن يجرحوا شهودنا ليبتلوا الكتاب والسنة . والجرحُ بهم أولى ، وهم زنادقة" ^(١) .

فإذا كان هذا في حق سائر الصحابة ﷺ ، فما بالك بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ الذي هو أفضل الصحابة وأجلهم (بعد الصديق ﷺ) بإجماع الأمة والبراهين القاطعة ...

وهؤلاء الروافض ارتكبوا بهذا الصنيع عدة جرائم شنيعة ، منها :

حديث طويل . قلت : كأن القوم لا يقرءون ما كتبت أيديهم ، فنرى بين الفينة والأخرى من ينبري من علماءهم من يتهم أهل السنة والجماعة بشتم الشيعة ! ، وتسميتهم بالروافض ، فإن كان الله تعالى هو الذي سماهم بالرافضة فلم الخجل من هذه التسمية ؟ . ينظر : الكليني ، (ت ٣٢٩هـ) الكافي (كتاب الروضة) ، تحقيق علي أكبر غفاري ، (ط ٢ ، دار الكتب الإسلامية ، مطبعة حيدري ، آخوندي ، ١٣٨٩هـ) ، (٣٤/٨)

^(١) ابن حجر : الإصابة ٢٢/١ ، الكفاية ، ص ٤٩ .

١. الاستهزاء بأفاضل الصحابة ﷺ وسبهم ولعنهم .

٢. ومنها : التصوير . وهو من كبائر الذنوب الملعون فاعلها ، مع أنهم لم يصوروه على خلقته ، بل صوروه صورة البهيمة ، وجعلوا له ذيلاً لتمام السخرية، قبحهم الله ... وهذا دليل على خُبثهم ، وشدة عداوتهم للإسلام والمسلمين .

✽ فيجب على المسلمين أن يغاروا على الأفاضل أصحاب رسول الله ﷺ ، وأن يقوموا على هؤلاء الروافض قيامَ صدق لله تعالى ، ويحاكموهم محاكمة قوية دقيقة ، ويوقعوا عليهم الجزاء الصارم البليغ ؛ سواءً أكان القتل ، أو غيره ، حسب ما يراه الحاكم بنظره المصلحي الشرعي" ^(١) .

ومن تلك الصور أيضاً : ما ذكره الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله . قال : "ومنها (أي : قبائح الرافضة) : استهانتهم بأسماء الصحابة ، لا سيما العشرة ، وقد تواتر عنه ﷺ ما يدل على وجوب تعظيمهم وإكرامهم ، وقد أرشد الله تعالى إلى ذلك في مواضع من كتابه . ويلزم من أهان هؤلاء إياهم استحقاؤه لذلك عنده . ومن اعتقد منهم ما يوجب إهانتهم فقد كذب الرسول ﷺ فيما أخبر بوجوب إكرامهم وتعظيمهم ، ومن كذبه فيما ثبت عنه فقد كفر . ومن عجب : أنهم يتجنبون التسمية بأسماء الأصحاب ، ويسمون بأسماء الكلاب ، فما أبعدهم عن الصواب ، وأشبههم بأهل الضلال والعقاب" ^(٢) .

ومن صور الاستهزاء بالصحابة ﷺ : ما ذكره عبد الواحد الأنصاري في كتابه "أضواء على خطوط محب الدين العريضة" ، قال : "إن أبا هريرة ، وسمرة بن

^(١) فتاوى ورسائل ، (١/٢٤٨ - ٢٥٠)

^(٢) رسالة في الرد على الرافضة ، تحقيق د. ناصر بن سعيد الرشيد (ص ٢٦ - ٢٧) (الرياض ، دار طيبة ، د.ت)

جندب ، وعروة بن الزبير ، وعمرو بن العاص ، وضّاعين كذايين" . ويقول عن سمرة بن جندب ﷺ : "كان هذا الصعلوك الوقح ، المتصلب في جهله وكفره ، وتعطشه لإراقة الدماء : من عملاء معاوية" . ويقول عن عمرو بن العاص ﷺ : "إنّه وَلَدُ سِفاحٍ ، وكافر ملحد" .

هذا الذي تفوّه به هذا الرافضي الخبيث في الطعن في أصحاب النبي ﷺ يُعدُّ يسيراً ، مقابل طعن الضالّين من أئمة علماء الرافضة القدماء والمعاصرين ؛ بسبّ وتكفير أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعائشة ، وجمهور الصحابة ﷺ .

وقد جمَعَ كفريات عقائد الرافضة من مصادرهم ومراجعهم الأصلية ، ونقلها نقلاً دقيقاً وأميناً : العلامة المجاهد الشيخ إحسان إلهي ظهير^(١) رحمه الله تعالى ، الذي قتلته الرافضة بسبب جهوده العظيمة في فضح عقائدهم الكفرية . نحسبه شهيداً إن شاء الله .

هذا هو حال الرافضة ، يعادون ويُبغضون خير أمة أخرجت للناس ، أصحاب رسول الله ﷺ ، ويرمونهم بالكفر والردة . ثم هم يوالون أعداء الإسلام من اليهود

^(١) يُنظر : مؤلفات هذا العالم الجليل . ومنها : الشيعة والسنة ، الشيعة والقرآن ، الشيعة وأهل البيت ، الشيعة والتشيع . علاوة على كتاب الأستاذ محب الدين الخطيب (الخطوط العريضة لدين الشيعة) وكتايب الدكتور ناصر القفاري (مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة و أصول مذهب الشيعة الأثني عشرية) وكتاب الأستاذ عبد الله الغريب (وجاء دور المجوس) وهو من الكتب الجديدة بالاطلاع ؛ لما يحويه من تفاصيل دقيقة عن دور الروافض في التآمر على مستقبل البلاد الإسلامية ، خدمة للمشاريع الصفوية واليهودية . كما لا يفوتنا كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية) الذي يُعدّ -بحقّ- أفضل ما كُتب في هذا الموضوع . فقد أطّب الشيخ رحمه الله في ردّ حجج الروافض المتهافنة ، بما لا يدع لأبي مُنصِفٍ إلا الإذعان لسعة علمه ، وطول باعه في الرد على الفرق الضالة ، لاسيما الروافض .

والصليبين ، ويتخذونهم أولياء ، ويطيعونهم فيما يأمرونهم به ، ويسارعون في تقديم العون والنصح لهم ؛ نكايَةً بالمسلمين .

فلتترك الحكم عليهم لكل مسلم غيور على دينه ، ممّن وَعَا قول الله تعالى :
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ﴿٣٧﴾ ق: ٣٧ .
حكم من سب الصحابة بالكفر والردة أو الفسق ، جميعهم أو بعضهم :

لا شك في كفر من قال بذلك ؛ لأمرٍ ، من أهمها :

١. أنّ مضمون هذه المقالة : أنّ نَقْلَةَ الكتاب والسنة كُفْرًا ، أو فُسَاقٌ . وبذلك يقع الشك في القرآن الكريم ، والأحاديث ؛ لأنّ الطعن في النَّقْلَةَ طَعْنٌ في المنقول .
 ٢. أنّ في هذا تكذيباً لما نص عليه القرآن من الرّضا عنهم ، والثناء عليهم . فالعلم الحاصل من نصوص القرآن والأحاديث الدالة على فضلهم قطعيّ ، ومَنْ أنكر ما هو قطعي فهو كافر .
 ٣. أنّ في ذلك إيذاءً للنبي ﷺ لأنهم أصحابه وخاصته ، فسبُّ خاصّة المرء ، والطعن فيهم يؤذيه . ولا شك أنّ مَنْ آذَى النبي ﷺ فهو كافر . كما هو معلوم .
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيّناً حكم هذا القسم : "وأما من جاوز ذلك إلى حدّ أنّه زعم أنهم ارتدّوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرًا قليلاً لا يبلغون بضعة عشر نفساً ، أو أنهم فسقوا عامّتهم ، فهذا لا ريب أيضاً في كفره ؛ لأنه مكذب لما نص عليه القرآن في غير موضع ، من الرضا عنهم ، والثناء عليهم . بل مَنْ شك في كفر مثل هذا ؛ فإنّ كُفْرَهُ متعيّنٌ وكُفْرُهُ هذا يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام" ^(١) .

^(١) الصارم المسلول ، ص (٥٨٦ - ٥٨٧)

أما تواتر الأدلة من القرآن والسنة في تكفير مَنْ سبَّ الصحابة أو اتَّهمهم بالردّة أو الفسق ؛ فمنها -على سبيل المثال- :

١- تفسير العلماء للآية الأخيرة من سورة الفتح ، وهي قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَجٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَتَازَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ الفتح: ٢٩ استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية كُفْرَ من يبغضون الصحابة ؛ لأن الصحابة ﷺ يبغضونهم ، ومن أغاظه الصحابة فهو كافر . ووافقه الإمام الشافعي ، وغيره^(١) .

٢- حديث أنس عند الشيخين : أنَّ النبي ﷺ قال : (آية الإيمان حُبُّ الأنصار ، وآية النفاق بُغْضُ الأنصار)^(٢) وفي رواية : (لا يحبُّهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق)^(٣) ولمسلم من حديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : (لا يُبغضُ الأنصار رجلٌ آمن بالله واليوم الآخر)^(٤) . فمَنْ سبَّهم فقد زاد على بُغضهم ، فيجب أن يكون مُنافقاً ، لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر .

٣- ما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ أنه ضَرَبَ بالدرّة مَنْ فضَّله على أبي بكر ؓ ، ثم قال عمر : "أبو بكر كان خيرَ الناس بعد رسول الله ﷺ في كذا

^(١) الهيثمي ، أحمد بن محمد بن حجر (ت ٩٧٤هـ) ، الصواعق المحرقة (ص ٣٧٩) (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت)

^(٢) البخاري : الصحيح (١٤/١) حديث رقم (١٧) مسلم : الصحيح (٨٥/١) حديث رقم (٧٤)

^(٣) البخاري : الصحيح (١٣٧٩/٣) حديث رقم (٣٥٧٢) مسلم : الصحيح (٨٥/١) حديث رقم (٧٥)

^(٤) مسلم : الصحيح (٨٥/١) حديث رقم (٧٦)

وكذا . ثم قال عمر: مَنْ قال غير هذا أقمنا عليه ما نُقيم على المفتري" (١) .

وكذلك قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: "لا يفضّلني أحد على أبي بكر وعمر إلاّ جلدتُه حدّ المفتري" (٢) .

فإذا كان الخليفتان الراشدان عمر وعلي رضي الله عنهما يجلدان حدّ المفتري من يفضّل علياً على أبي بكر وعمر ، أو يفضّل عمر على أبي بكر ؛ مع أن مجرد التفضيل ليس فيه سب ولا عيب = علم أنّ عقوبة السب عندهما فوق ذلك بكثير .

• وما أجمل ما قاله عبد الله بن المبارك -رحمه الله- شعراً في بيان موقفه ممن شتم وانتقص أصحاب محمد رسول الله ﷺ :

إني امرءٌ ليس في ديني لغامزه	لين ولست على الإسلام طعناً
فلا أسب أبا بكر ولا عمر	ولن أسب -معاذ الله- عثماناً
ولا ابن عم رسول الله أشتمه	حتى ألبس تحت التراب أكفاناً
ولا الزبير حوارى الرسول ولا	أهدي طلحة شتماً عزّاً أو هاناً (٣)

• وقال نصر بن منصور النميري (ت ٥٨٨هـ)

أحبُّ علياً والبتولَ وولدها	ولا أجحد الشيخين حقَّ التقدّم
وأبرأ ممن نال عثمان بالأذى	كما أتبرأ من ولاء ابن ملجم
ويعجبني أهل الحديث لصدقهم	مدى الدهر في أفعالهم والتكلم (٤)

(١) أحمد : فضائل الصحابة (١/٣٠٠) ، وصححه ابن تيمية في الصارم المسلول ، ص (٥٨٥)

(٢) المرجع ذاته .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء (٨/٤١٣ - ٤١٤)

(٤) المرجع ذاته . (٢١ / ٢١٤)

٤. وقوله ﷺ : " ومن أبغضهم فقد أبغضني ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله " (١) . وأذية الله ورسوله كُفر موجب للقتل ، وهذا مجموع عليه لاشك فيه .
٥. وقال ﷺ : " فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرفٌ ولا عدلاً " (٢) .
٦. وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : إذا رأيت رجلاً يذكر أصحاب رسول ﷺ بسوء فاتهمه بالإسلام (٣) .
٧. وقال السرخسي رحمه الله تعالى : " فمن طعن فيهم (أي الصحابة) ، فهو ملحد منابذ للإسلام ، داءه السيف إن لم يتب " (٤) .
٨. إذن كل من سب الصحابة واستهزأ بهم كافر ، لا شك في كفره (٥) . وهذا غيظ من فيض ، والأدلة على كفر ساب الصحابة رضي الله عنهم أكثر من أن تحصى .

(١) أحمد : المسند (٥٤/٥) ، (٢٠٥٨٦) ،

(٢) المستدرک علی الصحیحین (٧٣٢/٣) ، (٦٦٥٥) ،

(٣) الصارم المسلول (٢١٥/٤) ،

(٤) أصول السرخسي (١٣٤/٢) ،

(٥) يُنظر : شجاعة الصحابة ، د. عبدالستار الجنابي ، ص ٤٣ ، حكم سب الصحابة رضي الله عنهم

المبحث الرابع

تشكيكهم الناس في صدق النبي ﷺ

ومخالفة أمره ، ومحاولة اغتياله

المطلب الأول : تشكيكهم الناس في صدق النبي ﷺ يوم تبوك :

- الموقف الأول :

استغل المنافقون الحوادث لتشكيك المؤمنين بصدق نبيهم ﷺ . ومن ذلك : ما كان منهم في غزوة تبوك ، فقد كانوا يشككون في سير الحدّث قبل بدء المواجهة ، وأثناءها ، وبعدها ؛ بقصد إيذاء النبي ﷺ والمؤمنين . فمن ذلك : التشكيك في صدق النبي ﷺ فيما يُخبر به .

ومن هؤلاء المشككين في خبر النبي ﷺ وما ينزل عليه من الوحي : (الجلّاس بن سويد بن الصامت) فقد كان ممن تخلف عن غزوة تبوك ، فقال : إن كان ما جاء به محمد حقاً ، لنحن أشرُّ من الحُمُر ! فقال له ابن امرأته : والله يا عدو الله ، لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت ، فإنّي إن لا أفعل أخاف أن تصيبني قارعة ، وأؤاخذ بخطيئتك . فدعا النبي ﷺ جلاسا ، فقال : (يا جلاّس ، أقلت كذا وكذا؟) فحلف بالله ما قال .

فأنزل الله تعالى : ﴿يَجْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ

إِسْلَامِهِمْ﴾ التوبة: ٧٤ (١)

(١) يُنظر : الطبري : التفسير (١٨٥/١٠)

وفي رواية ابن كثير : فسمعها عمير بن سعد ، فقال : والله يا جلاس ، إنك لأحبُّ الناس إليّ ، وأحسنهم عندي بلاءً ، وأعزهم عليّ أن يصله شيءٌ يكرهه ، ولقد قلتَ مقالةً لئن ذكرتها لتفضحني ، وإن كتمتها لتُهلكني ، ولأحدهما أهون عليّ من الأخرى . فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس ، فلما بلغ ذلك الجلاس ، خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال . قال عمير بن سعد : كذبت عليّ .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ التوبة: ٧٤ (١) .

وهاتان الروايتان تحكيان قصةً واحدةً فيما يبدو .

لقد كان موقف عمير بن سعد ﷺ عظيماً في تبيانه الولاء الصادق لله ورسوله ﷺ، ولهذا الدين العظيم . وكان الجلاس لم يهتم بذلك اليتيم الذي رباه في حجره لصغر سنه ، أو كآته رأى أن أثر نعمته عليه سيمنعه من الإساءة إليه ، وإلحاق الضرر به ، فتكلم بذلك الكلام القبيح وهو يسمع .

لكن عمير بن سعد ﷺ الذي رسخ الإيمان في قلبه ، أعطى مثلاً عظيماً لأصل الولاء والبراء ، الذي أخلّ به كثير من المسلمين اليوم ، فهم يداهنون أعداء الله على حساب عقيدتهم ، والله تعالى يقول : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢٢) المجادلة: ٢٢

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٩٧/٢)

إن عمير بن سعد ﷺ قد رأى مراقبة الله أولى من مراقبة المؤمنين ، وأن من واجبه أن يُرضي الله ولو سخط عليه أقرب الناس إليه ، الذي ربّاه في حجره ، وأضفى عليه من نعمته . لقد وازن ﷺ بين فضيحته بإنكار المنكر الذي تضمن كشف ستر من أحسن إليه، وبين هلاك الآخرة بكتمان الأمر ، والسكوت عن المنكر ؛ فرجّح النجاة من هلاك الآخرة ؛ لأنها هي الباقية ، وأخبر النبي ﷺ بمقالة الجلّاس بن سويد .

وهذا مثل رائع من أمثلة الولاء والتقوى ، يضربه للناس ، ذلك الصحابي الجليل، وقد كان آنذاك غلاماً ، وأصبح فيما بعد علماً من أعلام المسلمين . فعلينا أن نتربّي ، ونربي أولادنا على عقيدة الولاء والبراء في جهاد الكافرين والمنافقين ، منذ نعومة أظفارهم .

إن تشكيك المنافقين ضد المؤمنين ؛ لهزّ ثقتهم بإيمانهم بالله ورسوله ﷺ ، ووعده تعالى ووعيده ؛ يؤكّد أن حياة المنافقين كلّها ، وطبيعتهم التي هم عليها ، ومكائدهم ، ودسائسهم ، ومؤامراتهم التي قاموا بها حرباً للإسلام والمسلمين ؛ هي في حقيقتها معركة التشكيك في الإسلام .

✽ يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: "إن الإسلام خرج من معركته مع المشركين منتصراً ، ومع المسيحية منتصراً ، ومع اليهود منتصراً ، ولكن عنصراً وُجد في الإسلام جاءتنا منه المتاعب ، وهو عنصر النفاق ، فقد دخل الإسلام قومٌ نفاقاً ؛ ليتمتعوا بامتيازاته ، وقلوبهم مع أديانهم ، أو مع قومياتهم ، فدسّوا في الإسلام كثيراً من الأشياء كانت هي خميرة المشكلات للإسلام إلى الآن" (١) .

✽ لقد أدى وجود المنافقين في صفوف المسلمين إلى أن يكونوا حذرين دوماً ، يقظين أبداً ، وهذا ما جعلهم يتصرون على أعدائهم في الخارج ؛ بل (وهذا هو الأهم)

(١) الشعراوي ، محمد متولي ، معركة التشكيك في الإسلام (ص ٣٤) (الموصل ، مكتبة بسام ، ١٩٨٨م) ،

مكّنهم من تقرير وحدتهم الداخلية ، ورصّ صفوفهم ، وتذويب الأجسام الغريبة ، أو شلّها ، أو طردها ؛ كي لا تدمر المجتمع الجديد وتخزبه من الداخل .

إنّها حكمة الله في أن يُوجد في كيان المسلمين ما يتحدّاهم من الداخل دوماً ، ويدفعهم إلى الاستجابة والإبداع . وحكمة رسول الله ﷺ التي تسع وتسع لكل حالة ، وتُجابه كل وضع ؛ بعيداً عن الجمود ^(١) .

- الموقف الثاني :

ومما جرى من المنافقين في هذه الغزوة : اتّهامهم رسول الله ﷺ بالكذب في خبر السماء ، حين ضلّت ناقته ﷺ ، ولم يدري أين هي .

روى ابن هشام عن ابن اسحاق قال : "ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان في بعض الطريق ضلّت ناقته ، فخرج أصحابه في طلبها ، وعند رسول ﷺ رجلٌ من أصحابه يقال له عمارة بن حزم ^(٢) وكان عقيباً بدرياً ، وهو عمّ بني عمرو بن حزم ، وكان في رحله زيد بن اللصيت القينقاعي ، وكان منافقاً . فقال زيد بن اللصيت وهو في رحل عمارة عند رسول الله ﷺ : أليس محمدٌ يزعم أنه نبي ، ويخبركم عن خبر السماء؟! وهو لا يدري أين ناقته !

فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده : (إن رجلاً قال : هذا محمدٌ يخبركم أنه نبي ، ويزعم أنه يخبركم بخبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته . وإنني والله ما أعلم إلا ما

^(١) خليل ، عماد الدين ، دراسة في السيرة النبوية (ص ٣٦٩) (ط٧، الموصل ، مطبعة الزهراء الحديثة، ١٩٨٣م)

^(٢) النجاري ، الأنصاري . شهد العقبة وبدراً والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ ، استشهد في موقعة اليمامة سنة (١٢هـ) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٣/ ٤٨٦) ابن عبد البر : الاستيعاب (٣/ ١١٤١) ابن حجر : الإصابة (٢/ ٥١٣)

علمني الله ، وقد دلني الله عليها ، وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا ، وقد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتوني بها) فذهبوا فجاءوا بها .

فرجع عمارة بن حزم إلى رَحْلِهِ فقال : والله لعجبٌ من شيءٍ حَدَّثَنَاهُ رسول الله ﷺ آنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا (للذي قال زيد بن اللصيت) فقال رجل ممن كان في رَحْلٍ عمارة ، ولم يحضر رسول الله ﷺ : زيد -والله- قال هذه المقالة قبل أن تأتي . فأقبل عمارة على زيدٍ يَجُأُ في عنقه ويقول : إِلَيَّ عبادَ الله ، إنَّ في رحلي لداهية ولا أشعر ، أخرج عدو الله من رحلي ، فلا تصحبني" ^(١) .

ومن هذه الحادثة نُدرِكُ كيف كان المنافقون يستغلُّون الفُرْصَ لتشويه دعوة النبي ﷺ وصدَّ الناس عن الإيمان به واتباعه ؛ لكن سرعان ما ينزل الوحي كاشفاً أمرهم ، مُحِبِّطاً مساعيهم الخبيثة .

^(١) السيرة النبوية (٢٠٣/٥) الطبري : التاريخ (١٨٤/٢)

المطلب الثاني : مخالفة المنافقين أمر النبي ﷺ عام تبوك :

إن طاعة وتنفيذ أوامر النبي ﷺ من أبرز صفات المؤمنين ، وإن مخالفة أوامره ﷺ من أعظم صفات المنافقين ، فقد بين الله ﷻ بأن طاعة الرسول ﷺ هي طاعة لله بحد ذاتها ، ومعصية الرسول ﷺ هي معصية لله ، وحذر ﷺ من مخالفة أوامر النبي ﷺ . فقال ﷺ : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ النساء: ٨٠ وقال ﷺ : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ النور: ٥٤

وقال ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ محمد: ٣٣

وقال ﷺ : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب: ٧١

وقال ﷺ : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ التوبة: ٧١

وقال ﷺ : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وكلها تدل على وجوب طاعته ﷺ ، واتباع ما جاء به ، وتحريم مخالفة أمره . ففي هذه الآيات الدلالة الواضحة على أن الهداية والرحمة في طاعة أمره ﷺ ، والوقوع في الكفر والفتن والعذاب في معصيته ﷺ .

وبين الله تعالى عظم معصيته ﷺ ، فقال ﷺ : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَادًا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ النور: ٦٣

أمرُ رسول الله ﷺ هو : سبيلُه ، ومنهأجه ، وطريقته ، وسنته ، وشريعته . فتوزنُ الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردودٌ على قائله ؛ كائناً من كان .

فليحذر مَنْ خالف أمر الرسول ﷺ وشريعته وسنته باطناً وظاهراً : ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ النور: ٦٣ أي : في قلوبهم ؛ مِنْ كُفْرٍ ، أو نفاقٍ ، أو بدعةٍ : ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣ أي : في الدنيا ؛ بقتلٍ ، أو حدٍ ، أو حبسٍ ، أو نحو ذلك .

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ في وجوب طاعته واتباع ما جاء به ، وتحريم معصيته . ويشمل ذلك مَنْ كان في عصره ، ومَنْ يأتي من بعده إلى يوم القيامة . ومن ذلك : قوله ﷺ : (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله)^(١)

وقال ﷺ : (كُلُّ أمتي يدخلون الجنة ، إلا من أبى) قيل : يا رسول الله ، ومن يأبى؟ قال : (من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى)^(٢)

• وتكون طاعة رسول الله ﷺ بتحقيق أربعة أمور ؛ هي :

١. الإيمان بما به أخبر .

٢. طاعته فيما أمر .

٣. الانتهاء عما نهى عنه وزجر .

٤. ولا نعبد الله إلا بما شرع .

(١) البخاري: الصحيح (٣/ ١٠٨٠) حديث رقم (٢٧٩٧) مسلم: الصحيح (٣/ ١٤٦٦) حديث رقم (١٨٣٥) النسائي: السنن الكبرى (٥/ ٢٢٢) حديث رقم (٨٧٢٧) ابن ماجه (٤/ ١) حديث رقم (٣)

(٢) البخاري: الصحيح (٦/ ٢٦٥٥) حديث رقم (٦٨٥١) ابن حبان: الصحيح (١/ ١٩٦) حديث رقم (١٧)

• فهذه الأمور الأربعة هي مقتضى شهادة (وأن محمداً رسول الله) وهي أصل الإسلام والإيمان ، ومن لم يلتزم بهذه الأمور الأربعة أو بواحد منها فقد وقع في الكفر والنفاق ؛ كما وقع المنافقون في غزوة تبوك .

ففي غزوة تبوك برزت صفة مخالفة المنافقين وأمر النبي ﷺ بشكل واضح . روى ابن هشام عن ابن اسحاق قال : "وكان في الطريق ماءٌ يخرج من وشلٍ^(١) ما يروي الراكب والراكبين والثلاثة ، بوادٍ يقال له وادي المشقق ، فقال رسول الله ﷺ : (مَنْ سَبَقْنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي فَلَا يَسْتَقِينُ شَيْئاً حَتَّى نَأْتِيَهُ) قال : فسبقه إليه نفر من المنافقين ، فاستقوا ما فيه ، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم ير شيئاً ، فقال : (مَنْ سَبَقْنَا إِلَى هَذَا الْمَاءِ؟) قالوا : فلان وفلان ، فقال : (أَوَلَمْ أَنهَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْهُ شَيْئاً حَتَّى آتِيَهُ؟) ثم لعنهم رسول الله ﷺ ، ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب ، ثم نضح به ومسح به بيده ، ودعا رسول الله ﷺ بما شاء الله أن يدعو به ، فانخرق منه الماء (يقول مَنْ سَمِعَهُ : إِنَّ لَهُ حَساً كحس الصواعق) فشرب الناس ، واستقوا حاجتهم منه . قال رسول الله ﷺ : (لئن بقيتم -أو : مَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ- لتسمعن بهذا الوادي وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه)^(٢) وفي رواية (وهو يخاطب أحد أصحابه) : (إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جناناً)^(٣) .

إن هذه الأحداث تكشف مدى عداوتهم للإسلام وأهله ، فقد ظهرت بسببها على يد رسول الله ﷺ معجزات تقف شاهداً على صدقه فيما يخبر به عن الله ، وإن فيها لعلبة لمن أراد أن يعتبر ، وإقناعاً لمن أراد أن يقتنع . ولكن المنافقون لا يفقهون - كما

^(١) الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ، يقطر منه قليلاً قليلاً ، ولا يتصل قطره . ابن الأثير :

النهاية (١٨٨/٥) ابن منظور : لسان العرب (٧٢٥/١١)

^(٢) السيرة النبوية (٢٠٨/٥) الطبري : التاريخ (١٨٥/٢)

^(٣) ابن القيم : زاد المعاد (٥/٣)

قال ﷺ- . وإن هذه الأحداث قد جرت على أيدي فئة قليلة ، فكيف لو خرجوا جميعاً ، وفيهم ساداتهم ؛ كعبد الله بن أبي بن سلول ، والجد بن قيس ؟! وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَوُا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧) التوبة: ٤٧

المطلب الثالث : محاولتهم تمزيق الصف المسلم ببنائهم مسجد الضرار :

لم يكف المنافقون عن محاولاتهم لتمزيق الصف المسلم ، والتفريق بين المؤمنين ، مُظهِرين حسن نواياهم . فوصل بهم الأمر إلى أن يَبْتَنُوا مؤسسات المجتمع المسلم ، ليمارسوا دورهم التخريبي من خلالها .

وإذا كان هناك وكُرُّ للمنافقين قد اكتشفته قوى الأمن الإسلامية في المدينة ، وهدمَه رسول الله ﷺ (وهو بيت سويلم اليهودي) فإن هناك وكراً أخطر وأعظم منه اكتشفته أجهزة الأمن الإسلامية في المدينة ، بعد أن رجع رسول الله ﷺ من تبوك ، فأمر بإحراقه وتدميره ، ألا هو مسجد الضرار ، الذي جاء ذكره في القرآن الكريم .

فقد بنى المنافقون وكراً على هيئة مسجد ؛ ليتخذوا منه ملتقى للتآمر ، والدس ومحاربة الله ورسوله ؛ يأمنون فيه من عيون المراقبة ، لأنه مسجدٌ وبيتٌ من بيوت الله في ظاهره . وهذا تصرفٌ أشد إغراقاً في المكر والتستر . وقد تم إحراق هذا الوكر أيضاً بالنار ؛ كما أحرق بيت سويلم اليهودي من قبل .

ونظراً لِمَا دَرَجَ عليه المنافقون من مقدرةٍ على إخفاء نواياهم الشريرة ، وإظهارهم خلاف ما يبطنون ، ولكي يكونَ لوكرهم هذا "مسجد الضرار" صفةً شرعية ؛ وليحصلوا على دعم معنوي = طلبوا من رسول الله ﷺ بعد الانتهاء من بنائه أن يُصَلِّيَ فيه، فوعدهم ﷺ أن يفعل ، ولكن بعد عودته من تبوك .

وكاد رسول الله ﷺ يصلي فيه ؛ وفاءً بالوعد الذي أعطاه لأولئك المنافقين الذين لا يعلمهم ، إلا أن القرآن الكريم نَزَلَ بهدم هذا المسجد بدلاً من الصلاة فيه ، فحرَّقه رسول الله ﷺ بالنار ، وحرَّق بجانبه دارين كبيرين من كبار المنافقين .

وهكذا ؛ وبينما كان هؤلاء المنافقون يفركون أيديهم فرحاً ؛ لأن النبي ﷺ سيصلي في وكر الجاسوسية "مسجد الضرار" إذا بألسنة اللهب تلتهم هذا الوكر ، وبعضهم بداخله ، ففرّوا بجلودهم ، وتركوه طعماً للنار .

ذكر الواقدي ، أن رسول الله ﷺ لما كان بوادي "ذي أوان" وهو من ضواحي المدينة ، وهو في طريقه إلى تبوك ، جاءه خمسة نفرٍ ؛ منهم: "معتب بن قشير ، و ثعلبة بن حاطب ، و خدام بن خالد ، و أبو حبيبة بن أزعر ، و عبد الله بن نبتل ابن الحارث ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا رُسُلُ مَنْ خَلَقْنَا مِنْ أَصْحَابِنَا ، وَإِنَّا بَنِينَا مَسْجِدًا لَدِي الْقِلَّةِ ، وَالْحَاجَةِ ، وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ ، وَاللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ . وَنُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنَا فَتَصَلِّيَ بِنَا فِيهِ . وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَجَهَّزُ إِلَى تَبُوكَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ ، وَحَالٌ شُغْلٍ ، وَلَوْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا بِكُمْ فِيهِ) فلما نزل رسول الله ﷺ بذي أوان راجعاً من تبوك ، أتاه خبره وخبر أهله من السماء . وكانوا إنما بنّوه قالوا بينهم : يأتينا أبو عامر ، فيتحدث عندنا فيه ؛ فإنه يقول : لا أستطيع أن آتي مسجد بني عمرو ابن عوف "مسجد قباء" إنما أصحاب رسول الله ﷺ يلحقوننا بأبصارهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٧)

وعندما نزل القرآن يوضح لرسول الله ﷺ أن ذلك المسجد المشبوه ، إنما هو مَرَصِدٌ يترصد فيه المنافقون على المسلمين ، ويتخذونه مقرّاً لمحاربة الله ورسوله ، استدعى رسول الله ﷺ رجلين من أصحابه ، وهما عاصم بن عدي العجلاني ، ومالك بن دخشم السالمي^(١) ، وأصدر إليهما أمره بأن يتوليا تدمير مسجد المنافقين بالنار ؛ إذ قال لهما رسول الله ﷺ : (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه ، ثم حرّاه)

(١) الأوسي الأنصاري ، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد . ابن سعد : الطبقات الكبرى (٣ / ٥٤٩)
ابن عبد البر : الاستيعاب (٣ / ١٣٥٠) ابن حجر : الإصابة (٣ / ٣٤٣)

فخرجا سريعين على أقدامهما حتى أتيا مسجد بني سالم ، فقال مالك بن الدخشم لعاصم بن عدي : أنظرني حتى أخرج أليك ناراً من أهلي . فدخل إلى أهله فأخذ سَعْفًا من النَّخْلِ فأشعل فيه النار ، ثم خرجا سريعين يعدوان حتى انتهيا إليه بين المغرب والعشاء ، والمنافقون فيه ، وإمامهم مَجْمَعُ بن جارية^(١) . فقال عاصم : ما أنسى تشرفهم إلينا ، كأن آذانهم آذان السرحان . فأحرقاه حتى احترق . وكان الذي ثبت فيه زيد بن جارية بن عامر^(٢) حتى احترق ألبتة ، فهدماه ، حتى رصفاه بالأرض ، وتفرقوا^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ وَاللَّهِ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ النوبة: ١٠٧ - ١٠٨

وقد أطبقت كتب التفسير على أن هذه الآيات نزلت في رجل جند نفسه لحرب الله ورسوله ﷺ ، ولن يدع حرباً ضد الرسول ﷺ إلا وشارك فيها ، وهو أبو عامر الراهب . وقد سماه النبي ﷺ بالفاسق . وكان مما فعله هذا الرجل أنه التجأ إلى ملك الروم يستنجده العون لقتال النبي ﷺ ، فأرسل إلى أصحابه من المنافقين في المدينة ، وكان عددهم اثني عشر رجلاً ، أن يبنوا له مسجداً ضراراً ، وإرصاداً ؛ أي : ترقباً وانتظاراً

(١) الأوسي الأنصاري . كان حدثاً حين كان يؤم المنافقين في مسجد الضرار ، ولم يكن يعلم من حالهم شيء . بعثه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ﷺ إلى الكوفة يعلمهم القرآن . ابن سعد : الطبقات الكبرى (٥٢/٦) ابن عبد البر : الاستيعاب (١٣٥٠/٣) ابن حجر : الإصابة (٣٦٦/٣)

(٢) الأوسي ، الأنصاري . أخو مَجْمَع ، استُضِعِر يوم أُحُدٍ . ابن عبد البر : الاستيعاب (٥٤١/٢) ابن حجر : الإصابة (٥٦٢/١)

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية (٢١١/٥) الطبري : التفسير (٢٣/١١)

لقدومه مع جيش الروم ، يستخدمه كقاعدة لحرب الله ورسوله ﷺ والمؤمنين ، علاوةً على المهام الأخرى ، التي ذكرها القرآن الكريم .

وهذه بعض أقوال أهل العلم والتفسير فيما تقدم :

✽ قال ابن جرير الطبري : "فتأويل الكلام : والذين ابتنوا مسجداً ضراراً لمسجد رسول الله ﷺ ، ويفترقوا به المؤمنون ؛ ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ ، وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ ، فيختلفوا بسبب ذلك ، ويفترقوا ✽ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ✽ التوبة: ١٠٧ يقول : وإعداداً له لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله ﷺ وكفر بهما ، وقاتل رسول الله ﷺ ✽ مِنْ قَبْلُ ✽ التوبة: ١٠٧ يعني : من قبل بنائهم ذلك المسجد . وذلك أن أبا عامر هو الذي حزّب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ ، فلما خذله الله ، لحق بالروم يطلبُ النَّصْرَ من ملكهم على نبي الله ﷺ ، وكتب إلى أهل مسجد الضّرارِ يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه (فيما ذكر عنه) ليصلي فيه -فيما يزعم- إذا رجع إليهم . ففعلوا ذلك . وهذا معنى قول الله جل ثناؤه : ✽ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ✽ التوبة: ١٠٧ (١)

✽ قال ابن كثير في التفسير : "أنه كان بالمدينة قبل مقدّم رسول الله ﷺ إليها رجلٌ من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصّر في الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزرج . فلما قدّم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصار للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شَرِقَ اللَّعْبُنُ أبو عامرٍ برقيقه ، وبازر بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فازاً إلى الكفار من مكة من مشركي قريش ، فألبهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أُحُدٍ ، فكان من أمر المسلمين ما كان

(١) التفسير (٤٧٠/٦)

وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يُسلمَ وتمردَ ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموتَ بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدعوة . وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمرَ رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهورٍ ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ ، فوعده ومناه . وأقام عنده ، وكتب إلى جماعةٍ من قومه من الأنصار من المنافقين وأهل الرِّيب ، يَعُدُّهم ويمَنِّيهم أنه سيقدم بجيشٍ يقاتلُ به رسولَ الله ﷺ ويغلبُه ، ويرُدُّه عما هو فيه . وأمرهم أن يتخذوا مَعْقِلاً يقدم عليهم فيه مَنْ يقدم من عنده ؛ لأداء كُتْبِهِ ، ويكون مَرَصِداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك . فشرعوا ببناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قباء ، فبنَوْه ، وأَحْكَمُوهُ ، وفرغوا منه قبلَ خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسولَ الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلِّي في مسجدهم ؛ ليحتجُّوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم من أهل العِلَّة في الليلة الشتائية . فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال : (إنَّا على سفر ، ولكن إن رجعنا إن شاء الله) فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يومٌ أو بعضُ يومٍ ، نزل عليه جبريل ﷺ بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانؤه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم ، مسجد قباء الذي أُسِّس في أول يومٍ على التقوى . فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ هَدَمَهُ قبل مَقْدَمِهِ ﷺ المدينة .

كما قال ابن عباس ؓ في الآية : هم أناس من الأنصار بنُّوا مسجداً ، فقال لهم أبو عامر : أبُنُّوا مسجداً ، واستعدُّوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى ملك الروم ، فآتي بجندٍ من الروم ، وأُخْرِجُ محمداً وأصحابه . فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ ، فقالوا له : فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحُبُّ أن تُصلِّيَ فيه ، وتدعو لنا بالبركة . فأنزل الله ﷻ : ﴿ لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا ﴾ التوبة: ١٠٨ إلى قوله ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ التوبة:

(١) ١٠٩

(١) التفسير : (٤٠٢/٢)

❦ وقال القرطبي : ﴿ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ التوبة: ١٠٧ يعني : أبا عامر الراهب . وسُمِّي بذلك لأنه كان يتعبَّد ، ويلتمس العلم ، فمات كافراً بقرنين^(١) ، بدعوة النبي ﷺ . فإنه كان قال للنبي ﷺ : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتُ معهم . فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين^(٢) . فلما انهزمت هوازن^(٣) ، خرج إلى الروم يستنصرُ ، وأرسل إلى المنافقين ، وقال : استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابتنوا مسجداً ، فإنني ذاهب إلى قيصر ، فآتي بجند من الروم لأخرج محمداً من المدينة . فبنوا مسجد الضرار^(٤) .

ونحو الذي قاله الطبري وابن كثير والقرطبي ، قاله غيرهم من المفسرين .

وهذا يُثبت خطورة مسجد الضرار الذي أمر رسول الله ﷺ بهدمه وحرَّقه ، ويُثبت حَجْم المؤامرة الضخمة التي كانت تُحاك من وراء بناء هذا المسجد المذكور .

إنَّ المنافقين هم الذين بنوا مسجد الضرار ؛ إرصاداً وترقباً لِمَقْدَم أبي عامر الكافر ومعه الروم ؛ ليكون قاعدةً ومَعْقِلاً لهم (كما سماه ابن كثير) ينطلقون منه لحرب الله ورسوله ﷺ . وليس الذي بنى المسجد هو أبو عامر ؛ كما ذكر في بعض المقالات . والفرق بين الأمرين والنقلين (من حيث الدلالة على حجم خطورة مسجد الضرار الذي استحق الهدم والحرق) واضح لكل ذي بصرٍ ، وبصيرة .

^(١) مدينة تبعد عن حلب بنحو (١٢) ميلاً ، فتحها المسلمون صلحاً بعد معركة اليرموك . الحموي : معجم البلدان (٤٠٣/٤)

^(٢) معركة بين المسلمين وقبيلتي هوازن وثقيف ، وقعت بعد فتح مكة في شوال سنة (٨هـ) الطبري : التاريخ (١٦٥/٢)

^(٣) بنو منصور بن عكرمة ، من قيس عيلان، من العدنانية ، كانوا يسكنون نجد مما يلي اليمن . الحموي : المقتضب (ص ١٣٧) كحالة : معجم قبائل العرب (١٢٣١/٣)

^(٤) التفسير (٢٥٧/٨)

وكان الذين بنوا مسجد الضرار اثنا عشر رجلاً (كما سبق) وذكر الواقدي أنهم خمسة عشر رجلاً^(١) ، لكنه لم يذكر سوى اثنا عشر ؛ منهم : جارية بن عامر (وهو الملقب بحمار الدار) وابنه مَجْمَع - ولم يكن منافقاً ، وهو إمامهم) وابنه زيد بن جارية ، وهو الذي احترقت إِيَّتَهُ فأبى أن يخرج ، وابنه يزيد بن جارية ، ووديعه بن ثابت ، وخدام بن خالد (من داره أُخْرِجَ مسجد الضرار) وعبد الله بن نبتل ، وبجاد بن عثمان ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، ومعتب بن قشير ، وعباد بن حنيف ، وثعلبة بن حاطب .

وكان مخبر هؤلاء المنافقين وجاسوسهم على رسول الله ﷺ هو عبد الله بن نبتل ، كان يأتي النبي ﷺ فيسمع حديثه ، ثم يأتي المنافقين به .

بواعث وغايات ومهام مسجد الضرار الذي أمر النبي ﷺ بهدمه وحرقه :

تتلخص بواعث وغايات المنافقين من وراء بنائهم مسجد الضرار (كما ذكرت الآية القرآنية الكريمة) في أربع نقاط ، هي :

١ - الضرر والإضرار :

كما قال الله ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ التوبة: ١٠٧ ﴿ ضِرَارًا ﴾ التوبة: ١٠٧ وكلمة ﴿ ضِرَارًا ﴾ جاءت مفعولاً لأجله ؛ أي : ما حملهم على بناء المسجد شيء إلا من أجل إنزال الضرر والأذى بالمسجد المجاور لهم ، الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم من إنشائه ، وهو مسجد قباء . وقيل : مسجد الرسول ﷺ^(٢) . ولإنزال الضرر كذلك بالجماعة المسلمة المؤمنة ، التي على رأسها النبي ﷺ . فليس لهم رغبة أو هدف من وراء بناء هذا المسجد سوى الضرر والإضرار ، وطلبه ، والسعي لتحقيقه .

(١) المغازي (٧٦/٢)

(٢) قال الطبري في تفسيره (٢٨/١١) : وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب : قول من قال : هو مسجد رسول الله ﷺ ، لصحة الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ .

ولا يُسمَّى الشيءُ ضرراً ، إلا إذا عُدِمَ نفعُهُ ، وكان شراً محضاً (كما هو الحال في مسجد الضرار المذكور) أو كان ضرره راجحاً على نفعه وخيره (كالخمر والميسر) وفي كلتا الحالتين فإنَّ الضرر يُزال بمثله ، أو أكثر منه . كما جاء في الحديث النبوي الشريف : (لا ضرر ولا ضرار ، من ضارَّ ضارَّ الله به ، ومن شاقَّ شاقَّ الله عليه)^(١)

والقاعدة الفقهية تقول : (الضرر يُزال)^(٢)

وفي معنى الضرر والضرار يقول القرطبي في تفسيره : "الضررُ : الذي لك به منفعة ، وعلى جارك فيه مَضَرَّةٌ . والضرار : الذي ليس لك فيه منفعة ، وعلى جارك فيه مَضَرَّةٌ . وقد قيل : هما بمعنى واحد ، تكلم بهما جميعاً على جهة التأكيد"^(٣)

❁ وقال ابن الجوزي : "ضراراً : انتصب مفعولاً له . المعنى : اتخذوه للضرار . وقال المفسرون : والضرار : بمعنى المضارة لمسجد قباء"^(٤) .

❁ وقال الألويسي : "ضراراً : مفعول له . وكذا ما بعده ... وقيل : مفعول مطلق لفعل مقدر ؛ أي يُضارُّون بذلك المؤمنين ضراراً . والضرارُ : طلبُ الضررِ ، ومحاولته"^(٥) .

^(١) الحديث رواه : ابن ماجه : السنن (٧٨٤/٢) حديث رقم (٢٣٤٠) الدارقطني ، أبو الحسن علي بن عمر البغدادي (ت ٣٨٥هـ) السنن ، تحقيق عبد الله هاشم (٧٧/٣) حديث رقم (٢٨٨) (بيروت، دار المعرفة ، ١٩٦٦م) الحاكم : المستدرک (٦٦/٢) حديث رقم (٢٣٤٥) وقال عنه : صحيح على شرط مسلم .

^(٢) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) ، الأشباه والنظائر (ص ٨٣) (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د . ت)

^(٣) (٢٥٤/٨)

^(٤) زاد المسير (٥٠٠/٣)

^(٥) روح المعاني (١٧/١١)

٢- الكفر بالله ورسوله ﷺ :

﴿ ومن الغايات التي بُني لأجلها مسجدُ الضرار : الكفرُ بالله ورسوله ، وتقويةُ الكفر وأهله ، ومحاربةُ لله ورسوله وجماعة المؤمنين . وذلك باستخدامه كقاعدة للمنافقين ، ومأوى لهم ، يحيكون فيه المؤامرات على الدولة المسلمة الفتية ، وليكون مقرّاً لأبي عامر الراهب ، ومن معه من جند الروم عندما يصلون إلى المدينة المنورة ؛ ليُخرجوا النبي ﷺ وأصحابه منها .

فهم بنوا المسجد ، وأرادوا منه علاوة على الضرر : الكُفْر بالله ورسوله ، وانتصاراً للكفر ، وأهله . كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ التوبة: ١٠٧ فقوله : ﴿ وَكُفْرًا ﴾ التوبة: ١٠٧ معطوف على ضرار . أي : من أجل الكفر ، والإلحاد ، والمحاربة . فهم أضمروا هذه النية الخطيرة في قلوبهم منذ اللحظة الأولى من بنائهم وتأسيسهم لمسجدهم المشؤوم .

﴿ قال الشوكاني : "فقد أخبر الله ﷻ أن الباعثَ لهم على بناء هذا المسجد أمورٌ أربعةٌ : الأوّل : الضرار لغيرهم ، وهو : المضاررة . والثاني ، الكفر بالله ، والمباهاة لأهل الإسلام ، لأنهم أرادوا ببناؤه تقوية أهل النفاق" (١) .

﴿ وقال الشيخ محمد رضا : "أرادوا الكُفْر ، وتقوية الكُفْر ، وتسهيل أعماله مِنْ فِعْلٍ ، وتَوَكُّرٍ . كتمكين المنافقين مِنْ تَزْك الصلاة هناك ، مع خفاء ذلك على المؤمنين ؛ لعدم اجتماعهم في مسجدٍ واحدٍ . والتشاؤُر بينهم في الكيد لرسول الله ﷺ ، وغير ذلك" (٢) .

(١) الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٠هـ) ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير ، تحقيق سيد إبراهيم (٤٠٢/٢) (القاهرة ، دار الحديث ، ٢٠٠٣م)

(٢) رضا ، محمد رشيد ، تفسير المنار (٣٩ / ١١) (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٥م)

٣- تفريق جماعة المسلمين :

من البواعث والغايات التي أرادوها من وراء بنائهم لمسجد الضرار : تفرُّق جماعة المسلمين إلى جماعات ؛ ليقبَّلوا عدد الذين يجتمعون للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ ، وكذلك مسجد قباء .

وفي ذلك ما فيه من إضعافٍ للشوكة ، وتشتيتٍ للكلمة ، وإبعادٍ للمسلمين عن التأثير والتوجيه المباشر من شخص النبي ﷺ ، علاوةً على التقليل من سوادهم في جماعة واحدة . وتكثيرُ سواد المسلمين يُعدُّ مطلباً من مطالب الشريعة ، ومقصداً من مقاصد صلاة الجماعة .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَتَقَرَّبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة: ١٠٧ قال الشوكاني : "لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء ، فتقلَّ جماعة المسلمين . وفي ذلك من اختلاف الكلمة ، وبُطلانِ الألفة ما لا يخفى" (١) .

❦ وقال ابن الجوزي : "كانوا يصلُّون في مسجدِ قباء جميعاً ، فأرادوا تفريق جماعتهم" (٢) .

❦ وقال البغوي : "لأنهم كانوا جميعاً يصلُّون في مسجد قباء ، فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم ، فيؤدي ذلك إلى الاختلاف ، وافتراق الكلمة" (٣) .

(١) فتح القدير (٤٠٣/٢)

(٢) زاد المسير (٣٣٩/٣)

(٣) أبو محمد الحسين بن مسعود الشافعي (ت ٥١٦هـ) معالم التنزيل (٤٥/٣) (بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٠م)

❁ وقال القرطبي ❁ وَتَقَرَّبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ❁ التوبة: ١٠٧ أي : يفرقون به جماعتهم ؛ ليتخلف أقوامٌ عن رسول الله ﷺ . وهذا يدلُّك على أن القصد الأكبر والغرض الأخطر من وضع الجماعة : تأليف القلوب والكلمة على الطاعة ، وعقد الذِّمام والحُرمة بفعل الديانة ؛ حتى يقع الأُنس بالمُخالطة ، وتصفو القلوب من وَضَرِ الأَحقاد^(١) .

٤- ❁ وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ❁ :

أي : تَرَقُّباً وانتظاراً لِمَقْدَمِ مَنْ حارب الله ورسوله من قَبْلِ أَنْ يُبْنَى مسجد الضرار . وهو أبو عامر الفاسق ، الذي جنَّد نفسه لمحاربة الله ورسوله ، وكان قد خاض الحروب العديدة ضد النبي ﷺ قبل أن يُبْنَى مسجد الضرار ، وكان قد وعدهم ومَنَّاهم بأنه سيأتي معه جيش الروم ؛ لِيُخْرِجَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ . فطلب منهم تمهيداً لذلك أَنْ يَبْنُوا مَسْجِداً فِي الظاهر ؛ لِيَسْتَغْلَهُ كَقَاعِدَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ ، يَنْطَلِقَ مِنْهَا لِحَرْبِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

فهو مسجد في الظاهر ، ولكنه في حقيقة أمره قلعةٌ من قلاع الحزب ، والمكر ، والكُفْر .

❁ قال الشيخ محمد رضا : "الإرصاد لمن حارب الله ورسوله من قبل : أي : الانتظار والتَرَقُّبُ لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محارباً ، فيجد مكاناً مُرْصِداً له ،

(١) التفسير (٢٥٧/٨) وفي ذلك عظة وعبرة لكثير من الناس الذين يحرصون على أن لا يُصَلُّوا إلا في مكان معين ، ربما لا تتوافر فيه صفات المسجد الجامع ، متجاوزين في ذلك الأميال الكثيرة والمساجد الجامعة ؛ عصبيةً لشيخ معين ، أو طريقةً معينة يكون عليها ذلك الشيخ ، أو المكان ... حتى إنهم يُعرفون بنسبتهم إلى ذلك الشيخ أو المكان . وفي ذلك من التفرُّق ، وبذر الاختلاف والتفرق والضغائن بين المسلمين ما لا يخفى على أحد . والخلاف شر كما قال ابن مسعود رضي الله عنه

وقوماً راصدين مستعدّين للحرب معه ، وهم هؤلاء المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مَرَصداً لذلك" (١) .

واتفق المفسرون على أن الذي أغراهم ببناء هذا المسجد لهذا الغرض رجل من الخزرج يُعرف بأبي عامر الراهب ، وعدهم بأنه سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي ﷺ وأصحابه .

هذا المسجد بصفاته وغاياته وأهدافه الهدامة الخطيرة هو مسجد الضرار ، وهو المسجد الذي أمر النبي ﷺ بحرقه وهدمه ، ونهى عن الصلاة فيه . فهل هكذا هي المساجد التي يشار إليها في زماننا هذا بأنها مساجد ضرار ؟

والذي يبدو من دراسة هذه الحادثة أن المنافقين قد حذقوا خلال سني محاربتهم الإسلام مزيداً من الأساليب لتخريب المجتمع الإسلامي من الداخل ، بعد أن أَعْيَتْهُم كُلُّ الْحِيلِ السَّابِقَةِ ، فهام في ظاهر الأمر يَبْنُونَ مسجداً ، رَمَزَ الجماعة المسلمة ووَحَدَتْهَا ، وبه سيَحْقِقُونَ خفاءً أكثر ؛ ليمارسوا تفریق و تمزيق الصّف المسلم ، من المسجد الذي هو مركز الجماعة الإسلامية ، ومُنطَلَقَ نشاطاتها المختلفة ، وقلبها الذي لا يَكْفُفُ عن الخَفَقَانِ (٢) .

والذي نخلص إليه من كل ما تقدم في شأن المنافقين ، وممارستهم لإسلوب تفكيك مجتمع المدينة ووحدة المسلمين : أنهم كانوا من أضر أعداء الإسلام ممارسةً لهذا الأسلوب ، وأكبرهم كيداً ؛ لاندساسهم بين الصّف المسلم .

✽ ففي جبهة (المشركون ، المنافقون ، اليهود) قام عبد الله بن أبي ابن سلول بدوره منذ اللحظة الأولى لوصول الرسول ﷺ بسبب حرمانه زعامة قومه . يتضح ذلك

(١) التفسير (٤١/١١)

(٢) خليل ، دراسة في السيرة ، ص (٣٨٧.٣٨٨)

من قول كلٍّ من (أسيد بن حضير) كما عند ابن هشام^(١) : "يا رسول الله ، أرفق به ، فو الله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومَه لينظّمون له الخرزَ ؛ ليتوّجوه ، فإنه يرى أنك قد استلبتَهُ مُلكاً". وقول سعد بن عبادَة ، (ويقال : أسيد كما عند المقرئزي) : "يا رسول الله ، ارفق به ، فو الله لقد جاء الله بك ، وإن قومَه لينظّمون له الخرز ، ما بقيت عليهم إلا خرزةٌ واحدةٌ عند يوشع اليهودي ؛ ليتوجوه ، فما يرى إلا قد سلبتَهُ مُلكه"^(٢) .

ويمكن تَكَرُّرُ ذلك مع الزعيمين ، فمن المحتمل أن تكون المحادثتان معاً ، لخطورة الأمر ، ولِحِزْص الرسول ﷺ على معرفة رأي جميع قيادات الأنصار لهذا الموقف^(٣) .

مما سبق ؛ رأينا عبدَ الله بن أبي ابن سلول صاحبَ فتنة تفكيك مجتمع المدينة، وصاحب الفتنة بين (الأوس والخزرج) ومُثيرَ نزعة العصبية للتفريق بين المهاجرين والأنصار . كما وجدنا كتاب الله تعالى يقرّر حقيقة ممارسة المنافقين لهذا الأسلوب ، كما في قوله ﷻ : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ التوبة: ٤٧

وهكذا وصل بهم الأمر لبيتنا مؤسسات المجتمع المسلم ؛ ليمارسوا دور التخريب من خلالها ، كما حدث في بنائهم مسجد الضرار . فقد كان من أهداف إنشائه تفكيك وحدة المسلمين . كما سبق بيان ذلك .

(١) السيرة النبوية (٤/٢٥٥)

(٢) إمتاع الأسماع (١/٢٠٦)

(٣) الغضبان : المنهج الحركي (٢/٦٦)

وفي فقه قصة مسجد الضرار دروس وعبر وفوائد منها :

١. الكفر ملة واحدة . لقد تبين هذا في موقف أبي عامر الراهب من الإسلام ، ومن المسلمين ، إذ غَضِبَ غضباً شديداً ، وتآلم لهزيمة المشركين في بدر ، فأعلن عداؤه للرسول ﷺ ، وتوجه إلى عاصمة الشرك آنذاك مكة ، يحث أهلها على قتال المسلمين ، وخرج مقاتلاً معهم في أحد ، وحاول تفتيت الصف الإسلامي^(١) . وصدق الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفَعَّلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٧٣)

٢. محاولة التدليس على المسلمين . حاول المنافقون أن يُضْفُوا الشرعية على هذا البناء ، وأنه مسجدٌ بَنُوهُ لأسبابٍ مُقْنَعَةٍ في الظاهر ، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها . فقد جاءوا يطلبون من الرسول ﷺ أن يُبارِكَ هذا المسجدَ بالصلاة فيه ، فإن حدث هذا ، فقد استقر قرارهم في تحقيق أهدافهم . وهذا أسلوبٌ مآكرٌ خبيثٌ ، قد ينطلي على كثير من الناس .

٣. العلاج النبوي الحاسم . إنَّ أَمَرَ الرسول ﷺ بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل . وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ ، سنَّ لقائد الأمة القضاء على أيِّ عملٍ يُرادُ منه الإضرار بالمسلمين ، وتفريقُ كلمتهم . فالداءُ الغضالُ لا يُعالج بتسكينه ، والتخفيفِ منه ، وإنما يُعالج بحسَمه ، وإزالةِ آثاره ، حتى لا يتجدد ظُهوره بصورةٍ أخرى . وإنَّ الثمارَ العملية التي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر النبوي الحازم ؛ تدلُّنا على أن هذه المنهجية التي نهجها رسول الله ﷺ مع هذا المكر الخبيث هي الطريقة المثلى لقمع حركة النفاق في المجتمع المسلم . فقد تلاشى أمرُ المنافقين بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، حتى لم يَبْقَ منهم بعد لحاق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى إلا عددٌ قليلٌ ، ولم يُعْرَفْ منهم بعد

(١) أبو فارس ، محمد عبد القادر ، الصراع مع الصليبيين ، (طنطا ، دار البشير ، ١٤١٩هـ) ، ص (١٧٩)

تدمير مسجد الضرار أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه ؛ لِعَلِمِهِمْ بنتائج العمل بعد انكشافهم^(١).

٤. ما يُلْحَقُ بحكم مسجد الضرار . ذكر المفسرون ما يلحق مسجد الضرار في الحكم . وهذه بعض اقوالهم :

✽ أ. قال الزمخشري : "وقيل : كلُّ مسجد بُني مباحةً ، أو رياءً وسمعةً ، أو لِعَرَضٍ سوى وجه الله ، أو بمالٍ غير طيبٍ ؛ فهو لاحقٌ بمسجد الضرار"^(٢) .

✽ وعلّق الدكتور عبد الكريم زيدان على قول الزمخشري ، فقال : "ولكن : هل يُلْحَقُ بمسجد الضرار الذي بناه المنافقون في المدينة ، وأمر النبي ﷺ بهدمه ؟ لا أرى ذلك ، وإنما يمكن أن يقال : إنّ المسجد الذي بُني لهذه الأغراض يُلْحَقُ بمسجد الضرار من جهة عدم ابتناؤه على التقوى والإخلاص الكامل لله تعالى"^(٣) .

✽ ب. قال القرطبي : "قال علماؤنا: وكلُّ مسجدٍ بُني على ضرارٍ ، أو رياءٍ ، أو سمعةٍ ، فهو في حُكْمِ مسجد الضرار ، لا تجوز الصلاة فيه"^(٤) .

✽ ج. قال سيد قطب : "هذا المسجد (مسجد الضرار) الذي اتُّخِذَ على عهد رسول الله ﷺ مكيدةً للإسلام والمسلمين ، هذا المسجد ما يزال يُتَّخَذُ في صورٍ شتى ، ويُتَّخَذُ في صورٍ نشاطٍ ظاهره الإسلام ، وباطنه سحقُ الإسلام ، أو تشويهه . وتُتَّخَذُ في صورة أوضاعٍ ترفع لافتة الدين عليها ؛ لتتَّرس وراءها ، وهي ترمي هذا الدين . وتُتَّخَذُ في صورة تشكيلات وتنظيمات ، وكتب وبحوث

(١) الحميدي : التاريخ الإسلامي (١٣٠/٨)

(٢) الكشاف (٣١٠/٢)

(٣) المستفاد من قصص القرآن (٤٠٥/٢)

(٤) التفسير (٢٥٤/٨)

تتحدث عن الإسلام ؛ لتُخَدِّرَ الفاسقين الذين يرون الإسلام يُذبح ويُمَحَقُّ ، فتخدرهم هذه التشكيلات ، وتلك الكتب ، بما توحيه لهم من أن الإسلام بخيرٍ ، وأنه لا داعي للخوف ، أو القلق عليه" (١) .

٥. قاعدة لمعرفة ما يلحق بمسجد الضرار . قال الدكتور عبد الكريم زيدان : "كلُّ ما يُتَّخَذُ ممّا هو في ظاهره مشروع ، ويُريد متخذه تحقيقَ غرض غير مشروع ، فهو مما يُلْحَقُ بمسجد الضرار ؛ لأنّه يحملُ روحَه وعناصرَه" (٢) .

وإذا أردنا الإيجاز ، قلنا في هذه القاعدة : كلُّ ما كان ظاهره مشروعاً ، ويريده متخذه الإضرارَ بالمؤمنين ، فهو مُلْحَقُ بمسجد الضرار" (٣) .

وبناءً على هذه القاعدة ؛ يَخْرُجُ من نطاق مسجد الضرار وما يُلْحَقُ به : ما ذكره الإمام ابن القيم من مشاهد الشرك ، ومن أماكن المعاصي والفسوق ؛ كالحانات ، وبيوت الخمر والمنكرات ، ونحو ذلك . لأن هذه المنكرات ظاهرها غير مشروع ، فلا تُلْحَقُ به ، وإن استحققت الإزالة كمسجد الضرار ؛ باعتبارها منكراتٍ ظاهراً ، وباطناً (٤) .

٦ . مساجد الضرار في بلاد المسلمين . لا يزال أعداء الإسلام من المنافقين ، والملحدين ، والمنصرين ، والمستعمرين ، يقيمون أماكنَ باسمِ العبادة ، وما هي لها ، وإنّما المراد بها الطعن في الإسلام ، وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وآدابهم . وكذلك يقيمون مدارس باسمِ الدرس والتعليم ؛ ليصلوا منها إلى بثِّ سمومهم بين أبناء المسلمين ، وصرْفهم عن دينهم .

(١) في ظلال القرآن (٣/١٧١٠-١٧١١)

(٢) المستفاد من قصص القرآن (٢/٥٠٦)

(٣) م. ن (٢/٥٠٧)

(٤) م. ن (٢/٥٠٦) وينظر : ابن القيم : زاد المعاد (٣/١٧)

وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثقافة ، لغرض خلخلة العقيدة السليمة في القلوب ، والقيم الخلقية في النفوس . ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية ؛ لغرض التأثير على المرضى والضعفاء ، وصرفهم عن دينهم .

وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة (لا سيما في أفريقيا) ذريعةً للتوصل إلى أغراضهم الدنيئة ، التي لا يُقرُّها عقلٌ ، ولا شرعٌ ، ولا قانونٌ^(١) .

إن مسجد الضرار ليس حادثة في المجتمع الإسلامي الأول انقضت ؛ بل هي فكرة باقية ، يُخطِّط لها باختيار الأهداف العميقة ، وتُختار الوسائل الدقيقة لتنفيذها . وخططها تُصَبُّ في التآمر على الإسلام وأهله بالتشويه ، وقلب الحقائق ، والتشكيك ، وزرع بذور الفتنة ؛ لإبعاد الناس عن دينهم ، وإشغالهم بما يضرُّهم ، ويدمِّر مصيرهم الأخروي .

✽ وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أهم ما يستفاد من قصة مسجد الضرار ؛ حيث قال : "ومنها : تحريق أمكنة المعصية ، التي يعصى الله ورسوله فيها ، وهدمها ، كما حرَّق رسول الله ﷺ مسجدَ الضرار ، وأمر بهدمه ، وهو مسجد يُصلَّى فيه ، ويُذكر اسمُ الله فيه . كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين ، ومأوىً للمنافقين . وكلُّ مكانٍ هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله ، إمَّا بهدمٍ وتحريقٍ ، وإمَّا بتغيير صورته وإخراجه عما وضع لأجله .

✽ وإذا كان هذا شأنُ مسجدِ الضرار ، فَمَشَاهِدُ الشرك التي تدعو سَدَنُهَا إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحقُّ بذلك ، وأوجبُ . كذلك محال المعاصي والفسوق ؛ كالحاناتِ، وبيوتِ الخمارين ، وأربابِ المنكرات . وقد حرَّق عمرُ بن

(١) أبو شهبة ، محمد ، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (٢/٥٠٨) (ط٣، دمشق ، دار القلم ،

الخطاب ﷺ قريةً بكاملها يُباع فيها الخمر ، وحرَّقَ حانوت رُوَيْشِدِ الثَّقَفِيِّ^(١) ، وسماه فُويستقاً^(٢) .

^(١) أبو علاج الطائفي ، ثم المدني . له إدراك . ابن حجر : تعجيل المنفعة بزوائد الرجال الأربعة ، تحقيق إكرام الله إمداد الحق (ص ١٣٢) (ط ١، بيروت ، دار الكتاب الإسلامي ، د.ت) وينظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢٨٢/٣)

^(٢) زاد المعاد (٤٦/٣)

المطلب الرابع : محاولتهم اغتيال النبي ﷺ عند عودته من تبوك :

لقد تَوَجَّحَ المنافقون مكائدهم المتتالية للإسلام ، بمحاولة قتل النبي ﷺ ؛ وذلك في طريق عودته منتصراً غانماً ، قد أربى الروم ، وأدخل الرعب في نفوسهم ، وطهر عسكرياً جميع الجيوب المناوئة للإسلام في الشريط الشمالي للجزيرة العربية .

وهذه الحادثة تدلُّنا على أنَّهم بذلوا كُلَّ ما في جعبتهم من المحاولات ؛ من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين ، وذلك بمحاولة إهلاك النبي ﷺ بعدما حاولوا صرف الناس عن الدين بمختلف الوسائل ، فباءت محاولاتهم كلها بالفشل ، وظهر أمرُ الله وهم كارهون .

وفي العودة من تبوك ، ارتكب الباطنيون المنافقون المندسون في الجيش النبوي أكبر حماقة في تاريخ المتاعب التي كانوا يثيرونها ضد النبي ﷺ وأصحابه ؛ إذ حاولوا هذه المرة ارتكاب أكبر جريمة في التاريخ ، وهي : اغتيال النبي ﷺ بأسلوب جبانٍ مكرٍ خبيثٍ ، لا يُتقَنُهُ إلا المنافقون الجبناء .

فقد وضع المنافقون المتآمرون خِطَّةً خبيثةً للتخلُّص من الرسول ﷺ ، وكان هؤلاء المنافقون قد وضعوها على أساس أنها لو نجحت ستبدو وكأنها قضاءٌ وقدرٌ ؛ لأنَّ ما قرَّر هؤلاء المنافقون أن يكون وسيلةً لقتل النبي ﷺ له نظائر تحدث لأفراد آخرين . فلم يقرَّر المنافقون وهم يضعون خطة الاغتيال ، أن يقتلوا النبي ﷺ بسيف ، أو رمح ، أو سهم . وإنما قرروا زيادةً في الكتمان أن يكون قتلُه عن طريق نفور الناقة التي كان يركبها ، فتزديه في وادٍ سحيق ، بحيث لا يكون هناك مجالٌ لاتِّهام أحدٍ بقتله .

كيف فشلت خطة المنافقين في محاولة الاغتيال ؟

كانت خطة المنافقين للاغتيال قابلةً للنجاح بسهولة ، لو أنَّ الجيش كُلَّهُ سلك الطريق الذي كان من المقرر أن يسلكها ، وهي عَقَبَةٌ تُشْرِفُ على وادٍ سحيق .

فقد علم المنافقون أنّ الآلاف من راكبي الخيل والإبل سيتزاحمون حول رسول الله ﷺ في هذه العقبة الخطرة . ومن السهل على فئة قليلة من الرجال الازدحام حول الناقة التي يركبها رسول الله ﷺ لتنفيذ المؤامرة ، بحيث يتمكنون في ظلام الليل وفي غمرة الزحام من العمل بأية وسيلة لإسقاط النبي ﷺ من على ظهر ناقته إلى الوادي للتخلص منه . فيبدو الأمر وكأنه قضاء وقدر .

وهذا هو الذي استقر عليه رأي المنافقين، وهم يضعون خطة الاغتيال . إلا أن النبي ﷺ بلغه خبر المؤامرة في اللحظات الأخيرة ، فعمد إلى إحباط المؤامرة ، فأصدر أمره للجيش كله بأن يغير اتجاه سيره ، فيسلك الوادي ، بدلاً من أن يسلك العقبة . ثم سلك رسول الله ﷺ العقبة ومعه ثلاثة نفر من أصحابه ، وهم : عمار بن ياسر^(١) ، وحذيفة بن اليمان^(٢) ، وحمزة بن عمرو الأسلمي^(٣) .

وهنا بدا وكأن محاولة المنافقين قد فشلت نهائياً ؛ لأن عناصر هؤلاء المنافقين لا المكلفة بالاغتيال لا تستطيع تنفيذه هذه الخطة ؛ ذلك أن انفصال هذه العناصر من

^(١) العنسي ، حليف بني مخزوم . كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وشهد معركة اليمامة ، ثم استعمله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة ، وشهد مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه صفين ، فقتل بها سنة (٣٧هـ) وكان عمره (٩٣) سنة ، ابن خياط : الطبقات ، ص (٢١) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٣/ ٢٤٦) ابن عبد البر : الاستيعاب (٣/ ١١٣٥) ابن حجر : الإصابة (٢/ ٥١٢)

^(٢) صحابي جليل . شهد أحداً وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ ، ثم شهد فتوح العراق ، وله فيها ذكر حسن . استعمله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على المدائن، فلم يزل بها إلى أن مات سنة (٣٦هـ) في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ابن خياط : الطبقات ، ص (٤٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٦/ ١٥) ابن حجر : الإصابة (١/ ٣١٨)

^(٣) صحابي جليل ، روى عن النبي ﷺ ، مات سنة (٦١هـ) بالمدينة ، ابن سعد : الطبقات الكبرى

(٤/ ٣١٥) ابن قانع : معجم الصحابة (١/ ١٦٦)

الجيش تثير حولهم الشكوك والريب ، وتجعلهم من المتعمدين مخالفة أوامر النبي ﷺ .
ولكن هؤلاء المنافقين لم يأسوا ، فقد مضوا في مخططهم ، فاعتنوا فرصة ظلام الليل
الذي سيكون مخيماً عندما يمر النبي ﷺ بالمكان الخطر من العقبة ، الذي قرروا أن تتم
عملية الاغتيال فيه ، فوضعوا مخططاً جديداً لاغتيال رسول الله ﷺ .

وهذا المخطط الجديد يتلخص فيما يلي :

- ١- أن يُتَدَبَ ثلاثة عشر من هؤلاء المنافقين للمهمة .
- ٢- عليهم ألا يباشروا المؤامرة إلا إذا خيم الظلام .
- ٣- عليهم أن يتلثموا عند الشروع في المؤامرة ؛ لئلا يتمكن أحدٌ من معرفتهم .
- ٤- عليهم أن ينصبوا كمينهم في المكان الخطر من العقبة .
- ٥- عليهم أن لا يستخدموا لتنفيذ الاغتيال أي سلاح ؛ من رُمح ، أو سيف ، أو
نَبَلٍ .
- ٦- عليهم إذا مرّ النبي ﷺ بهم في المكان الخطر المحدد من العقبة ، أن يزحموا
جميعهم ناقته بركابهم ، ويلجئوها إلى حافة الوادي ، ثم يقطعون أنساع^(١) رحلها في
الظلام ؛ حتى يقع النبي ﷺ عنها في الوادي فيموت^(٢) .

وعلى أساس هذه الخطة شرع المنافقون في المؤامرة الخبيثة الجديدة ؛ إلا أن
رسول الله ﷺ اكتشفهم عند شروعاتهم في المؤامرة ، فأحبطها ، حين أمر حذيفة بن اليمان
ﷺ بمهاجمتهم ، فهاجمهم حذيفة ﷺ . ولما كانوا لا يريدون أن يعرفهم أحد ، هربوا ،

(١) سَيْرٌ مظفور يُجعل زماماً للبعير وغيره ، وقد يُنسج عريضاً ، يُجعل على صدر البعير يُشدُّ به الرّخل
. ابن الأثير : النهاية (٤٧/٥) ابن منظور : لسان العرب (٣٥٣/٨)

(٢) باشميل ، محمد أحمد ، موسوعة الغزوات الكبرى ، (جدة ، ١٣٩٥ هـ) ، (١٢٧/١٠)

وما زالوا يوغلون في الهَرَبِ حتى دخلوا في سواد الجيش في الوادي ؛ لئلا يعرفهم
أحد^(١)

قال الواقدي يصف المؤامرة : "ولمّا كان رسول الله ﷺ ببعض الطريق مَكَّرَ به
ناش من المنافقين ، وائتمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق . فلما بلغ رسول الله ﷺ
تلك العقبة ، أرادوا أن يسلكوها معه ، فأخبر رسول الله ﷺ خبرهم ، فقال للناس :
(اسلكوا بطنَ الوادي ، فإنه أسهل لكم وأوسع) فسلك الناس بطن الوادي ، وسلك
رسول الله ﷺ العقبة ، وأمر عمّار بن ياسر ﷺ أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، وأمر حذيفة
بن اليمان ﷺ أن يسوق من خلفه .

فبينما رسول الله ﷺ يسير في العقبة إذ سمع حَسَّ القوم قد غَشَوْهُ ، فغضب
رسول الله ﷺ ، وأمر حذيفة ﷺ أن يَرُدَّهُمْ ، فرجع حذيفة إليهم ، وقد رأوا غضب رسول
الله ﷺ ، فجعل يضربُ وجوهَ رواحلهم بِمِخْجَنٍ في يده ، وظنَّ القوم أن رسول الله ﷺ
قد اطلع على مكرهم ، فانحطوا مسرعين من العقبة حتى خالطوا الناس ، فقال النبي ﷺ :
(يا حذيفة ، هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم ؟) قال : يا رسول الله ، عرفت
فلاناً و فلاناً ، وكان القوم ملثمين ، فلم أبصُرْهم في ظُلْمَةِ الليل^(٢) .

وكان هؤلاء المتآمرون قد نجحوا نجاحاً جزئياً عندما شرعوا في مؤامرتهم
الخبیثة ؛ إذ تمكّنوا من أن يزججوا ناقة رسول الله ﷺ حتى نفرت به ، وسقط بعض متاع
رُحْلِهِ ، ولكنه هو ﷺ لم يسقط .

^(١) ابن القيم : زاد المعاد (١٧.١٦/٣) ابن كثير : البداية والنهاية (٢١.١٩/٥) المقرئ : إمتاع الأسماع
(ص ٤٧٧-٤٧٨)

^(٢) المغازي (١٠٤٣.١٠٤٢/٣)

وقد ذكر ابن إسحاق هذه القصة ، إلا أنه ذكر أن النبي ﷺ ، إنما أعلم حذيفة ﷺ بأسمائهم وحده . وهذا هو الأشبه . ويشهد له قول أبي الدرداء ﷺ لعلمة^(١) صاحب عبد الله بن مسعود^(٢) : أليس فيكم - يعني أهل الكوفة - صاحب السواد والوساد ، يعني ابن مسعود ، أليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، يعني حذيفة ، أليس فيكم الذي أجاره الله على لسان محمد ﷺ ، يعني عماراً !

✽ قال ابن كثير : ورؤينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لحذيفة : أقسمت عليك بالله ، أنا منهم ؟ قال : لا ، ولا أبريء بعدك أحداً . يعني : حتى لا يكون مفشياً سر النبي ﷺ^(٣)

وقد كانوا أربعة عشر رجلاً . وقيل : كانوا اثني عشر رجلاً . وذكر ابن إسحاق^(٤) أن رسول الله ﷺ بعث إليهم حذيفة بن اليمان ﷺ ، فجمعهم فأخبرهم رسول الله ﷺ بما كان من أمرهم ، وبما تمالؤوا عليه . ثم سرد ابن إسحاق أسماءهم ، وقال : وفيهم أنزل

(١) أبو شبل ، علقمة بن قيس بن عبد الله ، النخعي ، الكوفي ، فقيه العراق . وُلد في حياة النبي ﷺ ، وصحب عبد الله بن مسعود ﷺ ، وكان من أنبل أصحابه . مات سنة (٦٢هـ) ابن حبان ، مشاهير علماء الأمصار تحقيق فلاشهير (ص ١٠٠) (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٥٩م) الذهبي : تذكرة الحفاظ (٤٨/١)

(٢) أبو عبد الرحمن الهذلي ، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه الذي يتولى شأن فراشه ونعليه ، وأحد السابقين الأولين ، ومن كبار أصحاب بدر ، ومن نبلاء الفقهاء ، والمقرئين ، أرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إلى الكوفة ليُعلم أهلها ، ثم قدم المدينة سنة (٣٢هـ) ومات بها في السنة نفسها . يُنظر : ابن خياط : الطبقات ، ص (١٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٣/١٥٠) ابن عبد البر : الاستيعاب (٣/٩٨٧) ابن حجر : الإصابة (٢/٣٦٨)

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية (٥/٢٥)

(٤) المرجع ذاته (٥/٢٥)

الله ﷻ ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَمَازُونَ﴾ التوبة: ٧٤ أسماء المتآمرين من المنافقين في محاولة اغتيال النبي ﷺ :

ذكر ابن إسحاق في هذه القصة : أن النبي ﷺ قال لحذيفة : "إن الله أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وسأخبرك - إن شاء الله - غداً عند وجه الصبح ، فانطلق ؛ حتى إذا أصبحت فاجمعهم . فلما أصبح ، قال : ادع عبد الله بن أبي ، وسعد بن أبي سرح ، وأبا خاطر الأعرابي ، وعامراً - أو أبا عامر - ، والجلّاس بن سويد بن الصامت ، وهو الذي قال : لا تنتهي حتى نرمي محمداً من العقبة الليلة ، وإن كان محمد وأصحابه خيراً منا ، إنّنا إذنٌ لنعنم وهو الرّاعي ، ولا عقل لنا وهو العاقل .

وأمره أن يدعو مَجْمَع ابن حارثة ، ومليحاً التيمي ، وهو الذي سرق طيب الكعبة ، وارتد عن الإسلام ، وانطلق محارباً في الأرض ، فلا يُدرى أين ذهب .

وأمره أن يدعو حِضْن بن نُمير الذي أغار على تمر الصدقة ، فسرقه ، فقال له رسول الله ﷺ : (ويحك ! ما حملك على هذا ؟) قال : حملني على ذلك أنّي ظننت أنّ الله لا يُطلعك عليه ، فأما إذا أطلعك عليه ، وعلمت أننا أشهد اليوم أنك رسول الله ، وإنّي لم أو من بك قط قبل هذه الساعة . فأقال رسول الله ﷺ عشرته ، وعفا عنه .

وأمره أن يدعو طُعَيْمَةَ بنِ أُبَيْرِق ، وعبد الله بن عيينة ، وهو الذي قال لأصحابه : اسهروا هذه الليلة تسلّموا الدهر كلّهُ ، فو الله ما لكم أمرٌ دون أن تقتلوا هذا الرجل . فدعاه ، فقال : (ويحك ! ما كان ينفك قتلي لو أنّي قتلت ؟) فقال عبد الله بن عيينة : فو الله يا رسول الله لا نزال بخير ما أعطاك الله النصر على عدوك ، إنّما نحن بالله وبك . فتركه رسول الله ﷺ .

وقال : ادع مرة ابن الربيع ، وهو الذي قال : نقتل الواحد الفرد ، فيكون الناس عامّةً بقتله مطمئنين . فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال : (ويحك ! ما حملك على أن تقول

الذي قلت ؟) فقال : يا رسول الله ، إن كنتُ قلتُ شيئاً من ذلك إنَّكَ لعالمٌ به ، وما قلتُ شيئاً من ذلك .

فجمعهم رسول الله ﷺ وهم اثنا عشر رجلاً ، الذين حاربوا الله ورسوله ، وأرادوا قتله ، فأخبرهم رسول الله بقولهم ، ومنطقهم ، وسرهم ، وعلاانيتهم . وأطع الله ﷺ نبيه على ذلك بعلمه . ومات الاثنا عشر منافقاً محاربين لله ورسوله ﷺ^(١) .

قال ابن القيم معلقاً على رواية ابن إسحاق هذه : وفي سياق ما ذكره ابن إسحاق وَهَمُّ من وجوه :

أحدها : أن النبي ﷺ أسرَّ إلى حذيفة أسماء أولئك المنافقين ، ولم يُطْلَعْ عليهم أحداً غيره . وبذلك كان يقال لحذيفة أنه صاحب السرِّ الذي لا يعلمه غيره . ولم يكن عمرُ ﷺ ولا غيره يعلم أسماءهم . وكان إذا مات الرجل ، وشكوا فيه ، يقول عمر ﷺ : انظروا فإنَّ صلَّى عليه حذيفة ، وإلا فهو منافق منهم .

الثاني : ما ذكرناه من قوله : فيهم عبد الله بن أبي . وهو وَهَمٌ ظاهر . وقد ذكر ابن إسحاق نفسه أن عبد الله بن أبي تخلف عن غزوة تبوك .

الثالث : أن قوله وسعد بن أبي سرح ، وَهَمٌ أيضاً ، وخطأً ظاهر . فإنَّ سعد بن أبي سرح لم يُعرف له إسلامُ ألبتَّة . وإنما ابنه عبد الله بن سعد ، كان قد أسلم وهاجر ، ثم ارتدَّ ، ولحق بمكة ، حتى استأمن له عثمان بن عفان ﷺ النبي ﷺ عام الفتح ، فأمنه ، وأسلم فحسُن إسلامه ، ولم يظهر منه بعد ذلك شيءٌ يُنكر عليه ، ولم يكن مع هؤلاء الاثني عشر ألبتَّة . فما أدري ما هذا الخطأ الفاحش !؟

الرابع : قوله : وكان أبو عامرٍ رأسهم . وهذا وهم ظاهر ، لا يخفى على من دون ابن إسحاق ، بل هو نفسه ذكر قصة أبي عامر في قصَّة الهجرة ، وأنَّ أبا عامر عندما

(١) ابن كثير : البداية والنهاية (٥ / ٢٧٠٦)

هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، خرج إلى مكة بيضة عشر رجلاً ، فلما فتح النبي ﷺ مكة ، خرج إلى الطائف^(١) ، فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام ، فمات بها طريداً ، وحيداً ، غريباً . فأين كان الفاسق وغزوة تبوك ذهاباً وإياباً؟!^(٢)

المطالبة بقتل المتآمرين :

كان هؤلاء الباطنيون المتآمرون قد نجحوا جزئياً عندما شرعوا في مؤامرة اغتيال الرسول ﷺ ، فتمكّنوا من أن يزعموا ناقة الرسول ﷺ بأساليهم الخاصة في الظلام حتى نفرت ، فسقط بسبب ذلك بعض متاع رخل النبي ﷺ من على ظهر الناقة ، ولكنه هو لم يسقط ؛ لأن أمر هؤلاء الخونة أكتشف قبل أن يتمكنوا من تحقيق هدفهم الخبيث . ونجّى الله رسوله ﷺ من المؤامرة .

قال الواقدي : "وكانوا قد أنفروا بالنبي ﷺ فسقط بعض متاع رخله . فكان حمزة بن عمرو الأسلمي يقول : فنور لي أصابعي الخمس ، فأضأن حتى كنا نجمع ما سقط من السوط ، والحبل ، وأشباههما ، حتى ما بقي من المتاع شيء إلا جمعناه . وكان لحق النبي ﷺ في العقبة"^(٣) .

وقد بلغ خبر المؤامرة سيّد الأوس أسيد بن حُضير ؓ فعرض على النبي ﷺ أن يأمر بقتل المتآمرين ، على أن تتولّى كلّ عشيرة من الأنصار قتل الرجل المشترك منها في المؤامرة ، ولكن رسول الله ﷺ آثر الصفح ، ولم يأخذ باقتراح أسيد بن حُضير ؓ .

^(١) مدينة جنوب مكة على بعد (٣٦) ميل ، كانت مساكن قبيلة ثقيف ، الحموي : معجم البلدان

(٨/٤)

^(٢) زاد المعاد (٩/٤)

^(٣) المغازي (١٠٤٣/٣)

قال الواقدي: "فلما أصبح رسولُ الله ﷺ قال له أُسَيْدُ بْنُ حَضِيرٍ: يا رسول الله ، ما منعك البارحة من سلوك الوادي فهو أسهل من العقبة؟ قال: (يا أبا يحيى ، أتدري ما أراد البارحة المنافقون ، وما اهتموا به؟ قالوا: نتبعه في العقبة ، فإذا أظلم الليل عليه ، قطعوا أنساع راحلتي ، ونخسوها حتى يطرحوني من راحلتي) فقال أُسَيْدُ بْنُ حَضِيرٍ: يا رسول الله ، فقد اجتمع الناس ونزلوا ، فمُرَّ كُلُّ بَطْنٍ أَنْ يَقْتُلَ الرَّجُلَ الَّذِي هَمَّ بِهَذَا ، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله ، وإن أحببت -والذي بعثك بالحق- فبئسني بهم ، فلا تبرح حتى آتيك برؤوسهم . وإن كانوا من النبيت^(١) كفيئتهم ، وأمرت سيد الخزرج فكفأك من في ناحيته ، فإن مثل هؤلاء لا يُتركون يا رسول الله؟ حتى متى ندهنهم ، وقد صاروا اليوم في القلة والذلة ، وقد ضرب الإسلام بجُرَّانِه^(٢) ، فما يُستبقي من هؤلاء؟ قال رسول الله ﷺ لأُسَيْدٍ: (إني أكره أن يقول الناس: إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه) فقال: يا رسول الله ، فهؤلاء ليسوا بأصحاب. قال رسول الله ﷺ: (أليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟) قال: بلى ، ولا شهادة لهم . قال: (أليس يُظهرون أني رسول الله؟) قال: بلى ، ولا شهادة لهم . قال: (قد نُهييت عن قتل أولئك)"^(٣) .

قال الواقدي: "نزل رسول الله ﷺ عن راحلته ، فأوحى إليه وراحلته بركة ، فقامت راحلته تجرُّ زمامها ، حتى لقيها حذيفة بن اليمان ؓ فأخذ بزمامها فاقتادها حين رأى رسول الله ﷺ جالساً ، فأناخها ، ثم جلس عندها ، حتى قام رسول الله ﷺ فأتاه ،

(١) النَّبَيْتُ ، هو : عمرو بن مالك بن الأوس . البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) أنساب الأشراف (٢٨٧/١) (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤م)

(٢) الْجُرَّانُ : باطن العنق . وقيل : مُقَدَّمُ العُنُقِ مِنْ مَذْبَحِ البعيرِ إِلَى نحره ، فإذا برك البعير مدَّ عُنُقَه على الأرض قيل : ألقى جُرَّانَه بالأرض . والمعنى هنا : أن الإسلام استقرَّ ، وقرَّ قراره ، كما إن البعير إذا برك واستراح مدَّ جُرَّانَه على الأرض ؛ أي : عُنُقَه . ابن منظور: لسان العرب (٨٦/١٣)

(٣) المغازي (٣/١٠٤٣-١٠٤٤)

فقال : (من هذا ؟) قال : أنا حذيفة . فقال النبي ﷺ : (فإني مُسرٌّ إليك أمراً فلا تذكره ؛ إنني نُهيئتُ أن أصلي على فلانٍ ، وفلانٍ ، وفلانٍ) رهط عدة من المنافقين ، ولم يُعلم رسولُ الله ﷺ أحداً غيرَ حذيفة . فلما تُوفي رسولُ الله ﷺ كان عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته إذا ماتَ رجل يظن أنه من أولئك الرهط ، أخذ بيد حذيفة فقادَه إلى الصلاة عليه ، فإن مشى معه حذيفةُ صلى معه عمر ، وإن انتزعَ يده وأبى أن يمشي انصرف معه ... فلم يُخبر رسولُ الله ﷺ أحداً إلا حذيفة . وهم اثنا عشر رجلاً . ويعني أولئك المنافقين ، ليس فيهم قُرشيٌّ . وهذا أمرٌ مُجمَعٌ عليه ."

المبحث الخامس

وفاة زعيم المنافقين

والأحكام التي نزلت فيهم ، ونهايتهم في عصر التنزيل

المطلب الأول : وفاة زعيم المنافقين ، والأحكام التي برزت في هذه المرحلة:

مَرَضَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَلُولٍ ، رَأْسَ لِمُنَافِقِينَ ، فِي لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنْ شَوَالٍ ، وَمَاتَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ التَّاسِعَةِ (١) .

قال أسامة بن زيد ؓ : دخلتُ مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي في مرضه نعوذه ، فقال له النبي ﷺ : (قد كنت أنهاك عن حبِّ يهود) فقال عبد الله : فقد أبغضهم سعدُ بن زرارة (٢) فَمَمَّة؟ (٣) .

ولمَّا تُوفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَاءَ ابْنَهُ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يَكْفِيْنُ فِيهِ أَبَاهُ ، فَأَعْطَاهُ . ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تُصَلِّيْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ نَهَاكَ

(١) الطبري : التاريخ (١٩٠/٢)

(٢) الأنصاري . ذكره أبو حاتم في الصحابة . ابن حجر : الإصابة (٢٧/٢)

(٣) أبو داود : السنن (١٨٤/٣) حديث رقم (٣٠٩٤) ، وقوله : (فَمَمَّة؟) أي : فماذا ؟ يريد : أنه لا يضُرُّ حُبُّهُمْ ، ولا ينفع بُغْضُهُمْ ، ولو نفع بغضهم لما مات سعد بن زرارة . وهذا من قلة فهمه ، وقصور نظره . كأن الضر والنفع هو في الموت ، والتخلص منه . العظيم آبادي : عون المعبود (٢٤٨/٨)

رُبُّكَ أَنْ تَصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ ، فَقَالَ : ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ٨٠) التوبة: ٨٠ وسأزيد على السبعين) قال : إنه منافق . قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَقَمْتُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ التوبة: ٨٤

فتبين من هذا النص وقت نزول هاتين الآيتين . فالآية : ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ﴾ التوبة: ٨٠ نزلت بمناسبة موت عبد الله بن أبي بن سلول . وقد قال الحافظ ابن حجر في ذلك : ذكر الواقدي : ثم إنه مات بعد مُنصرِفِه من تبوك ، وذلك في ذي القعدة سنة تسع ، وكانت مدة مرضه عشرين يوماً ، ابتدأها من ليالٍ بقين من شوال^(١) . فيكون هذا النص قد نزل في ذلك الوقت ؛ لأن الآية الأولى : ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ﴾ نزلت وهو في مرضه . والآية : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَقَمْتُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ التوبة: ٨٤ نزلت بعد موته .

حكمة النبي ﷺ في الصلاة على عبد الله بن أبي بن سلول :

صلى النبي ﷺ على عبد الله بن أبي ؛ إجراءً له على حكم الظاهر ، وهو الإسلام ، ولما فيه من إكرام لولده عبد الله ، وكان من خيار الصحابة وفضلائهم ، وهو الذي عرض على النبي ﷺ أن يقتل أباه لما قال مقاتله يوم غزوة بني المصطلق . كما بيناه في موضعه . ولما فيه من مصلحة شرعية ، بتأليف قلوب قومه وتابعيه ، فقد كان يدين له بالولاء فئة كبيرة من المنافقين ، فعسى أن يتأثروا ويرجعوا عن نفاقهم ، ويعتبروا ، ويُخلصوا لله ولرسوله ﷺ . ولو لم يُجب النبي ﷺ ابنه ، وترك الصلاة عليه قبل ورود

(١) فتح الباري (٨/٣٣٣)

النهي الصريح ، لكان سبباً وعاراً على ابنه وقومه . فالرسول ﷺ أتبع أحسن الأمرين في السياسة ، إلا أنه نهى ، فانتهى^(١) .

وأما إعطاؤه ﷺ قميصه ، فلأن الظنَّ به بُحُلُّ بالكريم ، وقد كان من خُلُقهِ ﷺ أنه لا يرد طالب الحاجة قط ، على أنه كان مكافأة له على إعطائه العباس بن عبد المطلب قميصه لما جيء به أسيراً يوم بدر . وكان من خُلُقِ النبي ﷺ ردُّ الجميل بخير منه^(٢) .

فإن قيل : إن الله ﷻ أخبر أنه لن يغفر للمنافقين - قبل أن يُصلي النبي ﷺ على عبد الله بن أبي - ، فما الفائدة من صلواته عليه ؟

فالجواب : إن صلاة النبي ﷺ على عبد الله بن أبي ؛ لا لحصول المغفرة له ، وإنما هي لمصلحة الدعوة الإسلامية آنذاك ؛ فإن في الصلاة عليه - كما قلنا - تأليفاً لقومه ؛ لسيادته فيهم ، وجبراً لقلب ولده عبد الله ، ولم يكن قد نزل على النبي ﷺ آنذاك نهياً عن الصلاة على المنافقين ، فأقدم النبي ﷺ على الصلاة عليه لتلك المصلحة ، كما ترك قتله من قبلُ لنفس المصلحة ؛ إذ لم يُؤمر بقتل المنافقين . وقد كان عبد الله بن أبي مُظهِراً للإيمان ، فلو ترك النبي ﷺ الصلاة عليه لأنكر ذلك قومه ؛ لاعتقاد بعضهم بإيمانه . فإن في الصلاة عليه تأليفاً لقومه ، ودرءاً لما قد يحدث من الفتنة بسبب ترك الصلاة عليه ؛ فإن من قومه من لا يزال يحترمه ، ويُكبره ؛ حتى مات .

ومما يدل على إرادة النبي ﷺ هذه المقاصد : ما أخرجه ابن جرير - بعد ما ذكر خبرَ استغفار النبي ﷺ لعبد الله بن أبي ، وتكفينه في قميصه - ، قال : "وذكر لنا أن النبي ﷺ كَلِمَ في ذلك فقال : (وما يُغني عنه قميصي من الله؟) أو قال : (ربي) ، وصلى عليه (وإني لأرجو لأن يُسلم به ألف من قومه)"^(٣) .

(١) أبو شهبه : السيرة النبوية (٢/٥٣٣-٥٣٤)

(٢) المرجع ذاته (٢/٦٢١-٦٢٢)

(٣) التفسير (١٠/٢٠٦)

❦ وحكم الله ورسوله ﷺ إذْنُ هو : عدم الصلاة على المنافقين . وبين الله ﷻ أن الاستغفار لهم لا ينفعهم ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا على ذلك ، فكان جزاءهم الخلودُ في النار ، والحرمانُ من الجنة . والاستغفارُ للميت لا يمنع عنه الخلودُ في النار، ولا يمنحُه الجنةَ . ولو كان الاستغفارُ نافعاً للكفار لاستوى في الجزاء المؤمنُ المتقيُّ بأوامر الله ونواهيه ، مع الكافر المنقاد لشهواته . وهذا مخالف للحكمة . ولفسدت الأرضُ بكثرة الفجار الذين يرجون دخول الجنة بدعوات غيرهم ، وإنما ينفع الاستغفارُ مَنْ مات على الإيمان ؛ لأنه بإيمانه بالله قد التزم سلوك الطريق المستقيم الموصل إلى العاقبة الحميدة . وإنما حمَلَه الضعف البشري على الانحراف بعض الشيء ؛ فإذا أراد الله له الخير شَمِلَه بعفوه ، ورحمته .

❦ ولقد التزم النبي ﷺ بعد نزول هذه الآيات بهذا الحكم ، فكان لا يصلي على المنافقين . والتزم الصحابةُ ﷺ من بعده في من تأكدوا أنه منهم . رُوِيَ عن حذيفة ﷺ قال : مرَّ عمر بن الخطاب ﷺ وأنا جالس في المسجد ، فقال لي : يا حذيفة ، إن فلاناً قد مات فاشهدهُ ، ثم مضى حتى إذا كاد أن يخرج من المسجد التفت إليّ ورآني وأنا جالس ، فعرف ، فرجع إليّ ، فقال : يا حذيفة ، أنشدك الله ، أمن القوم أنا ؟ قلتُ : اللهم لا ، ولن أبرئ أحداً بعدك . فرأيت عينا عمر جاءتا^(١) .

وإنما عرف عمر ﷺ أن ذلك الميت من المنافقين ؛ لأن حذيفة ﷺ لم يقم لشهود جنازته ، وقد اختصه النبي ﷺ بمعرفة مَنْ بقي من المنافقين ، واستكتمه ذلك . ❦ ولقد أهمل كثيرٌ من المسلمين بعد ذلك هذا الحكم ، فصاروا يصلُّون على كلِّ مَنْ أظهر الإسلام ولو كانوا يعلمون كُفْرَه ؛ إمَّا جهلاً بالحكم ، أو مداراةً لأهل الميت وعشيرته ، أو المجتمع . خاصّةً إذا كان زعيماً له أنصاره ومؤيدوه ممن هو على شاكلته في النفاق ، أو من ضعفاء الإيمان .

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق (٢٧٦/١٢) وقوله : جاءتا ، أي : بكى .

وكم رأينا من هؤلاء القادة المنافقين والعلمانيين الذين عاشوا طيلة حياتهم حرباً على الإسلام والمسلمين ، وإذا ماتوا صلى عليهم من الألواف المؤلفة من الجهلة والمنافقين أمثالهم ، وشعوبهم ، وكأنهم لم تتلخخ أيديهم بدماء المسلمين الأبرياء ، ولم يعيشوا حياتهم خدماً للصليبيين واليهود .

❦ إن تزك النبي ﷺ الصلاة على أمثال هؤلاء ، هو أقل ما يتخذة ذلك المؤمن الصادق ، وإن قيل بحقه ما قيل ؛ فإن من أصل الإيمان بغض هؤلاء المنافقين ومحاربتهم ؛ لأن الحب في الله والبغض في الله من أعظم أصول عقيدة المسلمين . ومن فرط به فقد خسر خسراناً ميبناً .

أهم الأحكام التي برزت في هذه الرحلة ضد المنافقين :

١- عدم الصلاة^(١) على من مات منهم ، ودمغهم بالكفر . قال تعالى : ❦ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَفَمَ عَلَى قَبْرِهِ ۗ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ❦
التوبة: ٨٤

وفي هذه الآية عقوبة ثانية ، بعد العقوبة الأولى ، فكما لم يسمح للمخلفين في ساعة العسرة أن ينتظموا في صفوف المجاهدين ، كذلك أمر الله الأيُّخلع عليهم أيُّ ظلالٍ من ظلال التكريم .

وهل يوجد تكريم أفضل من جهادهم مع رسول الله ﷺ ؟! لكن الله عاقب المنافقين المخلفين برفضهم أبداً من الجهاد مع رسول الله ﷺ . وهذه العقوبة الأولى في حياتهم ، وجاءتهم العقوبة الثانية بعد موتهم . بقول الله تعالى : ❦ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَعْدَدُوا لِّلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّن نَّخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن نُّقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ❦ (٨٣) ❦ التوبة: ٨٣ - تهديم مسجدهم الذي بنوه ريبة ؛ للإضرار بالمسلمين ، وهو مسجد الضرار . وقد فصلنا ذلك في المبحث الحادي عشر .

(١) الصلاة المنهي عنها ، هي صلاة الجنابة ، وذلك لمنعه ﷺ من الدعاء للمنافقين والاستغفار لهم ، ومثل ذلك الوقوف على القبر للدعاء لهم ، وزيارتهم ، أو لدفنهم .

- ٣- الكشف عن صفاتهم وأعمالهم ، وفضحها بوضوح ، في سورة التوبة .
- ٤- إصدار الأمر بمجاهدة المنافقين كمجاهدة الكافرين ؛ سواءً بسواءٍ .
والإغلاظ عليهم . قال الله تعالى ﴿ يَتَّيِبُهَا لِنَبِيِّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ١ ﴾ التحريم: ٩ وهذه الآية آخر ما نزل من القرآن بحق المنافقين . وقد ظل النبي ﷺ يعفو عن المنافقين ويلاينهم ، وفي هذا الوقت آن الأوان لإحلال الحزم والشدة مكان الرفق .
- إن طريق التعامل مع المنافقين بعد سورة التوبة (براءة) غير المعاملة قبلها ؛ أي : إن المنافقين إذا أظهروا الكفر الجلي بقولٍ أو فعلٍ = يُجاهدوا مثل جهاد الكفار . ويؤيد ذلك ما ذكره ابن كثير عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : "بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعَةِ أَسْيَافٍ ، سَيْفٍ لِلْمُشْرِكِينَ : ﴿ فَإِذَا أُنْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَعَدُّوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥ ﴾ التوبة: ٥ ، وسيفٍ لكفار أهل الكتاب : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ٢٩ ﴾ التوبة: ٢٩ وسيفٍ للمنافقين : ﴿ يَتَّيِبُهَا لِنَبِيِّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ٧٣ ﴾ التوبة: ٧٣ وسيفٍ للبعثة : ﴿ وَإِنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَمَنَّا لَهُمْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تَ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٩ ﴾ الحجرات: ٩
- ثم قال ابن كثير : "وهذا يقتضي أن يُجاهدوا بالسيف إذا أظهروا النفاق . وهو اختيار ابن جرير الطبري" (١) .

(١) التفسير (٤٠٨/٣)

وسنوضح ذلك في الفصل الأخير ، في الكلام عن أحكام المنافقين - إن شاء الله

تعالى - .

المطلب الثاني : سمات منهج النبي ﷺ في جهاد المنافقين :

أولاً : خلاصة لأهم سمات منهج النبي ﷺ في جهاد المنافقين :

- ١ - حكمة النبي ﷺ وحنكته في معالجة قضايا المنافقين .
- ٢ - طول المدة ؛ حيث شغلت هذه القضية (جهاد المنافقين) حيزاً كبيراً من وقته ﷺ ، واستمرت منذ هجرته إلى المدينة المنورة ، وحتى غزوة تبوك ، بل إلى وفاته ﷺ . وهذا يدل على الصبر العظيم الذي تحلى به ﷺ وهو يعالج هذه المشكلة العويصة بتؤدّة وروية .
- ٣ - الحرص على وحدّة الصّف ، وحرصه ﷺ على تفادي حصول أي فتنة في مجتمع المؤمنين ، مع عدم السكوت عن الباطل وأهله ، أو إقراره . وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الدعاة . وقد تحقّق له ﷺ الأمران ؛ فبقي الصّف المسلم موحداً ، وتمّ القضاء على فتنة المنافقين بالأساليب التي فضلناها آنفاً .
- ٤ - أخذ الناس بظواهرهم ، وترك سرائرهم إلى الله . وهو منهج ربّاني ونبوي ، امتاز به الإسلام عن سائر النظم والأديان . ومع أن المنافقين أشدّ كفراً من المشركين ، فلم يؤخذوا إلا بما ظهر منهم ، مع علم الرسول ﷺ بما هم عليه من النفاق والكفر ، لكن القضية قضية منهج إسلامي خالد إلى يوم القيامة ، وليست القضية قضية أفراد يتمّ القضاء عليهم ثم ينتهي الأمر ! فالأمر أعمق من ذلكم كله . فجاء العلاج النبوي الحكيم متوازياً مع حجم المشكلة ، وأبعادها ، وآثارها .
- ٥ - الآيات الكثيرة التي نزلت وهي تعالج قضية النفاق ، بلغت أكثر من ثلاثمائة وأربعين آية . وهذا الكم الكبير من الآيات لا يقاربه في قضية عالجه القرآن الكريم إلا الآيات التي عالجت قضية الشرك والمشركين ، وتلك التي عالجت قضية أهل الكتاب .

والله ﷻ قادر على حسم قضية المنافقين في آية واحدة ، ولكن القرآن الكريم جاء ليرسّم منهجاً للبشر فيه صفة الشمول والديمومة ؛ لأنه دين عالمي .

٦ - المحافظة على هبة المجتمع المسلم في نظر الأعداء والخصوم (لا يتحدثُ الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه) لا سيما مع كثرة الأعداء ، واستغلالهم لكل فرصةٍ تَسُنحُ لهم لخلخلة الصف المؤمن ؛ لكن السياسة الشرعية الحكيمة للنبي ﷺ فوّتت على المشركين والمنافقين واليهود فرصة تفكيك مجتمع المدينة .

٧ - تركيزُ القرآن الكريم على الصفات ، وعدم ذكر أعيان الأفراد ؛ حيث لم يرد في القرآن الكريم اسمُ منافقٍ واحدٍ . وهذا المنهج حَقَّق آثاراً ايجابية ضخمة ، كانت كفيلاً بالقضاء على هذه الحركة ، مع تجاوز السلبيات المتوقعة ، لهذا قال النبي ﷺ في نهاية المطاف رداً على طلب عمر رضي الله عنه بقتل المنافقين حميةً لدين الله : (أين عمر؟ لو قتلنا هؤلاء يوم طلب عمر ، لأزعدت له أنوفٌ تريدُ اليوم قتلهم)

هذا هو المنهج ، هذه هي الحكمة الحكيمة السديدة الموجهة من أحكم الحاكمين ، أدت إلى قتل المنافقين معنوياً، دون الحاجة إلى قتل أيٍّ منهم جسياً . هذا -والله- المنهج بأعظم أساليبه ، وهذه -والله- الحكمة والسياسة الشرعية في أسمى معانيها . ونحن اليوم أفراداً وجماعات بأمس الحاجة إلى دراسة المنهج النبوي في جهاد المنافقين في الصدر الأول . ومن ذلك : دراسة الآيات التي نزلت في هذه القضية ، لا سيما سُور (البقرة - التوبة - الأحزاب - المنافقون) ودراسة سيرة النبي ﷺ . وبهذا نستطيع -بعد توفيق الله ﷻ- أن نحقق ما يلي :

أ - معرفة الوسائل الموصلة إلى الكشف عن هوية المنافقين في مجتمعنا ، ومدى تأثيرهم على المجتمع .

ب - رسم منهجٍ شرعيٍّ مُستمدٍّ من القرآن والسنة ؛ لمواجهة هذه الحركة ، وأسلوب التعامل معها .

ج - شلُّ فاعليتها ، ثم القضاء عليها ، دون إحداث فتنٍ داخل المجتمع المسلم .

د - معرفة مواطن حكمة النبي ﷺ في فقه علاج المنافقين ، التي برزت بوضوح في غزواته ، خصوصاً في غزوة تبوك .
وأهم هذه القواعد التي ينبغي تعلمها من السيرة النبوية عامة ومن جهاد المنافقين خاصة:

- إتقان قاعدة المصالح والمفاسد .
 - بُعد الرؤية ، وسعة الأفق .
 - القوة دون عنف ، واللين دون ضعف .
 - القوة في اتخاذ القرار في الوقت المناسب .
 - التنبه والحذر من الاستدراج إلى فخ المنافقين .
 - إتقان قاعدة اعتبار المآلات ، ونتائج التصرفات في التعامل مع المنافقين .
- يحقق هدى النبي صل الله عليه وسلم في جهاد المنافقين خيرَ الخَيْرين ، وأهُونَ الشَّرِّين ، وتُقدِّم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، والضَّرر الأشدُّ يُزال بالضرر الأخفِّ ، ويُحتمل الضَّررُ الخاصُّ لدفع الضَّرر العامِّ ؛ لأنَّ الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيلِ المفاسدِ ، وتقليلها .

ثانياً : خلاصة لأهم الوقفات المظلمة للمنافقين في غزوة تبوك :

- يمكن إيجاز أهم المواقف للمنافقين قبل غزوة تبوك ، وأثناءها ، وبعدها ؛ بما يلي:
- ١- تحالف المنافقين مع اليهود لتثييط المسلمين عن الجهاد في سبيل الله في غزوة تبوك .
 - ٢- تخلف المنافقين عن الغزوة ، واعتذارهم باعذارٍ واهية ، وكاذبة .
 - ٣- الإرجاف والتخريب داخل الجيش الإسلامي ، وحكمة النبي ﷺ في التعامل مع رأس النفاق .
 - ٤- محاولة المنافقين إيجاد الخلاف بين النبي ﷺ وخاصة أهل بيته .
 - ٥- سُخْرِيَّةُ المنافقين واستهزاؤهم بالنبي ﷺ .
 - ٦- سُخْرِيَّةُ المنافقين بالجيش الإسلامي .

- ٧- سُخْرِيَةُ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْمُتَصَدِّقِينَ عَلَى الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ .
- ٨ - تَشْكِيكُ الْمُنَافِقِينَ النَّاسِ بِصِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ .
- ٩ - مَخَالَفَةُ الْمُنَافِقِينَ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ .
- ١٠ - مَحَاوَلَةُ الْمُنَافِقِينَ تَمْزِيقَ الصَّفِّ الْمُسْلِمِ بِنَاءِ مَسْجِدِ الضَّرَارِ ، وَالْعِلَاجِ النَّبَوِيِّ الْحَاسِمِ .
- ١١ - مَحَاوَلَةُ الْمُنَافِقِينَ اغْتِيَالِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ الْعُودَةِ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ .
- ١٢ - وَأَخِيرًا ؛ أَمَّهُمُ الْأَحْكَامُ الَّتِي بَرَزَتْ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ ، بَعْدَ وِفَاةِ رَأْسِ النِّفَاقِ :
وَرَدَتْ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ بِشَأْنِ الْمُنَافِقِينَ ، مَا يَقَارِبُ السَّبْعِينَ آيَةً ، اسْتَعْرَقَتْ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ السُّورَةِ (مِنَ الْآيَةِ ٤٢ - الْآيَةِ ١١٠) كُلُّهَا بِشَأْنِ الْمُنَافِقِينَ ، وَمَا صَدَرَ مِنْهُمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِغَزْوَةِ تَبُوكَ ، مَعَ بَيَانٍ لِأَخْلَاقِهِمْ ، وَأَوْصَافِهِمْ . فَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فَاضِحَةً وَهَاتِكَةً لِأَسْرَارِهِمْ .
وَقَدْ سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ :
- أولاً بـ (التوبة) لتكرار لفظ التوبة فيها ، كما في الآيات (٣- ٥ - ١١ - ٣٧ - ٦٤ -
- ١٠٣ - ١٠٤ - ١١٤ - ١١٧)
- ثانياً بـ (الفاضحة) لما روي عن ابن عباس ؓ قال : "التوبة هي الفاضحة ، ما زالت تقول : ومنهم ، ومنهم ، حتى ظنوا أنها لم تُبَيَّنْ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا"^(١) .
- ثالثاً بـ (المبعثرة) لأنها بعثت أسرارهم^(٢) .
- رابعاً بـ (البحوث) لما روى جبير بن نفير قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود ؓ بدمشق ، يحدثنا على تابوت ، ما به عنه فضل ، فقال له

^(١) البخاري : الصحيح (٤/١٨٥٢) حديث رقم (٤٦٠٠) مسلم : الصحيح (٤/٢٣٢٢) حديث رقم (٣٠٣٣) القرطبي : التفسير (٨/٦١)

^(٢) ابن هشام : السيرة النبوية (٥/٢٤٢) القرطبي : التفسير (٨/٦١)

رجل : لو قعدت العام عن الغزو ؟ قال : أبث (البحوث) يعني :

سورة التوبة . قال الله تعالى : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ التوبة: ١٤ ،

قال أبو عثمان : بحثت المنافقين ^(٢) .

لقد حفلت سورة التوبة بأخبار النفاق ، وسلوك المنافقين ؛ لثربسخ في أفهام المسلمين أهمية تفقدهم لصفوفهم ، واختبار بطانتهم ، حاملين قبس القرآن ، وقبس السيرة النبوية المطهرة ؛ لكشف ما هية ونوعية وسجية المنافقين ، حتى نكون منهم على حذر . ونذكر فيما يلي آيات المنافقين في سورة التوبة ، مع تفسير موجز لها :

١ - الدافع الحقيقي لإقدامهم على الجهاد وإحجامهم عنه :

فالمنافقون يحلفون بالله كذباً أنهم ما تخلّفوا إلا بسبب بُعد المسافة ، والمشقة ، وأنه لو كان الذي دعوتهم إليه يا محمد عرضاً من أعراض الدنيا ونعيمها ، وكان السفر سهلاً لاتبعوك في الخروج ، ولكنهم تخلّفوا ولم يخرجوا . وهذا هو الدافع الحقيقي لإقدامهم على الجهاد وإحجامهم عنه . قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ التوبة: ٤٢ .

٢ - عتاب لطيف من اللطيف الخبير سبحانه لنبيه ﷺ :

قيل : المعتابة على ترك الأولى ؛ وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الموقف ، وانكشاف الحال ^(٣) . قال تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ

^(١) الكندي ، أبو الأسود ، كان زوج ضباعة بنت الزبير ابنة عم النبي ﷺ ، هاجر الهجرتين ، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها ، وكان سميناً ، عظيم البطن . مات سنة (٣٣هـ) في عهد عثمان ﷺ وهو ابن سبعين سنة . ابن حجر : الإصابة (٣/ ٤٥٤)

^(٢) ابن المبارك ، عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ) يُنظر : الجهاد (٨٨) (بيروت ، دار المعرفة)

^(٣) لاشين : لغة المنافقين ، ص (١٨٥)

صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ التوبة: ٤٣ قال مجاهد: "نزلت هذه الآية في أناس من المنافقين استأذنوا النبي ﷺ بالعودة ، وهم : عبد الله بن أبي ابن سلول ، والجد بن قيس ، ورفاعة بن التابوت . وكانوا تسعةً وثلاثين . واعتذروا بأعذار كاذبة ^(١) .

٣- هذه الآيات أول ما نزل في التفريق بين المؤمنين والمنافقين في القتال ^(٢) :

فَبَيَّنَ ﷺ أنه ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر الاستئذان ، وترك الجهاد في سبيل الله ، وإنما هذا من صفات المنافقين الذين يستأذنون من غير عذر . والمؤمن لا يستأذن في الجهاد . قال تعالى ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿التوبة: ٤٤ - ٥٥﴾

٤- الإرادة الجازمة تستلزم العمل المناسب لها :

علم الله من المنافقين شرهم ، فقدّر عدم خروجهم للجهاد مع المؤمنين . قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾ التوبة: ٤٦

٥- مفسدة خروج المنافقين مع المؤمنين :

قال تعالى ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هُمُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونِ ﴿التوبة: ٤٧ - ٤٨﴾
هذه الآية تسليّة للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم ^(٣) .

^(١) ابن عاشور ، محمد الطاهر (ت ١٣٩٣هـ) ، التحرير والتنوير (٢١٠/١٠) (تونس، دار الكتب الشارقة ، د.ت)

^(٢) المرجع ذاته (١٠ / ٢١١)

^(٣) لاشين : لغة المنافقين ، ص (١٨٨)

والخَبَالُ : الفسادُ ، والنميمةُ ، وإيقاعُ الاختلافِ ، والأراجيف .

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ التوبة: ٧؛ أي : يطلبون لكم الفتنة؛ أي : الإفسادُ ،

والتحريضُ ، ﴿لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ التوبة: ٨؛ سبق للمنافقين أن ضعُفوا في غزوة أُحُد ، وجَبُّوا ، فماضيهم يشهدُ بسوء طويبتهم ، فقد وقفوا في وجه الرسول ﷺ في أُحُد ، حتى غلبوا على أمرهم ، فاستسلموا وهم له كارهون^(١) .

٦- هَرَبُ الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ مِنْ فِتْنَةِ النِّسَاءِ -بزعمه- :

فوقع في فتنة عظيمة . والتخلفُ عن الجهاد وقوعٌ في كبيرة من الكبائر . قال

تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكْفُرَ بِي وَلَا يَفْتِنَنِي وَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ التوبة: ٩؛ وهذا مثال من أعدارهم الكاذبة .

٧ - استيائهم من انتصار المؤمنين ، واغتيالهم بهزيمتهم :

قال تعالى : ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَبِّحْهُنَّ وَسُبِّحْهُنَّ وَأَنْ تَصِيبَكَ مُصِيبَةٌ فَقُلْ إِنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَدْ

أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ التوبة: ٥٠-٥١ .

وهذا مظهر من مظاهر عداوة المنافقين للنبي ﷺ ، وللمؤمنين .

٨ - ما ينتظره المؤمنون والمنافقون :

قال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ

يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا فَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ التوبة: ٥٢

المعنى : قل لهم : لا تتربصون بنا إلا إحدى العاقبتين ، وكلاهما حسنى العواقب ، وفضلاها ، وهما : (النصر ، أو الشهادة) ونحن نتربص بكم في مقابل ذلك أحد السوءين : أن يهلككم الله بقارعة سماوية ؛ لا كسب لنا فيها ، أو -ياذن الله- نقتلكم^(٢) .

(١) المرجع ذاته ، ص (١٨٨)

(٢) لاشين : لغة المنافقين ، ص (١٩٢)

٩ - عاقب الله المنافقين على نفاقهم ، بأن لا تُقبل منهم نفقة ، ولا عمل :

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِتْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا

فَلْسِقِينَ ﴿٥٣﴾ التوبة: ٥٣

١٠ - بين ﷺ أن سبب عدم انتفاعهم بأعمالهم هو :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ

الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴿٥٤﴾ التوبة: ٥٤ وسبب عدم قبول

تلك النفقات : كفرانهم بالله ورسوله ﷺ ، وتثاقلهم في أداء الصلاة ، وإنفاقهم المال

من غير طيب نفس .

١١ - لا ينبغي الإعجاب بأموال المنافقين ، ولا بأولادهم :

قال تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَنَزَّهَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ التوبة: ٥٥

١٢ - يحلفون بالله أنهم مسلمون ، والله يعلم أنهم كافرون :

قال تعالى ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ التوبة: ٥٦ - ٥٧

بين ﷺ أن المنافقين ليسوا من المؤمنين ، فقد كان هؤلاء المنافقون يندسّون في

الصف المسلم ، لكن عن تقيّة وخوف ، لا عن اقتناع وإيمان ، ثم يحلفون أنهم

مسلمون ، وما هم منهم ^(١) .

١٣ - رضا المنافقين وسخطهم ؛ لأنفسهم ، لا لله ﷻ :

قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا

هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ التوبة: ٥٨ - ٥٩

^(١) ابن كثير : التفسير (٣/٣٦٢)

أي : يغضبون لأنفسهم ، ويجعلون النبي ﷺ غير عدلٍ . فهؤلاء المنافقون لا قُصدَ لهم إلا حُطامُ الدنيا ، وحرصهم عليه ، وليسوا من الدين في شيء . فرضاهم وشخطهم لأنفسهم، وليس لله تعالى (١) . وبين الله للمنافقين ما هو خيرٌ لهم؛ إن هم فعلوه

١٤ - حَلَفَ الْمُنَافِقِينَ مَا قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، وَقَد قَالُوهَا :

قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦١) التوبة: ٦١ . وقد وضحنا هذه الآية ، وسبب نزولها .

١٥ - الْمُنَافِقُ يُرْضِي النَّاسَ ، وَلَا يُرْضِي اللَّهَ ، وَلَا رَسُولَهُ :

قال تعالى : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٢) التوبة: ٦٢ (٢) .

١٦ - تحذير للمنافقين من مُحَادَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنِ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦٣) التوبة: ٦٣

١٧ - خوفُ المنافقين من انكشاف أمرهم :

قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤُوا بِإِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ ﴾ (٦٤) التوبة: ٦٤ - المنافقون استهزؤوا بالله ، ورسوله ، وبالمؤمنين :

وحكم الله عليهم بالكفر . واعتذارُ المنافقين قبيحٌ كفعلهم القبيح . قال تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَعَائِنِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ

(١) ابن كثير : التفسير (٣/٣٦٣)

(٢) ينظر : زيدان : المستفاد (٢/٤٦٧)

تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿التوبة: ٦٥ - ٦٦﴾

ولِعَظَمِ هذه الجريمة التي اقترفوها يجيبهم القرآن بأنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إيمانهم الذي أظهروه ، ويُذِرُهُم بالعذاب الذي يلحق بعضهم إذا استمروا على نفاقهم ، واستهزائهم ^(١) .

١٩ - المنافقون يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف :

فوعدهم الله نارَ جهنم ^(٢) . وأهل النفاق متشابهون في نفاقهم ووصفاً وعملاً .

قال تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ التوبة: ٦٧

وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ التوبة: ٧١ فقد وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بصفات هي على النقيض من صفات المنافقين :

- | | |
|-------------------------------|--|
| * المؤمنون يأمرون بالمعروف . | * المنافقون يأمرون بالمنكر . |
| * المؤمنون ينهون عن المنكر . | * المنافقون يأمرون بالمنكر . |
| * المؤمنون يقيمون الصلاة | * المنافقون إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى |
| * المؤمنون يؤتون الزكاة | * المنافقون يقبضون أيديهم . |
| * المؤمنون يستمرون على الطاعة | * المنافقون فاسقون خارجون عليها |

^(١) لاشين : لغة المنافقين ، ص (٢٠٨)

^(٢) ابن كثير : التفسير (٣/٣٦٥)

وفي هذه الآية وعيدٌ للمنافقين ، وتتضمن كذلك وعداً للمؤمنين . فما كانت سجية المنافق وطبيعته لتسمح له بأن يشارك المؤمنين أفكارهم وأفعالهم ، وما كان لهم أن يكونوا حريصين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن على النقيض ، فبقدر ما يهتم المؤمنون بهذا الخلق الكريم ، فإن هذا الصنف الخسيس من الناس يتفنت بل ويبتغون تلك الأساليب الشيطانية الخطيرة ؛ لصرف الناس عن الخير ، وحضهم على المنكر^(١) .

٢٠ - الأمر بجهاد الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم سواءً بسواء :

قال تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣) التوبة: ٧٣

إن جهاد المنافقين إذا أظهروا الكفر الجلي بقول أو فعل : أن يُجاهدوا مثل جهاد الكفار ، يبدأ من القلب ، وينتهي إلى السيف . وسنوضح ذلك في الفصل الأخير في أحكام المنافقين - إن شاء الله تعالى - .

٢١ - هموا بقتل النبي ﷺ ، ولكنهم هربوا ، ومثلوا زعباً :

قال تعالى : ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولِي نِيءٍ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٧٤) التوبة: ٧٤ وقد وضحنا ذلك في مؤامرتهم الخبيثة في اغتيال النبي ﷺ .

٢٢ - النهي عن الصلاة على المنافقين والاستغفار لهم وشهود جنازتهم :

(١) المحامي ، حسن عبد الغني ، المنافقون وشعب النفاق (٢٠٢) (الدوحة ، دار الثقافة ، ١٩٨٧م)

قال تعالى : ﴿ اَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٨٠) التوبة: ٨٠ وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٨٤) التوبة: ٨٤

٢٣ - فليعلم الذين لا ينفرون في الحر أن نار جهنم أشد حرًا :

قال تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨١) التوبة: ٨١

بين تعالى في هذه الآيات تثبيت المنافقين عن الخروج للجهاد في سبيل الله. وهذا نوع آخر من قبائح المنافقين في هذه الغزوة . فقد قعد بهم ضغف الهمة ، وفرحوا بالسلامة والراحة ، وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والشدة ، مخالفين بذلك رسول الله ﷺ ، وقالوا قولة المسترخي : ﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ التوبة: ٨١ ولكن حر النار أشد ، وأطول أمداً ، وسيكون جزاؤهم من جنس عملهم .

٢٤ - المتخلف عن غزوة تبوك لا يؤذن له بالاشتراك في غيرها^(١) :

بل عاقب الله ﷻ المتخلفين برفضهم أبداً من الجهاد مع رسول الله ﷺ^(٢) . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَلْفِينَ ﴾ (٨٣) التوبة: ٨٣

(١) زيدان : المستفاد (٤٧٦/٢)

(٢) ابن كثير : التفسير (٣٦٩/٣)

٢٥ - بعد موت عبد الله بن أبي بن سلول ، لم يُصَلِّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مُنَافِقٍ ، وَلَمْ يَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ^(١) :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَعْمَ عَلَى قَبْرِهِ ۗ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾ ^(٨٤) التوبة: ٨٤ فقد جمعت هذه الآية عقوبتين للمنافقين: دُنْيَوِيَّةً ، وَأُخْرَوِيَّةً . أما الدُّنْيَوِيَّةُ ، فحِرْمَانُهُمْ مِنَ الْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وأما الأُخْرَوِيَّةُ ، فحِرْمَانُهُمْ مِنْ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ ، وَالْوُقُوفِ عَلَى قُبُورِهِمْ ، وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ .

٢٦ - اسْتِنْدَانُ الْمُنَافِقِينَ بِالْقَعُودِ ، مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْجِهَادِ :

فالمُنافِقُونَ أَجِبُنُ النَّاسَ فِي الْحَرْبِ . وَهُمْ فِي السَّلْمِ أَوْلُو أَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ^(٢) . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ ^(٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ^(٨٧) التوبة: ٨٦ - ٨٧

٢٧ - مُنَافِقُوا الْأَعْرَابِ :

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(٩٠) التوبة: ٩٠

٢٨ - لَا يُصَدِّقُ الْكَافِرَ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ كَذِبُهُ ، وَنِفَاقُهُ ^(٣) :

^(١) ابن كثير : التفسير (٣/٣٧٠)

^(٢) ابن كثير : التفسير (٣/٣٧١)

^(٣) زيدان : المستفاد (٢/٤٧٨)

قال تعالى : ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْبِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ التوبة: ٩٤

٢٩ - لا فائدة من معاتبة المنافقين :

قال تعالى : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ التوبة: ٩٥

٣٠ - يحلف المنافقون ؛ ليرضى عنهم المؤمنون :

قال تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ التوبة: ٩٦

٣١ - الأعراب جفاة ، ومنهم من هو أشد كفراً ونفاقاً :

قال تعالى : ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ التوبة: ٩٧ فقد وصف القرآن منافقي الأعراب بأنهم أشد كفراً ونفاقاً من منافقي أهل المدينة ؛ لأنهم أقسى قلوباً ، وأقل علماً بالسنن والأحكام^(١) .

٣٢ - الأعراب المؤمنون ، والمتصدقون من المهاجرين والأنصار :

قال تعالى : ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(١) العمري : السيرة النبوية الصحيحة ، (الرياض ، مكتبة العبيكان ، ١٤٢٤هـ) ، (١٢٠/٢)

﴿٩٩﴾ وَالسَّيْفُوكَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

التوبة: ٩٩ - ١٠٠ - ٣٣ - النفاق لم يكن محصوراً في المدينة ، بل امتد إلى البوادي . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ التوبة: ١٠١

٣٤ - كل مسجد لا يؤسس على التقوى ، فهو مسجد ضرار :

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَنْظُرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ التوبة: ١٠٧ - ١٠٨ ومسجد الضرار له معالم بارزة في غزوة تبوك .

وقد أوردنا له وللمنافقين الذين اتخذوه حديثاً خاصاً ، ومفصلاً . يُراجع في الفصل الثاني .

٣٥ - الفَرْقُ بَيْنَ مَسْجِدِ التَّقْوَىٰ وَمَسْجِدِ الضَّرَارِ :

قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ التوبة: ١٠٩ وقد ضرب الله تعالى هذا المثل لبيان حال الفريقين ، من صدق الإيمان والنفاق . أي : أفمن كان مؤمناً صادقاً يتقي الله في جميع أفعاله قاصداً تزكية نفسه وصلاح سيرته خيراً ، أم من هو منافق مرتابٌ يبتغي بأعماله الضَّرَرَ والضَّرَارَ ، وتفريق الجماعة ، والإرصادَ لمن حارب الله ورسوله ؟

٣٦ - المنافق بكيدہ للإسلام يزداد نفاقاً :

قال تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنِنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١١٠) ﴿ التوبة: ١١٠

والرَّيْبَةُ بمعنى الشكِّ ، والحسرة ، والتَّدامَةُ . والمرادُ : الشكُّ في نبوة النبي ﷺ المضمرة في قلوب المنافقين . وهو عين النفاق (١) .

وفي توضيح معنى الريبة ثلاث وجوه :

أ - أن المنافقين عَظُمَ فرحهم ببنائه . فلما أمر النبي ﷺ بتخريبه ، ثقل عليهم ، وزاد غيظهم وارتياهم في نُبوته .

ب - أنه لما أمر بتخريبه عَظُمَ خوفهم ، فارتابوا : هل يُتركون على حالهم ، أم يُؤمر بقتلهم ونهب أموالهم .

ج - أنهم كانوا محسنين في البناء ، فلما أمر ﷺ بتخريبه ، بقوا شاكين مُرتابين ، : لأي سببٍ أمر بذلك ؟

ووصف بنيانهم ﴿ الَّذِي بَنَوْا ﴾ التوبة: ١١٠ للدلالة على أن البنيان حقيقة ، وليس ما دبروه من الأمور ، فإن البناء يطلق على تدبير الأمر ، وتقديره (٢) .

﴿ هذا المقطع من السورة الذي قارب السبعين آية ، ويستغرق أكثر من نصفها ، يصوّر فضائح المنافقين ، ويكشف أفاعيلهم في المجتمع الإسلامي إبان غزوة تبوك .

(١) لاشين: لغة المنافقين (ص ٢٦٣)

(٢) لاشين : لغة المنافقين (ص ٢٦٣)

وقد كشف حقيقة نواياهم ، وحيلهم ، ومعاذيرهم في التخلف عن داعي الجهاد .
ويصاحبُ هذا تحذيرُ المسلمين من كيدهم ، وتميُّزُ كلِّ منهم بصفاته .

✽ هذه الحملة الطويلة الكاشفة ، تكشف عن حالة من التخلُّل في تكوين المجتمع المسلم ، وقد نشأت بسبب دخول جماعاتٍ كبيرة في الإسلام بعد فتح مكة (٨هـ) ولم يكن الإيمانُ قد استقر في نفوسهم بعدُ ، ممَّا كان المجتمع المسلم بريئاً منه قبل فتح مكة . وأوّل ما ظهرَ من ذلك ما كان يوم حُنينٍ . وكان من أسباب الهزيمة في أوّل الأمر : أنّ ألفين من مسلّمَةِ الفتح قد خرجوا مع عشرة آلاف من جُنْد المدينة الذين فتحوا مكة ، فكان وجودُ هؤلاء الألفين مع العشرة آلاف سبباً في اختلال التوازن في الصفّ المسلم .

وما حصل في غزوة تبوك من تلك الأعراض والظواهر ، كان ثمرةً طبيعية لهذا الاتساع الأفقي السريع ، ودخول تلك الأفواج الجديدة بمستوياتٍ إيمانيةٍ مُخلّخةٍ . هذه الظواهر هي التي تحدّثت عنها سورة التوبة في هذا المقطع الطويل من السورة .

وكانت هذه الحملة المتنوعة الأساليب كشفاً لخباياهم ، وفضحاً لأسرارهم ، إلّا أن القاعدة الأساس من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، كانت حاميةً للإسلام . وكانوا هم الحصون القوية المانعة ، الذين صانوا بلاد الإسلام من الهزات العنيفة بعد وفاة النبي ﷺ ، وارتدادٍ مُعظم مناطق الجزيرة العربية عن الإسلام .

والعبرةُ التي نأخذها : أن القاعدة الصُّلبة من الخلاء للدعوة ، الذين تصهرهم المحنة ، وتزيدهم صلابةً وقوةً ، وهم دائماً صمام الأمان ، وحُرّاس الدّعوة . فعند الاطمئنان إلى هذه القاعدة ، لا يُخشى من التوسع الأفقي ؛ إذ هي السد المنيع الذي يصد كل هجوم ، وكلّ اعتداء ، ويمنع التخلُّل والضياع .

نهاية المنافقين الذين عاصروا التنزيل :

تبين لنا مما مضى أن المنافقين في المدينة قد انكسرت شوكتهم ، وتناقص عددهم بعد تطهير المدينة من اليهود ، ولم يزالوا كذلك حتى مات زعيمهم عبد الله بن أبي ، فانطفأت نارهم التي كان يشعلها ابن أبي ، ويجمعهم حولها . وقد كان موت ابن أبي سنة (٩هـ) كما سبق ، ولم يكن للمنافقين بعد موته حركة ولا نشاط يُذكر .

ولما مات النبي ﷺ كانت الفرصة مواتية للمنافقين كي يعملوا عملهم في تفريق المؤمنين والقضاء على الحكم الإسلام ؛ لأن النبي ﷺ لن يُخلفه أحد يماثله في الهيمنة على النفوس ، وانقيادها له . وقد انتهز هذه الفرصة المنافقون من الأعراب الذين انقادوا إلى الإسلام خضوعاً لقوته ، لا اقتناعاً منهم بصحته ، فأظهروا كفرهم بالإسلام بعد موت النبي ﷺ . وقد حاربهم أبو بكر الصديق ﷺ حتى أخضعهم لحكم الإسلام .

أما المنافقون من أهل المدينة فلم يكن لهم في هذه الفترة أثر بارز في حرب الإسلام ، ولعل ذلك يرجع إلى فقدهم الزعيم الذي له شرف في قومه يحميه ، ويحمي من اتبعه ، فتفرق شملهم ، وأصبح كل واحد منهم يخشى على نفسه ، ويحاول أن يتستر بالانزواء ، والبعد عما يُسلط الأضواء عليه ، ويبعث الريبة منه .

✽ وقد أخبر حذيفة ﷺ بما يدل على معرفته بهم ، كما أخرج البخاري عن حذيفة ﷺ ، قال : "ما بقي من أصحاب هذه الآية^(١) إلا ثلاثة ، ولا من المنافقين إلا أربعة . فقال أعرابي : إنكم أصحاب محمد تُخبروننا ، فلا ندري . فما بال هؤلاء الذين يبتزون بيوتنا ، ويسرقون أعلافنا؟ ، قال : أولئك الفساق . أجل ؛ لم يبق منهم إلا أربعة ، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء لَمَّا وجد بَرْدَهُ"^(٢) .

^(١) هي قوله تعالى من سورة التوبة ، الآية (١٢) ، ﴿ فَكَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ كما ذكر البخاري ؛ حيث بوب بهذه الآية لهذا الأثر .

^(٢) الصحيح (٤/١٧١١) حديث رقم (٤٣٨١)

والظاهر أن هؤلاء الأربعة هم بقية المنافقين الذين أخبر النبي ﷺ حذيفة بأسمائهم ، وقد يكون هؤلاء هم أصحاب العقبة الذين أرادوا قتل النبي ﷺ في غزوة تبوك .

❁ وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه خبرهم عن أبي الطفيل ، قال : كان بين رجلٍ من أهل العقبة ، وبين حذيفة ما يكون بين الناس ، فقال : أنشدك بالله ، كم أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أَخْبِرُهُ إِذْ سَأَلَك . قال : كنا نُخْبِرُ أَنَّهُمْ أَرْبَعَةٌ عَشْرٌ ، فَإِذَا كُنْتَ مِنْهُمْ فَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ خَمْسَةَ عَشْرٍ ، وَأَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّ اثْنَيْ عَشَرَ مِنْهُمْ حَرْبٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، وَعُذْرُ الثَّلَاثَةِ قَالُوا : مَا سَمِعْنَا مَنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا عَلِمْنَا بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ ^(١) .

وقد يكون هؤلاء مِنْ بَقِيَّةِ الرَّهْطِ الَّذِينَ أَسْرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَسْمَائِهِمْ إِلَى حَذِيفَةَ ﷺ . كما أخرج عبد الرزاق الصنعاني عن الزهري ، قال : فبينما النبي ﷺ سائرٌ إلى تبوك ، نزل عن راحلته ليُوْحَى إليه . وأناخها ﷺ ، فنهضت الناقة تجرُ زمامها مُطْلَقَةً ، فتلقاها حذيفة فأخذ بزمامها يقودها ، حتى أناخها ، وقعدَ عندها ، ثم إنَّ النبي ﷺ قام فأقبل يريدُ ناقتهُ ، فقال : (من هذا ؟) فقال : حذيفة بن اليمان . فقال النبي ﷺ : (فإني أسرُّ إليك سرّاً لا تُحدِّثُ به أحداً أبداً . إني نُهيئُ أن أصلي على فلان ، وفلان ، ورهطٍ من المنافقين) قال : فلما تُوفِّي رسولُ الله ﷺ واستخلف عُمر ، فكان إذا مات رجلٌ ، أ بيد حذيفة فقاده ، فإن مشى معه صلى عليه ، وإن انتزع منه لم يصلِ عليه ، وأمر من يُصلي عليه ^(٢) .

وهذا ممَّا يوضِّح كَوْنَ حَذِيفَةَ ﷺ قد أُخْتُصَّ بمعرفة بعض المنافقين . وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلم يكن في هذا حصر للمنافقين في عهد النبي ﷺ ، وإنما هو بيانٌ

^(١) (٢١٤٤/٤) حديث رقم (٢٧٧٩)

^(٢) المصنف (٢٣٨/١١)

لطائفةٍ منهم . وهذا هو الأنسب ؛ حيث إن المنافقين كانوا أكثر من هذا العدد ، حتى في أواخر عهد النبي ﷺ .

ومما يدل على ذلك : أنَّ الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا ثمانين رجلاً ، أغلبهم كان من المنافقين ، ولم يتخلف كلُّ المنافقين ، بل خرج منهم طائفة مع النبي ﷺ كما سبق .

هذا وقد سبق أن النبي قد عيّن بعض المنافقين بأسمائهم ، وأخرَجهم من المسجد يوم الجمعة .

وهذا يتعارض مع ما سبق من الروايات من اختصاص حذيفة بمعرفة المنافقين . فالرواية التي فيها إخراج بعض المنافقين من المسجد ضعيفة ، ولكن إن ثبتت ، فيمكن الجمع بين هذه الروايات بأن يقال :

إن الذين اخْتُصَّ حذيفة بمعرفتهم هم الذين أخبر النبي ﷺ بأنهم سيموتون على الكفر . ومما يؤيد هذا : ما جاء في حديث مسلم السابق ، من قول حذيفة : "وأشهدُ بالله أن اثني عشر منهم حُرِّبٌ لله ورسوله في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد" . أمّا الذين أخرجهم النبي ﷺ من المسجد بمشهدٍ من الصحابة فلم يُخبر عنهم بما يدل على أنهم سيموتون على كفر .

فاختصاص حذيفة ﷺ بمعرفة بعض المنافقين (وهم الذين سيموتون على كفر) لا يستلزم اختصاصه بمعرفة المنافقين عموماً ؛ سواءً أكانوا بهذا العدد القليل ، أو أكثر من ذلك ، فإنَّ حركتهم قد اختفت ، ونارهم قد خمدت ، ولم يعد لهم أيُّ أثرٍ على المجتمع الإسلامي .

وهكذا انقرض هؤلاء المنافقون ، الذين حاولوا بكل ما أوتوا من مكرٍ وحيلةٍ أن يقضوا على دعوة الإسلام ، وأن يكيدوا للمؤمنين ، وماتوا وقلوبهم تغلي من الغيظ

والكمد ، فتحقق قول الله فيهم : ﴿ هَتَأْتُمْ أَزْوَاجًا لَا يَحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران: ١١٩)

﴿ وبقي الإسلام شامخاً كالطود العظيم ، لم يستطع أعداؤه أن ينالوا منه شيئاً ،
لما وُجد المؤمنون الذين يمثلونه تمثيلاً صادقاً .

الفصل الرابع

وسائل وأحكام جهاد المنافقين

المبحث الأول

وسائل جهاد المنافقين

لقد بين الله ﷻ في كتابه الكريم ، والنبي ﷺ في سنته المطهرة وسائل عدة لمواجهة المنافقين ومناهجهم الخبيثة الماكرة .

إن المنافقين ومرضى القلوب لا يتيسر علاج أدوائهم من داخل نفوسهم - في غالب الأحيان - ؛ لفقدان الوازع ، وغياب الضمير . ولكن لما كانت عللهم متعدية في الضرر إلى غيرهم ، لزم توجيه علاجهم من خارج ذواتهم ، لا طلباً ليزئتهم هم بقدر ما هو لأجل حفظ الناس من شرور أمراضهم^(١) .

وهذا - والله تعالى أعلم - السِّرُّ في وجوب مجاهدتهم ، والإغلاظ عليهم في قول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ (التوبة: ٧٣)

لهذا يعد جهاد المنافقين من أعلى مراتب الجهاد ، والقائمون عليه هم الأعظم قدراً ، والأعلى مرتبة والأكثر أجراً عند الله . لذلك يقول ابن القيم رحمه الله مبيناً عظم منزلة القائم على جهاد المنافقين : "فجهاد المنافقين أحبُّ من جهاد الكفار ، وهو جهاد خواص الأمة ، وورثة الرسل . والقائمون به أفراد من العالم ، والمشاركون فيه والمعاونون عليه ، وإن كانوا هم الأقلين عدداً ، فهم الأعظمون عند الله قدراً . و من

^(١) كامل : عبد العزيز ، جهاد المنافقين ، (مجلة البيان ، العدد ١٧١ ، ١٤٢٢هـ) ، ص (٨) .

أفضل الجهاد قولُ الحق مع شدة المعارض ، مثل أن يتكلم به عند من يخاف سطوته وأذاه . كان للرسول ﷺ من ذلك الحظ الأوفر ، وكان لنبينا ﷺ أكمل الجهاد وأتمه^(١) .

وهذه هي أهم الوسائل في جهاد المنافقين ، والتي ذكرها الله ﷻ في كتابه الكريم ، والنبي ﷺ في سنته المطهرة .

١- الحذر منهم :

إن الله ﷻ بيّن أولاً عداوتهم ؛ بل حصر العداوة فيهم ؛ لخبثهم . ثم أمر بعد ذلك بالحذر منهم ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ ﴾

فيجب الحذر من هذا العدو الشرس بمختلف أنواع الحذر ، لأن المنافقين (عيون الأعداء على المسلمين) لا بل هؤلاء ليسوا فقط عيون الأعداء ، بل قلوبهم وألستهم .

لقد أفاضت نصوص الوحي ، كتاباً وسنةً بتحذير المؤمنين من النفاق وأهله ، بعد إسهاب طويل في كشف خفاياهم ، وفضح نواياهم ، وهتك أسرارهم ، وطواياهم ، حتى إن آيات الكتاب قد صرحت بذكر النفاق والمنافقين في إحدى عشرة سورة ؛ باسمهم ووصفهم الصريح (النفاق) علاوةً على فئة أخرى وصفهم القرآن الكريم ب- (الذين في قلوبهم مرض) وهم الرديف ، والمدد ، والمخزون الثري طويل الأمد لمعلومي النفاق .

فقد ذكر القرآن الكريم مرضى القلوب في اثني عشرة سورة ، وكل آية ذكر فيها ذلك تتعلق بها آياتٌ أخر .

(١) زاد المعاد (٦/٣) .

٢- النهي عن موالاتهم :

حَرَّمَ اللهُ ﷻ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَوَالَةَ الْمُنَافِقِينَ ؛ لِأَنَّ الْوِلَايَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَدُوَالُو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ النساء: ٨٩ .

فنهى في هذه الآية عن موالاتهم ثلاث مرات ، تأكيداً للتحذير منهم ، إذ ليس في ولايتهم للمؤمنين أدنى خير أو نفع .

وفي هذا الإطار : النهي عن اتخاذهم بطانةً من دون المؤمنين ، قال تعالى ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوًّا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَتَأْتُمْ أَوْلِيَآءَ مُّحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ فَأَلْنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا عَيْطَكُمْ إِنِ اللَّهُ عَلِيمٌ بِّذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوْهَمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ آل عمران: ١١٨ - ١٢٠ .

ولما منع الله المؤمنين أن يتخذوا المنافقين بطانةً ؛ ذَكَرَ عِلَّةَ ذَلِكَ النَّهْيِ ، وَحَصَرَهَا فِي ثَمَانِيَةِ أُمُورٍ :

١- لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا

٢- وَدُوًّا مَا عَنِتُّمْ .

٣- قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .

٤- وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ .

٥- هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ .

٦- وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ .

٧- إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ .

٨- تَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا .

وهذا تحذير للجماعة المسلمة من أن تتخذ من أعدائها بطانة ، وأن تجعل منهم أمناء على أسرارها ومصالحها ؛ لما يُضمرونه للإسلام والمسلمين من الشر المبيت ، والنوايا السيئة التي تملأ صدورهم .

وهذا التحذير لم يكن مقصوداً على فترة معينة ، بل هي حقيقة دائمة تراها اليوم وغداً ، في من حول الجماعة المسلمة من الأعداء ، الذين يتظاهرون للمسلمين بالمودعة ، وهم لا يقصرون في إيذاء المسلمين .

نرى كثيراً ممن يدعي الإسلام لا يتخذُ بطانةً ، ولا يصادقُ أو يوالي إلا هؤلاء المنافقين ، ولا يجالسُ إلا هؤلاء المشككين في الإسلام والدين ، ويجعلونهم خاصةً مجالسهم ، ويُبعدون عنهم كلَّ موحد ، وينفرون من كل ملتزم بدين الله .

✽ إن اصطفاء المنافقين من دون المؤمنين هو إعلان الولاء لهم ، ومحبتهم وودهم . وهو في الوقت نفسه هو تصريح بالبراءة من المسلمين ، والعداوة لهم . فلا يجتمع في قلب مسلم حُبُّ لأهل الإيمان وحُبُّ لأهل النفاق ، فهما ضدان ، ولا يجتمعان في قلب واحد . فإما الحب للإيمان والموالاتة لأهله ، وإما الحب للنفاق والموالاتة لأهله .

✽ إذن ؛ لابد من تحديد الصف ، وبيان الهوية ، وإعلان المنهج ، ورفع راية مجردة ، واعتناق دين واحد ؛ ليعرف المسلم الحق من الكافر والمنافق ، ولتحدد وتحقق قضية (الولاء والبراء) وتكون عن بينة ، ليحقق الله الحق بكلماته ، ويمحق الكافرين ، ويميز الله الخبيث من الطيب .

ويضيف الأستاذ الكبير سيد قطب رحمه الله : "إن موالاة غير الجماعة المسلمة معناه الارتداد عن دين الله تعالى ، والنكول عن هذا الاختيار العظيم ، والتخلي عن هذا الفضل الجميل . وهذا التوجيه واضح في النصوص الكثيرة"^(١) .

إن موالاة هؤلاء المنافقين ما هو إلا حبٌ ورضىٌ بعقيدتهم ، ودخولٌ في دينهم ، والحياة على ملتهم ، والسير على منهجهم . وهو في الوقت نفسه خيانةٌ للدين ، وخروجٌ عن الملة ، وطعنٌ في العقيدة ، وخداعٌ للمؤمنين . لقد نهانا الله تعالى عن ولاء المنافقين ، وأمرنا بضده ؛ من جهادهم ، والغلظة عليهم ، والشدة معهم ، وازدراؤهم ، واحتقارهم . قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ (التوبة: ٧٣)

هذا هو أمر الله لنبيه ﷺ وللأمة بمجاهدة الكفار والمنافقين ، والغلظة عليهم . وقرن ﷺ هذه الغلظة بمجاهدة الكفار ؛ فدل ذلك على أن الغلظة على المنافقين نوع من أنواع الجهاد الذي أمر الله به . فالغلظة على المنافقين هي إعلان البراءة منهم ومن نفاقهم . هذا هو منهج النبي ﷺ في جهاد المنافقين الخارجين عن الدين .

٣- عدم نصرتهم والدفاع عنهم :

^(١) في ظلال القرآن (٢/٩٠٨)

ومع الحذر منهم بمختلف وسائط الحذر ، وعدم ولايتهم ، يجب عدم نصرتهم ، وعدم الدفاع عنهم ، كما أمر تعالى بذلك نبيه محمداً ﷺ في قوله : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ النساء: ١٠٧

فقد يلجؤون إلى أحد المسلمين ؛ سواءً أكان عالماً ، أو حاكماً ، أو تاجراً ، أو نحوهم ؛ ليكون رداءً لهم ومدافعاً عنهم ، متخذين لإقناعه مختلف الذرائع والحيل . فيجب على المسلم أن يكون كيساً فطناً ، لا تُمرَّر عليه الألاعيب وهو لا يشعر .
٤ - عدم قبول اعتذاراتهم الكاذبة ، وإظهار عيوبها حتى يبطل مفعول هذا السلاح الذي اتخذه وقاية لأنفسهم :

وفي هذا يقول الله ﷻ مرشداً نبيه ﷺ : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ التوبة: ٦٦

ويقول ﷻ : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْبِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ التوبة: ٩٤

فلا يجوز قبول عُذرهم من النفاق ؛ بل يجب الشك فيهم وفي تصرفاتهم ، وحملها دائماً على المحمل السيئ . بخلاف تصرفات المؤمنين ^(١) .
٥- عدم الاعتراف لهم بالسيادة والشرف ، والحيلولة دون تزعمهم :

نهى النبي ﷺ عن تسويد المنافقين وتشريفهم ، فقال ﷺ : (لا تقولوا للمنافق سيد ، فإنه إن يك سيدكم فقد أسخطتم ربكم ﷻ) ^(١) . وذلك لأنه في رفع شأنهم إعلاءً

^(١) ابن جبرين ، عبد الرحمن بن عبد الله ، رسالة الإصلاح ، (ط ١ ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٣هـ) (ص ٥٤)

للكفر وإهانة للإسلام ، ولأنه في تواضع المؤمن للمنافق إضعافاً لإيمانه ، وإذلالاً لنفسه التي أعزها الله بالإسلام . ومن طلب الدنيا بالتذلل للمنافقين فقد وقع في إثم عظيم ، وخسر خسراناً مبيناً ؛ لأنه باع آخرته بدنياه ، وفضل الأدنى على الأعلى .

ومن أسباب التعرض للمذلة على أيدي المنافقين : أن يستشفع به المؤمن لحل مشكلاته وقضاء حوائجه ، فإذا نفعوه في هذا المجال شعر بشيء من احترامهم ، فوقع في الإثم بسبب ذلك .

إن المنافق مهما علت مرتبته عند الناس ، ومهما أوتي من أسباب القوة ، فهو حقيرٌ عند ربه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ النساء: ١٤٥ لذا يجب أن يكون محتقراً من قبل المسلمين ، مهاناً بينهم ، لا سيادة ، ولا تبجيل ، ولا احترام ، وكيف يكون ذلك وقد قال الله ﷻ فيهم : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثِقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا ﴾ الأحزاب: ٦١

٦- أن ينزع المؤمنون ثقتهم بهم ، وأن لا يسندوا إليهم شيئاً من أمورهم لعدم توافر الكفاءة فيهم :

إن الكفاءة في أي عمل لا بد فيها من توافر أمرين ، هما : الأمانة ، والخبرة الفنية . وقد ذكرهما الله ﷻ حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ يوسف: ٥٥ وفي قوله حكاية عن إحدى ابنتي صاحب مدين : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرَّهُ بِكِ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجَرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ القصص: ٢٦

والمنافقون لا تتوافر فيهم الأمانة ؛ لانعدام الوازع الديني عندهم ، فإذا استلموا مراكز قيادية في الدولة الإسلامية أفسدوا في الأرض . ولم يذكر أن النبي ﷺ أسند إلى

(١) البخاري : الأدب المفرد ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (ص ٢٦٧) حديث رقم (٧٦٠) (ط ٣ ، بيروت ، دار البشائر الإسلامية ١٩٨٩م) أبو داود : السنن (٤ / ٢٩٥) حديث رقم (٤٩٧٧)

المنافقين في عصره شيئاً من أمور الدولة ، على الرغم من توافر الخبرة الفنية في بعضهم . فلا يستشارون ، ولا يُؤلَّون مسؤولية ؛ بحيث يكون لهم الأمر على المسلمين .

إن تولية المنافقين الولايات والمناصب ، هو أكبر دليل على موالاتهم ، وعلى بُغض الدين وأهله وحب الباطل وأهله . وموالاته المنافقين تغضب رب العالمين ، وهي طعنٌ في الدين ؛ لأن الولاء عبادة لا بد أن يُقصد بها وجه الله تعالى ، وإن هذا الولاء لا بد وأن يُوجَّه الوجهة الشرعية ، ولا يُصرف إلا لله تعالى ، ولدينه ، ولرسوله ﷺ ، وللمؤمنين . وصرُّفه للمنافقين هدمٌ للدين من أساسه .

٧- الإعراض عن المنافقين المتخلفين عن الجهاد بدون عذر شرعي ، ومقاطعتهم واجتنابهم :

يرشد الله ﷻ عباده المؤمنين توجيهاً حكيماً نحو المنافقين المتخلفين عن الجهاد بدون عذر شرعي ، ويخبرنا الله ﷻ أن المنافقين سوف يحلفون بالله للمؤمنين ساعة عودة المؤمنين من الجهاد ؛ ليعرضوا ويصفحوا عنهم ، فلا يوبِّخونهم ، ولا يعاتبونهم . فيرشدنا تعالى أن نُعرض عنهم ، لا إعراضَ صَفْحٍ ورضى ، ولكن إعراضَ احتقارٍ ، وازدراء . ويأمرنا باجتنابتهم ؛ لأنهم رَجَسٌ ، وَنَجَسٌ ، ولأنهم لا يستحقون غير هذه المعاملة القاسية ؛ عقاباً لهم على تخلفهم عن الصف ، ومعصيتهم أمر رسول الله ﷺ ، ومفارقتهم للجماعة ؛ جزاءً وفاقاً لما حوت قلوبهم من نفاق ، وكُزِهِ للإسلام والمسلمين ، وللجهاد والمجاهدين . يقول الله ﷻ : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

التوبة: ٩٥ .

وقال الله تعالى يحثُّ نبيه ﷺ والأمة من بعده على الإعراض عن المنافقين :

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء: ٨١)

فليحذر الموالون للمنافقين من أن يكونوا على ملتهم ، ويُبِعثوا على دينهم ، ويُحشروا معهم . فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، كيف نقول في رجلٍ أحبَّ قوماً ولم يلحق بهم ؟ ، فقال ﷺ : (المرء مع من أحب) ^(١) . وفي حديث آخر : (أنت مع من أحببت) ^(٢)

٨- التشهير بهم :

لا مانع من الجهر بأسمائهم ، وتعيين أشخاصهم ؛ إذا أثبتت الأحوال ، وتضافرت القرائن ، وتوفرت الوثائق ، وظهر من خلال أقوالهم وأفعالهم ما يدل على سوء القصد ، وخبث النية ، وإشاعة الفاحشة ، ونشر الفساد ، والتهيئة للباطل ، وضرب الحق .

والتشهير يكون بالإعلان عن جريمة المحكوم عليه بأي وسيلة من وسائل الإعلان ، باللسان والقلم ، ومختلف أنواع البيان . فيمات اللثام عن وجوههم الكالحة، وتُلقى الأضواء على مؤامراتهم الخبيثة .

ولقد أنزل الله ﷻ مهدياً المنافقين بالتشهير في قوله : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَمُخْرِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ﴾ ^(٦٤) التوبة: ٦٤

وقد أنزل الله ﷻ قرآناً في أكثر من موضعٍ مُشهِراً بالمنافقين وأعمالهم . ومن ذلك سورة (المنافقون) التي نزلت بشأن عبد الله بن أبي بن سلول ، وجاء بها مشهراً به

^(١) البخاري : الصحيح (٢٢٨٣/٥) حديث رقم (٥٨١٧) مسلم : الصحيح (٢٠٣٤/٤) حديث رقم

(٢٦٤٠) ابن حبان : الصحيح (٣١٦/٢) حديث رقم (٥٥٧)

^(٢) البخاري : الصحيح (١٣٤٩/٣) حديث رقم (٣٤٨٥) مسلم : الصحيح (٢٠٣٣/٤) حديث رقم

(٢٦٣٩) ابن حبان : الصحيح (١٨٢/١) حديث رقم (٨)

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ ﴾ (٧) ﴿ المنافقون: ٧

ولقد استخدم النبي ﷺ وسيلة التشهير في جهاد المنافقين . فقد ذكر ابن سعد أن المنافقين اجتمعوا "فتكلموا فيما بينهم . فقال رسول الله ﷺ : (إن رجلاً منكم اجتمعوا فقالوا كذا وكذا ، فقوموا واستغفروا الله ، وأستغفر لكم) ثلاث مرات . فقال : (لتقومنَّ أو لأسمينكنم بأسمائكنم) فقال : (قم يا فلان ، قم يا فلان ، ...) قال : فقاموا خزايا متقنعين" (١) .

وعن ابن عباس ؓ قال : قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة ، فقال : (يا فلان إنك منافق ، واخرج يا فلان فإنك منافق) فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم . فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد ، فاخْتَبَأَ منهم حياءً أن لم يشهد الجمعة ، وظنَّ أن الناس قد انصرفوا ... واختبئوا هم من عمر ؛ ظنوا أنه قد عَلِمَ بأمرهم . فجاء عمرُ ، فدخل المسجد ، فإذا بالناس لم يصلوا . فقال رجل من المسلمين : أبشِر يا عمر ، قد فضح الله المنافقين اليوم" (٢) .

٩- الإعراض عنهم ووعظهم وتوبيخهم :

﴿ هذه ثلاث وسائل لمجاهدة المنافقين ، قد جمعها الله ﷻ في آية واحدة ، فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (٦٣) ﴿ النساء: ٦٣

قال ابن القيم : "أمر الله رسوله ﷺ فيهم بثلاثة أشياء :

(١) الطبقات الكبرى (١/١٧٦) .

(٢) الطبري : التفسير (١١/ ١٥) ؛ الطبراني : المعجم الأوسط (١/ ٢٤٢) .

- الإعراض عنهم : إهانةٌ لهم وتحقيراً لشأنهم ، وتصغيراً لأمرهم ، لا إعراض مُتَارِكَةٌ ، وإهمالٍ .

- قوله : ﴿ وَعَظُهُمْ ﴾ : هو تخويفهم عقوبة الله ، وبأسه ، ونِقْمَتَهُ ، إنْ أَصْرُوا إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى غير رسول الله ﷺ ، وما أنزل عليه .

- قوله : ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (١٣) أي : يبلغ تأثيره إلى قلوبهم . ليس قولاً لِينًا لا يتأثر به المَقُولُ له . فهو قولٌ يبلغ به مرادَ قائله من الزجر والتخويف ، ويبلغ تأثيره إلى نفس المقول له . ليس هو كالقول الذي يمر على الأذان صفحاً . وهذا القول البليغ يتضمن ثلاثة أمور :

- عظم معناه ، وتأثر النفوس به .

- فخامة ألفاظه وجزالتها .

- كيفية القائل في إلقائه إلى المخاطب ؛ فإن القول كالسهم ، واللسان كالقوس الذي يدفعه ، وكالسيف ، والقلب كالساعد الذي يضربُ به^(١) .

١٠ - جهادهم وقتالهم بالسيف :

أمرنا الله ﷻ بجهاد المنافقين ، والإغلاظ عليهم ؛ على النحو الذي أمرنا بجهاد الكافرين فقال : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٧٣) التوبة: ٧٣

فكما أن الغلظة على الكافرين مطلوبة ، فكذلك الغلظة على المنافقين . ولهذا

قال القاسمي : "﴿ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ التوبة: ٧٣ أي : على كلا الفريقين بالقول ، وبالفعل"^(١) .

^(١) زاد المعاد (٣/٢٥)

وهذا لا يمنع من مواجهة شبهة المنافقين ، وظنونهم بالدلائل والبراهين ، وبإلزامهم الحجج ، وإزالة الشبهة ، وكذلك بإقامة الحدود عليهم ، إذا صدر منهم موجب ؛ لأنهم أكثر الناس وقوعاً فيما يوجب الحد ؛ لعدم ورعهم ، وقلة ارتداعهم .

فالمنافقون أكثر الناس إصابةً للذنوب التي تستوجب إقامة الحدود ؛ لأن هؤلاء لا يمنعهم من اقرار الذنوب وإظهارها في دار الإسلام ، إلا عز الإسلام ، وإقامة الحدود . فجهاد المنافقين بإقامة الحدود ، هو نوع من جهادهم باليد ؛ لأن جهادهم يشمل الجهاد بالقلب ، واللسان ، واليد .

❁ وقد نص القرآن على قتل المنافقين ، كما في قوله تعالى : ❁ ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَلَّا يَكُونُوا مِّنْ أُمَّةٍ مِّنْ أُمَّةٍ قَدْ جَاءَ لَهَا سَبِيلٌ ﴾ (النساء: ٨٨) ﴿ وَذُو لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَاٰلِيَّآءَ وَلَا نَصِيْرًا ﴾ (النساء: ٨٨ - ٨٩) .

❁ بل قال بعض الفقهاء : "إنه يُقتل حتى لو أظهر التوبة ؛ لأنه لا يُعلم توبته ؛ لأن غاية ما عنده أنه يُضمّر ما كان يُظهر ، وقد كان يُظهر الإيمان ، وهو منافق ، ولو قُبلت توبة الزنادقة (بعض المنافقين) لم يكن هناك سبيل إلى قتلهم ، والقرآن قد توعد بالتقتيل" (٢) .

❁ فجهاد المنافقين إذن : إذا أظهروا الكفر الجلي ، بقول ، أو فعل . أي : يُجاهدوا مثل جهاد الكفار ، يبدأ بالقلب ، وينتهي بالسيف .

(١) جمال الدين محمد (ت ١٩١٤م) ، محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم ، (ط١ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت) ، (٨ / ٢٠٣) .
(٢) ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٧/٢١٥) .

❖ وكذلك قول أمير المؤمنين علي عليه السلام (١): "بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعَةِ أَسْيَافٍ : سَيْفٍ لِلْمُشْرِكِينَ : ﴿ فَإِذَا أُنْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ التوبة: ٥ وسيفٍ للكفار من أهل الكتاب : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩ وسيفٍ للمنافقين : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴾ التوبة: ٧٣ وسيفٍ للبغاة من هذه الأمة : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تَ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ الحجرات: ٩

❖ ورؤي عن عبد الله بن مسعود عليه السلام ما يؤيد هذا المعنى ؛ إذ قال : "إن الله أمر نبيه ﷺ من جهاد المنافقين بالنحو الذي أمره من جهاد المشركين" (٢) .

❖ وقال ابن تيمية رحمه الله : "وإذا كان من شريعة النبي ﷺ أن يتألف الناس على الإسلام بالأموال العظيمة ، ليقوم دين الله ، وتعلو كلمته ، فلأن يتألفهم بالعفو أولى وأحرى ، فلما أنزل الله ﷻ (براءة) ونهاه عن الصلاة على المنافقين ، والقيام على قبورهم ، وأمره أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظ عليهم ، نسخ جميع ما كان المنافقون يُعامَلون به من العفو ، كما نسخ ما كان الكفار يُعامَلون به من الكف عمّن سالم . ولم يبق إلا إقامة الحدود ، وإعلاء كلمة الله في حق كل إنسان" (٣) .

(١) الطبري : التفسير (١٢٧/٦) ؛ ابن كثير : التفسير (٤٠٨/٢) .

(٢) ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣هـ) ، أحكام القرآن ، تحقيق علي محمد البجاوي

(٢/٩٦٦) (ط ١) ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٨٥م

(٣) الصارم المسلول ، ص (٤٤١/٢)

وهذه الآية : ﴿ يَأْتِيهَا النَّيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٧٣) التوبة: ٧٣ ناسخة لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٤٨) الأحزاب: ٤٨

وذلك أنه لم يبق حول المدينة حينئذٍ للمنافقين من يُعينه لو أقيم عليه الحد ، ولم يبق حول المدينة من الكفار من يتحدث أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه ، فأمره الله بجهادهم والإغلاظ عليهم ^(١) .

يقول الله ﷻ أيضاً : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٠) مَلْعُونِينَ ﴿ آيِنَمَا تُفْتَوُوا أَخِذُوا وَقْتِكُمْ وَقْتًا قَلِيلًا ﴾ (٦١) الأحزاب: ٦٠ - ٦١

فعلِم أنهم كانوا يفعلون أشياء إذ ذاك ، إن لم ينتهوا عنها قُتلوا عليها في المستقبل ؛ لَمَّا أعز الله دينه ، ونصر رسوله ﷺ ^(٢) .

وعندما أخذ النبي ﷺ في غزو الروم ، وأنزل الله ﷻ سورة التوبة ، وكملت شرائع الدين من جهادٍ ، وحجٍ ، وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر ؛ كان كمال الدين في قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣ وذلك قبل وفاته ﷺ بثلاثة أشهر .

﴿ ولما أنزل الله ﷻ سورة (التوبة) أمره بنبذ العهود التي كانت للمشركين ، وأمر ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين سواءً بسواءٍ ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّيُّ جَهْدِ

^(١) ابن تيمية : الصارم المسلول (٤٤١/٢) .

^(٢) ابن تيمية : الصارم المسلول (٤٤٢/٢) .

الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ التوبة: ٧٣ النسخة لما قبلها من الآيات التي تأمر بالعفو والصفح عن كلا الفريقين الكفار ، والمنافقين ^(١) .

أما لماذا ترك النبي ﷺ جهاد المنافقين بالسيف في عهده ، ولم يقتلهم مع علمه بنفاق بعضهم ، فسنبذل ذلك في المبحث اللاحق ، مستدلين بأقوال الصحابة رضي الله عنهم ، وأقوال العلماء - إن شاء الله تعالى - .

١١ - عدم الصلاة عليهم ، وترك حضور جنازتهم ، ودمغهم بالكفر :

الوسائل والعقوبات التي ذكرناها آنفاً هي بحق المنافقين في حياتهم ، لكن الشارع الحكيم شرع لنا عقوبات بعد مماتهم ، إهانة لهم ، وهي عدم الصلاة عليهم ، وترك حضور جنازتهم ، ودمغهم بالكفر . لأن المنافق لا بد أن يُلْفَظَ من قبل المجتمع ، وأن يُهَجَرَ ؛ عقاباً له على نفاقه . فحينما يجد نفسه منبوذاً مهجوراً ، معبوساً في وجهه ، مُعْرَضاً عنه ، فلعله يفكر ويرجع عن نفاقه ، ويعود إلى الصف المسلم مرة أخرى . فهذا منهج أخلاقي ، ومبدأ إسلامي في هجر أصحاب البدع والنفاق ، إعلاناً للبراءة منهم ، وتقويماً لهم ، لعلهم يرجعون .

ومن صور الولاء للمنافقين التي عمت بها البلوى في المجتمع الإسلامي : أن يُحتفى بالمنافق ، ويُشَّ في وجهه عند لقائه ، والثناء عليه في مجلسه ؛ بل والصلاة عليه ، وحضور جنازته . بل والدعاء والاستغفار له ، على الرغم من التحذير الرباني ، والنداء القرآني في النهي عن ذلك . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾ (٨٤) التوبة: ٨٤ وقال تعالى : ﴿ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ التوبة: ٨٠

(١) الطبري : التفسير (٢٣٣/١٠) ؛ الشوكاني : فتح القدير (٣٨٢/٢) .

﴿وما أَجْمَلَ ما أَصَلَه ابن القيم رحمه الله موضحاً هدي النبي ﷺ في جهاد المنافقين ، فقال : "وأما سيرته ﷺ في المنافقين ، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكَلِّ سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمره أن يعرض عنهم ، ويُغْلِظ عليهم ، وأن يُبْلِغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهاه أن يصلِّي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم . وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر لهم" (١) .

﴿ فهذا هو هدي النبي ﷺ في جهاد المنافقين :

- قبولُ علانيتهم .
- إيْكالُ سرائرهم إلى الله .
- جهادهم بالعلم والحجة .
- الإعراض عنهم .
- الغلظة عليهم .
- إبلاغُ بالقول البليغ إلى أنفسهم .
- عدم الصلاة عليهم .
- عدم شهود جنازتهم .
- عدم الاستغفار لهم .

أمَّا من أَعْرَضَ عن هذا المنهج النبوي الحكيم مع هؤلاء المنافقين ، فنجدهم يبذلون للمنافقين كل صنوف الموالاة المحبة ، وكل أنواع البشاشة والتلطف في القول والفعل ، بل وفي الهمسات والابتسامات للمنافقين أعداء الدين . وتلك هي عين

(١) زاد المعاد (٣/١٦١) .

الموالاتة المحرمة ، فهؤلاء لهم حكم المنافقين ، ولا بد من معاقبتهم والغلظة عليهم ، وإعلان البراءة منهم . فحكمهم حكم المنافقين سواءً بسواءً .

إذن واجب الشرع يحتمّ نَبَذَ كل منافقٍ ، والإعراض عنه ، وهجره ؛ حتى يُنْقَى المجتمع من هذه الحثالة ، ومن هذا الوباء . والمعاملة بالمِثْلِ لمن مَجَّدَ المنافقين ، وعظّمهم ، ومدحهم ، ووالاهم . بالإعراض عنهم ، والغلظة عليهم ، وهجرهم .

فيجب الانتباه ، وتوعية المسلمين ، وكشف المنافقين ، والتحذير من موالاتهم والرضا بفعالهم ، أو السير على دربهم . والحذر من مجالستهم ، ومخالطتهم ؛ حتى لا يقع علينا عَتَبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ ﴿١١٣﴾ هود: ١١٣

المبحث الثاني حكم جهاد المنافقين

لقد أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بجهاد المنافقين مع الكفار ، فقال تعالى : ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّهِ أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَنَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التوبة: ٧٣)

❁ وهذه الآية الكريمة لم تفرّق بين جهاد الكفار ، وجهاد المنافقين ؛ فدلّ ذلك على أن المنافقين إذا عُرفوا يُجاهدون بالسيف ؛ كالكُفّار . وبهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورجحه ابن جرير الطبري فقال : "وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب : ما قال ابن مسعود رضي الله عنه من أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ من جهاد المنافقين بنحو الذي لأمره من جهاد المشركين" ^(١)

❁ وبنحو هذا قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى ، إذ قال : "والذي يظهر : أن في القرآن أربعة سيوف ، سيفٌ على المشركين حتى يسلموا أو يؤسروا ، فإمّا منّا بعد وإمّا فداءً ، وسيفٌ على المنافقين ، وهو سيفُ الزنادقة ، وقد أمر الله بجهادهم والإغلاظ عليهم في سورة براءة ، وسورة التحريم ، وآخر سورة الأحزاب . وسيفٌ على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، وسيفٌ على أهل البغي ، وهو المذكور في سورة الحجرات" ^(٢) .

^(١) التفسير (١٢٧/٦) .

^(٢) عبد الرحمن بن شهاب البغدادي الدمشقي (ت ٧٩٥هـ) ، الحكم الجديرة بالإذاعة ، (بيروت ، دارالفكر ، ١٤١٠هـ) ، ص (١١٢) . وكلام ابن رجب كما هو ظاهر مقتبس من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

❁ وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى : "وجملة ذلك : أنه لما نزلت براءة ، أمر أن يبتدئ جميع الكفار بالقتال ، وثنيهم وكتابيهم ؛ سواء كفوا عنه ، أم لم يكفوا عنه ، وأن يندب إليهم تلك العهود المطلقة التي كانت بينه وبينهم . وقيل له فيها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٧٣) التوبة: ٧٣ بعد أن كان قيل له : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٤٨) الأحزاب: ٤٨ ولهذا قال زيد بن أسلم (١) : "نسخت هذه الآية ما كان قبلها ، فأما قبل براءة ، وقبل بدر ، فقد كان مأموراً بالصبر على أذاهم والعفو عنهم ، وأما بعد بدر ، وقبل براءة ، فقد كان يقتل من يؤذيه ، ويُمسك عمن سالمه ؛ كما فعل بابل الأشرف (٢) ، وغيره ؛ ممن كان يؤذيه. فبدر كانت أساس عز الدين . وفتح مكة كانت كمال عز الدين ؛ فكانوا قبل بدر يسمعون الأذى الظاهر ، ويؤمنون بالصبر عليه ، وبعد بدر يؤذون في السر من جهة المنافقين وغيرهم ، فيؤمنون بالصبر عليه ، وفي تبوك أمروا بالإغلاظ للكفار والمنافقين ، فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من أذاهم ، في مجلس خاص ، أو عام ، بل مات بغیظه لعلمه بأنه يقتل إذا تكلم " (٣) .

❁ فقول ابن تيمية رحمه الله تعالى هذا يدل على أنه يرى أنه بعد نزول آية التوبة الأمرة بجهاد المنافقين : أن جهاد المنافقين يكون بالسيف ؛ إذا علم نفاقهم ، وكانت المصلحة في جهادهم .

(١) العمري المدني الفقيه ، كانت له حلقة في مسجد النبي ﷺ ، وكان من العلماء الأبرار ، مات سنة (١٣٦هـ) الذهبي : تذكرة الحفاظ (١/١٣٢) .

(٢) اليهودي التاجر الشاعر ، كان يؤذي النبي ﷺ ، ويحرض على قتاله ، قتله محمد بن مسلمة بأمر النبي ﷺ . ابن هشام : السيرة النبوية (٣/٣١٨) .

(٣) الصارم المسلول ، ص (٢٢٠) .

وقد صرح في موضع آخر ، فقال : "فحيثما كان للمنافق ظهورٌ ، ويُخاف من إقامة الحد عليه فتنه أكبر من بقاءه ، عملنا بآية : ﴿ وَدَعِ أَذْنَهُمْ ﴾ الأحزاب: ٤٨ كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار ، عملنا بآية الكف والصُّفْح ، وحيث ما حصل القوة والعز ، خوطبنا بقوله : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ التوبة: ٧٣ (١) .

✽ وقال ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ التوبة: ٧٣ : وأمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، والغلظة عليهم ، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأخبره بأن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة . وقد تقدّم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ أنه قال : بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسيافٍ : سيفٍ للمشركين : ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ التوبة: ٥ وسيفٍ للكفار من أهل الكتاب : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٢٩) التوبة: ٢٩ وسيفٍ للمنافقين : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرُ اللَّهُ لَهُمُ الْمَصِيرَ ﴾ (٧٣) التوبة: ٧٣ وسيفٍ للبغاة من هذه الأمة : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٩) الحجرات: ٩

وهنا يقتضى أنهم يُجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق . وهو اختيار ابن جرير . وقال عبد الله بن مسعود ؓ في قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾

(١) الصارم المسلول ، ص (٣٥٩) .

التوبة: ٧٣ قال : بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلمه ، فإن لم يستطع فليكنهز في وجهه .

❁ وقال عبد الله بن عباس ؓ : "أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان ، وأذهب الرفق بهم . وقال الضحاك^(١) : جاهد الكفار بالسيف ، واغلظ على المنافقين بالكلام ؛ وهو مجاهدتهم . وعن الحسن وقتادة : ومجاهدتهم : إقامة الحدود عليهم . وقد يقال : إنه لا منافاة بين هذه الأقوال ؛ لأنه تارة يؤاخذهم بهذا ، وتارة بهذا ، بحسب الأحوال"^(٢) .

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في السبب الذي لأجله ترك النبي ﷺ جهاد المنافقين بالسيف في عهده ، فقال :

❁ الطبري رحمه الله تعالى : "فإن قال قائل : فكيف تركهم رسول الله ﷺ مقيمين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم ؟

قيل : إن الله -تعالى ذكروه- إنما أمر بقتال من أظهر منهم كلمة الكفر ، ثم أقام على إظهار ما أظهر من ذلك . وأما من إذا أُطِع عليه منهم : أنه تكلم بكلمة الكفر ، وأخذ بها ؛ أنكرها ، ورجع عنها ، وقال : إني مسلم . فإن حُكِمَ الله في كل من أظهر الإسلام بلسانه ، أنه يحقن بذلك له دمه وماله ، وإن كان معتقداً غير ذلك . وتوكل جل ثناؤه بسرائرهم ، ولم يجعل للخلق البحث عن السرائر ، فلذلك كان النبي ﷺ مع علمه بهم وإطلاع الله إياه على ضمائرهم واعتقاد صدورهم ، كان يقرهم بين أظهر الصحابة ، ولا يسلك بجهادهم مسلك جهاد من ناصبه الحرب على الشرك بالله ؛ لأن أحدهم كان

^(١) أبو محمد الهلالي ، كان من أوعية العلم ، صدوق في نفسه ، مات سنة (١٠٥هـ) ، ابن حبان :

مشاهير علماء الأمصار ، ص (١٩٤) ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء (٤/٥٩٨) .

^(٢) التفسير (٤/١١٨-١١٩) .

إذا أُطِّعَ عليه أنه قال قولاً كفر فيه بالله ، ثم أخذ به أنكره ، وأظهر الإسلام بلسانه . فلم يكن ﷺ يأخذه إلا بما أظهر له من قوله عند حضوره إياه ، وعزمه على إمضاء الحكم ، دون ما سلف من قولٍ كان نطق به قبل ذلك ، ودون اعتقاد ضميره الذي لم يُبَّحِث اللهُ لأحدٍ الأخذ به في الحكم ، وتولَّى الأخذ به هو دون خلقه" (١).

فمن تعليل الطبري هنا- مع ترجيحه لجهاد المنافقين بالسيف- يظهر أنه لا فرق عنده بين المرتدين والمنافقين الذين يُجاهدون بالسيف . والصحيح أن بينهما فرقاً ؛ فإن المرتد لا يتخفى باعتقاده ، والمنافق يتخفى باعتقاده . والقائلون بجهاد المنافقين بالسيف ، يريدون جهاد من أُطِّعَ على نفاقه بحجة قاطعة لا تقبل الشك ، أما عند الاحتمال فلا جهاد بالسيف .

✽ وقال القرطبي رحمه الله تعالى : "واختلف العلماء في إمساك النبي ﷺ عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم ، على عدة أقوال :

(١) قال بعض العلماء : إنما لم يقتلهم ؛ لأنه لم يعلم حالهم أحدٌ سواه . وقد اتفق العلماء على أن القاضي لا يقتل بعلمه ، وإن اختلفوا في سائر الأحكام .

(٢) قال أصحاب الشافعي : إنما لم يقتلهم ؛ لأن الزنديق (وهو الذي يُسِرُّ الكُفْرَ ، ويُظهِرُ الإيمان) يُستتاب ، ولا يقتل . قال ابن العربي : وهذا وَهْمٌ ؛ فإن النبي ﷺ لم يستبهم ، ولا نقل ذلك أحدٌ .

(٣) قال القرطبي : إنما لم يقتلهم ؛ مصلحةً ؛ لتأليف القلوب عليه ، لئلا تنفر عنه . وقال أيضاً : وهذا قول علمائنا ، وغيرهم . قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك رحمه الله في كفِّ رسولِ الله ﷺ عن المنافقين .

(١) التفسير (١٢٧/٦) .

٤) قال مالك : التَّفَاقُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هُوَ الزُّنْدُقَةُ فِينَا الْيَوْمَ ، فُيَقْتَلُ الزُّنْدِيقُ إِذَا شُهِدَ عَلَيْهِ بِهَا دُونَ اسْتِتَابَةٍ . وَهُوَ أَحَدُ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ . قَالَ مَالِكُ : وَإِنَّمَا كَفَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْمُنَافِقِينَ ؛ لِئُبَيِّنَ لِأُمَّتِهِ أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَحْكُمُ بِعِلْمِهِ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ مُحْتَجًّا لِلْقَوْلِ الْآخَرَ : السُّنَّةُ فِي مَنْ شُهِدَ عَلَيْهِ بِالزُّنْدُقَةِ ، فَجَحَدَ وَأَعْلَنَ بِالْإِيمَانِ ، وَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ دِينٍ سِوَى دِينِ الْإِسْلَامِ : أَنَّ ذَلِكَ يَمْنَعُ مِنْ إِرَاقَةِ دَمِهِ . وَبِهِ قَالَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ ، وَأَحْمَدُ ، وَالطَّبْرِيُّ ، وَغَيْرُهُمْ .

٥) قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُ : وَإِنَّمَا مَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ قَتْلِ الْمُنَافِقِينَ مَا كَانُوا يُظْهِرُونَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ ، مَعَ الْعِلْمِ بِنِفَاقِهِمْ ؛ لِأَنَّ مَا يُظْهِرُونَهُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ . وَهُوَ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ قَدْ حَفِظَ أَصْحَابَ نَبِيِّهِ ﷺ بِكَوْنِهِ ثَبَّتَهُمْ أَنْ يُفْسِدَهُمُ الْمُنَافِقُونَ ، أَوْ يُفْسِدُوا دِينَهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ فِي تَبْقِيَتِهِمْ ضَرَرٌ . وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ ؛ لِأَنَّ لَا نَأْمَنُ مِنَ الزُّنَادِقَةِ وَالْمُنَافِقِينَ أَنْ يُفْسِدُوا عَامَتَنَا وَجِهَالَنَا^(١) .

فَإِنْ قِيلَ : فَلِمَ لَمْ يَقْتُلِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ عِلْمِهِ بِنِفَاقِ بَعْضِهِمْ ، وَقَبْلِ عِلَانِيَتِهِمْ ؟

قلنا : إنما ذاك لوجهين :

الوجه الأول :

إِنَّ عَامَّتَهُمْ لَمْ يَكُنْ مَا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ ؛ مِمَّا يُثَبِّتُ عَلَيْهِمُ الْبَيِّنَةَ ، بَلْ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ . وَنِفَاقُهُمْ يَعْرِفُ تَارَةً بِالْكَلِمَةِ يَسْمَعُهَا مِنْهُمْ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ ، فَيَنْقَلِبُهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أَنَّهُمْ مَا قَالُوهَا ، أَوْ لَا يَحْلِفُونَ . وَتَارَةً بِمَا يَظْهَرُ مِنْ تَأْخُرِهِمْ عَنِ الصَّلَاةِ ، وَعَنِ الْجِهَادِ ، وَاسْتِثْقَالِهِمْ لِلزَّكَاةِ ، وَظُهُورِ الْكِرَاهِيَةِ مِنْهُمْ لِكَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ . وَعَامَّتُهُمْ يُعْرِفُونَ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَوْنُوا نَشَاءُ لِأَرْبَابِكُمْ هَمَّ فَلَاعْرِفَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ محمد: ٣٠

(١) التفسير (١/١٩٨-٢٠٠)

فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَعَرَّفَهُمْ رَسُولَهُ ﷺ بِالسِّمَاءِ فِي وُجُوهِهِمْ . ثُمَّ قَالَ :
﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ محمد: ٣٠ فأقسم على أنه لا بد أن يعرفهم في لحن القول .

ومنهم من كان يقول القول أو يعمل العمل ، فينزل القرآن الكريم بخبر صاحب ذلك القول أو العمل منهم ، كما في سورة التوبة (ومنهم ، ومنهم) وكان المسلمون أيضاً يعلمون كثيراً منهم بالشواهد ، والدلالات ، والقرائن ، والأمارات .

ومنهم من لم يكن يُعرف ، كما قال الله ﷻ : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعْدُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة: ١٠١)

ثم ؛ إن جميع هؤلاء المنافقين يُظهرون الإسلام ويخلفون أنهم مسلمون ، ويتخذون أيمانهم جنة .

وإذا كانت هذه حالهم فالنبي ﷺ لم يكن يقيم الحدود بعلمه ، ولا بخبر الواحد ، ولا بمجرد الوحي ، ولا بالدلائل والشواهد ، حتى يثبت الموجب للحد بيينة ، أو إقرار .

فكان تزك قتلهم مع كونهم كفاراً ؛ لعدم ظهور الكفر منهم بحجة شرعية . ويدل هذا على أنه لم يستتبهم على التعيين . ومن المعلوم أن أحسن حال من ثبت نفاقه وزندقته : أنه يستتاب كالمرتد ، وإلا قُتل . ولم يبلغنا أنه استتاب أحداً بعينه منهم ، فعلم أن الكفر والردة لم تثبت على واحدٍ بعينه ثبوتاً يوجب أن يُقتل كالمرتد ، ولهذا كان يقبل علانيتهم ويكفل سرايرهم إلى الله .

فإذا كانت هذه حال من ظهر نفاقه بغير البيينة الشرعية ، فكيف حال من لم يظهر نفاقه ؟ ولهذا قال : (إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم) لما

استؤذن في قتل ذي الخويصرة^(١) . ولما استؤذن في قتل رجل من المنافقين ، قال : (أليس يشهد أن لا إله إلا الله) قيل : بلى . قال : (أليس يصلي؟) قيل : بلى . قال : (أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم)^(٢) فأخبر أنه نُهي عن قتل من أظهر الإسلام من الشهادتين والصلاة ، وإن زُنَّ بالنفاق ورُمي به ، وظهرت عليه دلالاته ، إذا لم يثبت بحجة شرعية أنه أظهر الكفر .

وكذلك قوله ﷺ في الحديث الآخر : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)^(٣) ، معناه : إني أمرت أن أقبل منهم ظاهر الإسلام ، وأكل بواطنهم إلى الله . والزندق أو المنافق إنما لم يقتل إذا تكلم بكلمة الكفر ، وقامت عليه بذلك بينة . وهذا حكمٌ بالظاهر لا بالباطن^(٤) .

✽ وبهذا الجواب يظهر فقه المسألة .

الوجه الثاني :

أنه ﷺ كان يخشى أن يتولد من قتلهم من الفساد أكثر مما في استبقتهم ، وقد بين ذلك حين قال : (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) وقال : (إذن ترعد له

^(١) أحمد : المسند (٤/٣) حديث رقم (١١٠٢١) ؛ مسلم : الصحيح (٧٤٢/٢) حديث رقم (١٠٦٤) ؛ أبو يعلى : المسند (٣٩١/٢) حديث رقم (١١٦٣) .

^(٢) الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ) ، المسند (ص ٣٢٠) (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت) البيهقي : السنن الكبرى (٣/٣٦٧) حديث رقم (٦٢٩٤) .

^(٣) الحديث رواه : أحمد : المسند (١١/١) حديث رقم (٦٧) ؛ البخاري : الصحيح (١٧/١) حديث رقم (٢٥) ؛ مسلم : الصحيح (٥٣/١) حديث رقم (٢٢) ؛ ابن ماجه : السنن (١٢٩٥/٢) حديث رقم

(٣٩٢٧) ؛ الترمذي : السنن (٤٣٩/٥) ؛ (٣٣٤١) ؛ ابن حبان : الصحيح (٤٠١/١) حديث رقم (١٧٥) ، من حديث ابن عمر وأبي هريرة ؓ .

^(٤) ابن تيمية : الصارم المسلول ، ص (٧٦) .

أنوف كثيرةً يثرب) فإنه لو قتلهم بما يعلمه من كفرهم لأوشك أن يظنّ الظانُّ أنه إنما قتلهم لأغراض وأحقاد ، وإنما قُضده الاستعانة بهم على المُلْك ، كما قال : (أكره أن تقول العربُ : لما ظفِر بأصحابه أَقْبَلَ يَقتُلُهُم)^(١) وأن يخافَ مَنْ يريد الدخول في الإسلام أن يُقتل مع إظهاره الإسلام ، كما قُتل غيره .

وقد كان ﷺ أيضاً يخشى أن تغضب قبيلةً من يُقتل بيد آخرين ، فيكون ذلك سبباً للفتنة ، واعتبر ذلك بما جرى في عبد الله بن أبي بن سلول لما عرّض سعد بن معاذ بقتله ، خاصم له أناسُ صالحون ، وأخذتهم الحمية حتى سكتهم رسول الله ﷺ . وقد بين ذلك رسولُ الله ﷺ لما استأذنه عمر رضي الله عنه في قتل عبد الله بن أبي بن سلول . قال أصحابنا : ونحن إذا خفنا مثل ذلك كففنا عن القتل^(٢) .

فحاصله : أن الحدَّ لم يُقَمَّ على واحدٍ بعينه ؛ لعدم ظهوره بالحجة الشرعية التي يعلم بها الخاص والعام ، أو لعدم إمكان إقامته إلا مع تنفير أقوام عن الدخول في الإسلام ، وارتداد آخرين عنه ، وإظهار قومٍ من الحرب والفتنة ما يربو فساده على فساد ترك قتل منافق . وهذان المعنيان حكمهما باقٍ إلى يومنا هذا ، إلا في شيءٍ واحدٍ ، وهو أنه ربما خاف أن يظن الظانُّ أنه يُقتل أصحابه لغرض آخر مثل أغراض المُلوك ، فهذا منتفٍ اليوم .

والذي يبيِّن حقيقةَ الجواب الثاني : أن النبي ﷺ لما كان بمكة مستضعفاً هو وأصحابه ، عاجزين عن الجهاد ؛ أمرهم الله بِكف أيديهم ، والصبر على أذى المشركين . فلما هاجروا إلى المدينة ، وصار لهم دار عِزٍّ ومنعة ، أمرهم بالجهاد ، وبالكف عمّن سألهم ، وكف يده عنهم ؛ لأنه لو أمرهم إذ ذاك بإقامة الحدود على كل كافرٍ ومنافق لَنَفَرَ عن الإسلام أكثر العرب ، إذا رأوا أنّ بعض من دخل فيه يُقتل . وفي مثل هذه

(١) القرطبي : التفسير (٢٠٧/٨) .

(٢) ابن تيمية : الصارم المسلول ، ص (٦٨٠) .

الحال نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا نُطِيعُ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ وَدَعَّ اٰذُنَهُمْ تَتَوَكَّلْ عَلٰى اللّٰهِ وَكَفٰى بِاللّٰهِ وَكِيلًا ٤٨ ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وهذه السورة نزلت بالمدينة بعد الخندق ، فأمره الله في تلك الحال أن يترك أذى الكافرين والمنافقين له ، فلا يكافئهم عليه ؛ لما يتولد في مكافأتهم من الفتنة .

ولم يزل الأمر كذلك حتى فتحت مكة ، ودخلت العرب في دين الله قاطبة ، ثم أخذ النبي ﷺ في غزو الروم ، وأنزل الله تعالى سورة التوبة ، وكملت شرائع الدين ؛ من الجهاد ، والحج ، والأمر بالمعروف . فكان كمال الدين حين نزل قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَاَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِيْ وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْاِسْلَامَ دِيْنًا ﴾ [المائدة: ٣] ، قبل وفاته بأقل من ثلاثة أشهر .

ولما أنزل "براءة" أمره بنبذ العهود التي كانت للمشركين ، وقال فيها : ﴿ يٰٓاَيُّهَا النَّبِيُّ جٰهِدِ الْكٰفِرَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ وَاَعْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وٰدٰهُمْ جَهَنَّمُ وَاِنَّهَا لَمَصِيْرٌ ﴾ [التوبة: ٧٣] وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ وَلَا نُطِيعُ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ وَدَعَّ اٰذُنَهُمْ تَتَوَكَّلْ عَلٰى اللّٰهِ وَكَفٰى بِاللّٰهِ وَكِيلًا ٤٨ ﴾ [الأحزاب: ٤٨]

وذلك أنه لم يبق حينئذ للمنافق من يعينه لو أقيم عليه الحد ، ولم يبق حول المدينة من الكفار من يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه ، فأمره الله بجهادهم ، والإغلاظ عليهم .

وقد ذكر أهل العلم أن آية الأحزاب منسوخة بهذه الآية ونحوها . وقال في الأحزاب : ﴿ لِيَنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنٰفِقُوْنَ وَالَّذِيْنَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُوْنَ فِي الْمَدِيْنَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا اِلَّا قَلِيْلًا ٦٠ ﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦١]

فَعُلِمَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ أَشْيَاءَ إِذْ ذَاكَ إِنْ لَمْ يَنْتَهَوْا عَنْهَا قُتِلُوا عَلَيْهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ دِينَهُ ، وَنَصَرَ رَسُولَهُ . فَحَيْثَمَا كَانَ لِلْمُنَافِقِ ظُهُورٌ يُخَافُ مِنْ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ فَتْنَةٌ أَكْبَرُ مِنْ بَقَائِهِ عَمَلْنَا بِآيَةِ ﴿ وَدَعَّ أَذْنَهُمْ ﴾ الْأَحْزَابِ: ٤٨

كما إنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح ، وحيث ما حصلت القوة والعز خوطبنا بقوله : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ التوبة: ٧٣

فهذا يبيّن أن الإمساك عن قتل مَنْ أظهر نفاقه بكتاب الله ؛ كان على عهد رسول الله ﷺ ، إذ لا نسخ بعده ، ولم ندع أن الحكم تغيّر بعده لتغير المصلحة من غير وحي نزل ؛ فإنّ هذا تصرّف في الشريعة ، وتحويل لها بالرأي ، ودعوى أن الحكم المطلق كان لمعنى وقد زال ، وهو غير جائز ؛ كما نسبوا ذلك إلى من قال أن حكم المؤلّفة انقطع . ولم يأت على انقطاعه بكتاب ولا سنة ؛ سوى ادّعاء تغير المصلحة .

أما ابن حزم ، فإنه يعلل عدم قتل الرسول ﷺ للمنافقين في عهده بكونهم صنفين :

- صنف لم يعلم ﷺ أعيانهم .

- وصنف علم أعيانهم ثم تابوا ، ولم يقطع بأن توبتهم غير صحيحة ؛ لذلك لم يقتلهم .

وقد أطلّ في إبطال كلّ ما يعارض قوله هذا ^(١) .

(١) ابن حزم ، أحمد بن علي بن حزم الأندلسي (ت ٥٦٤ هـ) ، المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاختصار ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت) ، (١١/٢١٢) .

❖ وَيُرَدُّ عَلَى ابْنِ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا اسْتَأْذَنَهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ فِي قَتْلِ الْمُنَافِقِينَ لَمْ يَقُلْ لَهُمْ إِنَّهُمْ تَابُوا ، وَلَا سَبِيلَ عَلَى قَتْلِ التَّائِبِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ؛ بَلْ عُلِّلَ بَعْلَةٌ أُخْرَى ، فَكَيْفَ إِذَا يَتْرَكَ ابْنُ حَزْمٍ ظَاهِرَ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ ظَاهِرِي؟!

وبهذا يظهر أن المنافق إذا أظهر نفاقه وثبتت بينة شرعية يقام بها الحد = قُتِلَ بالسيف . وهذا هو جهاده الثابت في سورة التوبة ، وهي آخر القرآن نزولاً . فَإِنْ أَنْكَرَ أَنَّهُ كَفَرَ بَعْدَ قِيَامِ الْبَيِّنَةِ عَلَيْهِ ، فَلَا يَسْتَتَابُ ؛ بَلْ يُقْتَلُ . أَمَا إِنْ أَقْرَبَ فَإِنَّهُ يَسْتَتَابُ . وَكَذَلِكَ مِنْ تَكَرَّرَتْ رَدَّتُهُ مَرَارًا كَثِيرَةً فَإِنَّ ذَلِكَ مَتَلَاعِبٌ بِدِينِهِ ، فَاسِدُ الطَّوْيَةِ = يُقْتَلُ ، وَلَا يَسْتَتَابُ .

❖ يَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : "وَيَدُلُّ عَلَى الْمَسْأَلَةِ : مَا رَوَى أَبُو إِدْرِيسَ^(١) ، قَالَ : أَتَيْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي بَنَاسٍ مِنَ الزَّنَادِقَةِ ارْتَدَوْا عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَسَأَلْتُهُمْ ، فَجَحَدُوا ، فَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْبَيِّنَةُ الْعَدُولُ . قَالَ : فَقَتَلْتَهُمْ ، وَلَمْ يَسْتَتَبُوا . قَالَ : وَأَتَيْتُ بَرَجِلَ كَانَ نَصْرَانِيًّا وَأَسْلَمَ ، ثُمَّ رَجَعَ عَنِ الْإِسْلَامِ . قَالَ : فَسَأَلْتُهُ ، فَأَقْرَبَ بِمَا كَانَ ، فَاسْتَتَابَهُ ، فَتَرَكْتُهُ . فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ تَسْتَتِيبُ هَذَا ، وَلَمْ تَسْتَتِبْ أَوْلَئِكَ ؟ قَالَ : إِنْ هَذَا أَقْرَبَ بِمَا كَانَ مِنْهُ ، وَإِنْ أَوْلَئِكَ لَمْ يَقْرَأُوا وَجَحَدُوا ، حَتَّى قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْبَيِّنَةُ ؛ فَلِذَلِكَ لَمْ اسْتَتَبُوا .

❖ فَهَذَا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ بَيَانٌ أَنَّ كُلَّ زَنْدِيقٍ كَتَمَ زَنْدِيقَتَهُ وَجَحَدَهَا حَتَّى قَامَتْ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةُ = قُتِلَ ، وَلَمْ يَسْتَتِبْ . وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْتُلْ مِنْ جَحَدَ زَنْدِيقَتَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ؛ لِعَدَمِ قِيَامِ الْبَيِّنَةِ . وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ

(١) عائذ الله بن عبد الله الخولاني الدمشقي ، عالم أهل الشام ، الفقيه ، أحد من جمع العلم والعمل ، ولد عام (٥٨هـ) ، وكان قاضي بلاد الشام ، مات سنة (٨٠هـ) ، ابن حبان : مشاهير علماء الأمصار ص (١١٢) ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء (٤/٢٧٢) .

يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن

يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿التوبة: ١٠١ - ١٠٢﴾

فَعُلِمَ أَن مَن لَّمْ يَعْتَرِفْ بِذَنْبِهِ كَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ .

المبحث الثالث

حكم توبة المنافق والزنديق . ومتى تقبل توبة أحدهم ؟

قبل أن نستعرض أقوال العلماء في حكم توبة المنافقين والزنادقة ، علينا أن نبيّن معنى كلمة الزنديق ، والزندقة .

المطلب الأول : معنى كلمة الزنديق والزندقة :

اختلف أهل اللغة في معنى كلمة الزنديق . فقال ابن منظور : "الزنديق : هو القائل ببقاء الدهر . فارسيّ معرّب . وهو بالفارسية (زندكراي) أي : يقولُ بدوام الدهر"^(١) .

وقال الزبيدي بعد ذكره للخلاف : "الصوابُ : أن الزنديق نسبة إلى (الزند) وهو كتاب (ماني المجوسي) الذي كان في زمن بهرام بن هرمز . والزند -بَلُغَتِهِمْ- : التفسير . يعني : هذا تفسير لكتاب زرادشت الفارسي . ولعلّ إطلاق الزنديق على من يُظهر الإسلام ، ويبطن الكفر كان لأن الذين أظهروا الإسلام نفاقاً بعد الفتح الإسلامي كان أكثرهم من المجوس . فأطلقت الزندقة عليهم نسبةً إلى بعض دياناتهم ، ثم أصبحت بعد ذلك تُطلق على كل من أظهر الإسلام نفاقاً"^(٢) .

^(١) لسان العرب (٥/٢١٥) .

^(٢) تاج العروس (٢/٧٨) .

❖ قال ابن القيم: "الطبقة الخامسة عشرة ، طبقة الزنادقة ، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله ، وهؤلاء المنافقون ، وهم في الدرك الأسفل من النار ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥ ﴾ النساء : ١٤٥

فالكفار المجاهرون أخف ، وهم فوقهم في دركات النار ؛ لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله ، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق . وبليّة المسلمين بهم أعظم من بليّتهم بالكفار المجاهرين . ولهذا قال الله تعالى في حقهم : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ ﴾ المنافقون : ٤ (١)

وقال ابن قدامة المقدسي في معنى الزندقة : "إظهار الحق واعتقاد خلافه . وهو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ، ويُسمى اليوم : الزندقة" (٢) .

❖ وقال العلامة علي بن خضير الخضير : "إنّ مُسمّى الزنديق يطلق على معنيين هما :

١- مَنْ عَلِمَ نفاقُ نفسه ، بأيّ نوع من أنواع النفاق ، كما لو عَلِمَ من نفسه بُغض بعض الشرائع ، ونحوه .

٢- من دخل في الدين يريد إفساده ، وإضلال أهله (٣) .

(١) طريق الهجرتين ودار السعادتين (ص ٨١) (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، د.ت)

(٢) المغني (١٤٢/٨)

(٣) الخضير ، علي بن خضير ، سلسلة الأجزاء في التوحيد والعقيدة (٦٣) (جزء النفاق) ، (القصيم ، مكتبة الرشد ، ١٤٢٣هـ)

المطلب الثاني : حُكْم توبة المنافق والزنديق ، ومتى تقبل توبتهما؟

اختلف العلماء في توبة المنافق الذي يُسِرُّ الكفر ويُظهر الإيمان ، وهو الذي يسميه الفقهاء "الزنديق" .

✽ قال الشافعي رحمه الله : تُقبل توبته .

✽ وقال مالك رحمه الله : توبة الزنديق لا تُعرف ؛ لأنه كان يُظهر الإيمان ، ويُسِرُّ الكفر ، ولا عِلْمُ إيمانه إلا بقوله ، وكذلك يفعل الآن في كل حين ، يقول : أنا مؤمن ، وهو يبطن خلاف ما يظهر ، فإذا عُثر عليه ، قال : تُبْتُ . ولم يتغير حاله عما كان عليه ، فإذا جاءنا تائباً من قِبَل نفسه قبل أن يُعثر عليه ، قُبِلت توبته .

هذا مذهب الإمام مالك وأصحابه ، وهو مذهب أهل المدينة ، وهو أحد الروايتين عن أبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل . رحمهم الله تعالى جميعاً^(١) .

✽ أما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فقد وضح الفرق بين توبة الكافر الأصلي وتوبة المنافق الزنديق ، فقال : "ومعلومٌ أن الكافر إذا أظهر التوبة من الكفر كان تركاً له في الظاهر ، ولا يُعلم ما يخالفه . أما المنافق فإذا أظهر الإسلام لم يكن تركاً للنفاق ؛ لأن ظهور هذه الحال منه لا ينافي النفاق ، ولأن المنافق إذا كان جهاده بإقامة الحد عليه كجهاد الذي في قلبه مرض ، وهو الزاني إذا زنى ، لم يسقط عنه حدّه إذا أظهر التوبة بعد أخذه لإقامة الحد عليه .

(١) ابن نجيم المصري ، زين الدين بن إبراهيم بن محمد (ت ٩٧٠هـ) ، البحر الرائق شرح كنز الدقائق تحقيق زكي عميرات (٢١٢/٥) (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٨هـ) ابن أبي زيد القيرواني ، أبو محمد بن أبي زيد (ت ٣٨٩هـ) رسالة ابن أبي زيد (ص ٥٨٧) (بيروت ، المكتبة الثقافية ، د.ت) النووي المجموع شرح المذهب (٢٣٣/١٩) (بيروت ، دار الفكر ، د.ت) ابن قدامة : المغني (٥٠٧/٢) وينظر : الشوكاني ، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار (٣٦٥/١) (بيروت ، دار الجيل ، د.ت)

ويقول أيضاً : ولو قُبِلَتْ علانية المنافقين دائماً مع ثبوت ضدها عنهم ، لم يكن إلى الجهاد عن النفاق سبيل ؛ فإن المنافق إذا ثبت عنه أنه أظهر الكفر ، فلو كان إظهار الإسلام حينئذٍ ينفعه لم يكن جهاده^(١) . ويدلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْأَمْنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيَّمَا أَيْمَنِاتٍ ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقَتَلُوا تَفْتِيلًا ﴿ الأحزاب: ٦٠ - ٦١

فدلّت هذه الآية على أن المنافقين إذا لم ينتهوا ، فإن الله يُغري بهم نبيه ﷺ ، وأنهم لا يجاورونه بعد الإغراء بهم إلا قليلاً . وإن ذلك في حال كونهم ملعونين أيما وُجدوا ، وأُصيبوا ، وأُسروا ، وقُتلوا . وإنما يكون ذلك إذا أظهروا النفاق ؛ لأنه ما دام مكتوماً لا يمكن قتلهم .

﴿ قال الحسن^(٢) رحمه الله : "أراد المنافقون أن يُظهروا ما قلوبهم من النفاق ، فأوعدهم الله في هذه الآية ، فكتّموه ، وأسروه"^(٣) .

وقال قتادة^(٤) رحمه الله في تفسير هذه الآية : "إن المنافقين أرادوا أن يُظهروا ما في قلوبهم من النفاق ، فأوعدهم الله في هذه الآية ، فكتّموه" . ولو كان إظهار التوبة بعد إظهار النفاق مقبولاً ، لم يمكن أخذ المنافق ولا قتله ؛ لتمكّنه من إظهار التوبة ، لاسيما إذا كان كلما شاء أظهر النفاق ثم أظهر التوبة وهي مقبولة منه .

(١) الصارم المسلول ، ص (٣٥٥) .

(٢) أبو سعيد بن يسار البصري ، الإمام شيخ الإسلام ، كان ثقة حجة مأموناً عابداً ناسكاً رأساً في أنواع الخير ، ولد بالمدينة ، ومات بالبصرة سنة (١١٠هـ) ، الذهبي : تذكرة الحفاظ (٧١/١) .

(٣) الطبري : التفسير (٤٨/٢٢) .

(٤) ابن دعامة السدوسي البصري ، الحافظ العلامة كان رأساً في العربية والأنساب والتفسير ، مات بواسط في طاعون عام (١١٨هـ) ، الذهبي : تذكرة الحفاظ (١٢٣/١) .

ويؤيد ذلك : أن الله جعل جزاءهم أن يُقتلوا ، ولم يجعل جزاءهم أن يُقاتلوا ، ولم يستثن حال التوبة كما استثنى من قتل المحاربين ، وقتل المشركين . قال تعالى :

﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

التوبة: ٥

وقال تعالى في المحاربين : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقَدِّرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ المائدة: ٣٣ - ٣٤

فعلِمَ أنهم يُقتلون من غير استتابة ، وأنه لا يقبل منهم ما يظهره من التوبة (١)

ويوضح ذلك : أن الله تعالى جعل انتهاءهم النافع قبل الإغراء بهم ، وقبل أخذهم والقتيل ، وهناك جعل التوبة بعد ذكر الحصر والأخذ والقتل ، فعلم أن الانتهاء بعد الإغراء بهم لا ينفعهم ، كما لا ينفع المحارب التوبة بعد القدرة عليه .

وقد أخبر ﷺ أن سنته في من لم يتب عن النفاق والزندقة حتى قدر عليه أنه يؤخذ ويُقتل ، وأن هذه السنة لا تبديل لها . والانتهاء في الآية يعني به : الانتهاء عن النفاق بالتوبة ، أو الانتهاء عن إظهاره عند شياطينهم ، وعند بعض المؤمنين (٢) .

ويدل على عدم قبول توبة المنافق والزنديق : ما روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه أتى بأناس من الزنادقة ارتدوا عن الإسلام ، فسألهم فجحدوا ، فقامت عليهم

(١) ابن تيمية : الصارم المسلول ، ص (٣٥٦) .

(٢) المرجع ذاته (ص ٣٥٧)

البينة العدول ، فقتلهم . وأُتي برجل كان نصرانياً وأسلم ، ثم رجع عن الإسلام ، فسأله ، فأقر بما كان منه ، فاستتابه ، فتركه ، فقيل : كيف تستيب هذا ولم تستب أولئك ؟ قال : إن هذا أقر بما كان منه ، وأن أولئك لم يقرؤا وجحدوا حتى قامت عليهم البينة ؛ فلذلك لم استتبهم .

وفي رواية أخرى : "أُتي علي ﷺ برجل قد تنصّر ، فاستتابه ، فأبى أن يتوب ، فقتله . وأُتي برهطٍ يصلون إلى القبلة ، وهم زنادقة ، وقد قامت عليهم بذلك الشهود العدول ، فجحدوا ، وقالوا : ليس لنا دين إلا الإسلام ، فقتلهم ولم يستتبهم ، ثم قال : أتدرون لم استتبتُ هذا النصراني ؟ ، استتبه ؛ لأنه أظهر دينه ، وأما الزنادقة الذين قامت عليهم البينة وجحدوني ، فإنما قتلتهم لأنهم جحدوا ، وقامت عليهم البينة^(١) .

❁ وقال القاضي أبو يعلى : "وإذا اعترف بالزندقة ثم تاب ، قُبلت توبته ؛ لأنه اعترافٌ يُخرج عن حد الزندقة ؛ لأن الزنديق هو الذي يستبطن الكفر وينكره ، ولا يظهره ، فإذا اعترف به ثم تاب خرج عن حدّه ، لهذا قبلنا توبته . ولهذا لم يقبل عليّ ﷺ توبة الزنادقة لما جحدوا^(٢) .

❁ فهذا من أمير المؤمنين علي ﷺ بيان أن كل زنديق كتم زندقته وجحدها ، وقامت عليه البينة ، لم تُقبل توبته ، وأنه يُقتل ولا يستتاب .

فهذه أدلة واضحة على عدم قبول توبة المنافق والزنديق . وسنفضل لا حقاً الأدلة على جواز قتل المنافق والزنديق من غير استتابة .

(١) ابن تيمية : الصارم المسلول ، ص (٣٥٦)

(٢) المرجع ذاته (ص ٣٥٧)

المبحث الرابع

جواز قتل المنافقين والزنادقة من غير استتابة بأدلة القرآن والسنة

أ- الأدلة من القرآن :

من الأدلة التي وردت في القرآن الكريم ، وأشارت إلى جواز قتل المنافق
والزنديق من غير استتابة :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَسَدْنَا لِي وَلَا نَفْتِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا
وَإِن جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن
تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن
يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُل هَلْ
تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ
عِنْدِهِ أَوْ بَأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿التوبة: ٤٩ - ٥٢﴾

قال الطبري ﴿ أَوْ بَأَيْدِينَا ﴾ التوبة: ٥٢ بالقتل ؛ إن أنتم أظهرتم ما في قلوبكم
قتلناكم" (١) .

وهو كما قال ؛ لأن العذاب على ما يبطنونه من النفاق بأيدينا لا يكون إلا القتل
لكفرهم . ولو كان يجب قبول ما يظهر المنافق من التوبة بعد ظهور نفاقه وزندقته لم

(١) التفسير (١٩٥/٦) ؛ ابن كثير : التفسير (٣٤٤/٢) .

يمكن أن يترتب بهم أن يصيبهم الله تعالى بعذاب من عنده أو بأيدينا ؛ لأننا كلما أردنا أن نعذبهم على ما أظهوره أظهروا التوبة .

وقال قتادة وغيره : "قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ حَوَّلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (التوبة: ١٠١) قالوا : في الدنيا القتل ، وفي البرزخ عذاب القبر .

ومما يدل على ذلك أيضاً : قوله تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ٦٢) وقوله ﷺ : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُتَعَرَّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَدَّعْتُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيُرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٩٥ - ٩٦)

دلت هذه الآيات كلها على أن المنافقين كانوا يُرَضُّون المؤمنين بالإيمان الكاذبة ، ويُنكرون أنهم كفروا ، ويحلفون أنهم لم يتكلموا بكلمة الكفر . وذلك دليل على أنهم يقتلون إذا ثبت عليهم بالبينة ؛ لوجوه :

أحدها : أنهم لو كانوا إذا أظهروا التوبة قبل ذلك منهم ، ولم يحتاجوا إلى الحلف والإنكار . ولو كانوا يقولون : قلنا ، وقد ثبتنا . فعلم أنهم كانوا يخافون إذا أظهروا ذلك عليهم أنهم يُعاقبون من غير استتابة .

الثاني : أنه قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ (المنافقون: ٢) واليمين إنما تكون جُنَّةً ، إذا لم تأت بينة عادلة تكذبها ، فإذا كذبت بينة عادلة انخرقت الجُنَّة فجاز قتلهم ، ولا يمكنه أن يجتني بعد ذلك إلا بجُنَّة من جنس الأولى ، وتلك جُنَّة مخروقة .

الثالث : أن الآيات دليل على أن المنافقين إنما عصم دمائهم الكذب والإنكار. ومعلوم أن ذلك إنما يُعصم إذا لم تقم بينة بخلافه ، ولذلك لم يقتلهم النبي ﷺ . ومعلوم أن الكافر إذا أظهر التوبة من الكفر كان تركاً له في الظاهر ، ولا يُعلم ما يخالفه. أما المنافق فإذا أظهر الإسلام لم يكن تركاً للنفاق ؛ لأن ظهور هذه الحالة منه لا ينافي النفاق ^(١) .

ب - الأدلة من السنة :

ويدل على جواز قتل المنافق والزنديق من غير استتابة :

أولاً : ما أخرجه في الصحيحين عن علي ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة ^(٢) ، فقال عمر ﷺ : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : (إنه قد شهد بدرًا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) ^(٣)

فدل على أن ضرب عنق المنافق من غير استتابة مشروع ؛ إذ لم يُنكر النبي ﷺ على عمر استحلال ضرب عنق المنافق ، ولكن أجاب بأن هذا ليس منافقاً ، ولكنه من أهل بدر المغفور لهم . فإذا أظهر النفاق الذي لا ريب أنه نفاق ، فهو مباح الدم .

^(١) ابن تيمية : الصارم المسلول ، ص (٣٥٥) .

^(٢) اللخمي ، حليف بني أسد . كان أحد فرسان قريش وشعرائها ، شهد بدرًا والحديبية ، وكان أخوه وبنوه بمكة ، فأحب أن تكون له يد في قريش ليحموا له أهله ، فكتب إليهم بشأن مسير رسول الله ﷺ إليهم ، أرسله رسول الله ﷺ إلى المقوقس رسولاً . مات بالمدينة سنة (٣٠ هـ) ابن خياط : الطبقات ، ص (٧٠) ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى (٣ / ١١٤) ؛ ابن حجر : الإصابة (١ / ٣٠٠) .

^(٣) البخاري : الصحيح (٣ / ١٠٩٥) حديث رقم (٢٨٤٥) مسلم : الصحيح (٤ / ١٩٤١) حديث رقم (٢٤٩٤) ابن حبان : الصحيح (١١ / ١٢١) حديث رقم (٤٧٩٧)

الثاني : ما أخرجاه في الصحيحين عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبي ابن سلول ، فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل . فقالوا : كذب زيد يا رسول الله . قال : فوقع في نفسي مما قالوا شدة ، حتى أنزل الله تصديقي : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾ أَخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جَنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَمَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يُحَسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاحْذَرَهُمْ فَنَلَّهِمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرُضَ مِنَّا الْأَذَلُّ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿المنافقون: ١ - ٨﴾

قال : ثم دعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم ، فلَوَّأْ رُءُوسَهُمْ ^(١) .

❖ ففي هذه القصة بيان أن قتل المنافق جائز من غير استتابة ^(١) ، وإن أظهر إنكار ذلك القول ، وتبرأ منه ، وأظهر الإسلام . وإنما منع النبي ﷺ من قتله ما ذكره من

(١) البخاري : الصحيح (٤/١٨٦٠) حديث رقم (٤٦٢٠) ؛ مسلم : الصحيح (٤/٢١٤٠) حديث رقم (٢٧٧٢) .

تحدث الناس أنه يقتل أصحابه ؛ لأن النفاق لم يثبت بالبينة وقد حلف أنه ما قال ، وإنما علم بالوحي ، وخبر زيد بن أرقم .

وأيضاً : لما خشي من ظهور فتنة قتله ، وغضب أقوام يخشى افتتانهم بقتله .

ثالثاً : ذُكِرَ أن رجلاً من المنافقين خاصم رجلاً يهودياً إلى النبي ﷺ ففضى النبي ﷺ لليهودي ، فلما خرج من عنده لزمه المنافق وقال : انطلق بنا إلى عمر بن الخطاب . فأقبل إلى عمر ، فقال اليهودي : اختصمت أنا وهذا إلى محمد ، ففضى لي عليه ، فلم يرض بقضائه ، وزعم أنه مخاصم إليك ، وتعلق بي ، فجئت معه . فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال : نعم . فقال : رويدكما حتى أخرج إليكما . فدخل عمر البيت ، فأخذ السيف واشتمل عليه ، ثم خرج إليهما فضرب به المنافق حتى برد . فقال : هكذا أفضي بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله ﷺ . فنزل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ النساء: ٦٠

وقال جبريل عليه السلام : إن عمر فرق بين الحق والباطل ، فسُمي الفاروق ^(٢) .

✽ ففي هذه الأحاديث دلالة على أن قتل المنافق كان جائزاً ؛ إذ لولا ذلك لأنكر النبي ﷺ على من استأذنه في قتل المنافق ، ولأنكر على عمر رضي الله عنه إذ قتل من قتل من المنافقين ، ولأخبر ﷺ أن الدّم معصوم بالإسلام ، ولم يعلل ذلك بكرهية غضب عشائر المنافقين لهم ، وأن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؛ وأن يقول القائل :

^(١) أخذ ابن تيمية رحمه الله الدلالة من سياق آخر للقصة التي في الصحيحين عن عمر وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، فيها : ألا نقتل يا نبي الله هذا الخبيث ؟ (لعبد الله بن أبي) فقال ﷺ : (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)

^(٢) الحكيم الترمذي ، محمد بن علي بن الحسن (ت ٣٢٠هـ) نواذر الأصول في أحاديث الرسول ، تحقيق عبد الرحمن عميرة (١/٢٣٢) (ط١ ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٩٢م)

لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم ؛ لأن الدم إذا كان معصوماً كان هذا الوصف عديم التأثير في عصمة دم المعصوم . ولا يجوز تعليل الحكم بوصف لا أثر له ، وتترك تعليله بالوصف الذي هو مناط الحكم . وكما إنه دليل على القتل ، فهو دليل على القتل من غير استتابة ، على ما لا يخفى^(١) .

^(١) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ص (٣٤٣ - ٣٥٥) .

المبحث الخامس مجمل صفات المنافقين

من دراسة سلوكٍ ومنهج المنافقين في عصر رسول الله ﷺ ، تبين لنا من مجمل أوصافهم ما يأتي :

١- إبطان الكفر ، والتظاهر بالإيمان . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ

وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ البقرة: ٨

٢- مولاة الكفار ، وممالاتهم على المسلمين ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

لَكَذِبُونَ ﴿١١﴾ الحشر: ١١

٣- يخذلون المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله ، وإذا اشتركوا معهم أحدثوا

الخلل والاضطراب في صفوفهم ، وعملوا على تفكيك قوتهم بالتخذيل ،

والتشيط ، والإرجاف . قال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا

وَلَا وَضَعُوا خَلْلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

﴿٤٧﴾ التوبة: ٤٧

٤- يلاحظون في موقفهم من الجهاد المكاسب الدنيوية ، فإذا أُملوا بها أقدموا

عليه ، وإذا يسوا منها ثاقلوا عنه . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيَبْتَئَنَّ فَإِن

أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِن أَصَابَكُمْ

فَضَّلُ مِنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلِيَّتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿النساء: ٧٢ - ٧٣﴾

٥- أنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد . قال تعالى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ التوبة: ٨١

٦- خصماء شجعان في السلم ، فإذا جدّ الجد وجاء دور العمل الجهادي ، استخفوا بأنفسهم ، ولاذوا بغيرهم . فالجبن الشديد من أهم صفاتهم . قال تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ الأحزاب: ١٩

٧- العزوف عن التحاكم إلى الكتاب والسنة ، ويتحاكمون إلى الطواغيت الذين يحققون لهم رغباتهم في ظلم الآخرين ، ولا يتحاكمون إلى ما أنزل الله مقرراً للحق والعدل بين الناس . قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنْهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ النساء: ٦٠

٨- الفرح بما يصيب المؤمنين من الضراء ، والاستياء بما يجعل الله لهم من النصر والتمكين . قال تعالى: ﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ التوبة: ٥٠

٩- اتخاذ مساجد الضرار لتفريق المؤمنين ومحاربتهم وصددهم عن المساجد المؤسسة على التقوى . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١٠٧) التوبة: ١٠٧

١٠- الاستهزاء بالمؤمنين والسخرية منهم ، فيلمزون المتصدقين ، ويعيبون مجهّزهم ، ويرمونهم بالرياء ، وإرادة الثناء من الناس . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٩) التوبة: ٧٩

١١- يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم عن الإنفاق ، وإن الشيطان ترأس عليهم حتى أنساهم ذكر الله . قال تعالى : ﴿ وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴾ (٦٧) التوبة: ٦٧

١٢- محبة إشاعة الفاحشة . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفٰحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٩) النور: ١٩

١٣- يغتنمون الفُرْصَ المناسبة للطعن في دعاة الإسلام المخلصين ، وتشويه سمعتهم عن طريق الكذب ، وتغيير الحقائق . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِإِلْفٰكٍ عَصِيْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١١) النور: ١١

١٤- يحاربون الإسلام عن طريق التسمي به ، والدعوة إليه . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٨ وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۗ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ البقرة: ٢٠٤

١٥- يحاولون إفساد المجتمع ؛ عن طريق تيسير سبل الفساد ، التي تحطم الأخلاق وتقضي على الفضائل الإنسانية . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ٥١ ﴿ لَئِن لَّمْ يَنْهَ الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ٦٠ مَلْعُونِينَ ۗ أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخِذُوا وَقْتِكُمْ نَفْتِيلًا ﴾ الأحزاب: ٥٩ - ٦١

فالمنافقون سبب أساس في مصائب الأمة الكبرى . ومن ذلك : سفور النساء ، وعدم التزامهن بالحجاب ؛ حيث كانت بداية السفور في كل بلد من فتيات قد هُجِنَتْ عليهن المبادئ الكافرة ، وضلن على انتسابهن للإسلام ، فشجع بعضهن بعضاً حتى خرجن متحديات الدين ، مستهزئات بالمتمسكين به ، فاجتمع حولهن من هن على شاكلتهن في النفاق وضعيفات الإيمان ، حتى أصبح السفور ظاهرة اجتماعية مألوفة ، وأصبح الحجاب الإسلامي مُستنكراً ، تحارب من أجله المؤمنات الملتزمات ^(١)

١٦- الدس والوقية ، وإشعال نار الفتنة ، واستغلال الخلافات بين المسلمين ، ومحاولة توسيع شقها . قال تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَن عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۗ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ

^(١) الحميدي ، المنافقون في القرآن الكريم ، (الرياض ، دار طيبة ، ١٩٩٤) ، ص (٨٨) .

﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ

وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿المنافقون: ٧ - ٨﴾

١٧- لا يهتمهم سوى مصالحهم الذاتية ، ولا يتورعون عن إحداث الضرر

بغيرهم ، مهما كان هذا الضرر ؛ ليخلصوا أنفسهم . قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ

عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَعْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ

يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ

الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ

مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ

وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

﴿١٥٤﴾ ﴿آل عمران: ١٥٤﴾ ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَعْشَى طَائِفَةً

مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ

هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ

يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ

كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي

قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴿آل عمران: ١٥٤﴾

١٨- يقولون ما لا يفعلون ، فينطقون بالكلام المعسول بينما يضمرون الكيد

والمكر . قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا

فَأَسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ ﴿الفتح: ١١﴾

١٩- يأخذون من الدين ما سهل عليهم ، ويتقاعسون عن تنفيذ ما شقَّ عليهم
تنفيذه ؛ كَشُهُودِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَإِذَا أَدَوْا شَيْئاً مِنْ
الْعِبَادَاتِ فَإِنَّمَا يَسْتَكْرَهُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِ ، وَيُؤَدُّونَهُ بِكَسَلٍ وَتَثَاقُلٍ . قَالَ تَعَالَى:
﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى
يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١٤٢) النساء: ١٤٢

٢٠- شعورهم بالكبر والخطرة ، والشموخ ؛ لا على الكافرين والظالمين ،
فإنهم أمامهم أذلة ضعفاء ، ولكن على المؤمنين ، وبخاصة من يوجه إليهم
النصح ، ويطلب منهم التوبة . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ لَهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَهَادُ ﴾ (٣٠٦) البقرة: ٢٠٦ وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ
﴿ ٥ ﴾ المنافقون: ٥

٢١- يَزْمُونَ مَنْ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ بِتُّهْمٍ عَدِيدَةٍ . فهم عندهم كالذي يُكْفَرُ جميع
الناس ، ويريد احتكار الدين ، وإعادة عهود الكهنوت ، وإصدار صكوك
الغفران ، ونحو ذلك ^(١) .

٢٢- ومن صفاتهم ما هو بغض للأنصار ، كقوله : (آية الإيمان حب الأنصار ،
وآية النفاق بغض الأنصار) ^(٢) . ومن صفات المنافقين أيضاً كقوله ﷺ : (إن
للمنافقين علامات يُعرفون بها ، تحيُّتهم لعنة ، وطعامهم نُهب ، وغنيمتهم

^(١) الدوسري ، عبد الرحمن ، النفاق آثاره ومفاهيمه ، (ط٢ ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ١٤٠٤هـ) ص
(٨٢) .

^(٢) البخاري : الصحيح (١٤/١) حديث رقم (١٧) ؛ أبو نعيم الصبغاني ، أحمد بن عبد الله (ت
٤٣٠هـ) ، المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم ، تح : محمد حسن الشافعي ، (ط١ ،
بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٦م) (١٥٦/١) حديث رقم (٢٣٣) .

غلول^(١) ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً^(٢) ، ولا يأتون الصلاة إلا ذُبْراً^(٣) ، مستكبرين ، لا يَأَلْفُونَ ، ولا يُؤَلْفُونَ ، خشبٌ بالليل ، صَحَبٌ^(٤) بالنهار^(٥)

٢٣- ومن صفاتهم التي وصفهم بها رسول الله ﷺ : الكذب في الحديث ، والخيانة في الأمانة ، والغدر عند العهد ، والفجور عند الخصومة ، والخلف عند الوعد ، وتأخير الصلاة إلى آخر وقتها ، ونقرها عجلةً ، وإسراعها ، وتزك حضورها جماعةً ، وأن أثقل الصلوات عليهم صلواتا العشاء ، والفجر .

٢٤- ومن صفاتهم التي وصفهم الله بها : الشحّ على المؤمنين بالخير ، والجبن عند الخوف . فإذا ذهب الخوف وجاء الأمن سلقوا المؤمنين بألسنة حدادٍ . فهم أحدُّ الناس ألسنةً عليهم . وأنهم عند المخاوف تظهر كمائن صدورهم وخفاياها ، أما عند الأمن فيجب ستره ، فإذا لحق المسلمين خوف دبّت عقارب قلوبهم ، وظهرت المخبّات ، وبدت الأسرار .

٢٥- أنهم أعذب الناس ألسنةً ، وأمرهم قلوباً ، وأعظم الناس خلفاً بين أعمالهم وأقوالهم . لا يجتمع فيهم حسن سمّتٍ وفقهٌ في دينٍ أبداً . وأن أعمالهم

(١) الغلول : الخيانة في المغنم ، والسرقه من الغنيمه قبل القسمة ، ابن الأثير : النهاية (٣/٣٨٠) ابن منظور : لسان العرب (١١/٥٠٠) .

(٢) الهجر : الترك والإعراض . أي : لا يأتون المساجد إلا وقلوبهم مُعرضة . ابن منظور : لسان العرب =

(٥/٢٥٠) =

(٣) من الإدبار . أي : لا يؤدون الصلاة إلا بعد خروج وقتها . ابن الأثير : النهاية (٢/٩٧) ابن منظور : لسان العرب (٤/٢٦٨) .

(٤) الضجة واضطراب الأصوات للخصام . أي : يعيشون طوال نهارهم في ضجة وخصام من أجل دنياهم ، فإذا جاء الليل كانوا كالخشب التي لا حراك بها ، فلا يقومون للصلاة . ابن الأثير : النهاية (٣/١٤) ابن منظور : لسان العرب (١/٥٢١) .

(٥) أحمد : المسند (٢/٢٩٣) حديث رقم (٧٩١٣) ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

تكذب أقوالهم ، وباطنهم يكذب ظاهرهم ، وسرائرهم تناقض علانيتهم .
وأن المؤمن لا يثق بهم في شيء ؛ فإنهم قد أعدوا لكل أمرٍ مخرجاً من
الحق أو الباطل ، يصدّق أو يكذب ؛ لهذا سُمي منافقاً . وأنهم أبغض أعداء
الله . لهذا ظهرت الحكمة البالغة في تخصيص هذه الطبقة بالدرك الأسفل
من النار .

❖ وقد ذكر ابن القيم رحمه الله كلاماً نفسياً حول صفات المنافقين في
كتابه "طريق الهجرتين" (١) مفاده :

هتك الله سبحانه أستار المنافقين ، وكشف أسرارهم في القرآن ، وجلّى لعباده
أمورهم ؛ ليكونوا منها ومن أهلها على حذرٍ . فلله كم من معقلٍ للإسلام هدموه ، وكم
من لواءٍ مرفوعٍ قد وضعوه ! وكم ضربوا بمعاول الشُّبه في أصول غراسه ليقلعوها !
وكم عمّوا عيونَ مواردِه بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها !

• فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنةٍ وبليّةٍ ، ولا يزال بطُّرُقَه من شُبّههم
سريّةً بعد سريّةٍ ، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ
وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢) البقرة: ١٢ ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ وَاللَّهُ مِثْمُ نُورِهِ وَكَوْ
كَرَهُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨) الصف: ٨

• اتفقوا على مفارقة الوحي ، فهم على ذلك مجتمعون : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ
بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٣) المؤمنون: ٥٣

(١) ص (٧٥) .

- فالظواهر ظواهر الأنصار ، والبواطن قد تحيّزت إلى الكفار . فألستهم السنة المسالمين ، وقلوبهم قلوب المحاربين ، ويقولون : ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٨
- رأس مالهم الخديعة والمكر ، وبضاعتهم الكذب والختر^(١) ، وعندهم العقل المعيشي أن الفريقين عنهم راضون ، وهم بينهم آمنون ﴿ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة: ٩
- لكل منهم وجهان : وجه يلتقى به المؤمنين ، ووجه ينقلب إلى إخوانه من الملحدين . وله لسانان : أحدهما يقبله بظاهره المسلمون ، والآخر يترجم به عن سره المكنون ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ البقرة: ١٤
- لهم علامات يُعرفون بها مبيّنة في السنة والقرآن ، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان ، قام بهم والله الرياء ، وهو أقبح مقام قامه إنسان ، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن ، فأصبح الإخلاص عليهم بذلك ثقبلاً ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ١٤٢
- أحدهم كالشاة العائر بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة ، ولا تستقر مع أحد الفتتين ، فهم واقفون بين الجمعين ينظرون أيهم أقوى وأعز

(١) شبيه الغدر والخديعة . وقيل : هو الخديعة بعينها . وقيل : هو أسوأ الغدر ، وأقبحه . ابن الأثير :

النهاية (٩/٢) ابن منظور : لسان العرب (٢٢٩/٤)

قبيلاً : ﴿ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ

سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ النساء: ١٤٣

- أحسن الناس أجساماً ، وأخْلُبهم ألسنة ، وألطفهم بيانا ، وأخبثهم قلوباً ، وأضعفهم جناناً ، فهم كالخشب المسندة ، التي لا ثمرة لها ، قد قُلعت من مغارسها ، فتساندت إلى حائط يقيمها ؛ لئلا يطأها السالكون ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهم خُشْبٌ مَّسْنَدَةٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنَالَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ المنافقون: ٤

- خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات ، فركبوا مراكب الشبه والشكوك ، تجري بهم في موج الخيالات ، فلعبت بسفنهم الريح العاصف ، فألقننا بين سفن الهالكين ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِتِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ البقرة: ١٦

- فهم جنس يشبه بعضه بعضاً ، يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه ، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه ، ويخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه . كم ذكّرهم الله بنعمه ، فأعرضوا عن ذكره ونسوه ، وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه ، فاسمعوا أيها المؤمنون ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ التوبة: ٦٧

- تبا لهم ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان ! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان ، فالقوم في شأن ، وأتباع رسول الله ﷺ في شأن . لقد أقسم الله ﷻ في كتابه بنفسه المقدسة قسماً عظيماً يعرف مضمونه أولوا البصائر ، فقلوبهم

منه على حذر إجلالاً وتعظيماً ، فقال تعالى تحذيراً لأوليائه ، وتنبهاً على حال هؤلاء وتفهيماً ﴿ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ﴿٦٥﴾ النساء: ٦٥

● ثقلت عليهم النصوص ، فكرهوها ، وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها ، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها ، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ردوها ، ودفعوها . ولقد هتك الله أستارهم ، وكشف أسرارهم ، وضرب لعباده أمثالهم ، وأعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم ، فذكر أوصافهم لأوليائه ؛ ليكونوا منها على حذر ، ويبينها لهم فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ﴿٩﴾ محمد: ٩

● أسروا سرائر النفاق ، فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم ، وفلتات اللسان ، ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان ، وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد ، كيف والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ﴿٣٠﴾ محمد: ٣٠

● فما أكثرهم ، وهم الأقلون ! وما أجبتهم ، وهم الأذلون ! وما أجهلهم وهم المتعاملون ، وما أغرهم بالله إذ هم بعظمتيه جاهلون ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ التوبة: ٥٦ فكيف إذا جمعهم ليوم التلاق ، وتجلي الله للعباد وقد كشف عن ساق ، ودعوا إلى

السجود فلا يستطيعون ﴿ خَشَعَةَ أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ

سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ القلم: ٤٣

• تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين والأولين ؛ لعلمهم بدقه وجله ،
وتفاصيله ومجمله . ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من
جملة المنافقين . قال عمر بن الخطاب لحذيفة ؓ : " يا حذيفة ، أنشدك الله
، هل سماني رسول الله ﷺ ؟ قال : لا ، ولا أزكي بعدك أحداً" (١) .

﴿ وقال ابن أبي مليكة (٢) : "أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف
النفاق على نفسه ، وما منهم أحد يقول : إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل" (٣) .

﴿ وذكر عن الحسن البصري رحمه الله قوله : " ما أمنه إلا منافق ، ولا خافه إلا
مؤمن" (٤) .

هذه الصفات وغيرها من مساوئ الأخلاق تعد طبيعياً بالنسبة للكافر الذي
دخل الإسلام نفاقاً ؛ لأنها موجة من اعتقاد باطني خبيث . فهو بالنسبة للمنافق تلاؤم
وتوافق بين الظاهر والباطن . وإنما النفاق بالنسبة له يكون في إظهار الأعمال الصالحة .
لكنها إذا صدرت من المؤمن فإنها مناقضة لاعتقاده الباطني ، فهي بالنسبة للمؤمن
النفاق ، الذي ذمه الله تعالى .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء (٢/٣٦٤) .

(٢) أبو بكر عبد الله بن عبيد الله التيمي المكي ، قاضي مكة ، ومؤذن الحرم ، كان إماماً فقيهاً حجة ،

متفق على توثيقه . مات سنة (١١٧هـ) الذهبي : تذكرة الحفاظ (١/١٠١) .

(٣) البخاري : الصحيح (١/٢٦) ، باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر .

(٤) المرجع ذاته (١/٢٦) .

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . أحمده وأشكره كما ينبغي لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه . ثم ، أشيرُ في خاتمة الكتاب إلى جملة من النتائج التي توصلتُ إليها من خلاله ، وهي على النحو التالي :

• لم يعرف العرب مصطلح النفاق إلا بعد مجيء الإسلام . فالنفاق مصطلح لم يعرفه العرب قبل الإسلام . والنفاق قسمان : نفاق أصغر ، ونفاق أكبر . والنفاق الأكبر خللٌ في الاعتقاد ، وناقضٌ من نواقض الإسلام ، وصاحبه مخلدٌ في النار ، وهو أشنع وأخطر من الكفر الصريح .

• جهاد الكفار قد يكون فرض عين أو فرض كفاية ، وقد يسقط بالأعذار ، أو بالإعذار . أما جهاد المنافقين فهو غير قابلٍ للسقوط ، فهو واجب على كل مكلفٍ بحسبه ؛ لأنه جهادٌ دائمٌ قائمٌ ، ومستمرٌ في الحرب والسلم ؛ لأن عداوة المنافقين للمسلمين شاملة ، تبدأ من الهمز باللسان ، وتنتهي بالخيانة العظمى . وقد عالج البحثُ ذلك في (أساليب المنافقين في محاربة الإسلام والمسلمين) لذلك كان جهاد المنافقين أفضل ، وأصعبَ من جهاد الكفار الأصليين .

• من منهج النبي ﷺ وهديه في جهاد المنافقين : أنه كان ﷺ يقتفي أعظم الأساليب والمنهج ، وأفضل الخطابات والأولويات في جهاده ﷺ للمنافقين . فكان ﷺ يراعي طبيعة المُخاطب ، ومكانته عند قومه ، وخلفيته الاجتماعية ، والفكرية ، والأخلاقية . فكان ﷺ ينهجُ كلَّ ذلك وفقاً لميزان شرعي ، يراعي ويقدم أعظم المصالح عند تعارضها ، ويدراً أعظم المفاسد عند تراحمها ، دون إخلال بالثواب الشرعية ، فحافظَ ﷺ على وحدة وتماسك الصف المسلم في كل الأحوال ، في الحرب والسلم ، وفي السفر والحضر .

• تاريخ ظهور النفاق كان بالمدينة المنورة ، بعد انتصار المسلمين في معركة بدر ، ولم يكن للمنافقين وجود في العهد المكي . وكان اليهود وراء وجودهم بالمدينة، والهدف العام للمنافقين هو : اتّخاذ النفاق وسيلةً لحرب الإسلام والمسلمين ، بشتى الوسائل الخبيثة .

• أهم الأضرار المترتبة على وجود المنافقين هي : الصّدُّ عن الجهاد في سبيل الله ، وولاية الكافرين ، وإعانتهم على المسلمين ، وإفساد المجتمع المسلم بنشر الرذائل ، ومحاربة الفضائل .

• أهم مناهج سياسة المنافقين في عهد النبوة ، كانت : مناصرة اليهود . فمن أراد أن يقتفي أثر إفساد المنافقين خلال عهد الرسالة وبعده (وإلى يومنا هذا) فعليه أن يبحث عن ذلك في مظانّ الحديث عن اليهود ، فأينما وُجد اليهود وُجد المنافقون . وقد دافع المنافقون عن يهود بني قينقاع دفاعاً مستميتاً ، عندما نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، ولقد ناصر المنافقون يهود بني النضير ، وتآمروا مع اليهود في غزوة تبوك ، باتخاذ مسجد الضرار وكرّاً للتجسس على الجيش الإسلامي . وكان هدف الفريقين نشر الأراجيف ، وتثييط المسلمين .

• فقه النبي ﷺ السياسي ، وحكمته في التّعامل مع رأس المنافقين . فقد سلك معه أسلوب المُداراة ، والصبر على إساءاته ؛ حيث لَبَّى له طلبه في يهود بني قينقاع . وكان ﷺ يقصد من هذا التصرف أموراً عدّة ، منها :

أ - لعل عبد الله بن سلول يتأثر بهذا الموقف النبوي الحكيم الكريم ، وتتم هدايته .

ب - لعل الذين يسيرون وراء زعامته يصلحون بصلاحه ، فيتماسك الصف

الإسلامي ويلتحم ، ولا يتأثر بكيد المنافقين .

ج - حرص النبي ﷺ على أن يتفادى وقوع أي فتنة في المجتمع المؤمن ؛ لأن بعض الأنصار كان حديث عهد بالإسلام ويخشى أن يؤثر فيهم رأس النفاق ؛ لأنه كان صاحب سلطان ونفوذ ، وتأثير فيهم .

د - أراد النبي ﷺ إظهار حقيقة هذا الرجل ؛ من خلال تصرفاته المشينة ، ومواقفه عند من يجهلها ، ومن ثم ينفض الناس من حوله ، ولا يتعاطفون معه .

هـ - وقد حقق هذا المنهج النبوي العظيم نجاحاً باهراً . فقد فُضح ابن سلول أمام جميع الناس ، حتى لأقرب الناس إليه ، ومنهم ولده عبد الله ، فكانوا بعدها إذا قام يتكلم أسكتوه ، وتضايقوا من كلامه ؛ بل أرادوا قتله .

• السياسة الشرعية الحكيمة الرشيدة للنبي ﷺ في معالجة المواقف العصبية ، في حزم ، وقوة ، وحكمة وبُعد نظر . ظهرت هذه السياسة الشرعية جليّة في غزوة بني المصطلق ، عندما أراد عبد الله بن أبي ابن سلول أن يُشعل حرباً طاحنة بين المهاجرين والأنصار ، هادفاً إلى تفكيك مجتمع المدينة ، والجيش الإسلامي الخارج إلى الجهاد . فقد تكلم بكلمات فيها طعنٌ بالنبي ﷺ والمهاجرين ، فأصبحت حديث الجيش ، ومُنذرةً بحدوث فتنة كبرى .

• حكمته ﷺ في حسم الخطر الناجم عن هذه الفتنة التي أثارها ابن سلول . وذلك بإشغال عموم الجيش عن الخوض بهذا الحديث ، وأمره ﷺ الجيش بالمسير باتجاه المدينة نحواً من ثلاثين ساعة متواصلة ، قاصداً من وراء ذلك إتعاب الناس ، فلا يجدوا فسحةً من الوقت للحديث في الموضوع . هذه الحكمة السياسيّة وتديير الأمور أثمرت عن نتائج عظيمة ، فكان عبد الله بن أبي ابن سلول بعد ذلك كلما أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه ، ويعتفونه ، ويعرضون على النبي ﷺ

قتله ، فيأبى ﷺ ذلك ، ويصفح عنه . وأراد ﷺ أن يكشف الحق عن آثار سياسته الحكيمة ، حينما قال لعمر ﷺ : (كيف ترى يا عمر ؟ أما لو قتلته اليوم يوم قلت لي لأرعدت له أنف ، لو أمرتها اليوم لقتلتها) فقال عمر ﷺ : " قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري " . فكان للسياسة الحكيمة للنبي ﷺ مع هذا المنافق أثر كبير في الحد من شروره .

• حقيقة النفاق هي : التحاكم إلى الطواغيت ، والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ ، والالتفات إلى غيره . وقد وضحنا : أن من لم يكفر بالطواغيت فلن تنفعه كلمة " لا إله إلا الله " ؛ بل لا يصح الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء الطواغيت المعبودين من دون الله ، وتكفيرهم ، وقتالهم . واتضح أيضاً : أن تحقيق شروط " لا إله إلا الله " هو : تحقيق الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله تعالى .

• وكذلك يجب استعلان البراءة من الطاغوت والكفر به ، والكفر بالفكر العلماني والوضعي والديمقراطي والبراءة منه .

• التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من نواقض الإسلام ، ويُعد ذلك ردةً عن الإسلام ، وخروجاً من الملة ، وفاعله يستحق القتل .

• من يُحكّم القوانين الوضعية بدلاً من شرع الله ، فهو كافر . ومن الكُفر الأكبر المستبين : تنزيل القوانين الوضعية منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين ، في الحكم بين العالمين ، والرّد إليه عند تنازع المتنازعين . وأن تحكيم غيره سبيلُ المنافقين .

• التحاكم إلى غير شرع الله كُفر ؛ لا يُشترط لصاحبه أن ينطق بالاستحلال (كما هي الحال في أصول عقيدة المرجئة المبتدعة ، الذين يحضرون الكفر بالتكذيب والاستحلال) وقد اتضح بطلان هذا الشرط من الكتاب والسنة ، وأقوال العلماء الأئمة .

• التأكيد على أهمية التوحيد ، وضرورة تقديمه تقديماً شاملاً متكاملًا ، بأنواعه الثلاثة : (الربوبية - الألوهية - الأسماء والصفات) دون التقصير بواحدٍ من هذه الأنواع ؛ لأن التوحيد هو مفتاحُ الجنة ، وحقيقةُ لا إله إلا الله . ونُوصي الدعاة والجماعات أن يهتموا بتعليم المسلمين أمور العقيدة والتوحيد ، وبخاصة النشء منهم ، حتى يتربوا التربية الصحيحة على منهج السلف ، ودرب أهل السنة والجماعة . لأن أهل السنة والجماعة هم نقاوة المسلمين وهم أعلم الناس بالحق ، وأرحمهم بالخلق كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، وقال أيوب السختياني رحمه الله تعالى .. (وإن الذين يتمنون موت أهل السنة يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون) . وهؤلاء الباطنيون والروافض يستبيحون قتل أهل السنة في العراق والشام جهاراً نهاراً .

• أكَّدتُ من خلال الدراسة على عقيدة (الولاء والبراء) أو (الموالاة والمعاداة) وبيَّنتُ أنّ ولاء الكفار والمنافقين من نواقض "لا إله إلا الله" ؛ لأنّ الولاء عقيدةٌ وعبادةٌ يتعبَّدُ بها المسلم لربه تعالى . فهي من مقتضيات "لا إله إلا الله" ، فـ"لا إله إلا الله" تقتضي أن نوالي أنصارها ومعتنقيها ، و"لا إله إلا الله" تقتضي البراءة ، ومعاداة من يعادي هذه الكلمة ، ومحاربة من يحاربها ، ومن لم يدنُ بها . فهذه هي عقيدتنا ، وهذا هو ديننا . فيجب غزُءُ عقيدة (الولاء والبراء) في المسلمين، وفي النشء على وجه الخصوص .

• أهميّة الجهاد في سبيل الله ، فوائده العظيمة ؛ عندما تُرفع رايته في سبيل الله . فقد كان الجهاد سمة دائمة ، وجِبَلَةً مُلَازِمَةً لسيد المجاهدين ﷺ ، وقائد الغر الميامين ، ولأصحابه وجنوده الشجعان الأبطال الأفاضل، فكانوا رضي الله عنهم مقتدين بإمام المجاهدين في كل أحواله ، وأعظمها الجهاد في سبيل الله .

• العواقب الوخيمة التي تنتظر الأمة والأفراد في الدنيا والآخرة ؛ إن عَطَلَتْ فريضةُ الجهاد . فلا بد أن نُربي أبنَاءنا والأُمَّة على حب الجهاد ، والشهادة في سبيل الله ؛ لأن هذا هو الطريق لمرضاة الله وطاعة رسوله ﷺ ، ونَيْلِ عِزَّةِ الأُمَّة وكرامَتِها .

• استغلنَ النفاقُ في غزوة تبوك ، وظهرتْ مخططات ومؤامراتُ المنافقين ضد النبي ﷺ ، والجيش الخارج إلى الجهاد . وقام المنافقون بحملة دعائية عند إعلان النفير ، فمضوا يثبُتون الناس عن الجهاد .

• طَوَّرَ المنافقون خِلالَ سِنِيِّ محاربتهم الإسلام مزيداً من الأساليب . واتَّضح في غزوة تبوك ، حيث هدفوا إلى القضاء على الجيش الإسلامي ، وعلى قائده ﷺ بعد أن أعيتهم كل الحيل السابقة . فقد خططوا لمؤامراتهم قبل الغزوة ، وأثناءها ، وبعدها . فكانت هذه الغزوة مناسبةً للتمييز بين المؤمنين ، والمنافقين .

• حفلت سورة التوبة بأخبار النفاق وسلوك المنافقين في غزوة تبوك ، فسُمِّيت هذه السورة بالفاضحة ؛ لأنها كشفت عن حقيقة المنافقين ، وهتكت أَسْتارهم ، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة ، وأحقادهم الدفينة ، ونفوسهم الخبيثة . وسميت أيضاً بالمبعثرة ؛ لأنها بعثرت أسرارهم . لقد حفلت سورة التوبة بأخبار النفاق وسلوك المنافقين ؛ لِتُرْسَخَ في أفهام المسلمين أهمّية تفقُّدهم لصفوفهم ، واختيار بطانتهم ؛ حاملين قِبَسِ القرآن ، وقِبَسِ السيرة النبوية المطهرة ؛ لكشف ماهية وسجية المنافقين ؛ حتى نكونَ منهم على حَذَرٍ . وكذلك سميت بالبحوث ؛ لأنها بحثت المنافقين .

• من أهمّ المواقف المُظلمة للمنافقين قبل غزوة تبوك ، وأثناءها ، وبعدها : تحالفهم مع اليهود ؛ لتثيبت المسلمين عن الجهاد . فتخلّف بعض المنافقين عن الغزوة ، واعتذروا بأعذارٍ كاذبةٍ واهيةٍ . واستخدم المنافقون في هذه الغزوة أسلوبَ السخرية والاستهزاء ، وإيذاء النبي ﷺ بشتى الوسائل . فَسَخِرُوا من الجيش

الإسلامي ، ومن المتصدّقين على هذا الجيش ، وشكّوا الناس بصدق النبي ﷺ .
ووصل بهم الأمر إلى التخطيط لاغتيال النبي ﷺ .

• من استهزأ بالله ، وآياته ، ورسوله ، والمؤمنين ، فقد "كفر" بعد الإيمان ؛
سواءً أكان جاداً ، أم مازحاً . وقد أجمع العلماء على أن الاستهزاء ناقض صريح من
نواقض الإسلام .

• عقوبة المستهزئ بدين الله ، أو سب دين الله ، أو سب الله ورسوله ، هي : أن
يقتل كافراً ، ولا يُصلّى عليه ، ولا يُدعى له بالرحمة ، ويُدفن في محلّ بعيد عن
مقابر المسلمين . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " كان أصحاب النبي ﷺ
يقتلون من سب النبي ﷺ ولو كان قريباً لهم ، فيقرّهم على ذلك ، وربما سُمّي من
يفعل ذلك ناصرًا لله ورسوله " . لأن سب الله ، أو سب رسوله ﷺ كفرٌ ؛ ظاهراً ،
وباطناً . سواءً أكان السابُّ يعتقد ذلك حراماً ، أم كان مستحلاً له ، أو كان ذاهلاً
عن اعتقاده . بل ثبت أن كلّ من لَمَزَ النبي ﷺ في حكمه أو قسمته ؛ فإنه يجب قتله
. كما أمر النبي ﷺ بذلك في حياته ، أو بعد موته .

• المنافقون أسرع الناس وقوعاً في الكفر ونواقض الإسلام . فقد أعانوا
الكافرين على المسلمين ، ورفضوا حكم الله ورسوله ﷺ ، وتحاكموا إلى
الطاغوت ، واستهزءوا بالله ، وآياته ، ورسوله ، والمؤمنين . وصدّوا عن الجهاد في
سبيل الله ، وثبّطوا المجاهدين ، وأثاروا الفتن في المجتمع المسلم ، واتّخذوا
مساجد الضرار لتفريق الصف المسلم ، وغيرها من النواقض المُخرجة من الملة .

• المواقف الحكيمة الحازمة للنبي ﷺ في جهاده للمنافقين قبل غزوة تبوك ،
وأثناءها وبعدها :

فقبل الغزوة : كان القرارُ النبوي الحاسم بحرق وكر التجسس للمنافقين
واليهود - بيت سويلم اليهودي - . كان هذا الإجراء درساً يتعلم منه كل مسؤل

في كل زمان ومكان ؛ كيف يُعاقب دُعاة الفتنة في المواقف الحرجة ؛ لأن هذا الوكر كان مركزاً للإشاعات المضللة التي تُلحِق الضرر بالدولة الإسلامية .

وفي أثناء الغزوة يَعْلَمُنَا ﷺ درساً آخر في جهاد المنافقين في بداية الطريق . لكن النبي ﷺ البعيد النظر والمجرب الذي يقدر النتائج قبل الإقدام على أي عملٍ ، لم يعاقب هؤلاء المتخاذلين . وأكدت الأحداث أن سكوته ﷺ في مثل هذه الموقف هو عين الحكمة ؛ لأن خروج هؤلاء المنافقين من الجيش النبوي بمثابة تطهيرٍ له من الجرائم الخبيثة ، وتخليصٍ له من أفدح الأضرار . وأكد ﷺ هذه الحقيقة بقوله : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧) التوبة: ٤٧

أما بعد الغزوة : عندما يصل الأمر إلى الإضرار العام بالمسلمين ، وتفريق كلمتهم . فإن النبي ﷺ قد أرشد المسلمين ؛ قادةً ، وجنوداً ، ودُعاةً إلى الدواء الناجع . وهو : الاستئصال الكلّي ، لا بالتسكين والتخفيف ؛ حتى لا يتجدد ظهور الداء ثانيةً . كان ذلك القرار الحكيم : ما قام به النبي ﷺ من الأمر بهدم مسجد الضرار . وهو التصرف الأمثل .

• جنى المسلمون الثمار العملية لطاعتهم أوامر النبي ﷺ الحازمة . وفي ذلك دلالة على أن هذه المنهجية التي نهجها ﷺ مع المنافقين هي الطريقة المثلى لقمع حركة النفاق في المجتمع المسلم . فقد أصبح أمرهم يتلاشى شيئاً فشيئاً ، حتى لم يبقَ منهم بعد لحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى إلا عددٌ قليل ، ولم يُعرف منهم بعد تدمير مسجد الضرار أنّهم قاموا بأعمالٍ تخدم الهدف نفسه .

• أهم الأحكام التي برزت بحق المنافقين بعد غزوة تبوك ، ووفاء رأس النفاق : عدم الصلاة على من مات منهم ، ودمغهم بالكفر ، وعدم الاستغفار لهم أو الدعاء لهم ، أو الوقوف على قبورهم . وأمرنا الله تعالى بالكشف عن صفاتهم ، وأعمالهم

، وفضحهم . وأمرنا الله تعالى بجهادهم كجهاد الكفار . وآخر آية نزلت بحق المنافقين هي : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣) التوبة: ٧٣ فقد ظل النبي يعفو ويصفح عنهم ، ويلاينهم ، لكن بعد نزول هذه الآية ، حلَّ الحزم والشدة مكان العفو والصفح .

• طريقة التعامل مع المنافقين بعد سورة التوبة غير المعاملة قبلها ، أي : إنّ المنافقين إذا أظهروا الكفر الجلي بقول أو فعل = يُجاهدوا مثل جهاد الكفار ، يبدأ باللسان ، وينتهي بالسيف . قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ : " أن الله بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين ، وسيف للمنافقين ، وسيف لكفار أهل الكتاب ، وسيف للبغاة من هذه الأمة" . وهذا يقتضي جهادهم بالسيف ؛ إذا أظهروا النفاق قولاً أو فعلاً .

• تدرّج رسول الله ﷺ في جهاده للمنافقين وتعامله معهم . والوسائل التي يجب أن نتعامل بها معهم ، هي : ما ذكره الله تعالى في كتابه ، والنبي ﷺ في سنته المطهرة . وأهمها : الحذر منهم ، والتشهير بهم ، والنهي عن موالاتهم ، واحتقارهم ، وعدم الاعتراف لهم بالسيادة ، ولا يؤلّون شيئاً من أمور الدولة ، ولا يُشاورون . ولا يُصلّى عليهم ، وعدم حضور جنازتهم ، ودمعهم بالكفر ؛ إهانة لهم ، وعقوبة ، وردعاً لغيرهم من المنافقين .

• تغير الحكم والتعامل مع المنافقين بعد غزوة تبوك ، ونزول سورة التوبة لإكمال شرائع الدين ؛ من الجهاد ، والحج ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . فكان كمال الدين حين نزول قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ المائدة: ٣ قبل وفاة النبي ﷺ بأقل من ثلاثة أشهر ، فأمر ﷺ ببند العهود التي كانت للمشركين ، بقوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣) التوبة: ٧٣

وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَوْلِيَهُمْ ﴾ الأحزاب: ٤٨ وذلك أنه لم يبق للمنافق من يعينه لو أقيم عليه الحد ، ولم يبق حول المدينة من الكفار من يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه ، فأمر الله تعالى بجهادهم ، والإغلاظ عليهم ، وقتلهم . فإنهم يقتلون شرّ قتلة إذا أظهروا كلمة واحدة ، أو فعلاً واحداً من الكفر الجلي .

• من الإثم العظيم ؛ بل يعد من الخيانة العظمى أن يُستخدم هؤلاء المنافقون في مراكز الدولة ، وأن النبي ﷺ لم يُسند إليهم شيئاً من أمور الدولة . وكذلك سائر الخلفاء الراشدين ﷺ على هذا المنهج النبوي الحكيم ، وكذلك خلفاء بني أمية ، وأن مصائب الأمة العظام ما جاءت إلاّ عندما قرّب الخليفة العباسي المستعصم بالله قلةً من هؤلاء المنافقين الباطنيين ، فكان ما كان من ضياع البلاد والعباد ، وتسليط الكافرين على بلاد المسلمين . وما أروع ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو يؤكد خطورة تقريب هؤلاء المنافقين ، فيقول : "وأما استخدام مثل هؤلاء الباطنيين في ثغور المسلمين أو حصونهم ، أو جندهم ؛ فإنه من الكبائر ، وهو بميزان من يستخدم الذئاب لرعي الغنم ، فإنهم من أغش الناس للمسلمين ولولادة أمورهم ، وهم أحرص الناس على إفساد المملكة والدولة " . رحم الله شيخ الإسلام ، وآجره في فتواه ونصيحته التي خالفها المسلمون كثيراً ، ولم يحترزوا من هؤلاء الباطنيين المنافقين .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أيضاً كلاماً نفيساً : " وليس المنافقون في طائفة أكثر منهم في الرافضة ، حتى أنه ليس في الروافض إلا من فيه شعبة من شعب النفاق ... ورؤوس الرافضة والجهمية كانوا منافقين زنادقة " .

• بيان : لماذا لم يقتل النبي ﷺ المنافقين ، مع علمه بنفاق بعضهم ؟ ويمكن إيجازه في التالي :

أ - لم يثبت بالبيّنة على عامّتهم ما كانوا يتكلمون به من الكفر ، بل كانوا يُظهرون الإسلام .

ب - أنه ﷺ كان يخشى أن يتولد عن قتلهم من الفساد أكثر من استبقائهم ، وقد بيّن ﷺ ذلك بقوله : (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) وقال أيضاً : (إِذَنْ تَرَعُدْ لَهُ أَنْفٌ كَثِيرَةٌ يِثْرَبُ)

ج - أنه ﷺ لو قتلهم بما يعلمه من كفرهم لأوشك أن يظن الظانّ أنه إنما قتلهم لأغراض وأحقاد ، وإنما قضده الاستعانة بهم على المُلْك ، كما قال ﷺ : (أكره أن تقول العرب : لَمَّا ظَفِرَ بِأَصْحَابِهِ أَقْبَلَ يَقْتُلُهُمْ)

د - وكان ﷺ يخشى أن يقتل بعضهم فتغضب لقبيله قبيله ، وناس آخرون ؛ ويكون سبباً للفتنة . وقد كاد يحدث شيء من هذا بين الصحابة ﷺ لَمَّا عَرَضَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ ﷺ بِقَتْلِ رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ .

• إن المنافقين والزنادقة الذين يتكرر نفاقهم وزندقته بعد إقامة الحجة عليهم ، يُقتلون من غير استتابة ، ولا يقبل منهم ما يُظهرونه من التوبة . ويُجاهدون دائماً وأبداً ؛ حتى يُقضى عليهم . وهذا هو المنهج النبوي الحكيم في جهاد المنافقين والذي استقر عليه الأمر ، والذي يجب علينا أن نقتدي به ، وينبغي أن يكون ذلك واضحاً أمام الدعاة إلى الله تعالى ، والمجاهدين خاصة .

• إن دراسة السيرة النبوية عامة ، ومعرفة جهاده ﷺ للمنافقين خاصة ، منهج حياة للفرد وللمجتمع المسلم ، ومَعِينٌ دافق لفهم الشريعة الإسلامية ، وصورةٌ صحيحة لأعظم منهج شهدته الأرض . إنها تاريخ لأفضل رسل الله ، وسيد البشر أجمعين ﷺ . إن سيرته في جهاد المنافقين زاد نافع للدعاة والمجاهدين ، يشحذ هممهم ويقوّي عزائمهم ؛ إذا وقفوا على الجهود العظيمة ، والدماء التي بذلت

لإعزاز الدين ، ورَفَع راية سيد العالمين . وإذا عرفوا قدر النعمة للهداية لهذا الدين ، ومدى الشرف بالانتساب إليه ، والدعوة إليه ، والجهاد لرفع رايته .

• وأخيراً : من خلال سيرته ومنهجه ﷺ وهديه في جهاده للمنافقين ؛ نقف على كثير من الدروس التربوية ، والسياسة الشرعية ، والأحكام الفقهية ، التي لا يستغني عنها القائد ؛ ليتعلم كيف تكون القيادة . ولا يستغني عنها الجندي ؛ ليتعلم كيف تكون الجندية . ولا يستغني عنها الدعاة إلى الله ﷻ ؛ ليتعلموا كيف تكون الدعوة إلى الله ﷻ . ولا يستغني عنها المُربّون ؛ ليتعلموا كيف تكون التربية .

فإنَّ الرسول ﷺ يتعامل مع النفوس ، ويخاطب الضمائر ، ويربّي الحس والمشاعر . فهو ﷺ بمثابة الطبيب الذي يحافظ على صحة مَنْ حوله ، ويحذّرهم مما قد يؤثر على صحتهم من قريب أو بعيد ، قبل أن يقع بهم الداء ، ويستفحل المرض ، وينشر العدوى بينهم . فهو ﷺ رحيم بهذه الأمة ، يرشدها لكل ما فيه خيرها وسعادتها في الدنيا والآخرة ، ويحذّرُها من كل شرٍّ ، وسوءٍ . فجزاه الله عنا وعن المسلمين خير ما جرى به نبياً عن قومه ، ورسولاً عن أمته .

وأختم هذا الكتاب بحمد الله تعالى ، وشكري له على ما منَّ به عليّ من نِعَمِهِ ؛ التي من جملتها إتمامي لهذا الكتاب ، راجياً من الله تعالى أن يوفقني في القول والعمل ، وأن يجعل قلبي وعملي خالصين لوجهه الكريم ، وأن يوفقني لما يرضيه عني ، إنه ولي التوفيق .

وصلّى الله وسلّم على محمد ، وآله وصحبه أجمعين .

قائمة المصادر والمراجع

✽ القرآن الكريم

أولاً : المصادر :

ابن الأثير ، مجد الدين المبارك محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ)

١- النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق طاهر الزواوي ومحمد الطناحي (ط ١ ، القاهرة ، دار إحياء التراث العربي ، ١٣٨٣ هـ)

ابن الأثير ، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ)

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة (ط ١ ، بيروت ، دار إحياء التراث العرب ، ١٤١٧ هـ)

أحمد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ)

٣- فضائل الصحابة ، تحقيق وصي الله محمد عباس ، (ط ١ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣ هـ)
٤- المسند ، (القاهرة ، مؤسسة قرطبة ، دت)

الألباني ، محمد ناصر الدين ، (ت ١٤٢٠ هـ)

٥- ارواء الغليل ، (ط ٢ ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣ هـ)
٦- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، (ط ٢ ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣ هـ)
٧- صحيح الترغيب والترهيب ، (ط ٢ ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣ هـ)

الآلوسي ، أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني (ت ١٢٧٠ هـ)

٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، (بيروت ، دار إحياء العربي ، دت)

البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت ٢٥٦ هـ)

٩- الأدب المفرد ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، (ط٣ ، بيروت ، دار
البشائر الإسلامية (١٩٨٩ م)

١٠- الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه
، المعرف بـ (صحيح البخاري) ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، (ط٣ ،
بيروت، دار ابن كثير، ١٩٨٧ م)

ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله النمري (ت ٤٦٣ هـ)
١١- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ،
(بيروت، دار الجيل ، ١٤١٢ هـ)

البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود الشافعي (ت ٥١٦ هـ)
١٢- معالم التنزيل ، (بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٠ م)

البكري ، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ)
١٣- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع ، تحقيق مصطفى السقا،
ط٣ ، بيروت ، عالم الكتب، ١٤٠٣ هـ)

البلاذري ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ)
١٤- أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، (القاهرة ، دار المعارف ،
١٩٥٩ م)

البيضاوي ، عبد الله بن عمر بن محمد (ت ٦٨٥ هـ)
١٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، المعروف بـ (تفسير البيضاوي)،
بيروت، دار الفكر ١٤٠٢ هـ)

البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين (٤٥٨ هـ)
١٦- السنن الكبرى ، تحقيق محمد عب القادر عطا ، (مكة المكرمة ، مكتبة
دار الباز ، ١٩٩٤ م)

الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ)
١٧- السنن ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ، (بيروت ، دار إحياء التراث
العربي ، د.ت)

التميمي ، محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٥ هـ)

١٨ -- رسالة الرد على الرافضة ، تح: د. ناصر بن سعيد الرشيد ، الرياض ،
دار طيبة ، د.ت)

١٩ - كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ، (ط ٥ ، الرياض ، دار
العاصمة ، ١٤٢٠ هـ)

٢٠ - الواجبات المتحتمات المعرفة على كل مسلم ومسلمة ، (ط ١ ، الرياض ،
دار طيبة ، ١٤١٤ هـ)

ابن تيمية ، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الحراني (ت ٧٢٨ هـ)

٢١ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، ت: د. ناصر العقل ،
(ط ١ ، الرياض ، مكتبة العبيكان ، ١٤٠٤ هـ)

٢٢ - الإيمان ، (القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٦٦ هـ)

٢٣ - الربانيات والإلهيات ، (مصر ، المكتبة الإسلامية ، د.ت)

٢٤ - شرح حديث جبريل ، المسمى بـ (الإيمان الأوسط) ، تحقيق د.علي
نجيب الزهراني ، (ط ٢ ، المملكة العربية السعودية ، دار ابن الجوزي
١٤٢٤ هـ)

٢٥ - الصارم المسلول على شاتم الرسول ، تحقيق محمد محيي الدين ،
(بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨ م)

٢٦ - العبودية ، (الإسكندرية ، دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع ،
٢٠٠٣ م)

٢٧ - العقيدة الواسطية ، (الرياض ، دار العاصمة ، ١٤٢٢ هـ)

٢٨ - مجموع فتاوى ابن تيمية ، (ط ١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ،
١٩٨٩ م)

الثعالبي ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٧٥ هـ)

٢٩ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، المعروف بـ (تفسير الثعالبي)
تحقيق عبد الفتاح أبو سنة وآخرين ، (ط ١ ، بيروت ، دار إحياء التراث
العربي ، ١٤١٨ هـ)

الجرجاني ، الشريف علي بن محمد (ت ٨١٦ هـ)

٣٠ - التعريفات ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، (ط ١ ، بيروت ، دار الكتاب
العربي ، ١٤٠٥ هـ)

الجصاص ، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٣٧٠هـ)

٣١- أحكام القرآن ، (مصورة عن طبعة تركيا ١٣٢٥هـ) ، (بيروت ، دار
الكتاب العربي)

ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)

٣٢ زاد المسير في علم التفسير ، (بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٩م)

الحاكم النيسابوري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبي (ت ٤٠٥هـ)

٣٣- المستدرک علی الصحیحین ، تحقیق مصطفی عبد القادر ، (ط ١ ،
بيروت ، دار الكتب العلمية (١٩٩٠م)

ابن حبان ، أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ)

٣٤- الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان للأمير علي بن بلبان ، المعروف
بـ (صحيح ابن حبان) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، (ط ٢ ، بيروت ،
مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٣م)

٣٥- مشاهير علماء الأمصار ، تحقيق فلاشهير ، (بيروت ، دار الكتب
العلمية ، ١٩٥٩م)

ابن حجر ، أبو الفضل علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)

٣٦- تعجيل المنفعة بزوائد الرجال الأربعة ، تحقيق إكرام الله إمداد الحق ()
ط ١ بيروت ، دار الكتاب الإسلامي ، د.ت)

٣٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن
باز (ط ١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٩م)

٣٨- لسان الميزان ، (ط ٣ ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،
١٤٠٦هـ)

ابن حزم الأندلسي ، علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ)

٣٩- المحلى بالآثار شرح المجلى باختصار ، (بيروت ، دار الآفاق الجديدة
، د.ت)

الحكيم الترمذي ، محمد بن علي بن الحسن (ت ٣٢٠هـ)

٤٠- نوادير لأصول في أحاديث الرسول ، تحقيق عبد الرحمن عميرة ، (ط ١) ، بيروت ، دار الجيل (١٩٩٢ م)

الحلبي ، علي بن إبراهيم (ت ١٠٤٤ هـ)

٤١- إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروف بـ (السيرة الحلبية) ، (مصر ، ١٣٤٩ هـ)

الحموي ، أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦ هـ)

٤٢- معجم البلدان ، (بيروت ، دار صادر ، د ب ت)

٤٣- المقتضب من جمهرة النسب ، تحقيق ناجي حسن ، (ط ١) ، بيروت ، دار العربية للموسوعات ، (١٩٨٧ م)

٤٤- معجم الأدباء (بيروت ، دار صادر . د ب ت)

ابن خزيمة ، أبو بكر محمد بن إسحاق النيسابوري (ت ٣١١ هـ)

٤٥- الصحيح ، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي ، (بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٧٠ م)

ابن خياط ، خليفة العصفري (ت ٢٤٠ هـ)

٤٦- الطبقات ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، (ط ٢) ، الرياض ، دار طيبة ، (١٩٨٢ م)

الدارقطني ، أبو الحسن علي بن عمر البغدادي (ت ٣٨٥ هـ)

٤٧- السنن ، تحقيق عبد الله هاشم ، (بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٦٦ م)

الدارمي ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٥ هـ)

٤٨- السنن ، تحقيق أحمد زمرلي وخالد السبع ، (ط ١) ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، (١٤٠٧ هـ)

أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ)

٤٩- السنن ، تحقيق محمد محيي الدين ، (بيروت ، دار الفكر ، د ب ت)

الدمياطي ، محمد بن أحمد البنا (ت ١١١٧هـ)

٥٠- إتحاف فضلاء البشر ، تحقيق محمد علي الضباع (القاهرة ، ١٣٥٩هـ)

الذهبي ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)

٥١- تذكرة الحفاظ ، تحقيق عبد الرحمن اليماني (حيدر آباد ، دائرة المعارف
العثمانية ، ١٩٥٦)

٥٢- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ونعيم العرقسوسي ،
(ط ٩ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٣هـ)

الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر الشافعي (ت ٦٠٦هـ)

٥٣- التفسير الكبير ، (ط ٣ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت)

الزبيدي ، محمد المرتضى (ت ١٢٥٠هـ)

٥٤- تاج العروس من جواهر القاموس ، (بيروت ، دار ابن القيم ، د.ت)

الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)

٥٥- الكشف عن حقائق التنزيل ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)

ابن أبي زيد القيرواني ، محمد بن أبي زيد (ت ٣٨٩هـ)

٥٦- رسالة ابن أبي زيد ، (بيروت ، المكتبة الثقافية ، د.ت)

ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ)

٥٧- الطبقات الكبرى ، (بيروت ، دار صادر ، د.ت)

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)

٥٨- الأشباه والنظائر ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت)

الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ)

٥٩- المسند ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت)

ابن شبة ، عمر بن شبة النمري البصري (ت ٢٦٢هـ)

٦٠- تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق فهد محمد شلتوت ، (ط٢ ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٠هـ)

الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٠هـ)

٦١- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير ، تح سيد إبراهيم ، (القاهرة ، دار الحديث ، ٢٠٠٣م)

٦٢- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ، (بيروت ، دار الجيل ، دت)

ابن أبي شيببة ، محمد بن عبد الله (ت ٢٣٥هـ)

٦٣- المصنف ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، (ط١ ، الرياض ، مكتبة الرشد ١٤٠٥هـ)

الصالحى ، محمد بن يوسف الشامي (ت ٩٤٢هـ)

٦٤- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ﷺ ، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود ، (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤هـ)

الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١هـ)

٦٥- المصنف ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، (ط٢ ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٣هـ)

الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي (ت ٣٦٠هـ)

٦٦- المعجم الأوسط ، تحقيق طارق عوض الله وعبد المحسن إبراهيم ، القاهرة ، دار الحرمين، ١٤١٥

٦٧- المعجم الكبير ، تحقيق حمدي عبد المجيد (الموصل ، مطبعة الزهراء ، ١٩٨٤م)

الطبري ، أبو جعفر أحمد بن عبد الله (ت ٦٩٤هـ)

٦٨- الرياض النضرة في مناقب العشرة ، تحقيق عيسى الحميري ، (ط١ ، بيروت ، دار الغرب) ١٩٩٦م

الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)

٦٩- تاريخ الرسل والملوك ، (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧ هـ)

٧٠- جامع البيان في تأويل آي القرآن (بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٥ هـ)

ابن عابدين ، محمد أمين (ت ١٢٣٢ هـ)

٧١- رد المحتار على الدر المختار ، (بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٥ هـ)

ابن أبي عاصم ، محمد بن أبي عاصم الضحاك (ت ٢٨٧ هـ)

٧٢- السنة ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، (ط١ ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠ هـ)

العراقي ، عبد الرحيم بن الحسين الشافعي (ت ٨٠٦ هـ)

٧٣- المغني بهامش الأحياء ، (القاهرة ، دار الغد العربي ، ١٩٩٨ م)

ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣ هـ)

٧٤- أحكام القرآن ، تحقيق علي محمد البجاوي ، (ط١ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي (١٩٨٥ م)

ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن هبة الله (ت ٥٧١ هـ)

٧٥- تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق عمر غرامة العمروي (ط١ ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٩٥)

٧٦- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، (ط٣ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ١٤٠٤ هـ)

الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ)

٧٧- إحياء علوم الدين ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)

٧٨- فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية ، تحقيق عبد الرحمن بدوي (الكويت ، مؤسسة دار الكتب الثقافية ، د.ت)

الفريابي ، محمد بن جعفر (ت ٣٠١ هـ)

٧٩- صفة المنافقين ، تحقيق بدر البدر (ط١ ، الكويت ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، ١٤٠٥ هـ)

الفيروزآبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)

٨٠- بصائر ذوي التمييز بلطائف الكتاب العزيز . تحقيق محمد علي البجاوي
(بيروت ، دارالمعرفة ١٩٨٤م)

٨١- القاموس المحيط ، (بيروت ، دار ابن القيم ، د.ت)

ابن قانع ، أبو الحسين عبد الباقي (ت ٣٥١هـ)

٨٢- معجم الصحابة ، تحقيق صلاح المصراطي ، (ط١ ، المدينة المنورة ،
مكتبة الغرباء ، ١٤١٨هـ)

ابن قدامة ، محمد بن عبد الله بن أحمد المقدسي (ت ٦٢٠هـ)

٨٣- المغني ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت)

القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧١هـ)

٨٤- جامع البيان في تفسير القرآن ، تحقيق أحمد عبد العليم (ط٢ ، القاهرة ،
دار الشعب ، ١٣٧٢هـ)

القسطلاني ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٨٥١هـ)

٨٥- إرشاد الساري شرح صحيح البخاري ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)

القضاعي ، محمد بن سلامة بن جعفر (ت ٤٥٤هـ)

٨٦- مسند الشهاب ، تحقيق حمدي عبد المجيد ، (ط٢ ، بيروت ، مؤسسة
الرسالة ، ١٩٨٦م)

ابن القيم ، شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)

٨٧- إعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق طه عبد الرؤوف ، (بيروت ،
دار الجيل ، د.ت)

٨٨- بدائع الفوائد ، (بيروت ، دار الكتاب العربي ، د.ت)

٨٩- زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط ،
(ط٨ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥م)

٩٠- الصلاة وحكم تاركها ، تحقيق تيسير زعيتر ، (ط٢ ، بيروت ، المكتب
الإسلامي ، ١٤٠٥هـ)

- ٩١- طريق الهجرتين ودار السعادتين ، (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، د.ت)
٩٢- مختصر الصواعق المرسلّة على فرق الجهمية والمعطلة، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)
٩٣- مدارج السالكين ، (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ)
٩٤- المنار المنيف ، (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ)
الكاساني ، علاء الدين أبو بكر بن مسعود السمرقندي (ت ٥٨٧هـ)
٩٥- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، (القاهرة ، مطبعة الإمام ، د.ت)
ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)
٩٦- البداية والنهاية ، (ط ١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤م)
٩٧- تفسير القرآن العظيم ، (بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٨٠م)
الكشي ، أبو محمد عبد بن حميد (ت ٢٤٩هـ)
٩٨- المسند ، تحقيق صبحي السامرائي ومحمود الصعيدي ، (ط ١ ، القاهرة ، مكتبة السنة ، ١٩٨٨م)
أبو الليث السمرقندي ، نصر بن محمد (ت ٣٧٣هـ)
٩٩- بحر العلوم ، (بيروت ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٩م)
ابن ماجة ، أبو عبد الله محمد بن ماجة (ت ٢٧٥هـ)
١٠٠- السنن ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)
ابن المبارك ، عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ)
١٠١- الجهاد ، (بيروت ، دار المعرفة ، د.ت)
مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)
١٠٢- الصحيح ، تحقيق محمد عبد الباقي ، (بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت)

المقري ، أحمد بن محمد بن علي (١٠٨٩ هـ)

١٠٣- المصباح المنير ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، دبت)

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ)

١٠٤- إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأبناء والأموال والحفدة ، صححه

وشرحه : محمود محمد شاكر ، (القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ، دبت)

١٠٥- الخطط المسمى بـ (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ،

(القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ) ، (مصورة مكتبة المثنى - بغداد)

ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ)

١٠٦- لسان العرب ، (بيروت ، دار صادر ، دبت)

ابن نجيم المصري ، زين الدين بن إبراهيم بن محمد (ت ٩٧٠ هـ)

١٠٧- البحر الرائق شرح كنز الدقائق ، تحقيق زكي عميرات ، (ط ١ ،

بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٨ هـ)

النسائي ، أحمد بن شعيب النيسابوري (ت ٣٠٣ هـ)

١٠٨- السنن الكبرى ، تحقيق عبد الغفار البنداري و سيد كسروي ، (ط ١ ،

بيروت دار الكتب العلمية ، ١٩٩١ م)

أبو نعيم الأصبهاني ، أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠ هـ)

١٠٩- المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم ، تحقيق محمد حسن

الشافعي (ط ١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٦ م)

النووي ، محيي الدين أبو زكريا يحيى (ت ٦٧٦ هـ)

١١٠- روضة الطالبين ، (بيروت ، المكتب الإسلامي ، دبت)

١١١- المجموع شرح المذهب ، (بيروت ، دار الفكر ، دبت)

ابن هشام ، عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٨ هـ)

١١٢- السيرة النبوية ، تح: طه عبد الرؤوف ، (ط١ ، بيروت ، دار الجيل ،
(١٤١١هـ)

الهيتمي ، أحمد بن محمد بن علي بن حجر (ت ٩٧٤هـ)

١١٣- الصواعق المحرقة علأهل البدع والضلال والزندقة ، (بيروت ، دار
الكتب العلمية ، دت)

الواحدي ، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)

١١٤- أسباب النزول ، (القاهرة ، مؤسسة الحلبي وشركاؤه ، ١٣٨٨هـ)

الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ)

١١٥- المغازي ، (ط٣ ، بيروت ، دار الكتب ، ١٩٨٤م)

أبو يعلى ، أحمد بن علي بن المثنى (ت ٣٠٧هـ)

١١٦- المسند ، تحقيق حسين سليم ، (ط١ ، دمشق ، دار المأمون للتراث ،
(١٩٨٤م)

ثانياً : المراجع

أحمد ، مهدي رزق الله

١١٧- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، (ط١ ، الرياض ، مركز

الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٩٩٢م)

إدريس ، محمود إدريس

١١٨- مظاهر الانحرافات العقيدية عند الصوفية وأثرها السيئ على الأمة ،

(ط١ ، الرياض ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ، ١٩٩٨م)

آل الشيخ ، محمد بن إبراهيم (ت ١٣٥٤هـ)

١١٩- تحكيم القوانين ، (ط٣ ، الرياض ، دار العاصمة ، ١٤٢١هـ)

بابطين ، عبد الله بن عبد الرحمن

١٢٠- الرسائل النجدية ، (ط١ ، دار البشائر ، ١٤٠٥هـ)

ابن باز ، عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ت ١٤١٩هـ)

١٢١- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ، جمع وترتيب وإشراف محمد بن

سعد الشويعر (الرياض ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٦هـ)

باشميل ، محمد أحمد

١٢٢- موسوعة الغزوات الكبرى ، (جدة ، ١٣٩٥هـ)

ابن جبرين ، عبد الرحمن بن عبد الله

١٢٣- رسالة الإصلاح ، (ط١ ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٣هـ)

الجبرين ، عبد الله بن عبد العزيز

١٢٤- مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية ، (ط١ ، الرياض ، مطابع الجبرير ،

١٤٢٤هـ)

الجليل ، عبد العزيز بن ناصر

١٢٥- التربية الجهادية في ضوء الكتاب والسنة ، (الرياض ، مكتبة الملك
فهد الوطنية ، ١٤٢٥هـ)

الجنابي ، عبدالستار جبار شكر

١٢٦- أساليب المنافقين في محاربة المسلمين في القرآن الكريم ، (مكة
المكرمة ، مركز العصر للدراسات الاستراتيجية والمستقبلية ،
١٤٣٤هـ)

١٢٧- شجاعة الصحابة رضي الله عنهم وحبهم للجهاد والاستشهاد ، (مكة
المكرمة ، دار طيبة ، ١٤٣٦هـ)

١٢٨- البراء بن عازب رضي الله عنه سيرته ومروياته التاريخية في الكتب
السة ومسند الإمام أحمد ، (جدة ، دار عوائد الخير للنشر والتوزيع ،
مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤٣٦هـ)

الدوسري ، عبدالرحمن

١٢٩- النفاق آثاره ومفاهيمه ، (ط٢ ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ١٤٠٤هـ)

الحكمي ، حافظ بن أحمد (ت ١٣٧٧هـ)

١٣٠- معارج القبول شرح سلم الوصول في التوحيد ، (جدة ، مكتبة
السوادي للتوزيع ، ١٤١٥هـ)

الحميدي ، عبد العزيز عبد الله

١٣١- التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ، (ط١ ، الإسكندرية- جدة ، دار
الدعوة- دار الأندلس الخضراء ، ١٤١٨هـ)

١٣٢- المنافقون في القرآن الكريم ، (الرياض ، دار طيبة ، ١٩٩٤)

حنفي ، عبد الحلیم

١٣٣- اسلوب السخرية في القرآن الكريم ، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م)

الحوالي ، عبد الرحمن بن سفر

١٣٤- ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ، (القاهرة ، مكتبة طيبة ، ١٤١٧هـ)

١٣٥- العلمانية ، (الكويت ، الدار السلفية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٨هـ)

الخصير ، علي بن خصير

١٣٦- سلسلة الأجزاء في التوحيد والعقيدة ، (جزء النفاق) ، (القصيم ، مكتبة الرشد ، ١٤٢٣هـ)

خليل ، عماد الدين

١٣٧- دراسة في السيرة النبوية ، (ط٧ ، الموصل ، مطبعة الزهراء الحديثة ، ١٩٨٣م)

رضا ، محمد رشيد

١٣٨- تفسير المنار ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٥م)

رشوان ، حسين

١٣٩- العلم والبحث العلمي ، (القاهرة ، المكتبة الجامعية ، دت)

الزرقاني ، محمد بن عبد العظيم

١٤٠- شرح المواهب اللدنية ، (بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، دت)

الزركلي ، خير الدين (ت ١٩٧٦م)

١٤١- الأعلام ، (ط٤ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٩م)

أبو زيد ، أحمد

١٤٢- الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية ، (كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي ، العدد ١٤٥ / السنة الثالثة عشرة ، محرم
١٤١٥هـ)

أبو زيد ، بكر بن عبدالله (ت ١٤٢٩هـ)

١٤٣- النظائر ، (ط١ ، الرياض ، دار العاصمة ، ١٤١٣هـ)

زيدان ، عبد الكريم

١٤٤- الاستفادة من قصص القرآن للدعوة والدعاة ، (ط١ ، بيروت ، مؤسسة
الرسالة ، ١٩٩٧م)

السباعي ، مصطفى

١٤٥- السيرة النبوية دروس وعبر (ط١ ، بيروت ، المكتب الإسلامي ،
١٩٨٦م)

شاكر ، أحمد محمد

١٤٦- عمدة التفسير في التعليق على ابن كثير ، (القاهرة ، دار المعارف ،
١٣٧٣هـ)

١٤٧- كلمة حق ، (القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٦٦م)

الشعراوي ، محمد متولي

١٤٨- معركة التشكيك في الإسلام ، (الموصل ، مكتبة بسام ، ١٩٨٨م)

الشنقيطي ، محمد الأمين (ت ١٣٩٣هـ)

١٤٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، (ط١ ، بيروت ، دار إحياء
التراث العربي (١٩٩٦م)

أبو شهبه ، محمد

١٥٠- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، (ط٣ ، دمشق ، دار القلم ،
١٤١٧هـ)

ابن عاشور ، محمد الطاهر (ت ١٣٩٣ هـ)

١٥١- التحرير والتنوير ، (تونس، دار الكتب الشرقية ، دبت)

عبد الغني ، سعيد

١٥٢- حقيقة الولاة والبراء ، (ط٢ ، مكة المكرمة ، إدارة المطبوعات في
وزارة الإعلام (١٤٢٢ هـ)

عبد اللطيف ، عبدالعزيز

١٥٣- نواقض الإيمان القولية والفعلية ، (ط٣ ، الرياض ، دار الوطن للنشر ،
(١٤٢٧ هـ)

ابن عتيق ، حمد

١٥٤- سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك ،
(ط١ ، الرياض ، دار طيبة (١٤١٤ هـ)

ابن عثيمين ، محمد بن صالح (ت ١٤٢٠ هـ)

١٥٥- مجموع الفتاوى ، جمع وترتيب ناصر السليمان ، (الرياض ، دار
الثريا ، ٢٠٠١)

العظيم آبادي ، محمد شمس الدين

١٥٦- عون المعبود شرح سنن أبي داود ، (ط٢ ، بيروت ، دار الكتب
العلمية ، ١٤١٥ هـ)

العلواني ، علي بن نفيح

١٥٧- حقيقة الكفر بالطاغوت وعلاقته بالإيمان بالله ، (مكة المكرمة ، دار
التربية والعمران

العمر ، د. ناصر بن سليمان

١٥٨ - فقه الواقع ، مقوماته وآثاره ومصادره ، (ط١ ، الرياض ، دار الوطن للنشر ، ١٤١٢هـ)

العمرى : أكرم ضياء

١٥٩ - السيرة النبوية الصحيحة ، (الرياض ، مكتبة العبيكان ، ١٤٢٤هـ)

١٦٠ - المجتمع الإسلامي ، (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٥هـ)

الغضبان ، منير محمد

١٦١ - المنهج الحركي للسيرة النبوية ، (الأردن ، مكتبة المنار ، د.ت)

أبو فارس ، محمد عبد القادر

١٦٢ - الصراع مع الصليبيين ، (طنطا ، دار البشير ، ١٤١٩هـ)

فريد ، أحمد

١٦٣ - وقفات تربوية مع السيرة النبوية ، (ط٧ ، الرياض ، دار طيبة ، ١٤٢٤هـ)

فيض الله ، محمد فوزي

١٦٤ - صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، (دمشق ، دار القلم ، ١٩٩٦م)

القاسمي ، جمال الدين محمد (ت ١٩١٤م)

١٦٥ - محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم ، (ط١ ، بيروت ، دار إحياء العربي ، د.ت)

القحطاني ، محمد بن سعيد

١٦٦ - الولاء والبراء ، (ط١ ، الرياض ، دار طيبة للنشر ، ١٤٠٢هـ)

القرني ، علي بن عبد الخالق

١٦٧ -- ما حقيقة كخيال ، (ط١ ، مكة المكرمة ، دار طيبة للنشر ، ١٤٢٢هـ)

قطب ، سيد إبراهيم (ت ١٩٦٦ م)

١٦٨- في ظلال القرآن ، (ط١ ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧٢ م)

قطب محمد ، (ت ١٤٣٥ هـ)

١٦٩- لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، (ط١ ، القاهرة ، مكتبة السنة ، ١٤١١ هـ)

كامل : عبد العزيز

١٧٠- جهاد المنافقين ، (مجلة البيان ، العدد ١٧١ ، ١٤٢٢ هـ)

كحالة ، عمر رضا

١٧١- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، (ط٢ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٣٨٨ هـ)

لاشين ، عبد الفتاح

١٧٢- لغة المنافقين في القرآن الكريم ، (بيروت ، دار الرائد العربي ، د.ت)

المباركفوري ، محمد بن عبد الرحمن (ت ١٣٥٣ هـ)

١٧٣- تحفة الأحوزي شرح سنن الترمذي ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت)

المحامي ، حسن عبد الغني

١٧٤- المنافقون وشعب النفاق ، (الدوحة ، دار الثقافة ، ١٩٨٧ م)

المحمود ، د. عبد الرحمن بن صالح

١٧٥- الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه ، (ط٢ ، الرياض ، دار طيبة للنشر ، ١٤٢٠ هـ)

المراغي ، أحمد مصطفى

١٧٦- التفسير ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)

مرعشلي ، نديم

١٧٧- الصحاح في اللغة العربية (إعداد وتصنيف) ، (بيروت ، دار الكتب
العلمية ، د.ت)

هيكل ، محمد خير

١٧٨- الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ، (ط٢ ، بيروت ، دار ابن حزم ،
١٤١٧هـ)

فَهْرِسْتَان

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء.....	٥
المقدمة.....	٧

الفصل الأول

النفاق وتاريخ ظهوره وبواعثه وأضراره ، وأصل المنافقين وسبب ظهورهم

المبحث الأول : التعريف بالمنهج والجهاد والنفاق.....	٣٥
المطلب الأول : التعريف اللغوي والاصطلاحي للمنهج.....	٣٥
المطلب الثاني : التعريف اللغوي والاصطلاحي للجهاد.....	٣٦
المطلب الثالث : التعريف اللغوي والاصطلاحي للنفاق.....	٤٠
المبحث الثاني : النفاق وأنواعه وتاريخ ظهوره.....	٤٣
المطلب الأول : من هو المنافق ؟ وما هي أنواع النفاق ؟.....	٤٣
المطلب الثاني : تاريخ ظهور النفاق ، وما هي أسبابه ؟ والهدف العام منه.....	٤٧
المبحث الثالث : آثار النفاق.....	٥٣
المطلب الأول : أضرار النفاق وخطره.....	٥٣
المطلب الثاني : المنافقون أشد خطراً من الكافرين.....	١٣٧
المبحث الرابع : بواعث النفاق ، وكيفية معرفة المنافقين.....	١٤٥
المطلب الأول : بواعث النفاق.....	١٤٥
المطلب الثاني : كيفية معرفة المنافقين في عصر الرسالة ، وأن بعض المنافقين معروف بعينه.....	١٤٦

الفصل الثاني

منهج سياسة المنافقين في عهد النبي ﷺ وكيف جاهدهم ﷺ

- المبحث الأول : منهج المنافقين في مناصرة اليهود ١٥٧
- المطلب الأول : مناصرة المنافقين ليهود بني قينقاع ١٥٧
- المطلب الثاني : مناصرة المنافقين ليهود بني النضير ١٦٢
- المبحث الثاني : منهج المنافقين في خذلان المسلمين في المواقف الصعبة والحرجة ١٦٥
- المبحث الثالث : منهج المنافقين في إثارة فتنة النزعة العشائرية ١٧٣
- المبحث الرابع : منهج المنافقين في استخدام الإشاعة والشعر الإعلامي في محاربة النبي ﷺ ١٨٥
- المطلب الأول : أسلوب الإشاعة ١٨٥
- المطلب الثاني : الشعر الإعلامي ٢١٧
- المبحث الخامس : منهج المنافقين في نقض العهود ، والتحالف مع المشركين ٢٢١
- المبحث السادس : منهج المنافقين في التملق إلى مراكز القوى ٢٤١
- المبحث السابع : منهج المنافقين في الإعراض والصد عن تحكيم الله ورسوله ﷺ ٢٤٥

الفصل الثالث

موقف المنافقين التخريبي ضد النبي ﷺ وجيشه في غزوة تبوك

- تمهيد ٣٣٠
- المبحث الأول : تحالف المنافقين مع اليهود وتخلفهم عن غزوة تبوك ٣٣٣
- المطلب الأول : تحالف المنافقين مع اليهود لتثيبت المسلمين عن الجهاد في غزوة تبوك ٣٣٣
- المطلب الثاني : تخلف المنافقين عن غزوة تبوك ، واعتذارهم بأعدار شتى هي

- أشد قبحاً من التخلف نفسه ٣٣٧
- المبحث الثاني : التخريب داخل الجيش الإسلامي وإيجاد الخلاف ٣٤١
- المطلب الأول : الإرجاف والتخريب داخل الجيش الإسلامي ٣٤١
- المطلب الثاني : محاولة المنافقين إيجاد الخلاف بين النبي ﷺ وأهل بيته الكرام . ٣٤٦
- المبحث الثالث : سخرية المنافقين وحكم عقوبتهم ٤٠٥
- المطلب الأول : سخرية المنافقين واستهزاءهم بالرسول ﷺ ٤٠٥
- المطلب الثاني : سخرية المنافقين بالجيش الإسلامي ٤٠٩
- المطلب الثالث : سخرية المنافقين من المتصدقين على الجيش الإسلامي عام تبوك ٤١٢
- المطلب الرابع : حكم وعقوبة المستهزئين بالله وآياته ورسوله ﷺ والمؤمنين ٤١٨
- المطلب الخامس : صور من استهزاء المنافقين بالدين في عصرنا الحاضر ٤٣٢
- المبحث الرابع : تشكيكهم الناس في صدق النبي ﷺ ومخالفة أمره ومحاولة اغتياله ٤٤٥
- المطلب الأول : تشكيكهم الناس في صدق النبي ﷺ يوم تبوك ٤٤٥
- المطلب الثاني : مخالفة المنافقين أمر النبي ﷺ عام تبوك ٤٥٠
- المطلب الثالث : محاولتهم تمزيق الصف المسلم بينائهم مسجد الضرار ٤٥٤
- المطلب الرابع : محاولة اغتيال النبي ﷺ عند عودته من غزوة تبوك ٤٧٢
- المبحث الخامس : وفاة زعيم المنافقين والأحكام التي نزلت فيهم ونهايتهم في عصر التنزيل .. ٤٨٣
- المطلب الأول : وفاة زعيم المنافقين والأحكام التي برزت في هذه المرحلة ٤٨٣
- المطلب الثاني : خلاصة لأهم سمات منهج النبي ﷺ في جهاد المنافقين ٤٨٩

الفصل الرابع

وسائل وأحكام جهاد المنافقين

المبحث الأول : وسائل جهاد المنافقين	٥١٣
المبحث الثاني : حكم جهاد المنافقين	٥٣١
المبحث الثالث : حكم توبة المنافق والزنديق ، ومتى تقبل توبة أحدهم ؟	٥٤٥
المطلب الأول : معنى كلمة الزنديق والزندقة	٥٤٥
المطلب الثاني : حكم توبة المنافق والزنديق ، ومتى تقبل توبتهما ؟	٥٤٧
المبحث الرابع : جواز قتل المنافقين والزنادقة من غير استنابة بأدلة القرآن والسنة	٥٥١
المبحث الخامس : مجمل صفات المنافقين	٥٥٧
الخاتمة	٥٦٩
قائمة المصادر والمراجع	٥٨١
فهرس محتويات الكتاب	٦٠١